يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق
أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه
عثمان أيوب البوريني
محمد سميح الشيخ حسين

2024

المجلد السابع والعشرون وفيه كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

- بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالىٰ
- بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنىٰ محبة العبد لله تعالىٰ
- بيان أن المستحق للمحبة هو الله تعالىٰ وحده
- بيان أن أجلَّ اللذات وأعلاها معرفةُ الله تعالىٰ والنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأنه لا يُتصور أن يؤثر عليها لذةً أخرىٰ إلا مَن حُرِم هذه اللذة
- بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة علىٰ المعرفة في الدنيا
- بيان الأسباب المقوِّية لحب الله تعالىٰ
- بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
- بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالىٰ
- بيان معنىٰ الشوق إلىٰ الله تعالىٰ
- بيان محبة الله للعبد ومعناها
- بيان معنىٰ الأنس بالله
- بيان معنىٰ الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبةُ الأنس
- بيان القول في معنىٰ الرضا بقضاء الله تعالىٰ وحقيقته وما ورد في فضيلته
- بيان فضيلة الرضا

٣٦ - كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله الذي رفع الحجاب عن قلوب الأحباب، وألهمهم بدوام ذِكره والأنس به والرضا الإصابةَ لمَحَجَّة الصواب، أحمده حمدًا أستوجب به مزيدَ الثواب، وأستزيد به زيادات أولي الألباب. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة موقن بقلبه غير مرتاب، متلذِّذ في دار الوصال برائق الشراب. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله وصفيُّه وخليله، أشرف محبوب وأخص الأحباب، المرسَل بأشرف كتاب، المؤيَّد بفصل الخطاب في أجمل خطاب، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين الأنجاب وأصحابه المكرَّمين الأقطاب وعلىٰ كل تابع لهم بإحسان ما لمع البرقُ وهمل السحابُ، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فهذا شرح كتاب «المحبة والشوق والأنس والرضا»، وهو السادس والثلاثون من كتب الإحياء للإمام الهُمام قطب العلماء الأعلام أبي حامد حُجَّة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي، سقىٰ الله رَمْسه طلاَّت رحمته، وأسبغ

(١) انظر الكلام عن ذلك في: قوت القلوب ٢/ ١٠٠٦ - ١١٦٦. الرسالة القشيرية ص ٣٣٨ - ٣٤٢، ٥١٨ - ٥٣٦. وشرحها إحكام الدلالة ٢/ ٥٨٨ - ٦٠٠، ٨٨٤ - ٩١٩.

علىٰ حظيرته سابغات مغفرته، يسبي لُبَّ مُطالِعه بما تضمَّنه من مَطالع الأسرار، ويذهل فِكرَ مُعانيه بما في مطاويه من معاني مشارق الأنوار، ويفصح عن مكامن إشاراته المرموزة العجيبة، ويسمح بإفشاء أسرار فوائده المستملَحة الغريبة، كشفًا تثبُت به مَحَجَّةُ الصواب، وبيانًا تبتهج به بصائرُ أولي الألباب، مَن رامَ مساومتَه قصدته الحيرةُ والاندهاش، أو سامَ معارضتَه عارضه الذهولُ وطاشَ. فيا لها من مخدَّرات حِسان أبكار، وغَوانٍ لم يطمثهنَّ إنس ولا جان، ومحتجبات في خدور الخيام لم يظفر بوصالهن إلا مَن جفا عن مَضاجِعه أطيب المنام وجدَّ في أثر الأطلاب مع الطلاَّب فنال ما لم يكن له في حساب. ولقد أرخيتُ فيه أعِنَّة الإفصاح مع الاختصار التام، وآثرتُ التخفيف لا التطفيف لئلاَّ تكلُّ عن مطالعته أفهامُ الخواصِّ والعوامِّ، والله تعالىٰ أستعينه فيما أروم وأستهديه، إنه هو القادر المجيب، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وإليه أنيب.

قال المصنِّف رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي نزَّه قلوبَ أوليائه**) هم الموالون بولايته، المحبُّون له لذاته، المستهترون بذكره، المهيمون في محبَّته. ونزَّهها: أي قدَّسها وطهَّرها (**عن الالتفات إلىٰ متاع الدنيا**) هو اسم لِما يستمتع الإنسان به من أعراضها (**ونضرته**)[1] أي زينته وبهجته. والضمير راجع إلىٰ المتاع. وفي بعض النسخ: إلىٰ زخرف الدنيا ونضرته. والزخرف: الزينة، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ [يونس: ٢٤] (**وصفَّىٰ**) من التصفية وهو التخليص (**أسرارَهم**) جمع سِر بالكسر، وهو[2] ألطف من الروح، وهو محل المشاهدة، كما أن الروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة (**عن ملاحظة غير حضرته**) والملاحظة: النظر باللِّحاظ وهو مؤخر العين. وبين «حضرته» و«نضرته» تجانُسٌ (**ثم استخلصها**) أي اتَّخذ تلك الأسرار خالصةً (**للعكوف**) أي الإقبال

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٨/ ٣٦٣: خضرته.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٧٦.

والاقتصار والملازمة (**علىٰ بسائط عزَّته**) وأصل البساط: الأرض الواسعة الأرجاء، والعزَّة: الغلبة الآتية علىٰ كلِّية الظاهر والباطن[١] (**ثم تجلَّىٰ لها**) أي لسرائرهم. وفي نسخة: لهم (**بأسمائه وصفاته**) أي بمعانيها وامتيازها عن الذات بقدر ما يُتصوَّر في حقِّهم، وأصل التجلِّي: ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب (**حتىٰ أشرقت بأنوار معرفته**) وهو السبيل المفتوح للخَلق، وفيه تتفاوت مراتبهم (**ثم كشف لهم عن سبحات وجهه**) أي جلاله وعظمته وبهائه (**حتىٰ احترقت بنار محبَّته**) أشار به إلىٰ الخبر الوارد المتقدم بذكره: «إن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سُبحات وجهه كلَّ ما أدركه بصرُه» (**ثم احتجب عنها بكُنْه جلاله حتىٰ تاهت**) أي حارت (**في بيداء**) أي صحراء (**كبريائه وعظمته، فكلَّما اهتزَّت**) أي تحركت (**لملاحظة كُنْه الجلال غشيها من الدهش**) والحيرة (**ما غبَّر في وجه العقل وبصيرته**) يشير بذلك إلىٰ السبيل المسدود في المعرفة إلا في حق الله تعالىٰ، وهو السبيل الحقيقي الذي قال المصنف في المقصد الأسنىٰ[٢] في حقه: إنه لا يهتز أحدٌ من الخلق لنيله وإدراكه إلا ردَّته سبحاتُ الجلال إلىٰ الحيرة، ولا يشرئبُّ أحد لملاحظته إلا غطىٰ الدهشُ طرفه (**وكلَّما همَّت بالانصراف**) عن تلك الملاحظة حالةَ كونها (**آيسةً**) أي قاطعة أملها في النيل والإدراك (**نوديت من سرادقات الجمال**) وأصل السرادقات: ما يُدار حول الخيمة بلا سقف (**صبرًا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعَجَلته**) فالإنسان خُلِق من عَجَل، وجُبِل بوصف الجهل، وهو وصفٌ له ذاتيٌّ، فبجهله إذا تمكَّن لا يدرك غور الأمور، وبعجلته قد يفوته الفوزُ بالسرور، ولو صبر وتأنَّىٰ لنال ما تمنَّىٰ (**فبقيتْ بين الرد والقبول والصدِّ والوصول غرقَىٰ في بحر معرفته**) غير متنفِّسة ولا غائبة، وهذا هو مقام الفرق من ثمرات المحبة (**ومحترقة بنار محبَّته**) والمحبة فرع من المعرفة، فمَن لم يعرف لم يحبَّ، ولذلك أخَّر ذِكر

---

(١) ذكره البقاعي في نظم الدرر ٢/ ١٦٢ نقلا عن الحرالي.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٥٥.

المحبة بعد المعرفة (**والصلاة**) والسلام (**علىٰ**) سيدنا (**محمد خاتم الأنبياء**) والمرسلين وجودًا، كما أنه فاتحتهم نشأةً (**بكمال نبوَّته**) وتمام رسالته (**وعلىٰ آله وأصحابه سادة الخَلق**) أي رؤسائهم (**وأئمَّته**) الذين يُقتدَىٰ بهم (**وقادة الحق وأزِمَّته**) جمعا قائد وزمام، فالقائد هو رئيس القوم. والزمام: ما تُزَمُّ به الناقة، أي تُحبَس، وهو كالخِطام. أي هم يقودون أهلَ الحق إلىٰ الحق ويزمُّونهم عن الميل إلىٰ ضده (**وسلَّم كثيرًا**).

أما بعد، فإن المحبة لله تعالىٰ هي الغاية القصوىٰ من المقامات، والذروة العليا من الدرجات) وهو الثامن من مقامات اليقين، وعند أبي طالب المكي هو التاسع منها، وذلك لأنه قدَّم ذِكر مقام الرضا علىٰ مقام المحبة، وعكسَه المصنفُ فقدَّم ذِكر المحبة علىٰ مقام الرضا. قال صاحب القوت: المحبة من أعلىٰ مقامات العارفين، وهي إيثار من الله لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم (**فما بعد إدراك المحبة مقام**) أو حال (**إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها**) ممَّا يضاف إليها، فمما يضاف إلىٰ الأنس: القُرب والسكينة والطمأنينة والانبساط والغيرة. ومما يضاف إلىٰ الشوق: الوجد والقلق والدهش والهيمة والتمكين. ولها ثمار أُخَر لا يطَّلع عليها السالك حتىٰ يعثر عليها، فلا مَطمع في الانتهاء. وللمحبة فضلة وهي متضمِّنة أن معرفة الله آكدُ المعارف، فإنه أظهر الموجودات، أولها معرفة خاصة بها، ويضاف إليها الذِّكر والفرق والذوق واللحظ والوقت والصفاء، ولها حقيقة، ويضاف إليها النفس والفرق والغَيبة والسكْر والصحو والفَناء والوجود والجمع والتعظيم (**ولا قبل المحبة مقام**) أو حال (**إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها**) فهي ميراث التوحيد والمعرفة، وبه يظهر سر تأخير المصنف إياها بعد التوحيد (**وسائر المقامات إن عزَّ وجودُها فلم تخْلُ القلوبُ عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالىٰ فقد عزَّ الإيمانُ بها حتىٰ أنكر بعض العلماء إمكانَها وقال: لا معنىٰ لها إلا**

المواظبة علىٰ طاعة الله تعالىٰ) والازدياد من الأعمال لينال به الثوابَ **(وأما حقيقة المحبة فمُحال إلا مع الجنس والمِثل)** وفي نسخة: إلا مع الحس والمثال **(ولمَّا أنكروا)** حقيقة **(المحبة أنكروا)** ثمراتها مثل **(الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه)** وهذا كلام قاصر النظر علىٰ المحسوسات، لا يُلتفَت له، ولا يُرجَع إليه، فإن الإجماع قائم علىٰ أن العلم لذيذ في نفسه، وليس بينه وبين المحسوسات نسبة، وليس للمحبة معنىٰ غير الميل إلىٰ اللذيذ الموافق، كما سيأتي بيانه. ومتىٰ[1] بطلت مسألة المحبة بطلت مقامات الإيمان والإحسان جميعها، وتعطَّلت منازل السير، فإن المحبة روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت، ونسبتها إلىٰ الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص **(ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع)** من الكتاب والسنَّة وإجماع الأمَّة **(في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالىٰ)** وحده **(ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة علىٰ المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوِّية لحب الله تعالىٰ، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالىٰ، ثم بيان معنىٰ الشوق، ثم بيان محبة الله تعالىٰ للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالىٰ، ثم بيان معنىٰ الأنس بالله تعالىٰ، ثم بيان معنىٰ الانبساط في الأنس، ثم القول في معنىٰ الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبِّين متفرقة. فهذا جميع بيانات هذا الكتاب)** وهي خمسة عشر.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٧. بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤٢٠.

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ **(أن الأمّة مجمِعة علىٰ أن الحب لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ فرض)** ثابت بدليل قطعيِّ الثبوت والدلالة **(وكيف يُفرَض ما لا وجود له)**؟! هذا إنكار علىٰ مَن أنكر المحبة أصلاً، وسبب[1] إنكارهم إيَّاها أنهم رأوا أن الحدود لا تزيدها إلا خفاءً، وجميع مَن تكلم فيها إنما هو في أسبابها وجهاتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت علىٰ هذه الستة. ثم ردَّ علىٰ مَن فسَّرها بالطاعة فقال: **(وكيف يفسَّر الحب بالطاعة)** والانقياد لنيل الثواب **(والطاعة تبعُ الحب وثمرته)**؟! فكيف تكون الثمرة حدًّا للمثمر، والتابع حدًّا للمتبوع؟! **(فلا بد وأن يتقدَّم الحب ثم بعد ذلك يطيع مَن أحب)** فعُلِم من ذلك أن تفسيرها بالطاعة تفسيرٌ باللازم وليس بحدٍّ تام، ولا تُحَدُّ بحدٍّ أوضح منها، فحدُّها وجودها، ولا تُحَدُّ بوصف أظهر منها **(ويدل علىٰ إثبات الحب لله تعالىٰ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾)** ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذا الخبر هو متصل بالابتداء في المعنىٰ؛ لأن الله تعالىٰ وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترِض بينهما من الكلام فهو نعت المحبوبين **(وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾)** [البقرة: ١٦٥] وهو إشارة إلىٰ أن الإيمان يحرِّض علىٰ حب الله تعالىٰ ويدعو إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فأبانَ[2] أن اتِّباع نبيِّه ﷺ من موجِبات محبة الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا كان اتِّباع النبي ﷺ إيمانًا وجب أن

---

(١) المدارج ٣/ ١١. البصائر ٢/ ٤١٦.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١/ ٤٩٦.

يكون حب الله الموجِب له إيمانًا (وهو) أيضًا (**دليل علىٰ إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه**) لفظ القوت: وكل مؤمن بالله فهو محب لله تعالىٰ، ولكنَّ محبته علىٰ قدْر إيمانه وكشفِ مشاهدته وتجلِّي المحبوب له علىٰ وصف من أوصافه، دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد والتزام أمرِه وتسليم حكمه، ثم تفاوتهم في مشاهدات التوحيد وفي التزام الأمر وفي تسليم الحكم، فليس ذلك يكون إلا عن محبة، وإن تفاوت المحبون علىٰ حسب أقسامهم من المحبوب، وليس يصغر عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة مَن عرف، ولا يكبر علىٰ التوبة كبيرٌ ولو كان علىٰ كل العلوم قد أُوقِفَ؛ لأن الله تعالىٰ وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ وفي قوله «أشد» دليل علىٰ تفاوتهم في المحبة؛ لأن المعنىٰ: أشد فأشد، ولم يقلْ: شديد الحب لله، فأشبهَ هذا الخطاب قوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] فدلَّ علىٰ أن تفاوتهم في الإكرام علىٰ قدر تفاضُلهم في التقوىٰ، ولم يقل: إن الكرام المتقون. فالمؤمنون متزايدون في الحب لله عن تزايُدهم في المعرفة به والمشاهدة له (**وقد جعل رسول الله ﷺ الحبَّ لله من شرط الإيمان**) بالله (**في أخبار كثيرة؛ إذ قال أبو رزين**) لقيط بن عامر بن المنتفق العامري (**العقيلي**) وافد بني المنتفق[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (**يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: أن يكون الله ورسوله أحب إليك ممَّا سواهما**) قال العراقي[٢]: أخرجه أحمد[٣] بزيادة في أوله، وفيه انقطاع. انتهىٰ.

قلت: لفظ الحديث: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن

---

(١) المنتفق: بطن من عامر بن صعصعة، من العدنانية، وهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. كانت منازلهم الآجام القصيب التي بين البصرة والكوفة، ومنهم أحياء بالمغرب دخلوا مع هلال بن عامر يعرفون بالخلط، كانت مواطنهم بالمغرب الأقصىٰ ما بين فاس ومراكش. من أيامهم في الجاهلية: يوم دهي، ويوم تناهض. معجم قبائل العرب ٣/ ١١٤٤.

(٢) المغني ٢/ ١١٤٥.

(٣) مسند أحمد ٢٦/ ١١٣.

محمدًا عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك ممَّا سواهما، وأن تُحرَق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله، وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله، فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ». قال السيوطي في الجامع الكبير[1] بعد أن ذكره: حسن.

(وفي حديث آخر: لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليه ممَّا سواهما) كذا في القوت. قال العراقي[2]: متفق عليه[3] من حديث أنس بلفظ «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ ...» وذكره بزيادة. انتهىٰ.

قلت: الذي في المتفق عليه من حديث أنس بلفظ: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممَّا سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقَىٰ في النار. ورواه كذلك الطيالسي[4] وأحمد[5] والترمذي[6] والنسائي[7] وابن ماجه[8] وابن حبان[9] والبيهقي في الشعب[10]، كلهم من حديث أنس. ورواه أيضًا البغوي[11] والطبراني[12] والبزار من حديث أبي أمامة. وفي رواية لابن حبان من حديث أنس:

---

(١) الجامع الكبير ٣/ ١٧٩.

(٢) المغني ٢/ ١١٤٥.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٢٢، ٢٣، ٤/ ٩٨، ٢٨٤. صحيح مسلم ١/ ٤٠.

(٤) مسند الطيالسي ٣/ ٤٦٥.

(٥) مسند أحمد ١٩/ ٦١، ١٧٦، ٢٠/ ١٦٧، ١٨١، ٢١/ ٩٧، ٢١٤، ٣٦٧، ٤٥٦.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٣٦٧.

(٧) سنن النسائي ص ٧٥٧.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٠٠.

(٩) صحيح ابن حبان ١/ ٤٧٣ - ٤٧٤.

(١٠) شعب الإيمان ٢/ ٧، ٥٠٢، ٣/ ١٦٧، ١١/ ٣١٩. ورواه أيضا في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٩٢.

(١١) معجم الصحابة ٣/ ٣٨٤.

(١٢) المعجم الكبير ٨/ ٣١٤.

«ثلاثٌ مَن كنَّ فيه [وجد حلاوة الإيمان: مَن] كان الله ورسوله أحب إليه ممَّا سواهما، والرجل يحب القوم لا يحبهم إلا في الله، والرجل إن قُذِف في النار أحب إليه من أن يرجع يهوديًّا أو نصرانيًّا».

(**وفي حديث آخر: لا يؤمن العبد حتىٰ أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين. وفي رواية: ومن نفسه**) قال العراقي[1]: متفق عليه[2] من حديث أنس، واللفظ لمسلم دون قوله «ومن نفسه»، وقال البخاري «من والده وولده». وله[3] من حديث عبد الله بن هشام: قال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي. فقال: «لا، والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك». قال عمر: فأنت الآن واللهِ أحب إليَّ من نفسي. فقال: «الآن يا عمر».

قلت: حديث أنس أخرجه كذلك أحمد[4] وعبد بن حميد[5] والنسائي[6] وابن ماجه[7] والدارمي[8] وابن حبان[9]، ولفظهم: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». وأما حديث عبد الله بن هشام فأخرجه أحمد[10] مختصرًا: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه». وأما تلك القصة فأخرجها البخاري في مناقب عمر وفي الاستئذان وفي النذور عن

---

(١) المغني ٢/ ١١٤٥.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٢. صحيح مسلم ١/ ٤٠.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢١٦.

(٤) مسند أحمد ٢٠/ ٢٠٢، ٢١/ ٣٦٧.

(٥) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢١٨.

(٦) سنن النسائي ص ٧٦١ - ٧٦٢.

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ٩١.

(٨) سنن الدارمي ٢/ ٣٩٧.

(٩) صحيح ابن حبان ١/ ٤٠٦.

(١٠) مسند أحمد ٢٩/ ٥٨٣، ٣١/ ٢٩٢، ٣٧/ ١٨٠.

أبي عقيل زهرة بن معبد عن جدِّه عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذ بيد عمر بن الخطاب ... فذكرها.

(كيف وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ الآية) وتمامها: ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤] فأبان[١] بهذا أن حب الله وحب رسوله والجهاد في سبيله فرض، وأنه لا ينبغي أن يكون شيء سواه أحب إليهم منه **(وإنما أجرىٰ ذلك في معرض التهديد والإنكار)** قال العراقي[٢]: رواه البيهقي في الشعب[٣] عن أبي عبد الله ابن خفيف: دخل البصري علىٰ أبي العباس ابن سُرَيج، فقال له ابن سريج: أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فرض؟ فقال: لا أدري، ولكن يقول القاضي. فقال: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلىٰ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ والوعيد لا يكون إلا علىٰ ترك الفرض.

(وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة) فيما شرعه من الأحكام **(فقال: أحِبُّوا الله لِما يغذوكم به من نِعَمه، وأحِبُّوني لحب الله تعالىٰ إيَّاي)** قال العراقي[٤]: رواه الترمذي[٥] من حديث ابن عباس وقال: حسن غريب.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٥.

(٢) كذا هنا، وهو سبق قلم أو سهو من الشارح، فهذا النص غير موجود عند العراقي؛ لأن شرط العراقي أن لا يخرج إلا الأحاديث المرفوعة.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٩.

(٤) المغني ٢/ ١١٤٥.

(٥) سنن الترمذي ٦/ ١٢٦.

قلت: ورواه كذلك الطبراني[١] والحاكم[٢] والبيهقي[٣] بزيادة: «وأحِبُّوا أهل بيتي [لحبي]».

قال البيهقي في الشعب: قال الحليمي[٤]: وهذا يُحمَل علىٰ أن يكون عامًّا لأنعُمِه كلِّها، وأن يكون اسم الغذاء في الطعام والشراب حقيقةً، ولِما عداهما من التوفيق والهداية ونصبِ أعلام المعرفة وخلقِ الحواس والعقل مجازًا، أو يكون جميع ذلك بالاسم مرادًا، فقد رُوي: «ثلاث مَن كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان». وفي رواية: «ذاق طعم الإيمان»، وإنما يكون الطعم للأغذية وما يجري مَجراها، فإذا جاز وصفُ الإيمان بالطعم جازت تسميته غذاءً، فيدخل الإيمان وجميع نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الحديث.

وقال صاحب القوت عقب إيراد هذا الحديث: فدلَّ ذلك علىٰ فرض الحب لله، وإن تفاضَلَ المؤمنون في نهايات فضائله، ومن أفضل ما أسدَىٰ إلينا من نعمه المعرفةُ به، فأفضل الحب له ما كان عن المشاهدة، والمحبُّون لله علىٰ مراتب من المحبة، بعضها أعلىٰ من بعض، فأشدُّهم حبًّا لله أحسنهم تخلُّقًا بأخلاقه مثل العلم والحلم والعفو وحُسن الخُلق والستر علىٰ الخلق، وأعرفُهم بمعاني صفاته أتركُهم منازعةً له في معاني الصفات كي لا يشركوه فيها مثل الكبر وحب [المدح وحب] الغِنىٰ والعز وطلبِ الذِّكر، ثم أشدُّهم حبًّا لرسوله - إذ كان حِب الحبيب - أتبعُهم لآثاره وأشبهُهم هديًا بشمائله.

(و) قد (**رُوي أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحبك. فقال ﷺ: استعِدَّ للفقر**.

---

(١) المعجم الكبير ٣/ ٣٩، ١٠/ ٣٤٢.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ١٧٥.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ١١، ٥٠٤.

(٤) المنهاج ١/ ٤٩٧.

فقال: إني أحب الله. فقال: استعِدَّ للبلاء) هكذا هو في القوت. قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] من حديث عبد الله بن مغفَّل بلفظ «فأعِدَّ للفقر تجفافًا» دون آخر الحديث، وقال: حسن غريب.

قلت: لفظ الترمذي: «إن كنت تحبني فأعِدَّ للفقر تِجْفافًا، فإن الفقر أسرع إلىٰ مَن يحبني من السيل إلىٰ منتهاه». وقد رواه كذلك أحمد والطبراني والبيهقي[٣]. وقد رُوي ذلك من حديث أبي هريرة وأبي ذر، فحديث أبي هريرة لفظه: «إن كنت تحبني فاتَّخِذْ للبلاء تجفافًا، فوالذي نفسي بيده لَلبلاءُ أسرعُ إلىٰ مَن يحبني من الماء الجاري من قُلَّة الجبل إلىٰ حضيض الأرض، اللهم فمَن أحبَّني فارزقْه العفاف والكفاف، ومَن أبغضني فأكثِرْ ماله وولده». رواه البيهقي في الشعب[٤] وفي الزهد وضعَّفه وابن عساكر[٥]. وأما حديث أبي ذر فلفظه: «إن كنت تحبنا فأعِدَّ للفقر تجفافًا، فإن الفقر أسرع إلىٰ مَن يحبنا من السيل من أعلىٰ الأَكَمة إلىٰ أسفلها». رواه الحاكم[٦].

وقال صاحب القوت بعد أن ذكر الحديث: والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبتلِي وهو الله تعالىٰ المبتلِي، فلمَّا ذكر محبته أخبره بالبلاء ليصبر علىٰ أخلاقه، كما قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدثر: ٧] فدلَّ علىٰ أحكامه وبلائه، والفقر من أوصاف رسول الله ﷺ، فلمَّا ذكر محبته دلَّه علىٰ اتِّباع أوصافه ليقتفي آثارَه؛ لقوله ﷺ: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتْني مسكينًا، واحشرْني في جملة المساكين».

---

(١) المغني ٢/ ١١٤٦.
(٢) سنن الترمذي ٤/ ١٧٠.
(٣) شعب الإيمان ٣/ ٦٢.
(٤) السابق ٣/ ٦٣ - ٦٤.
(٥) تاريخ دمشق ٤/ ١١٥ - ١١٦.
(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٧.

(**وعن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: نظر النبي ﷺ إلىٰ مصعب بن عُمَير**) بن[١] هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار العبدري، أحد السابقين إلىٰ الإسلام، أسلم والنبي ﷺ في دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، فعلم عثمانُ بن طلحة فأعلمَ أهلَه، فأوثقوه، فلم يزل محبوسًا إلىٰ أن هرب مع مَن هاجر إلىٰ الحبشة، ثم رجع [مع مَن رجع] إلىٰ مكة، فهاجر إلىٰ المدينة، وشهد بدرًا، ثم أحدًا ومعه اللواء، فاستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (**مقبلاً وعليه إهاب كبش**) أي جلده (**قد تنطَّقَ به**) أي جعله كهيئة النطاق (**فقال النبي ﷺ: انظروا إلىٰ هذا الرجل الذي نوَّر الله قلبَه، لقد رأيتُه بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلىٰ ما ترون**) قال العراقي[٢]: رواه أبو نعيم في الحلية[٣] بإسناد حسن.

قلت: رواه عن أبي عمرو ابن حمدان، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا إبراهيم الحوراني، حدثنا عبد العزيز بن عمير، حدثنا زيد بن أبي الزرقاء، حدثنا جعفر ابن برقان، عن ميمون بن مهران، عن يزيد بن الأصم، عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبي ﷺ إلىٰ مصعب بن عمير ... فذكره.

وذكر محمد بن إسحاق[٤] عن صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد ابن أبي وقاص قال: كان مصعب بن عمير أنعم غلام بمكة وأجوده حُلَّة مع أبويه.

وأخرج الترمذي[٥] بسند فيه ضعفٌ عن عليٍّ قال: رأىٰ رسول الله ﷺ

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٩/ ٢٠٨ - ٢٠٩. الاستيعاب ٢/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) المغني ٢/ ١١٤٦.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٠٨.

(٤) السير والمغازي ص ١٩٣ (ط - دار الفكر).

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٢٥٨، وفيه: «إنا لجلوس مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكىٰ للذي كان فيه من النعمة والذي هو اليوم فيه».

مصعب ابن عمير، فبكىٰ للذي كان فيه من النعمة ولِما صار إليه.

(**وفي الخبر المشهور: إن إبراهيم عليه السلام قال لملَك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيتَ خليلاً يميت خليلَه؟ فأوحىٰ الله إليه: هل رأيت محبًّا يكره لقاءَ حبيبه؟ فقال: يا ملَك الموت، الآن فاقبِضْ**) هكذا هو في القوت. قال العراقي[١]: لم أجد له أصلاً.

قلت: وكأنَّه من الإسرائيليات[٢].

(**وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبُه إليه، ولم يكن له محبوب غيره حتىٰ يلتفت إليه**) ولفظ القوت بعد قوله «بكل قلبه»: عندها يشتاق إليه مولاه، فينزعج القلب لشوق الغيب فيحب لقاءه (**وقد قال نبيُّنا ﷺ في دعائه: اللهم ارزقني حبك، وحب مَن أحبك، وحب ما يقرِّبني إلىٰ حبك، واجعلْ حبك أحب إليَّ من الماء البارد**) رواه أبو نعيم في الحلية[٣] من حديث أبي الدرداء بلفظ: «اللهم إني أسألك حبك، وحب مَن يحبك، والعملَ الذي يبلِّغني إلىٰ حبك، اللهم اجعلْ حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد». وقد تقدم في كتاب الدعوات. وروىٰ البيهقي في الشعب[٤] عن مالك بن دينار قال: بلغنا أن داود عليه السلام كان يقول في دعائه: اللهم اجعلْ حبك أحب إليَّ من سمعي وبصري ومن الماء البارد.

(**وجاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متىٰ الساعة؟ قال: ما أعددتَ لها؟ قال: ما أعددتُ لها كبيرَ صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال له**

---

(١) المغني ٢/ ١١٤٦.

(٢) وقد رواه جعفر الخلدي في كتاب الفوائد والزهد ص ٢٩ (ط - دار الصحابة للتراث) عن ابن عباس. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٩ عن دكين الفزاري.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٤) شعب الإيمان ٢/ ١٦.

رسول الله ﷺ: المرء مع مَن أحب. قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك) قال العراقي[١]: متفق عليه[٢] من حديث أنس ومن حديث أبي موسىٰ وابن مسعود بنحوه.

قلت: حديث أنس رواه أيضًا مالك في رواية معن وأبو بكر بن أبي شيبة[٣] وأحمد[٤] وأبو داود[٥] والترمذي[٦]، وفي لفظ للترمذي بزيادة «وأنت مع مَن أحببتَ»، وقال: صحيح. ورواه البيهقي[٧] بزيادة: «وله ما اكتسب»، وقال: غريب. وأما حديث ابن مسعود فرواه الشيخان. وأما حديث أبي موسىٰ فرواه أحمد[٨] والشيخان والقشيري في رسالته قال: حدثنا ابن فورك، حدثنا [القاضي أحمد بن محمود بن خرزاذ، حدثنا] الحسن بن حمَّاد بن فضالة، حدثنا يحيىٰ ابن حبيب، حدثنا مرحوم بن عبد العزيز، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن أبي موسىٰ الأشعري أن النبي ﷺ قيل له: الرجل يحب القوم ولمَّا يلحق بهم. فقال: «المرء مع مَن أحب». وقد رُوي ذلك من حديث أبي ذر وجابر وعروة بن مضرس وصفوان بن عسَّال وصفوان بن قدامة وابنه عبد الرحمن ومعاذ، فحديث أبي ذر رواه ابن منيع وأبو نعيم والضياء[٩]. وحديث جابر رواه عبد بن حميد[١٠]

---

(١) المغني ٢/ ١١٤٦.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٦، ٤/ ١٢٢، ١٢٣، ٣٣١. صحيح مسلم ٢/ ١٢١٨ - ١٢١٩.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٤٤.

(٤) مسند أحمد ١٩/ ٧١ وفي مواضع أخرىٰ كثيرة.

(٥) سنن أبي داود ٥/ ٤٠٧.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ١٩٣ - ١٩٤.

(٧) شعب الإيمان ٢/ ٣٦، ٤٨، ٥٠٤، ٣/ ٩٣. وليس فيه الزيادة المذكورة، وإنما هي عند الترمذي.

(٨) مسند أحمد ٣٢/ ٢٤٨، ٢٩٢، ٣٠١، ٣٢٦، ٤٠٢.

(٩) وكذلك أبو داود في سننه ٥/ ٤٠٧، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٣١٦، وأحمد في مسنده ٣٥/ ٣٦٧.

(١٠) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٥٢.

وأبو عوانة. وحديث عروة بن مضرِّس رواه الطبراني في الكبير[١] والشيرازي في الألقاب وابن عساكر[٢]. وحديث صفوان بن عسَّال رواه الطيالسي[٣] وأحمد[٤] والترمذي[٥] - وقال: حسن صحيح - وابن خزيمة والطبراني[٦] وابن حبان[٧] والضياء[٨]. وحديث صفوان بن قُدامة رواه أبو عوانة وابن قانع[٩] والطبراني[١٠] وابن حبان. وحديث عبد الرحمن بن صفوان - وهو صحابي صغير - رواه الطبراني في الكبير. وحديث معاذ رواه الطبراني[١١] أيضًا.

(وقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: مَن ذاق من خالص محبة الله تعالىٰ شغله ذلك عن طلب الدنيا، وأوحشه عن جميع البشر)[١٢].

وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(مَن عرف ربَّه أحبه، ومَن عرف الدنيا زهد فيها)** فالمحبة والزهد من ثمرات المعرفة، قال: **(والمؤمن لا يلهو حتىٰ يعقل، فإذا تفكَّرَ حزنَ)**[١٣].

---

(١) المعجم الكبير ١٧/ ١٥٤.

(٢) تاريخ دمشق ٤٣/ ٥٦٣.

(٣) مسند الطيالسي ٢/ ٤٨٦ - ٤٨٧.

(٤) مسند أحمد ٣٠/ ١١، ٢٤.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ١٩٥، ٥/ ٥٠٥ - ٥٠٦.

(٦) المعجم الكبير ٨/ ٦٥ - ٨٠.

(٧) صحيح ابن حبان ٢/ ٣٢٢، ٤/ ١٥٠.

(٨) الأحاديث المختارة ٨/ ٣٤ - ٣٧.

(٩) معجم الصحابة ٢/ ١٥.

(١٠) المعجم الكبير ٨/ ٨٦.

(١١) السابق ٢٠/ ٧٤.

(١٢) أخرجه الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٥٩.

(١٣) رواه أحمد في الزهد ص ٢٢٦، وابن أبي الدنيا في كتاب الهم والحزن ص ٧٠. وروىٰ ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٩٨ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٠٨ مثله عن بديل بن ميسرة. وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٧٨ عن بديل بن ميسرة أو مطر الوراق، علىٰ الشك.

وقال أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالىٰ: (إن من خلق الله خلقًا ما تشغلهم الجنانُ وما فيها من النعيم عنه، فكيف يُشغَلون عنه بالدنيا)[١]؟ نقله صاحب القوت.

(ويُروَىٰ أن عيسىٰ عليه السلام مرَّ) في سياحته (بثلاثة نفر) من العُبَّاد (قد نحلت أبدانُهم) أي ضعفت (وتغيَّرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ) من النحول والتغيُّر؟ (فقالوا: الخوف من النار. فقال: حقٌّ علىٰ الله أن يؤمِّن الخائفَ) ممَّا يخاف (ثم جاوزهم إلىٰ ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولاً وتغيُّرًا) من أولئك (فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟ فقالوا: الشوق إلىٰ الجنة. فقال: حقٌّ علىٰ الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلىٰ ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولاً وتغيُّرًا) من أولئك (وكأنَّ علىٰ وجوهم المَرائي من النور) أي تلمع وجوهُهم إضاءةً كإضاءة المَرائي (فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرىٰ؟ قالوا: نحب الله عز وجل) لم نعبده خوفًا من ناره، ولا شوقًا إلىٰ جنَّته (فقال: أنتم المقرَّبون، أنتم المقربون، أنتم المقربون)[٢] نقله صاحب القوت بلفظ: وقد احترقوا من العبادة كأنَّهم الشِّنان البالية، فقال لهم: ما أنتم؟ فقالوا: نحن عُبَّاد. قال: فلأيِّ شيء تعبَّدتم؟ فقالوا: خوَّفنا اللهُ من ناره فخِفنا منها.

(وقال عبد الواحد بن زيد) البصري العابد: (مررت برجل قائم في الثلج) في يوم بارد (فقلت) له: (أما تجد البردَ) فتنتقل عنه؟ (فقال: مَن شغله حبُّ الله لم يجد البرد.

و) يُروَىٰ (عن سري) بن المغلس (السقطي) رحمه الله تعالىٰ (قال: تُدعَىٰ الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال: يا أمَّة موسىٰ، ويا أمَّة عيسىٰ، ويا أمَّة

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٧٦، ١٠/ ١٨، والقاضي عبد الجبار الخولاني في تاريخ داريا ص ١١٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٤٣.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٧ عن إسحاق بن خلف الكوفي.

محمد) ﷺ **(غير المحبين لله فإنهم ينادَون: يا أولياء الله، هلمُّوا إلىٰ الله سبحانه. فتكاد قلوبهم تنخلع فرحًا)** حيث خوطِبوا بذلك الخطاب.

(وقال هرم بن حيَّان) العبدي، قال ابن عبد البر[1]: هو من صغار الصحابة. وعدَّه ابن أبي حاتم في الزهَّاد الثمانية من كبار التابعين[2] **(المؤمن إذا عرف ربَّه** عَزَّوَجَلَّ **أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه)** برحمته **(وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلىٰ الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلىٰ الآخرة بعين الفترة، وهي تحسِّره في الدنيا وتروِّحه في الآخرة.**

وقال يحيىٰ بن معاذ) الرازي رحمه الله تعالىٰ: **(عفوه)** تعالىٰ **(يستغرق الذنوبَ فكيف رضوانه، ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه، وحبه يدهش العقولَ فكيف وده، ووِدُّه يُنسِي ما دونه فكيف لطفه.**

وفي بعض الكتب) المنزلة: أن الله تعالىٰ يقول: **(عبدي، أنا وحقك لك محب، فبحقِّي عليك كنْ لي محبًّا)** قال القشيري: رأيت ذلك بخط الأستاذ أبي علي رحمه الله تعالىٰ. يعني الدَّقَّاق.

(وقال يحيىٰ بن معاذ) الرازي رحمه الله تعالىٰ: **(مثقال خردلة من الحب أحب إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حب)** نقله القشيري في الرسالة.

(وقال يحيىٰ بن معاذ) أيضًا في جملة ما كان يخاطب به مولاه: **(إلهي، إني مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيرًا أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقَّلتني في الأحوال، وقلَّبتني في الأعمال سترًا وتوبة وزهدًا وشوقًا ورضا وحبًّا، تسقيني من حياضك، وتهملني في رياضك، ملازمًا لأمرك،**

---

(١) الاستيعاب ٢/ ٣٢١.

(٢) في كتاب له بهذا الاسم، وهم: عامر بن عبد الله، وأويس القرني، وهرم بن حيان، والربيع بن خثيم، وأبو مسلم الخولاني، والأسود بن يزيد، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع.

ومشغوفًا بقولك، ولمَّا طرَّ شاربي) أي بقل **(ولاح طائري، فكيف أنصرف عنك اليوم كبيرًا وقد اعتدتُ هذا منك صغيرًا، فلي ما بقيتُ حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة)** والدندنة: الحركة الخفيَّة، والهمهمة: الصوت الخفيُّ **(لأني أحبك، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف)** وله مثل هذا الكلام في الرجاء، وكانت وفاته سنة ٢٥٨.

(وقد ورد في حب الله تعالىٰ من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه، فلنشتغل به) فإنه أكيد. والله الموفِّق.

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ **(أن المَطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها)** الجالبة لها **(ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالىٰ، فأول ما ينبغي أن)** يُعلَم أن[(١)] هذه المادة تدور علىٰ خمسة أشياء، أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قيل: حَبَبُ الأسنان، لبياضها ونضارتها. الثاني: العلو والظهور، ومنه: حَبَبُ الماء وحَبابه وهو ما يعلوه من النفاخات عند المطر، وحبب الكأس منه. الثالث: اللزوم والثبات، ومنه: حبَّ البعيرُ وأحبَّ: إذا برك فلم يقُمْ. الرابع: اللُّباب والخلوص، ومنه: حبة القلب، للبِّه وداخله، ومنه: الحبة، لواحدة الحبوب؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه. الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه: حُبُّ الماء، للوعاء الذي يُحفَظ فيه ويمسكه، وفيه معنىٰ الثبوت أيضًا. ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودَّة وهيجان إرادة القلب [للمحبوب] وعلوها وظهورها منه لتعلُّقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ولزومها لزومًا لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبَّه وأشرفَ ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه علىٰ محبوبة، فاجتمعت فيها المعاني الخمسة، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمَّىٰ غاية المناسَبة: الحاء التي هي من أقصىٰ الحلق، والباء للشفة التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء. وهذا شأن المحبة وتعلُّقها بالمحبوب، فإنَّ ابتداءها منه، وانتهاءها إليه، وأعطوا «الحُب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقةً لشدة حركة مسمَّاه وقوتها، وأعطوا «الحِب» - وهو المحبوب - حركة الكسر، وذلك لخفَّة ذِكر المحبوب علىٰ قلوبهم وألسنتهم مع إعطائه حكم

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١١ - ١٣. بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤١٦ - ٤١٨.

نظائره كـ «نِهْب» و«ذِبْح» للمنهود والمذبوح. فتأملْ هذه المطابقة والمناسبة العجيبة بين اللفظ والمعنىٰ يطلعك علىٰ قدْر هذه اللغة الشريفة وإن لها لَشأنًا ليس كسائر اللغات. ثم ينبغي بعد معرفة ذلك أن (**يتحقَّق أنه لا تُتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك؛ إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه**) وما لا يعرفه كيف يحبه؟ (**ولذلك لم يُتصور أن يتَّصف بالحب جمادٌ، بل هو من خاصِّية الحي المدرِك**) هذا قول الأكثرين، وكان سُمنون يقدِّم المحبةَ علىٰ المعرفة، كما نقله القشيري، أي لكمال شغل العارف بمعروفه واستغراقه في مناجاته حتىٰ يفنىٰ عن نفسه، والمحبون تبقىٰ معهم بقايا يتنعَّمون فيها بمحبوبهم. وكلٌّ من القولين صحيح باعتبار التوجيهين، وقد أشار القشيري إلىٰ ترجيح قول سمنون حيث قال: وعند محقِّقيهم المحبة استهلاك في لذَّة، والمعرفة شهود في حيرة، وفناء في هيبة. فتأملْ (**ثم المدرَكات في انقسامها تنقسم إلىٰ ما يوافق طبعَ المدرِك ويلائمه ويلذُّه، وإلىٰ ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلىٰ ما لا يؤثِّر فيه بإيلام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذةٌ وراحة فهو محبوب عند المدرِك، وما في إدراكه ألمٌ فهو مبغوض عند المدرِك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة فلا يوصَف بكونه محبوبًا ولا مكروهًا. فإذًا كل لذيذ محبوب عند الملتذِّ به، ومعنىٰ كونه محبوبًا أنَّ في الطبع ميلاً إليه، ومعنىٰ كونه مبغوضًا أن في الطبع نفرةً عنه، فالحب عبارة عن ميل الطبع إلىٰ الشيء الملَذِّ، فإن تأكَّد ذلك الميلُ وقويَ سُمِّي عشقًا، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعِب، فإذا قويَ سُمِّي مقتًا**) وهذا قد صرَّح به أئمَّة اللغة، قالوا: العشق أشد الحب، والمقت أشد البغض. ثم إن العشق هو سابع مرتبة من مراتب الحب؛ إذ[1] مراتب الحب عشرة: أولها العلاقة. ثم الإرادة. ثم الصَّبابة. ثم الغرام، وهو حب لازم للقلب ملازمةَ الغريم لغريمه. ثم الود، وهو صفو المحبة وخالصها ولُبُّها. ثم الشغف، وهو وصول الحب إلىٰ شَغاف قلبه، وهو جلدة رقيقة علىٰ القلب. ثم العشق، وهو الحب المفرط الذي

---

(١) المدارج ٣/ ٢٩ - ٣٣. البصائر ٢/ ٤٢٠ - ٤٢١.

يُخاف علىٰ صاحبه منه، وبه فُسِّر ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ثم التتيُّم، وهو التذلُّل في الحب، ثم التعبُّد، وهو فوق التتيُّم، فإن العبد هو الذي ملكَ المحبوبُ رِقَّه فلم يبقَ له شيء من نفسه ألبتَّة، بل كلُّه لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا. والمرتبة الآخرة: الخُلَّة التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم، وهي المحبة التي تخلَّلت [روحَ المحب و] قلبَه حتىٰ لم يبقَ فيه موضعٌ لغير محبوبه (**فهذا أصل في حقيقة معنىٰ الحب لا بد من معرفته**) وهو الأول.

(**الأصل الثاني: أن الحب لمَّا كان تابعًا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدرَكات والحواس، فلكل حاسَّة**) من الحواس الخمس (**إدراك لنوع من المدرَكات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدرَكات**) دون بعض (**وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها، فكانت**) تلك المدرَكات (**محبوبات عند الطبع السليم**) عن النقص (**فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصَرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلَذَّة**) فهي لا تكاد تفتر عن النظر إليها (**ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة**) والألحان المستملَحة، فلها تعشُّقٌ في ذلك ولو كانت تلك النغمات من غير جميل الصورة، وقد تكون مع جمال الصورة فيلتذُّ كلٌّ من العين والبصر، ومن ذلك سماعُ محاسن الأوصاف من رجل لم يقع عليه البصرُ، وإليه الإشارة بقول القائل(١):

* والأذن تعشق قبل العين أحيانا *

(**ولذة الشم في الروائح الطيبة**) الزكيَّة مثل المسك والعود والعنبر وأشباهها (**ولذة الذوق في الطعوم**) الطيبة (**ولذة اللمس في اللِّين والنعومة. ولمَّا كانت هذه المدرَكات بالحواس ملَذَّة كانت محبوبة، أي كان للطبع السليم ميلٌ إليها،**

---

(١) هو بشار بن برد، وتمام البيت:

أذني لبعض صفات الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقد تقدمت قصة هذا الشعر في كتاب الأذكار والدعوات.

حتىٰ قال رسول الله ﷺ: حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطِّيب والنساء، وجُعِلت قرَّة عيني في الصلاة) رواه النسائي من طريق سلام أبي المنذر عن ثابت عن أنس بلفظ: «حُبِّب إليَّ من الدنيا النساء والطِّيب، وجُعِلت قرَّة عيني في الصلاة». وليس فيه لفظ «ثلاث». ومن هذا الوجه أخرجه أحمد وأبو يعلىٰ وأبو عوانة والطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن وآخرون. وقد تقدم الكلام عليه في كتاب النكاح وكتاب ذم الدنيا. وهذا موضع ثالث، فقول السخاوي في المقاصد «إنه رواه في الإحياء في موضعين»[1] قصورٌ عن تصفُّح الكتاب **(فسمَّىٰ الطِّيب محبوبًا، ومعلوم أنه لا حظَّ للعين والسمع فيه، بل للشم فقط. وسمَّىٰ النساء محبوبات، ولا حظَّ فيهن إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع. وسمَّىٰ الصلاة قرَّة عين، وجعلها أبلغ المحبوبات)** بدليل إفرادها في جملة مستقلَّة **(ومعلوم أنه ليس تحظىٰ بها الحواسُّ الخمس، بل حسٌّ سادس)** زائد علىٰ الخمس **(مَظَنَّته القلب، لا يدركه إلا مَن كان له قلب)** وقد يكون الإنسان بلا قلب **(ولذَّات الحواس الخمس تشارك فيها البهائمُ الإنسان)** فإنَّ لها إدراكًا، لكنه قاصر عليها **(فإن كان الحب مقصورًا علىٰ مدرَكات الحواس الخمس حتىٰ يقال إن الله تعالىٰ لا يُدرَك بالحواس ولا يتمثَّل في الخيال فلا يُحَب)** كما زعمه المنكرون لمحبة العبد لله تعالىٰ **(فإذًا قد بطلت خاصِّية الإنسان وما يميَّز به من الحس السادس الذي يعبَّر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب، أو بما شئتَ من العبارات، فلا مُشاحَّة فيها)** أي لا مضايقة، وهو مفاعَلة من الشح، وقد فُسِّر قوله تعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] تارة بالعقل، وتارة بالنور المنبسط في القلب، والأول أكثر، وبه[2] يتميَّز عن درجة البهائم، فإنه به يكمُل فعلُه؛ لأنه يدعو إلىٰ أفعال مخالِفة لمقتضَىٰ الشهوة والغضب، بخلاف

(١) عبارة السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٨٠: «وأما ما استقر في هذا الحديث من زيادة (ثلاث) فلم أقف عليها إلا في موضعين من الإحياء».

(٢) من هنا إلىٰ قوله (في إدراكها نقصا) مأخوذ عن المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٤٥ بتصرف.

البهائم ففي فعلها نقصٌ؛ لكونه مقصورًا علىٰ مقتضاهما، كما أن في إدراكها نقصًا **(وهيهات! فالبصيرة الباطنة أقوىٰ من البصر الظاهر)** فإنها[١] هي القوة المنوَّرة بنور القدس، تُرَىٰ بها حقائق الأشياء وبواطنها، وهي التي تسمَّىٰ بالقوة القُدسية، وأما البصر الظاهر فهو للنفس ترىٰ به صور الأشياء وظواهرها **(والقلب)** المنوَّر بالنور القدسي **(أشد إدراكًا من العين، وجمال المعاني المدرَكة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجلُّ عن أن تدركها الحواسُّ أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوىٰ، ولا معنىٰ للحب إلا الميل إلىٰ ما في إدراكه لذة، كما سيأتي تفصيله، فلا يُنكِر إذًا حب الله تعالىٰ إلا مَن قعد به القصورُ في درجة البهائم فلم يجاوز إدراكَ الحواس أصلاً)** وقد أفصح المصنِّف عن هذا المقام في كتابه مشكاة الأنوار[٢] فقال: اعلم أن نور البصر موسوم بأنواع من النقصان، فإنه يبصر غيرَه، ولا يبصر نفسَه، ولا يبصر ما بعُدَ منه ولا ما قرُب، ولا يبصر ما هو وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها، ويبصر من الموجودات بعضَها دون كلِّها، ويبصر أشياء متناهية، ولا يبصر ما لا نهاية له، ويغلط كثيرًا في إبصاره، فيرىٰ الكبير صغيرًا، ويرىٰ البعيد قريبًا، والساكن متحركًا، والمتحرك ساكنًا. فهذه سبع نقائص لا تفارق العينَ الظاهرة. وفي قلب الإنسان عينٌ هذه صفة كمالها، وهي التي يعبَّر عنها تارةً بالعقل، وتارة بالروح، وتارة بالنفس الإنساني. ودَعْ عنك هذه العبارات، فإنها إذا كثرت أوهمتْ عند الضعيف البصيرة كثرةَ المعاني، فنعني به المعنىٰ الذي يتميَّز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون، ولنسمِّه عقلاً متابعةً للجمهور في الاصطلاح، فنقول: العقل أَولىٰ بأن يسمَّىٰ نورًا من العين الظاهرة؛ لرفعة قدرِه عن النقائص السبع:

---

(١) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ٦٤. التعريفات للجرجاني ص ٤٧.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٤٥ - ٥٠.

أما الأولىٰ: فهو أن العين لا تبصر نفسَها، والعقل يدرك غيرَه، ويدرك نفسه، ويدرك صفات نفسه، ويدرك علم نفسه، بل علمه [بعلم نفسه وعلمه بعلمه] بعلم نفسه .. إلىٰ غير نهاية. وهذه خاصِّية لا تُتصور لِما يُدرَك بآلة الأجسام(١).

الثانية: أن العين لا تبصر ما بعُدَ منها ولا ما قرُبَ [منها] قربًا مفرطًا، والعقل يستوي عنده القريب والبعيد، ويعرج في طرفة إلىٰ أعلىٰ السموات رقيًّا، وينزل في لحظة إلىٰ تخوم الأرضين هويًّا.

الثالثة: أن العين لا تدرك إلا ما ليس وراء الحجاب، والعقل يتصرَّف فيما وراء حُجُب السموات وفي الملأ الأعلىٰ كتصرُّفه في عالَمه الخاص به، بل الحقائق لا تُحجَب عن العقل، وإنما حجاب العقل حيث يحجب من نفسه لنفسه بسبب صفات هي مقارِنة له تضاهي حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان.

الرابعة: أن العين تدرك من الأشياء ظاهرَها وسطحها الأعلىٰ دون باطنها، بل قوالبها وصورها دون حقائقها، والعقل يتغلغل إلىٰ بواطن الأشياء وأسرارها، ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلَّتها [وغايتها] وحكمتها، وأنها مِمَّ حدثت(٢)، وكيف خُلِقت، ولِمَ خُلِقت [ومن كم معنىٰ جُمِع الشيء ورُكِّب] وعلىٰ أيِّ مرتبة في الوجود نُزِل، وما نسبته [إلىٰ خالقه، وما نسبته] إلىٰ سائر مخلوقاته.

الخامسة: أن العين تبصر بعض الموجودات؛ إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات، ولا تدرك الأصوات ولا الروائح ولا الطعوم والحرارة والبرودة والقوىٰ المدرِكة، أعني قوة السمع والبصر والشم والذوق، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم ... إلىٰ غير ذلك من موجودات لا تُحصَىٰ، فهو

---

(١) قال الغزالي بعده: ووراءه سر يطول شرحه.

(٢) في ط المشكاة ص٤٥ (ت: أبو العلا عفيفي): مم خلقت.

ضيِّق المجال، منحصر المَجرىٰ، لا تسعه مجاوزةُ عالَم الألوان والأشكال وهما أخسُّ الموجودات، فإن الأجسام في أصلها أخسُّ أقسام الموجودات، والألوان والأشكال من أخسِّ أعراضها. والموجودات كلها مجال للعقل، فيتصرَّف في جميعها، ويحكم عليها حكمًا يقينيًّا صادقًا، فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة، والمعاني الخفيَّة عنده جليَّة، فمن أين للعين الظاهرة مجاراته ومساواته؟

السادسة: أن العين لا تبصر ما لا نهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام، والأجسام لا تُتصوَّر إلا متناهية. والعقل يدرك المعقولات، والمعقولات[1] لا يُتصوَّر أن تكون متناهية، بل يدرك علمه بالشيء وعلمه [بعلمه] بعلمه بالشيء، فقوَّته في هذا الوجه لا تقف عند نهاية.

السابعة: أن العين تبصر الكبير صغيرًا، فترىٰ الشمس في مقدار صحن، والكواكب في صور دنانير منثورة علىٰ بساط أزرق. والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة. و[العين] ترىٰ الكواكب ساكنة، بل ترىٰ الظل بين يديه ساكنًا، وترىٰ الصبيَّ ساكنًا في مقداره. والعقل يدرك أن الصبي [متحرك] في النمو والتزايُد علىٰ الدوام، والظل متحرك دائمًا، والكواكب تتحرك في كل لحظة أميالاً كثيرة.

وأنواع غلط البصر كثيرة، والعقل منزَّه عنها.

فإن قلت: نرىٰ العقلاء يغلطون في نظرهم. فاعلمْ أن فيهم خيالات وأوهامًا واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل، فالغلط منسوب إليها، فأما العقل إذا تجرَّد عن غشاوة الوهم والخيال لم يُتصوَّر أن يغلط، بل يرىٰ الأشياء علىٰ ما هي عليه. انتهىٰ المقصود منه.

(**الأصل الثالث: أن الإنسان لا يخفَىٰ أنه يحب نفسه**) أي يميل إليها بالطبع

---

(١) في ط المشكاة: المعلومات. في كليهما.

والضرورة (ولا يخفىٰ أنه قد يحب غيرَه لأجل نفسه) لا لذاته (وهل يُتصوَّر أن يحب غيرَه لذاته لا لأجل نفسه. هذا ممَّا قد يشكل علىٰ الضعفاء حتىٰ يظنوا أنه لا يُتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظٌّ إلىٰ المحب سوىٰ إدراك ذاته، والحق أن ذلك متصوَّر وموجود، فلنبيِّن أسباب المحبة وأقسامها. وبيانه: أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته، ومعنىٰ حبه لنفسه أنَّ في طبعه ميلاً إلىٰ دوام وجوده، ونفرةً عن عدمه وهلاكه، فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل، لا لمجرَّد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرَّد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختُطِف من غير ألم) يلحقه (وأُميتَ من غير ثواب ولا عقاب لم يرضَ به، وكان كارهًا لذلك، و) إذا فُرِض أنه أحب الموتَ فإنه (لا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألمٍ في الحياة) لا يجد له دفعًا (ومهما كان مبتلًىٰ ببلاء فمحبوبه زوالُ البلاء) عنه (فإن أحب العدم) لذلك (لم يحبَّه لأنه عدم، بل لأن فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت) أي مبغوض (ودوام الوجود محبوب، وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضًا محبوب؛ لأن الناقص فاقدٌ للكمال، والعدم نقصٌ بالإضافة إلىٰ القدْر المفقود، وهو هلاك بالنسبة إليه، والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود، كما أنه ممقوت في أصل الذات، ووجود صفات الكمال محبوب، كما أن دوام أصل الوجود محبوب، وهذه غريزة في الطباع) لا تتخلَّف عنها (بحكم سنَّة الله تعالىٰ) التي خلتْ في عِباده (ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً. فإذًا المحبوب الأول للإنسان ذاته، ثم سلامة أعضائه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه، فالأعضاء محبوبة، وسلامتها مطلوبة؛ لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها) وفقدُها - ولو بعضها - يفضي للنقص، وهو يفضي إلىٰ ما يناقض الدوامَ (والمال محبوب؛ لأنه أيضًا آلة في دوام الوجود وكماله، وكذا سائر الأسباب) فإنها كذلك آلات فيما ذُكِر (فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظِّه في دوام الوجود وكماله بها، حتىٰ إنه لَيحبُّ

ولده وإن كان لا يناله منه حظٌّ) في العاجل (بل يتحمَّل المَشاقَّ لأجله) ويركب الصعب والذلول (لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه) وهلاكه (فيكون في بقاء نسله نوع بقاءٍ له، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء مَن هو قائم مقامه وكأنَّه جزء منه لمَّا عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدًا. نعم، لو خُيِّر بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيًا علىٰ اعتداله آثَرَ بقاءَ نفسه علىٰ بقاء ولده؛ لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه، وليس هو بقاءه المحقَّق، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلىٰ حبه لكمال نفسه، فإنه يرىٰ نفسه كثيرًا بهم، قويًّا بسببهم، متجمِّلاً بكمالهم) كما قيل: المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه (فإنَّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمِّل للإنسان) في حصول القوة (وكمال الوجود ودوامُه محبوب بالطبع لا محالة. فإذًا المحبوب الأول عند كل حيٍّ ذاتُه وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضد ذلك. فهذا هو أول الأسباب.

السبب الثاني: الإحسان، فإن الإنسان) كما قيل (عبدُ الإحسان) وقد رُوي عن ابن مسعود موقوفًا (وقد جُبِلت القلوب علىٰ حبِّ مَن أحسن إليها، وبغضِ مَن أساء إليها) رواه أبو نعيم في الحلية وأبو الشيخ وابن حبان في روضة العقلاء والخطيب في التاريخ وآخرون، كلهم من طريق إسماعيل بن أبان الخياط قال: بلغ الحسنَ بن عمارة أن الأعمش وقع فيه، فبعث إليه بكسوة، فمدحه الأعمش، فقيل للأعمش: ذممتَه ثم مدحتَه. فقال: إن خيثمة حدثني عن ابن مسعود قال: جُبِلت ... فذكره. وهكذا أخرجه ابن عدي في كامله، ومن طريقه البيهقي في الشعب وابن الجوزي في العلل المتناهية لكن مرفوعًا. قال الحافظ السخاوي: وهو باطل مرفوعًا وموقوفًا. قال: وقد رواه مرفوعًا أيضًا القضاعي في مسند الشهاب من طريق ابن عائشة، حدثنا محمد بن عبد الرحمن - رجل من قريش - قال: كنت عند الأعمش ... فذكر القصة والحديث. ا.هـ. كلام السخاوي. قلت: وقد رواه العسكري في

الأمثال من حديث ابن عمر هكذا مرفوعًا[1].

(وقال رسول الله ﷺ: اللهم لا تجعل لفاجر عليَّ يدًا فيحبه قلبي) رواه الديلمي من حديث معاذ بسند ضعيف منقطع بلفظ: «اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة أكافئه بها في الدنيا والآخرة». وفي لفظ: «نعمة يرعاه بها قلبي». وقد تقدم[2] (إشارة إلىٰ أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يُستطاع دفعه، وهو جبلَّة وفطرة لا سبيل إلىٰ تغييرها، وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبيَّ الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة) في النسب ولا وصلة بينهما (وهذا إذا حُقِّقَ) وتُؤمِّل فيه (رجع إلىٰ السبب الأول، فإن المحسن مَن أمدَّ بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلىٰ دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيَّأ الوجودُ، إلا أن الفرق) بينهما (أن أعضاء الإنسان محبوبة؛ لأن بها كمال وجوده، وهي عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب، ولكن قد يكون سببًا له كالطبيب الذي يكون سببًا في دوام صحة الأعضاء، ففرقٌ بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة؛ إذ الصحة مطلوبة لذاتها، والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب الصحة. وكذلك العلم محبوب، والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب. وكذلك الطعام والشراب محبوب، والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلىٰ الطعام. فإذًا يرجع الفرق إلىٰ تفاوت الرتبة، وإلا فكل واحد يرجع إلىٰ محبة الإنسان نفسه، فكل مَن أحب المحسنَ لإحسانه فما أحب ذاتَه تحقيقًا بل أحب إحسانَه، وهو فعلٌ من أفعاله لو زال زال الحبُّ مع بقاء ذاته تحقيقًا، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد زاد) الحب (ويتطرَّق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه.

(١) تقدم ذلك كله في كتاب الحلال والحرام.

(٢) في كتاب الحلال والحرام.

السبب الثالث: أن يحب الشيءَ لذاته لا لحظٍّ يُنال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظِّه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ) رتبة الكمال **(الذي يوثَق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحُسن)** والجمال: رقَّة الحسن. وقيل: هو الحُسن الكثير. والحُسن عبارة عن كل مبهِج مرغوب فيه. وقيل: هو كون الشيء ملائمًا للطبع، وكونه صفة كمال، وكونه يتعلق به المدح[١] **(فإنَّ كل جمال محبوب عند مدرِك الجمال، وذلك لعين الجمال؛ لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها، ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يُتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرىٰ قد تُحَب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضًا لذيذ، فيجوز أن يكون محبوبًا لذاته، وكيف يُنكَر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب، لا ليُشرَب الماء وتؤكَل الخضرة أو يُنال منها حظ سوىٰ نفس الرؤية، وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجاري)** قال العراقي[٢]: رواه أبو نعيم في الطب[٣] من حديث ابن عباس: كان يحب أن ينظر إلىٰ الخضرة وإلىٰ الماء الجاري. وإسناده ضعيف.

قلت: هذا لفظ أبي نعيم، وقد أخرجه ابن السني في الطب بلفظ المصنف، إلا أنه قال: كان يعجبه النظرُ إلىٰ الخضرة وإلىٰ الماء الجاري. أخرجاه من طريق الحسن بن عمر السدوسي، عن القاسم بن مطيب العِجلي، عن منصور بن عبد الرحمن الحَجَبي، عن أبي معبد مولىٰ ابن عباس، عن ابن عباس. والقاسم بن مطيب ضعَّفوه، قال ابن حبان[٤]: كان يخطئ علىٰ قلة روايته. وقال في الديوان:

---

(١) قوله (الجمال رقة الحسن) نقله الفيومي في المصباح المنير ص ١١٠ عن سيبويه. وقوله (هو الحسن الكثير) ذكره الراغب في المفردات ص ٩٧. وقوله (الحسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه) ذكره الراغب في المفردات ص ١١٨. وقوله (هو كون الشيء ...) الخ ذكره صدر الشريعة في كتاب التوضيح ص ٢٧١ (ط - نظارة المعارف الروسية).

(٢) المغني ٢/ ١١٤٧.

(٣) الطب النبوي ١/ ٢٤٨.

(٤) المجروحون من المحدثين ٢/ ٢١٦.

استحقَّ الترك[١].

(والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلىٰ الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان، الحسنة النقش، المتناسبة الشكل، حتىٰ إن الإنسان لَتنفرجُ عنه الغموم والهموم بالنظر إليها، لا لطلب حظٍّ وراء النظر. فهذه الأسباب ملذَّة، وكل لذيذ محبوب، وكل حُسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبًا بالطبع، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبًا عند مَن انكشف له جماله وجلاله، كما قال رسول الله ﷺ: إن الله جميل يحب الجمال) قال الراغب[٢]: الجمال ضربان، أحدهما يختصُّ بالإنسان في نفسه أو فِعله، والثاني ما يصل منه لغيره، ومنه الحديث المذكور تنبيهًا أن منه تفيض الخيراتُ الكثيرة، فيحب مَن يتَّصف بذلك.

قال العراقي[٣]: رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

قلت: وقد رُويت هذه الجملة صدر حديث عند الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو هكذا من غير زيادة. وقد رُوي بزيادة «ويحب أن يرىٰ نعمته علىٰ عبده». رواه أبو يعلىٰ من حديث أبي سعيد. وبزيادة «ويحب معالي الأمور ويكره سَفْسافها». رواه الطبراني في الأوسط وابن عساكر من حديث جابر. وروىٰ ابن عساكر عن ابن عمر أن أبا ريحانة قال: يا رسول الله، إني لأحبُّ الجمال حتىٰ في نعلي وعلاقة سوطي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده، الكبر مَن سفه الحقَّ وغمص الناسَ أعمالهم». وروىٰ مسلم والترمذي من حديث ابن مسعود: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ

---

(١) هذه عبارة الذهبي في المغني ٢/ ١١٧ نقلا عن ابن حبان. وعبارته في ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٣٢٥: «تركه ابن حبان».

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٩٧.

(٣) المغني ٢/ ١١٤٧.

الحق وغمطُ الناس». وقد رواه الطبراني من حديث أبي أمامة نحوه. ورواه هنَّاد في الزهد عن يحيىٰ بن جعدة مرسلاً نحو حديث جابر[1].

(الأصل الرابع: في بيان معنىٰ الحُسن والجمال. اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ **(أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنىٰ للحسن والجمال إلا تناسُب الخلقة والشكل وحُسن اللون وكون البياض مشربًا بالحمرة وامتداد القامة)** وسواد الشعر وسعة العين وارتفاع الأرنبة **(إلىٰ غير ذلك ممَّا يوصَف من جمال شخص الإنسان، فإن الحسن الأغلب علىٰ الخَلق حُسنُ الإبصار، وأكثر التفاتهم إلىٰ صور الأشخاص، فيظن أن ما ليس مبصَرًا ولا متخيَّلاً ولا متشكِّلاً ولا متلوِّنًا متعذِّر فلا يُتصوَّر حسنه، وإذا لم يُتصوَّر حُسنُه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوبًا. وهذا خطأ ظاهر، فإن الحسن ليس مقصورًا علىٰ مدرَكات البصر ولا علىٰ تناسُب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة، فإنَّا نقول: هذا خط حسن، وهذا صوت حسن، وهذا فرس حسن، بل نقول: هذا ثوب حسن، وهذا إناء حسن. فأيُّ معنىٰ لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة، ومعلوم أن العين تستلذُّ بالنظر إلىٰ الخط الحسن، والأذن تستلذُّ استماعَ النغمات الحسنة الطيبة)** الألحان **(وما من شيء من المدرَكات إلا وهو منقسم إلىٰ حَسن وقبيح، فما معنىٰ الحُسن الذي تشترك فيه هذه الأشياءُ؟ فلا بد من البحث عنه)** والكلام فيه **(وهذا البحث يطول، ولا يليق بعلم المعاملة الإطنابُ فيه، فنصرِّح بالحق)** الصريح **(ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كمالُه اللائق به، الممكن له)** سواء كان لمعنًىٰ ثبت في ذاته، أو لمعنًىٰ ثبت في غيره، وسواء كان ذلك ممَّا استحسنه العقل أو الهوىٰ أو الحس **(فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال)** وإليه المنتهَىٰ في الاستحسان **(وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر)** ويقع الاستحسان علىٰ ذلك القدْر الحاضر **(فالفرس**

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث كلها في كتاب السماع، وفي كتاب ذم الكبر.

الحَسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون) هذا مما يتعلق بظاهره، وفي الألوان اختلاف الناس، وإنما يقع الاعتبار فيها بما تميل إليه النفوس والرغبات، وهي تختلف، ويلتحق بذلك الشيات (وحسن عدوٍ) وارتكاض (وتيسُّر كرٍّ) أي الحملة (وفرٍّ) أي الرجعة (عليه) وهذا مما يتعلق بباطنه، فإنها أخلاق باطنية، قد تكون خلقة، وقد تكون من طول الرياضة والتهذيب وهو الأكثر (والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسُب الحروف وتَوازيها) أي تقابُلها (واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها) بالحدود المذكورة في فن الخط (ولكل شيء كمالٌ يليق به، وقد يليق بغيره ضدُّه، فحسنُ كل شيء في كماله الذي يليق به، فلا يحسُن الإنسانُ بما يحسُن به الفرسُ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء) ولكل ذلك نظائر وأشباه لا تخفَىٰ.

(فإن قلتَ: فهذه الأشياء وإن لم يُدرَك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفكُّ عن إدراك الحواس لها، فهي محسوسات، وليس يُنكَر الحسن والجمال للمحسوسات، ولا يُنكَر حصول اللذة بإدراك حسنها، وإنما يُنكَر ذلك في غير المدرَك بالحواس. فاعلمْ أن الحُسن والجمال موجود في غير المحسوسات؛ إذ يقال: هذا خُلقٌ حسن، وهذا عِلم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة. وإنما الأخلاق الجميلة يُراد بها العلم والعقل والعفَّة والشجاعة والتقوىٰ والكرم والمروءة وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يُدرَك بالحواس الخمس، بل يُدرَك بنور البصيرة الباطنة) التي هي أقوىٰ من نور البصر الظاهر (وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة، والموصوف بها محبوب بالطبع عند مَن عرف صفاته، وآية ذلك وأنَّ الأمر كذلك أن الطباع مجبولة علىٰ حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلىٰ حب الصحابة ﷺ، مع أنهم لم يشاهدوا) ذواتهم بالأبصار، ولا لحقوا أعصارَهم (بل علىٰ حب أرباب المذاهب) المتبوعة

(مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك) وأحمد (وغيرهم) رحمهم الله تعالىٰ (حتىٰ إن الرجل قد يجاوز به حبُّه لصاحب مذهبه حدَّ العشق، فيحمله ذلك علىٰ أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال مَن يطعن في إمامه ومتبوعه، فكم من دم أُريقَ في نصرة أرباب المذاهب) وأكثر ذلك في ديار خراسان فيما سبق من الزمان (وليت شِعري مَن يحب الشافعيَّ مثلاً فلِمَ يحبه ولم يشاهد قط صورته، ولو شاهده ربما لم يستحسن صورتَه، فاستحسانه الذي حمله علىٰ إفراط الحب هو لصورته الباطنة، لا لصورته الظاهرة، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابًا مع) جملة (التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوىٰ وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع) بين الناس (ولنشره هذه الخيرات في العالَم. وهذه أمور جميلة لا يُدرَك جمالها إلا بنور البصيرة) الباطنة (فأما الحواس فقاصرة عنها) أي عن إدراكها (وكذلك مَن يحب أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه ويفضِّله علىٰ غيره) ويقدِّمه عليه (أو يحب عليًّا رضي الله عنه ويفضِّله) علىٰ غيره ويقدِّمه عليه (ويتعصَّب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوىٰ والشجاعة والكرم وغيره) من خصال الخير (فمعلوم أنَّ مَن يحب الصدِّيق رضي الله عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله؛ إذ كل ذلك زال وتبدَّل وانعدم، ولكن بقي ما كان الصدِّيق به صدِّيقًا وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السِّيَر الجميلة) ومن جملة ذلك السرُّ الذي كان وقر به صدرُه (فكان الحب باقيًا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور، وتلك الصفات ترجع جملتها إلىٰ العلم والقدرة إذا علم حقائقَ الأمور وقدر علىٰ حمل نفسه عليها بقهر شهواته، فجميع خلال الخير تتشعَّب علىٰ هذين الوصفين، وهما غير مدرَكينِ بالحس، ومحلُّهما من جملة البدن جزء لا يتجزَّأ، فهو المحبوب بالحقيقة، وليس للجزء الذي لا يتجزَّأ صورة وشكل ولون يظهر بالبصر حتىٰ يكون محبوبًا لأجله. فإذًا الجمال موجود في السِّيَر، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبًّا، فالمحبوب مصدر السيرة الجميلة وهي الأخلاق الحميدة

والفضائل الشريفة، وترجع جملتها إلىٰ كمال العلم والقدرة، وهو محبوب بالطبع، وغير مدرَك بالحواس، حتىٰ إن الصبي المخلىٰ وطبعه) أي مع طبعه (إذا أردنا أن نحبِّب إليه غائبًا) عن بصره (أو حاضرًا حيًّا أو ميتًا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه، ولم يقدر أن لا يحبَّه، فهل غلب حبُّ الصحابة ﷺ وبغضُ أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح) المعنوية (التي تُدرَك لا بالحواس) الظاهرة (بل لمَّا وصف الناس حاتمًا) الطائي (بالسخاء ووصفوا خالد) بن الوليد رضي الله عنه (بالشجاعة أحبتهم القلوبُ حبًّا ضروريًّا، وليس ذلك عن نظر إلىٰ صورة محسوسة، ولا عن حظٍّ يناله المحبُّ منهم، بل إذا حُكي من سيرة بعض الملوك) الموجودين (في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير) علىٰ المحاويج من أهل مملكته (غلب حبُّه علىٰ القلوب، مع اليأس من انتشار إحسانه إلىٰ المحبِّين لبُعد المَزار ونأي الديار) الموجِب لعدم الوصول إلىٰ تلك الأقطار (فإذًا ليس حب الإنسان مقصورًا علىٰ مَن أحسن إليه، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانُه إلىٰ المحب؛ لأن كل جمال وحُسنٍ فهو محبوب، والصورة ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما، وتُدرَك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر، والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة، فمَن حُرم البصيرة الباطنة لا يدركها، ولا يلتذُّ بها، ولا يحبها، ولا يميل إليها) لأن كل ذلك تابع للإدراك (ومَن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة) بسبب انشراح صدره بإفاضة النور القدسيِّ عليه (كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبِّه للمعاني الظاهرة، فشتَّان بين مَن يحب نقشًا مصوَّرًا علىٰ الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين مَن يحب نبيًّا من الأنبياء) عليهم السلام (لجمال صورته الباطنة.

السبب الخامس: المناسَبة الخفيَّة بين المحب والمحبوب؛ إذ رُب شخصين تتأكَّد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظٍّ ولكن لمجرَّد تناسُب الأرواح كما

قال ﷺ): الأرواح جنود مجنَّدة **(فما تعارف منها ائتلف، وما تناكَرَ منها اختلف)** رواه البخاري[١] من حديث عائشة، وأحمد[٢] ومسلم[٣] وأبو داود[٤] من حديث أبي هريرة، والعقيلي[٥] والدارقطني[٦] وأبو نعيم[٧] من حديث علي، والطبراني[٨] من حديث ابن مسعود، والحاكم[٩] من حديث سلمان. وقد تقدم الكلام عليه **(وقد حقَّقنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذِكر الحب في الله، فليُطلَب منه؛ لأنه أيضًا من عجائب أسباب الحب. فإذًا ترجع أقسام الحب إلىٰ خمسة أسباب وهي: حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه، وحبه مَن أحسن إليه فيما يرجع إلىٰ دوام وجوده ويعين علىٰ بقائه ودفعِ المهلكات عنه، وحبه مَن كان محسنًا في نفسه إلىٰ الناس وإن لم يكن محسنًا إليه، وحبه لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة، وحبه لمَن بينه وبينه مناسبة خفيَّة في الباطن)** وجعل الكمال محمد بن إسحاق الصوفي رحمه الله تعالىٰ هذه الأقسام كلَّها راجعة إلىٰ سببين، أحدهما الإنعام، والثاني الجمال. وسيأتي نص كلامه في آخر هذا الفصل **(فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحبُّ لا محالة، كما لو كان للإنسان ولدٌ جميل الصورة، حسن الخُلق، كامل العلم، حَسن التدبير، محسن إلىٰ الخَلق ومحسن إلىٰ الوالد، كان محبوبًا لا محالة غاية الحب، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه**

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٤٥٢.

(٢) مسند أحمد ١٣/ ٣١٩، ١٦/ ٤٨٢، ٥٦٠.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢١٨.

(٤) سنن أبي داود ٥/ ٢٨٧.

(٥) الضعفاء الكبير ١/ ١٥٣.

(٦) العلل ٤/ ١٨٨.

(٧) حلية الأولياء ٤/ ١١٠.

(٨) المعجم الكبير ١٠/ ٢٨٣، وفيه: «عن ابن مسعود أو غيره» علىٰ الشك.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٥٨٣.

الصفات في أقصىٰ درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلىٰ الدرجات، فلنبيِّن الآن أن هذه الأسباب كلها لا يُتصوَّر كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالىٰ، فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالىٰ).

بيان أن المستحق للمحبة هو الله تعالى وحده

(وأنَّ مَن أحب غير الله لا من حيث نسبته إلىٰ الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالىٰ و) أن (حب الرسول) المرسَل من عنده (محمود؛ لأنه عين حب الله تعالىٰ، وكذلك حب العلماء والأتقياء) الذين هم أحباب الله (لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب. وكل ذلك يرجع إلىٰ حب الأصل، فلا يتجاوزه إلىٰ غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر) المنوَّرة (إلا الله تعالىٰ، ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن نرجع إلىٰ الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونبيِّن أنها مجتمعة في حق الله تعالىٰ بجملتها، ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حق الله تعالىٰ، ووجودها في حق غيره وهمٌ وتخيُّلٌ، وهو مجاز محض لا حقيقة له، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضد ما تخيَّله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالىٰ تحقيقًا، وبانَ) أي ظهر (أن التحقيق يقتضي أن لا تحب أحدًا غير الله تعالىٰ:

فأما السبب الأول) من الأسباب الخمسة (وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله، فهذه جِبلَّة كل حي، ولا يُتصور أن ينفكَّ عنها، وهذا يقتضي غايةَ المحبة لله تعالىٰ، فإنَّ مَن عرف نفسه) بغاية النقص (وعرف ربَّه) بغاية الكمال (عرف قطعًا أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالىٰ، وإلىٰ الله تعالىٰ) مصيره (وبالله تعالىٰ) قيامه (فهو المخترِع الموجِد له، وهو المبقي له، وهو المكمِّل لوجوده بخلق صفات الكمال، وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلىٰ استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من

ذاته، بل هو محوٌ محض وعدم صِرْف) وظلمة خالصة **(لولا فضل الله تعالىٰ عليه بالإيجاد)** من المحو إلىٰ الإثبات، ومن العدم إلىٰ الوجود، ومن الظلمة إلىٰ النور **(وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته. وبالجملة، فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيُّوم الحي الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإنَّ أحب العارف ذاته – ووجود ذاته مستفاد من غيره – فبالضرورة يحب المفيدَ لوجوده والمديم له إن عرفه خالقًا موجِدًا ومخترعًا مبقيًا وقيُّومًا بنفسه ومقوِّمًا لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربِّه، والمحبة ثمرة المعرفة)** لا عينها؛ لأن الإنسان لا يحب إلا مَن يعرف، فالمحبة تتبع المعرفةَ بالضرورة، يُفهَم هذا من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي جهلَها، فمعرفة النفس موجِبة لمعرفة الرب **(تنعدم بانعدامها، وتضعُف بضعفها، وتقوَىٰ بقوَّتها، ولذلك قال الحسن البصري** رحمه الله تعالىٰ: **مَن عرف ربَّه أحبه، ومَن عرف الدنيا زهدَ فيها)** وقد تقدم قريبًا **(وكيف يُتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه، ومعلوم أن المبتلَىٰ بحرِّ الشمس لمَّا كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل)** ومداره **(وكل ما في الوجود بالإضافة إلىٰ قدرة الله تعالىٰ فهو كالظل بالإضافة إلىٰ الشجرة)** ولذا[1] قيل للعقل الأول: الظل الأول؛ لأنه أول عين ظهرت بنوره تعالىٰ وقبلت صورةَ الكثرة التي هي شئون الوحدة الذاتية، وقيل للإنسان الكامل المتحقِّق بالحضرة الواحدية: ظل الإله. وروىٰ الطبراني والبيهقي[2] من حديث أبي بكرة: «السلطان ظل الله في الأرض، فمَن أكرمه أكرمه الله، ومَن أهانه أهانه الله» **(والنور بالإضافة إلىٰ الشمس، فإن الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس، ووجود**

---

(١) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ١٨٤.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٤٧٩.

الظل تابع للشجر) وهذا السياق إذا تأمَّلتَه رأيتَه مائلاً إلىٰ وحدة الوجود الذي قال به أهل الحقيقة، وهي مسألة مشهورة شديدة الاختلاف بينهم وبين علماء الظاهر، وقد أشار المصنف إلىٰ ذلك في عدَّة مواضع من كتابه هذا، منها في هذا الموضع، ومنها ما مر في كتاب الصبر والشكر وهو قوله: النظر بعين التوحيد المحض يعرِّفك أنه ليس في الوجود غيره تعالىٰ ... الخ، وصرَّح بذلك في كتابه «مشكاة الأنوار» وغيره، وقد صرَّح بها الشيخ الأكبر قُدِّس سره في مواضع من كتابه الفتوحات **(بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلىٰ أوهام العوامِّ؛ إذ تخيَّلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها، وهو خطأ محض؛ إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافًا أظهر من مشاهدة الأبصار)** وأقوىٰ منها **(أن النور حاصل من قدرة الله تعالىٰ اختراعًا عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضًا حاصل من قدرة الله تعالىٰ)** فالنور[1] الحق هو الله تعالىٰ لذاته وبذاته، ومنه تشرق الأنوار كلها علىٰ ترتيبها، وهي مستفادة من النور الأول، وإنما الحقيقي نوره فقط، وأن الكل نوره، وكل ما في الوجود فنسبته إليه في ظاهر المثال كنسبة النور إلىٰ الشمس **(ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم، فلا تُطلَب فيها الحقائق)** لاتِّساعها وضِيقِ ظروف الأمثلة **(فإذًا إن كان حب الإنسان نفسه ضروريًّا فحبه لمَن به قوامه أولاً ودوامه ثانيًا في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضًا ضروري إن عرف ذلك كذلك، ومَن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته، وذهل عن ربِّه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته، وقصر نظره علىٰ شهواته ومحسوساته وهو عالَم الشهادة الذي تشاركه البهائم في التنعُّم به والاتساع فيه دون عالَم الملكوت الذي لا يطأ أرضَه إلا مَن يقرُب إلىٰ شَبَه من الملائكة فينظر فيه بقدْر قربه في الصفات من الملائكة، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلىٰ حضيض عالَم البهائم)** اعلمْ[2] أن في عالَم الملكوت عجائب يُستحقَر بالإضافة

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٥٦، ٦٢، ٦٣.

(٢) السابق ص ٥٢ - ٥٣.

إليها عالم الشهادة، ومَن لم يسافر إلىٰ هذا العالَم وقعد به القصورُ في حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة بعدُ، ومحروم عن خاصِّية الإنسانية، بل أضلُّ من البهيمة؛ إذ لم تستعدَّ البهيمة بأجنحة للطيران إلىٰ هذا العالم، وعالم الشهادة بالإضافة إلىٰ عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلىٰ اللُّب، وكالصورة والقالب بالإضافة إلىٰ الروح، وكالظلمة بالإضافة إلىٰ النور، وكالسفل بالإضافة إلىٰ العلو. والملائكة من جملة عالم الملكوت، عاكفون في حضرة القدس، ومنها يشرفون علىٰ العالم الأسفل.

والملَك[1] عبارة عن موجود مقدَّس عن الشهوة والغضب، فليست أفعاله بمقتضاهما، بل داعيه إلىٰ [الأفعال أمرٌ أجلُّ من الشهوة والغضب وهو] طلبُ القرب إلىٰ الله تعالىٰ، فمَن غلب الشهوةَ والغضب حتىٰ ملكهما وضعفا عن تحريكه وتسكينه أخذ بذلك شبهًا من الملائكة، وكذلك إن فطم نفسَه عن الجمود علىٰ الخيالات والمحسوسات وأنسَ بإدراك [أمور يجلُّ عن أن ينالها حسٌّ أو خيال] أخذ شبهًا [آخَر] من الملائكة، فإنَّ خاصِّية الحياة الإدراكُ والفعل، وإليهما يتطرَّق النقصان والتوسط والكمال، ومهما اقتدىٰ بالملائكة في هاتين الخاصِّيتين كان أبعد عن البهيمة.

(وأما السبب الثاني وهو حبه مَن أحسن إليه فواساه بماله، ولاطفه بكلامه، وأمدَّه بمعونته، وانتدب لنصرته وقمعِ أعدائه، وقام بدفع شر الأشرار عنه، وانتهض وسيلةً إلىٰ جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه، فإنه محبوب لا محالة عنده، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله) وحده **(فإنه لو عرفه حقَّ المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله فقط، فأما أنواع إحسانه إلىٰ كل عبيده فلست أعدُّها؛ إذ ليس يحيط بها حصرُ حاصرٍ، كما قال تعالىٰ)** في كتابه العزيز: (﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾) [النحل: ١٨] أي لا تقدروا علىٰ إحصائها **(وقد أشرنا إلىٰ طرف منه في كتاب الشكر)** فلا نعيده **(ولكنا نقتصر الآن علىٰ بيان أن الإحسان من الناس**

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٤٥ - ٤٦.

غير متصوَّر إلا بالمجاز، وإنما المحسن هو الله تعالىٰ، ولنفرض ذلك فيمَن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكَّنك منها تتصرَّف فيها كيف تشاء، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانُه به وبماله وبقدرته علىٰ المال وبداعيته الباعثة له علىٰ صرف المال إليك، فمَن الذي أنعم بخلقه وخلقِ ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وخلق داعيته؟ ومَن الذي حبَّبك إليه وصرف وجهَه إليك وألقىٰ في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك؟ ولولا كل ذلك لَما أعطاك حبَّة من ماله، ومهما سلَّط الله عليه الدواعي وقرَّر في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلِّم إليك ماله كان مقهورًا مضطرًّا في التسليم) لك (لا يستطيع مخالفتَه) ولا يقدر علىٰ مجاوزته (فالمحسن) في الحقيقة (هو الذي اضطرَّه لك وسخَّره وسلَّط عليه الدواعي الباعثة المرهِقة إلىٰ الفعل، وأما يده فواسطة يصل بها إحسانُ الله إليك) فهو مَظهر من مظاهر قدرته (فصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرار مَجرىٰ الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدتَه) في نفسك (محسنًا أو شكرتَه من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنتَ جاهلاً بحقيقة الأمر، فإنه لا يُتصور الإحسان من الإنسان إلا إلىٰ نفسه، أما الإحسان إلىٰ غيره فمُحال من المخلوقين؛ لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل إمَّا آجِل وهو الثواب، وإما عاجل وهو المنَّة والاستسخار) لحاجاته (أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم، أو جذب قلوب الخَلق للطاعة والمحبة. وكما أن الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه) ظاهرٌ (فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت فلست مقصودًا، بل يدك آلة له في القبض حتىٰ يحصل غرضُه من الذِّكر) الجميل (والثناء) الحسن (أو الشكر أو الثواب) آجِلاً (بسبب قبضك المال، فقد استسخرك في القبض للتوصل إلىٰ غرض نفسه، فهو إذًا محسن إلىٰ نفسه، ومعتاض عمَّا بذله من ماله عوضًا هو أرجح عنده من ماله، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لَما نزل عن ماله لأجلك أصلاً ألبتَّة، فإذًا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين:

أحدهما: أنه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه، فلا قدرة له علىٰ المخالفة، فهو جارٍ مجرىٰ خازن الأمير، فإنه لا يُرَىٰ محسنًا بتسليم خلعة الأمير إلىٰ مَن خلع عليه؛ لأنه من جهة الأمير، مضطر إلىٰ الطاعة والامتثال لِما يرسمه، ولا يقدر علىٰ مخالفته، ولو خلاَّه الأمير ونفسه لَما سلَّم ذلك، فكذلك كل محسن لو خلاَّه الله ونفسه لم يبذل حبَّة من ماله حتىٰ سلَّط الله الدواعي عليه وألقىٰ في نفسه أن حظه دنيا ودينًا في بذله، فبذله لذلك) لا غير.

(والثاني: أنه معتاض عمَّا بذله حظًّا هو أوفىٰ عنده وأحب ممَّا بذله، فكما لا يُعَدُّ البائع محسنًا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله، فكذلك الواهب اعتاض الثوابَ أو الحمد والثناء أو عوضًا آخر، وليس من شرط العوض أن يكون عينًا متموَّلاً، بل الحظوظ كلها أعواض تُستحقَر الأعيان والأموال بالإضافة إليها، فالإحسان في الجود، والجود هو بذلُ المال من غير عوض وحظٍّ يرجع إلىٰ الباذل، وذلك مُحال من غير الله تعالىٰ، فهو الذي أنعم علىٰ العالمين إحسانًا إليهم ولأجلهم لا لحظٍّ وغرض يرجع إليه، فإنه يتعالىٰ عن الأغراض[1]، فلفظ «الجود والإحسان» في حق غيره كذبٌ أو مجاز، ومعناه في حق غيره) علىٰ وجه الكمال (مُحال وممتنع امتناعَ الجمع بين السواد والبياض) وإنما قلنا «علىٰ وجه الكمال» فإن العبد قد يتجمَّل بهذا الوصف بالاكتساب بنوع من التكلُّف وهو مع ذلك ناقص بالإضافة إلىٰ الجواد المطلَق والمحسن[2] (فهو المتفرِّد بالجود والإحسان والطَّول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارفُ إلا الله تعالىٰ؛ إذ الإحسان من غيره مُحال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده، وأما غيره فيستحق المحبة علىٰ الإحسان بشرط الجهل بمعنىٰ الإحسان وحقيقته.

---

(١) ليس في هذا نفيًا للحكمة أو الإرادة، بل معناه: أن الله لا يفعل للحاجة، تعالىٰ الله عن ذلك وتقدس. وانظر: منهاج السنة لابن تيمية ١/ ٤٥٥ (ط رشاد سالم).

(٢) هذا القيد مخالف لغرض الإمام، والله أعلم.

وأما السبب الثالث وهو حبُّك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه، وهذا أيضًا موجود في الطباع، فإنه إذا بلغك خبر ملك عالِم عابد عادل رفيق بالناس متلطِّف بهم متواضع لهم وهو في قُطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبِّر فاسق متهتِّك شرِّير وهو أيضًا بعيد عنك، فإنك تجد في قلبك تفرقةً بينهما؛ إذ تجد في القلب ميلاً إلىٰ الأول وهو الحب، ونفرةً عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول، وآمِن من شر الثاني؛ لانقطاع طمعك عن التوغُّل إلىٰ بلادهما. فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك، وهذا أيضًا يقتضي حب الله تعالىٰ، بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلىٰ الكافَّة، والمتفضِّل علىٰ جميع أصناف الخلائق أولاً بإيجادهم) وإخراجهم من العدم إلىٰ الوجود، ومن الظلمة إلىٰ النور (وثانيًا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم، وثالثًا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مَظانِّ حاجاتهم وإن لم تكن في مَظانِّ الضرورة، ورابعًا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مَظَنَّة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد) وهي الرئة (ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرِّجل، ومثال الزينة: استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوُّن العينين... إلىٰ غير ذلك ممَّا لو فات لم تنخرم به حاجةٌ ولا ضرورة، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان: الماء والغذاء، ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه، ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار وحُسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجةٌ ولا ضرورة، وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخَلق من ذروة العرش إلىٰ منتهىٰ الفرش، فإذًا هو المحسن فكيف يكون غيره محسنًا؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فإنه خالق الحسن، وخالق المحسن، وخالق الإحسان، وخالق أسباب

الإحسان. فالحب بهذه العلَّة أيضًا لغيره جهل محض، ومَن عرف ذلك لم يحبَّ بهذة العلة) أيضًا (إلا الله تعالىٰ.

وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظٍّ يُنال منه وراء إدراك الجمال، فقد بيَّنَّا أن ذلك مجبول في الطباع، وأن الجمال ينقسم إلىٰ جمال الصورة الظاهرة المدرَكة بعين الرأس، وإلىٰ جمال الصورة الباطنة المدرَكة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختصُّ بدركه أرباب القلوب) المشاهِدات (ولا يشاركهم فيه مَن لا يعلم إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا) ويكون مبلغ علمِه ذلك (وكل جمال فهو محبوب عند مدرِك الجمال، فإن كان مدرَكًا بالقلب فهو محبوب القلب، ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء و) حب (ذوي المكارم السَّنِيَّة والأخلاق المرضية، فإنَّ ذلك متصوَّر مع تشوُّش صورة الوجه وسائر الأعضاء، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة، والحس لا يدركه. نعم، يُدرَك بحُسن[1] آثاره الصادرة منه الدالَّة عليه، حتىٰ إذا دلَّ القلب عليه) وأرشد إليه (مال القلب إليه فأحبه، فمَن يحب رسول الله ﷺ أو الصدِّيق رضي الله عنه أو الشافعي رحمه الله تعالىٰ فلا يحبهم إلا لحُسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم، بل دلَّ حُسنُ أفعالهم علىٰ حسنِ الصفات التي هي مصدر الأفعال؛ إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالَّة عليها، فمَن رأىٰ حسن تصنيف المصنِّف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقَّاش وبناء البنَّاء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلىٰ العلم والقدرة. ثم كلَّما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمةً كان العلم أشرف وأجمل، وكذا المقدور كلَّما كان أعظم رتبةً وأجلَّ منزلةً كانت القدرة عليه أجلَّ رتبةً وأشرف قدرًا، وأجلُّ المعلومات هو الله تعالىٰ، فلا جَرَم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالىٰ) ولذا قال مالك بن دينار: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا فيها أطيب

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٨/ ٣٩٥: يدركُ الحسُّ. ولعله الأصح.

شيء فيها. قالوا: وما هو يا أبا يحيىٰ؟ قال: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ[(١)] **(وكذلك ما يقارنه ويختصُّ به فشرفه علىٰ قدر تعلُّقه به)** وإنما[(٢)] شرفه لأنه معرفة لأفعال الله تعالىٰ، ومعرفة للطريق الذي يقرِّب العبد من الله تعالىٰ والأمر الذي يسهُل به الوصولُ إلىٰ معرفة الله والقرب منه، وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كبير شرف **(فإذًا جمال صفات الصدِّيقين الذين تحبهم القلوب طبعًا ترجع إلىٰ ثلاثة أمور:**

أحدها: علمُهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه.

والثاني: قدرتهم علىٰ إصلاح أنفسهم) بتهذيبها وتجريدها عن الصفات الذميمة **(وإصلاح عباد الله بالإرشاد)** والتعليم **(والسياسة.**

والثالث: تنزُّههم عن الرذائل) النفسية **(والخبائث)** الباطنة **(والشهوات الغالبة)** علىٰ باعث الحق **(الصارفة عن سَنَن الخير)** والصلاح **(الجاذبة إلىٰ طريق الشر، وبمثل هذا يُحَب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم، فانسِبْ هذه الصفات إلىٰ صفات الله تعالىٰ. أما العلم، فأين علم الأوَّلين والآخِرين من علم الله تعالىٰ الذي)** من شأنه أنه **(يحيط بالكل إحاطةً خارجة عن النهاية حتىٰ لا يعزُب عنه مِثقالُ ذرَّة في السموات ولا في الأرض، وقد خاطب الخَلقَ كلَّهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾)** [الإسراء: ٨٥] حتىٰ كان ابن عباس يقول: أنا من ذلك القليل[(٣)] **(بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء علىٰ أن يحيطوا**

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٩٢، ٥/ ٧٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ٤٢١، ٤٢٧.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٩٣.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان ١٥/ ٢١٩ عنه في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يعني عدة أهل الكهف. ورواه أيضا: الطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ١٧٥، وعبد الرزاق في تفسيره ١/ ٤٠٠، والواحدي في التفسير الوسيط ٣/ ١٤٢، والعقيلي في الضعفاء الكبير ٤/ ١٥٣١، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٢/ ٣١٦.

بعلمه وحكمته في تفصيل خلقِ نملة أو بعوضة لم يطَّلعوا علىٰ عُشر عشير ذلك) كما قال تعالىٰ: (﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾) [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠] (والقدر اليسير الذي علمَه الخلائق كلُّهم فبتعليمه علموه، كما قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾) [الرحمن: ٣ - ٤] وهو المنطق الفصيح المُعرِب عمَّا في الضمير[١] (فإن كان جمال العلم وشرفه أمرًا محبوبًا وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يُحَب بهذا السبب إلا الله تعالىٰ، فعلوم العلماء جهلٌ بالإضافة إلىٰ علمه تعالىٰ، بل مَن عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهلَ ويترك الأعلم، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم لِما تتقاضاه معيشته، والتفاوت بين علم الله تعالىٰ وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم؛ لأن الأعلم لا يفضل الأجهلَ إلا بعلوم معدودة متناهية يُتصور في الإمكان أن ينالها الأجهلُ بالكسب والاجتهاد، وفضلُ علمِ الله تعالىٰ علىٰ علوم الخلائق كلِّهم خارج عن النهاية؛ إذ معلوماته لا نهاية لها، ومعلومات الخلق متناهية) والحاصل أن[٢] للعبد حظًّا من وصف العلم لا يكاد يخفَىٰ، ولكن يفارق علمه علم الله تعالىٰ في خواصٍّ ثلاث، إحداها: ما أشار إليه المصنف وهو كثرتها، فإن معلومات العبد وإن اتَّسعت فهي محصورة في قلبه، فأنَّىٰ تناسب ما لا نهاية له؟ والثانية، أنَّ كشفه [وإن اتَّضح] فلا يبلغ الغايةَ التي لا ممكن وراءها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنَّه يراها من وراء ستر رقيق، ودرجات الكشف متفاوتة، وفرقٌ بين ما يتضح وقت الإسفار وبين ما يتضح أول ضحوة النهار. والثالثة: أنَّ علم الله تعالىٰ بالأشياء غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه، وعلمُ العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها، وإن اعتاصَ عليك فهمُ هذا الفرق فانسِبْ علم متعلِّم الشطرنج إلىٰ علم

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٦/ ٥ - ٦.

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٩٢ - ٩٣.

واضعه، فإنَّ علم الواضع هو سبب وجود الشطرنج، ووجود الشطرنج هو سبب علم المتعلم، وعلمُ الواضع سابق علىٰ الشطرنج، وعلم المتعلم مسبوق ومتأخر عن الشطرنج، فكذلك علمُ الله تعالىٰ بالأشياء سابق عليها وسبب لها، وعلمُنا بخلاف ذلك، ولله المَثل الأعلىٰ (وأما صفة القدرة فهي أيضًا كمالٌ، والعجز نقصٌ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب، وإدراكه لذيذ، حتىٰ إن الإنسان لَيسمعُ في الحكاية) والمحاورات (شجاعة علي) بن أبي طالب (وخالد) بن الوليد (ﷺ وغيرهما من الشجعان) المشهورين جاهليةً وإسلامًا (وقدرتهما واستيلاءهما علىٰ الأقران) من أهل زمانهما (فيصادف في قلبه اهتزازًا وفرحًا وارتياحًا ضروريًّا بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة، ويورث ذلك حبًّا في القلب ضروريًّا للمتَّصف به، فإنه نوع كمال، فانسِب الآن قدرةَ الخَلق كلهم إلىٰ قدرة الله تعالىٰ، فأعظم الأشخاص قوةً وأوسعهم مُلكًا وأقواهم بطشًا وأقهرُهم للشهوات وأقمعُهم لخبائث النفس وأجمعُهم للقدرة علىٰ سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهَىٰ قدرته) وما مبلغها (وإنما غايته أن يقدر علىٰ بعض صفات نفسه وعلىٰ بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولا ضرًّا ولا نفعًا، بل لا يقدر علىٰ حفظ عينه من العمىٰ، ولسانه من الخرس، وأذنه من الصَّمَم، وبدنه من المرض، ولا يحتاج إلىٰ عدِّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره ممَّا هو علىٰ الجملة متعلَّق قدرته فضلاً عمَّا لا تتعلق به قدرته) ولا يناله (من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها و) من ملكوت (الأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فلا قدرة له علىٰ ذرَّة منها، وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكِّن له من ذلك، ولو سلَّط بعوضًا علىٰ أعظم ملك) كما وقع للنمروذ (وأقوىٰ شخص من الحيوانات) كالفيل (لأهلكه) أما إهلاك النمروذ به فمعروف في التواريخ، وأما إهلاك الفيل به فقد ذكر

غير واحد من المتكلمين علىٰ عجائب الحيوانات كالدميري وغيره أن البعوض إذا دخل في أذن الفيل كان سبب هلاكه، ولذلك لا يزال يحرك آذانه شِبه المراويح لئلاً يقربه البعوض[١] **(فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه)** ومع[٢] ذلك فهي ناقصة؛ إذ لا تتناول إلا بعض الممكنات، ولا تصلُح للاختراع، بل الله سبحانه هو المخترع لمقدورات العبد بواسطة قدرته مهما هيَّأ له جميع أسباب الوجود المقدورة **(كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين)** الإسكندر **(إذ قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾** [الكهف: ٨٤] **فلم يكن جميع مُلكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالىٰ إيَّاه في جزء من الأرض، والأرض كلها مَدَرة بالإضافة إلىٰ أجسام العالَم، وجميع الولايات التي يحظَىٰ بها الناس من الأرض غبرة من تلك المَدَرة، ثم تلك الغبرة أيضًا من فضل الله وتمكينه، فيستحيل أن يُحَب عبدٌ من عِباد الله تعالىٰ لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يُحَب الله تعالىٰ لذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، فهو الجبار القاهر والعليم القادر)** مالك الأوائل والأواخر **(السموات مطويَّات بيمينه، والأرض ومُلكها وما عليها في قبضته، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقُص من سلطانه ومُلكه ذرَّةٌ، وإن خلق أمثالهم ألف مرَّة لم يعي بخلقهم، ولا يمسُّه لغوبٌ ولا فتور في اختراعه، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثرٌ من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء، فإن كان يُتصوَّر أن يُحَب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب لكمال القدرة سواه أصلاً.**

وأما صفة التنزُّه عن العيوب والنقائص والتقدُّس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجِبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة، والأنبياء والصدِّيقون وإن كانوا منزَّهين عن العيوب والخبائث فلا يُتصوَّر كمال التقديس

(١) انظر: حياة الحيوان للدميري ١/ ١١٦.

(٢) السابق ص ١٤٥.

والتنزيه إلا للواحد الملك الحق القدُّوس ذي الجلال والإكرام، وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص، بل كونه عاجزًا مخلوقًا مسخَّرًا مضطرًّا هو عين النقص والعيب) وإليه الإشارة بقول بعض العارفين:

* وجودك ذنب لا يُقاس به ذنبٌ[1] *

وبقول الشيخ أرسلان[2]: كلُّك شركٌ خفيٌّ **(فالكمال لله وحده، وليس لغيره كمال إلا بقدْر ما أعطاه الله، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهَىٰ الكمال علىٰ غيره)** بحيث يصل إلىٰ غاية ليس وراءها مزيد من كل وجه[3] **(فإنَّ منتهَىٰ الكمال أقلُّ درجاته أن لا يكون عبدًا مسخَّرًا لغيره وقائمًا بغيره، وذلك مُحال في حق غيره)** إذ غيره لا قوام له بنفسه في وجوده **(فهو المنفرد بالكمال، المنزَّه عن النقص، المقدَّس عن العيوب)** المبرأ عن الاعتلال والاختلال **(وشرحُ وجوه التقديس والتنزُّه في حقِّه عن النقائص يطول)** بيانه وتفصيله **(وهوه من أسرار علوم المكاشَفات، فلا نطوِّل بذكره)** لأنه لا يليق بهذا المقام **(فهذا الوصف أيضًا إن كان كمالاً وجمالاً محبوبًا فلا تتم حقيقته إلا له، وكمال غيره وتنزُّهه لا يكون مطلقًا بل بالإضافة إلىٰ ما هو**

---

(١) روىٰ ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد ١/ ١٠١ - ١٠٢ عن الجنيد بن محمد قال: ما انتفعت بشيء منفعتي بأبيات سمعتها، مررت بدرب القراطيس، فسمعت جارية تغني من دار، فأنصت لها، فسمعتها تقول:

إذا قلت أهدىٰ الهجر لي حلل البلىٰ ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوىٰ ... تقولي بنيران الهوىٰ شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت؟ قالت مجيبة ... حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

(٢) في أول رسالته المسماة: التحفة المرسلة في الوحدة والتوحيد. انظر: خمرة الحان ورنة الألحان شرح رسالة الشيخ أرسلان لعبد الغني النابلسي ص ٩ (ط دار الكتب العلمية). كشف البرهان في شرح رسالة الشيخ أرسلان للملا حسن الكوراني ص ١٣ (ط - كتاب وناشرون ببيروت).

(٣) نقل البقاعي في نظم الدرر ٣/ ١٣٢ عن الحرالي قال: «الكمال: الانتهاء إلىٰ الغاية التي ليس وراءها مزيد من كل وجه».

أشد منه نقصانًا، كما أن للفرس كمالاً بالإضافة إلىٰ الحمار، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلىٰ الفرس. وأصل النقص شامل للكل، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان. فإذًا الجميل محبوب، والجميل المطلق) هو[1] الجليل المطلَق؛ إذ نعوت الجلال هي الغِنىٰ والمُلك والتقديس والعلم والقدرة وغيرها، فالجامع لجميعها هو الجليل المطلق، والموصوف ببعضها جلالته بقدْر ما نال من هذه النعوت، فالجليل المطلق **(هو الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّب لقضائه، العالِم الذي لا يعزب)** أي لا يغيب **(عن علمه مِثقال ذرَّة في السموات والأرض، القاهر الذي لا تخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة، ولا تنلفت من سطوته وبطشته رقاب القياصرة، الأزليُّ الذي لا أول لوجوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكانُ العدم حول حضرته، القيُّوم الذي يقوم بنفسه، ويقوم كل موجود به، جبار السموات والأرض، خالق الجماد والحيوان والنبات، المنفرد بالعزة والجبروت، المتوحِّد بالمُلك والملكوت، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال)** وهذه كلها صفات الجلال، وهي إذا نُسبت إلىٰ البصيرة المدرِكة لها سُمِّيت جمالاً، وسُمِّي المتَّصف بها جميلاً، وإنما كان الحق هو الجميل المطلق لأن كل ما في العالَم من جمال وكمال وحُسنٍ فهو من أنوار ذاته وآثار صفاته، وليس في الوجود موجود له الكمال المطلق الذي لا مثنويَّة فيه سوىٰ الله تعالىٰ لِما تقدم **(الذي تتحيَّر في معرفة جلاله العقولُ، وتخرس في وصفه الألسنةُ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهَىٰ نبوَّة الأنبياء الإقرارُ بالقصور عن وصفه، كما قال)** مشيرًا إلىٰ هذا المقام **(سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين)**: سبحانك

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ١٢٦ – ١٢٧.

(لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك) رواه أحمد[١] ومسلم[٢] وأبو داود[٣] والترمذي[٤] والنسائي[٥] وابن ماجه[٦] من حديث عائشة: «اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك». وقد تقدم. وعند ابن خزيمة[٧] من هذا الوجه: «وأعوذ بك منك، لا أحصي مدحك ولا ثناء عليك». وفي آخَر عنده أيضًا من وجه آخَر عنها: «وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، أثني عليك، لا أبلغ كلَّ ما فيك». وفي آخَر عند الخلعي[٨] من وجه ثالث عنها: «لا أحصي أسماءك ولا ثناءً عليك». وقد رواه أبو داود[٩] والترمذي[١٠] والنسائي[١١] من حديث علي رضي الله عنه.

(وقال سيد الصدِّيقين) أبو بكر (رضي الله عنه: **العجز عن درك الإدراك إدراكٌ، سبحان مَن لم يجعل للخَلق طريقًا إلىٰ معرفته إلا بالعجز عن معرفته)** قال المصنف في المقصد الأسنىٰ[١٢]: نهاية معرفة العارفين عجزُهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه، وأنه لا يمكنهم ألبتَّة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف اللهَ المعرفة الحقيقية المحيطة بكُنْه صفات الربوبية إلا الله تعالىٰ، فإذا

---

(١) مسند أحمد ٤٠/ ٣٦٢، ٤٢/ ٤٣٨.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٢٢٣.

(٣) سنن أبي داود ٢/ ١٠.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٤٧٤.

(٥) سنن النسائي ص ٣٦، ١٧٩، ١٨٣.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٦٣.

(٧) صحيح ابن خزيمة ١/ ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٥.

(٨) وكذلك ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٧١٩.

(٩) سنن أبي داود ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(١٠) سنن الترمذي ٥/ ٥٢٨.

(١١) سنن النسائي ص ٢٨٥.

(١٢) المقصد الأسنىٰ ص ٥٤.

انكشف لهم ذلك انكشافًا برهانيًا فقد عرفوه، أي بلغوا المنتهَىٰ الذي يمكن في حق الخَلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه الصدِّيق بقوله المذكور، بل هو الذي عناه رسول الله ﷺ في دعائه، ولم يُرِدْ به أنه عرف منه ما لا يطاوعه لسانُه في العبارة عنه، بل معناه: إني لا أحيط بمحامدك وصفات إلهيَّتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك. فإذًا لا يحظىٰ مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة. انتهىٰ (**فليت شِعري مَن ينكر إمكان حب الله تعالىٰ تحقيقًا ويجعله مجازًا**) بمعنىٰ الطاعة والامتثال (**أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن، أو ينكر كون الله تعالىٰ موصوفًا بها، أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبًا بالطبع عند مَن أدركه**) وهم أهل البصيرة الباطنة (**فسبحان مَن احتجب عن بصائر العِميان**) وهم الذين فقدوا تلك البصيرة (**غيرةً علىٰ جماله وجلاله أن يطَّلع عليه إلا مَن سبقت له منه الحسنىٰ، الذين هم عن نار الحجاب مبعَدون، وترك الخاسرين في ظلمات العمىٰ يتيهون، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يتردَّدون**) وبحكم مبلغهم من علمهم (﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ [الروم: ٧] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾) [النحل: ٧٥، لقمان: ٢٥، الزمر: ٢٩] والحاصل(١) أنه إذا ثبت أنه جميل وجليل فكل جميل فهو محبوب ومعشوق عند مدرِك جماله، ولذلك كان الله محبوبًا ولكن عند العارفين، والمنكرون لهذا جاهلون، ومَن جهلَ شيئًا عاداه، وهذا كما تكون الصورة الجميلة الظاهرة محبوبة ولكن عند المبصرين لا عند العميان (**فالحب بهذا السبب أقوىٰ من الحب بالإحسان؛ لأن الإحسان يزيد وينقُص، ولذلك أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود ﷺ: إن أودَّ الأوِدَّاء**) أي أكثرهم ودًّا (**إليَّ مَن عبدني بغير نوال**) أي عطاء (**لكن ليعطي الربوبيةَ حقَّها**) كذا في القوت.

(**وفي الزبور**) فيما نقله ابن منبه: (**ومَن أظلم ممَّن عبدني لجنة أو نار**) أي

(١) السابق ص ١٢٧.

رجاءً أو خوفًا (**لو لم أخلق جنة ولا نارًا ألم أكن أهلاً أن أُطاع**)؟ كذا في القوت.

(**ومر عيسىٰ** عليه السلام **علىٰ طائفة من العُبَّاد قد نحلوا**) وتغيَّرت ألوانهم، فسألهم عن حالهم (**فقالوا: نخاف النار ونرجو الجنة. فقال لهم: مخلوقًا خفتم، ومخلوقًا رجوتم. ومرَّ بقوم آخَرين**) فرآهم (**كذلك**) فسألهم (**فقالوا: نعبده حبًّا له وتعظيمًا لجلاله. فقال: أنتم أولياء الله حقًّا، معكم أُمِرتُ أن أقيمَ**) وقد مرَّ هذا قريبًا بأبسط مما هنا، وفيه: فقال لهم: أنتم المقرَّبون، أنتم المقرَّبون. وقد ذكره صاحب القوت باللفظين.

(**وقال أبو حازم**) سلمة بن دينار الأعرج التابعي العابد رحمه الله تعالىٰ: (**إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخفْ لم يعمل، وكالأجير السوء إن لم يُعطَ لم يعمل**) نقله صاحب القوت فقال: وممَّن أقيمَ في هذا المقام جماعة من التابعين، منهم أبو حازم المدني، كان يقول: إني لأستحي من ربي أن أعبده للثواب فأكون كالأجير السوء إن لم يُعطَ أجر عمل لم يعمل، ولكن أعبده محبةً له. ورواه أبو نعيم في الحلية[1] عن أبي بكر الآجري، حدثنا عبد الله بن محمد العطشي، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا الهيثم بن جميل قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: قال أبو حازم: إني لأستحي من ربي عز وجل أن أسأله شيئًا فأكون كالأجير [السوء] إذا عمل طلب أجره، ولكن أعمل تعظيمًا له.

(**وفي الخبر: لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يُعطَ أجرًا لم يعمل، ولا كالعبد السوء إن لم يخفْ لم يعمل**) لفظ القوت: وقد روينا معنىٰ هذا الكلام عن رسول الله ﷺ: «لا يكونن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عملَ، ولا كالأجير السوء إن لم يُعطَ أجرًا لم يعمل».

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٤٢.

وقال العراقي[1]: لم أجد له أصلاً.

(وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة؛ لأن شَبَه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميَلُ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي، والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر عن غير نوعه) كل ذلك للتناسُب (وأنسُ العالِم بالعالِم أكثر منه بالمحترف) أي المستقل بالحرفة والكسب (وأنسُ النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح) وبالعكس (وهذا أمر تشهد به التجربة، وتشهد له الأخبار والآثار، كما استقصيناه في باب الأخوَّة في الله من كتاب آداب الصحبة، فليُطلَب منه، وإذا كانت المناسبة سبب التَّحابِّ فالمناسبة قد تكون في معنًى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا، وقد يكون خفيًّا حتى لا يُطَّلَع عليه، كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره، كما أشار إليه النبي ﷺ إذ قال: الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارَفَ منها ائتلف، وما تناكَرَ منها اختلف) تقدم قريبًا (فالتعارف هو التناسُب، والتناكُر هو التباين) أي فما تناسَبَ منها في عالَم الأزل حصل بينها الائتلاف في عالَم الشهادة، وما تباينَ منها هناك أوجب حصولَ الاختلاف ههنا (وهذا السبب أيضًا يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معانٍ باطنة يجوز أن يُذكَر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطَّر بل يُترَك تحت غطاء الغيرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك) ووصلوا إلى مقام القرب (فالذي يُذكَر هو قربُ العبد من ربه عَزَّوَجَلَّ في الصفات التي أُمِر فيها بالاقتداء والتخلُّق بأخلاق الربوبيَّة، حتى قيل: تخلَّقوا بأخلاق الله) أي تخلَّقوا بها في صفاته وأسمائه (وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبِر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخَلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعِهم من الباطل ... إلى غير ذلك من مكارم الشريعة)

---

(١) المغني ٢/ ١١٤٨.

وذلك فيما أمكنه منها (**فكل ذلك يقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ**) لأنه[١] به يصير العبد ربَّانيًّا، أي قريبًا من الرب تعالىٰ، وبه يصير رفيقًا للملأ الأعلىٰ من الملائكة، فإنهم علىٰ بساط القُرب، فمَن ضرب إلىٰ شَبَه من صفاتهم نال شيئًا من قربهم بقدْر ما نال من أوصافهم المقرِّبة لهم إلىٰ الحق تعالىٰ (**لا بمعنىٰ طلبِ القرب بالمكان بل بالصفات**) ومهما تفاوتت درجات الكمال واقتصر منتهَىٰ الكمال علىٰ واحد حتىٰ لم يكن الكمال المطلق إلا له ولم يكن للموجودات الأُخَر كمالٌ مطلق بل كانت لها كمالات متفاوتة بالإضافة، فأكملُها أقرب لا محالة إلىٰ الذي له الكمال المطلق، أعني قربًا بالمرتبة والدرجة لا بالمكان (**وأما ما لا يجوز أن يسطَّر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختصَّ بها الآدمي**) دون سائر المخلوقات (**فهي التي يومئ إليها قولُه تعالىٰ**: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] **إذ بيَّن أنه أمر ربانيٌّ خارج عن حدِّ عقول الخلق**) وهكذا شأن أمور الربوبية ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] (**وأوضح من ذلك قوله تعالىٰ**: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] **ولذلك أسجدَ له الملائكة**) إثر ذلك النفخ والتسوية. ومن قوله «وأوضح من ذلك» إلىٰ هنا قد سقط من بعض النسخ، وقد أشار إلىٰ ذلك المصنف في كتاب «النفخ والتسوية»، ومنهم مَن أنكر نسبة هذا الكتاب إليه، كما ذكرنا في مقدمة كتاب العلم (**ويشير إليه قولُه تعالىٰ**: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦] **إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالىٰ إلا بتلك المناسبة**) لأنه[٢] أنموذج من نور الله تعالىٰ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة، وإن كان لا يرقىٰ إلىٰ ذروة المساواة، وهذا ربما هزَّك للتفطُّن لسر الآية (**وإليه يرمز قولُه ﷺ: إن الله خلق آدم علىٰ صورته**) تقدم الكلام عليه (**حتىٰ ظن القاصرون**) من العلماء (**أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدرَكة بالحواس**) الظاهرة، وأنكروا

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٤٤.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٤٦.

الصورة الباطنة المدرَكة بالبصيرة الباطنة **(فشبَّهوا وجسَّموا وصوَّروا، تعالىٰ الله رب العالمين عمَّا يقول الجاهلون علوًّا كبيرًا، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ لموسىٰ** عليه السلام**: مرضتُ فلم تعدني. فقال: يا رب، وكيف ذلك؟ قال: مرضَ عبدي فلان فلم تعدْه، ولو عدتَه وجدتني عنده)** روىٰ مسلم[1] من حديث أبي هريرة: «إن الله تعالىٰ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعُدْني. قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانًا مرضَ فلم تعُدْه، أما علمت أنك لو عدتَه لوجدتني عنده ...» الحديث.

(وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة علىٰ النوافل بعد إحكام الفرائض، كما قال الله تعالىٰ: لا يزال يتقرَّب العبد إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به) قال العراقي[2]: رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

قلت: رواه أحمد والحكيم وأبو يعلىٰ والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الطب والبيهقي في الزهد وابن عساكر من حديث عائشة: «قال الله عزَّ وجلَّ: مَن آذَىٰ لي وليًّا فقد استحلَّ محاربتي، وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء الفرائض، وما يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببتُه كنت عينه التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، وفؤاده الذي يعقل به، ولسانه الذي يتكلم به، وإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته ... الحديث.

وروىٰ ابن السني في الطب من حديث ميمونة: «قال الله تعالىٰ: ما تقرَّب إليَّ العبد بمثل أداء فرائضي، وإنه لَيتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت رِجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل

(١) صحيح مسلم ٢/ ١١٩٦.
(٢) المغني ٢/ ١١٤٨.

به، إن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته».

ويُروىٰ في حديث أنس: «وما تعبَّدني عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا، ولا تقرَّب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيِّدًا ...» الحديث. رواه بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء والحكيم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء وابن عساكر[1].

وقال المصنف في مشكاة الأنوار[2]: منتهَىٰ مِعراج الخلائق مملكة الفردانية، فليس وراء ذلك مَرْقَىٰ؛ إذ المَرقىٰ لا يُتصوَّر إلا بكثرة، فإنه نوع إضافةٍ يستدعي ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء، وإذا ارتفعت الكثرة حقَّت الوحدة، وبطلت الإضافة، وطاحت الإشارة، فلم يبقَ علو ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع، فاستحال الترقِّي واستحال العروج، فليس وراء الأعلىٰ علو، ولا مع الوحدة كثرة، ولا مع انتفاء الكثرة عروج، فإن كان من تغير حالٍ فبالنزول إلىٰ السماء الدنيا، أعني بالإشراف من علو إلىٰ سفل؛ لأن الأعلىٰ له أسفل، وليس له أعلىٰ، فهذه غاية الغايات ومنتهَىٰ الطِّلْبات، يعلمه مَن يعلمه، وينكره مَن يجهله، وهو من العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغِرَّة بالله، ولا يبعُد إن قال العلماء: إن النزول إلىٰ السماء الدنيا هو نزول مَلَك، فقد توهَّم بعض العارفين ما هو أبعد منه؛ إذ قال: هذا المستغرق بالفردانية أيضًا له نزول إلىٰ السماء الدنيا، وإن ذلك هو نزوله إلىٰ استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء. وإليه الإشارة في الخبر: «صرتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به». وإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه فهو السامع والباصر والناطق إذًا لا غيره، وإليه الإشارة بقوله: «مرضتُ فلم تعُدْني ...» الحديث. فحركات هذا

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث كلها في الباب السابع من كتاب العلم، وفي كتاب ذم الغرور.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٦٣ - ٦٥.

الموحِّد من السماء الدنيا، وإحساساته كالسمع والبصر من سماء فوقه، وعقله فوق ذلك. وهو يترقَّىٰ من سماء العقل إلىٰ منتهَىٰ مِعراج الخلائق. ومملكة الفردانية إلىٰ سبع طبقات، ثم بعده يستوي علىٰ عرش الوحدانية، ومنه يدبِّر الأمر لطبقات سمواته، فربما نظر الناظر إليه فأطلق القولَ بأنَّ الله خلق آدم علىٰ صورة الرحمن، إلىٰ أن يمعن النظر فيعلم أن ذلك له تأويل، كقوله: أنا الحق، وسبحاني. بل كقوله: «مرضتُ فلم تعُدْني»، و«كنت سمعه وبصره ولسانه».

(**وهذا موضع يجب قبضُ عنان القلم فيه**) فما يطيق الناس من هذا الفن أكثر من هذا المقدار (**فقد تحزَّب الناسُ فيه إلىٰ قاصرين مالوا إلىٰ التشبيه الظاهر**) فلم يفهموا من الصورة إلا الصورة الظاهرة المدرَكة بالحواس، وكذا في النزول إلىٰ السماء الدنيا، وأضراب ذلك (**وإلىٰ غالين مسرفين**) تجاوزوا في الحدود و(**جاوزوا حدَّ المناسبة إلىٰ الاتحاد وقالوا بالحلول، حتىٰ قال بعضهم: أنا الحق**) والقول[1] بالاتحاد باطل؛ لأن قول القائل «إن العبد صار هو الرب» كلام متناقض في نفسه، وحيث يُطلَق الاتحاد ويقال «هو هو» لا يكون إلا بطريق التوسُّع والتجوُّز اللائق بعادة الصوفية والشعراء، فإنهم لأجل تحسين موقع الكلام في الأفهام يسلكون سبيل الاستعارة، كما يقول الشاعر:

* أنا مَن أهوىٰ ومَن أهوىٰ أنا *

وذلك مؤوَّل عنده، فإنه لا يعني به أنه هو تحقيقًا، بل كأنَّه هو، فإنه مستغرق الهم به كما يكون هو مستغرق الهم بنفسه، فيعبِّر عن هذه الحالة بـ«الاتحاد» علىٰ سبيل التجوُّز، ومَن لم يجد في القلب إلا جلال الله وجماله حتىٰ صار مستغرقًا به يصير كأنَّه هو، لا أنه هو تحقيقًا، وفرقٌ بين قولنا «هو هو» و«كأنَّه هو»، ولكن قد يعبَّر بقولنا «هو هو» عن قولنا «كأنه هو». وقول «أنا الحق» اشتهر به الحسين بن

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ١٣٩، ١٦٤ - ١٦٩.

منصور الحلاَّج، وقد أجاب عنه المصنف في المقصد الأسنىٰ فقال: حظ العبد من اسمه تعالىٰ «الحق» أن يرىٰ نفسه باطلاً، ولا يرىٰ غير الله حقًّا، والعبد وإن كان حقًّا فليس هو حقًّا بنفسه، بل هو حق بغيره وهو الله سبحانه وتعالىٰ، فإنه موجود به لا بذاته، بل هو بذاته باطل لولا إيجاد الحق له، فقد أخطأ مَن قال «أنا الحق» إلا بأحد وجهين، أحدهما: أن يعني أنه بالحق. وهذا بعيد؛ لأن اللفظ لا ينبئ عنه، ولأن ذلك لا يخصُّه، بل كل شيء سوىٰ [الحق] فهو بالحق. الثاني: أن يكون مستغرقًا بالحق حتىٰ لا يكون فيه متسَع لغيره، وما أخذ كليةَ الشيء واستغرقه فقد يقال إنه هو، فإن جاوزتَ هذين التأويلين إلىٰ الاتحاد فذلك مُحال قطعًا، وأما الحلول فهو أيضًا باطل، فإن المفهوم منه أمران، أحدهما: النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون فيه، وذلك لا يكون إلا بين جسمين، فالبريء عن معنىٰ الجسمية يستحيل في حقِّه ذلك. والثاني: النسبة التي بين العَرَض والجوهر، فإن العرض يكون قوامه بالجوهر، فقد يعبَّر عنه بأنه حالٌّ فيه، وذلك مُحال علىٰ كل ما قوامه بنفسه، فدَعْ عنك ذِكر الرب تعالىٰ في هذا العرض، فإن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحلَّ فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام، فلا يُتصوَّر الحلول بين عبدين، فكيف يُتصور بين العبد والرب؟!

(**وضلَّ النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام فقالوا: هو الله**) وقد غلطوا في ذلك، ومنشأ غلطهم أنهم نظروا إلىٰ كمال ذاته وقد تزيَّن بما تلألأ فيه من حلية الحق فظنوا أنه هو الإله (**وقال آخرون منهم: تدرَّع الناسوت باللاهوت. وقال آخرون: اتَّحد به**) أي اتَّحد الناسوت باللاهوت، وكل هذه أغلاط فاحشة تقتضي المروقَ عن الدين والوقوع في الكفر الصريح (**وأما الذين انكشفت لهم استحالةُ التشبيه والتمثيل**) المفهوم من قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ: ١١] (**واستحالة الاتحاد والحلول**) وكذا استحالة الانتقال والاتِّصاف بأمثال صفات الله تعالىٰ علىٰ سبيل الحقيقة (**واتَّضح لهم مع ذلك حقيقة السر، فهم الأقلُّون، ولعل**

أبا الحسين) أحمد بن محمد **(النوري)** البغدادي، المتوفىٰ سنة ٢٩٥، من أقران الجنيد، نُسِب إلىٰ نور الوعظ[1] **(عن هذا المقام كان ينظر إذ غلبه الوجدُ في قول القائل)** إذ أُنشِد له:

(لا زلتُ أنزل من ودادك منزلاً تتحيَّر الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده) حتىٰ وقع **(علىٰ أَجَمة قد قُطِع قصبها وبقيت أصوله)** محدَّدة كالسِّنان **(حتىٰ تشقَّقت قدماه وتورَّمتا ومات من ذلك)** وقد تقدم هذا في كتاب الوجد والسماع **(وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها، وهو أعزُّها وأبعدُها وأقلُّها وجودًا، فهذه هي المعلومة من أسباب الحب، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالىٰ تحقيقًا لا مجازًا، وفي أعلىٰ الدرجات لا في أدناها، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر)** والكشوفات الباطنة **(حب الله تعالىٰ فقط، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالىٰ فقط)** وقال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي في «مقاصد المنجيات» ما نصه: الناس يتفاوتون في الحب تفاوتًا لا ينحصر علىٰ قدْر الأسباب الموجِبة لحب الله تعالىٰ، فإنَّ المحبة تكون مسبَّبة عن معرفة إنعام الله تعالىٰ وإحسانه وإفضاله، وتكون مسبَّبة عن جمال الله وكماله، وهذه أفضل وأعلىٰ؛ لتعلُّقها بالذات والصفات من كِلا طرفَيْها وهما السلب والإثبات، وما قبلها متعلِّق بالله من حيث قدرته علىٰ الإنعام والإحسان، ففيها شغلٌ عن الله، ولأن الإحسان يزيد وينقُص. هذا والمحبة الناشئة عن الجمال والكمال من أشرف نعم الله علىٰ العباد؛ لأنها تعريف له بما هو به وتقريب منه، إلا أن التصوُّر يصير كامنًا تحت أشعَّة الأفضل إذا امتلأ القلب بالأفضل، ويكون الحكم والجزاء للغالب. والإمام الغزالي ذكر للمحبة أسبابًا خمسة إذا أمعنت النظرَ فيها رأيتَها داخلةً تحت هذين السببين، أما محبة العبد لله من أجل أن الله خلقه وأبقاه وخلق له الآلات المكمِّلة لبقائه فهو من جملة إحسان الله إليه، وأما محبته لأجل إحسانه العام علىٰ

---

(١) في الأنساب للسمعاني ٥/ ٥٣٤: «سمي النوري لحسن وجهه ونور فيه».

سائر العِباد فهو من جماله الفعلي وكماله الذاتي، وأما محبتك العبد لله لأجل الأوصاف الباطنة من العلم والقدرة والإرادة وموازاة الأرواح القدسية وتنزيهها عن الحلول في المواطن والقرب والبعد والكمية فذلك أيضًا من إفضال الله تعالىٰ علىٰ عبده؛ لأنه الذي خلقه وعدَّله، وخلق له بعد التعديل روحًا مقدَّسة عن الحس وعوارضه، وأقام له بها أعراضًا شريفة هي علوم ومعارف يعرف بها ربَّه. انتهىٰ **(ثم كل مَن يحب من الخَلق بسبب من هذه الأسباب)** الخمسة **(يُتصور أن يحب غيره لمشاركته إيَّاه في السبب، والشركة نقصان في الحب وغضٌّ من كماله، ولا ينفرد أحد بوصفٍ محبوبٍ إلا وقد يوجد له شريك فيه، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد، إلا الله تعالىٰ فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية)** الأوصاف ونهاية **(الجلال والكمال، ولا شريك له في ذلك وجودًا، ولا يُتصور أن يكون ذلك إمكانًا، فلا جَرَم لا تكون في حبه شركةٌ، فلا يتطرَّق النقصان إلىٰ حبه، كما لا تتطرَّق الشركة إلىٰ صفاته، فهو المستحق إذًا لأصل المحبة، ولكمال المحبة استحقاقًا لا يساهم فيه أصلاً)** أي لا يشارك، وهذه[1] الخواص الإلهية ليست إلا لله تعالىٰ، ولا يعرفها إلا الله تعالىٰ، فلا جَرَم لا يُتصور أن يعرفها إلا هو أو مَن هو مثله، وإذا لم يكن له مِثل فلا يعرفها غيره، وهذا يشوِّش قلوبَ أكثر الضعفاء ويوهم [عندهم] القول بالتعطيل، وذلك لعجزهم عن فهم هذا الكلام. والله الموفِّق.

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٤٧ – ٤٨.

بيان أن أجلَّ اللذات وأعلاها معرفةُ الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، وأنه لا يُتصور أن يؤثر عليها لذةً أخرى إلا مَن حُرِم هذه اللذة

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ **(أن اللذات)** بأسرها **(تابعة للإدراكات، والإنسان)** بحقيقته **(جامع لجملة من القوىٰ والغرائز)** خُلقت فيه لتمام حقيقته الإنسانية **(ولكل قوة وغريزة)** منها **(لذة)** يدرك بها الملائمَ من حيث إنه الملائم **(ولذتها في نيلها لمقتضَىٰ طبعها الذي خُلقت له، فإن هذه الغرائز ما رُكِّبت في الإنسان عبثًا)** لا فائدة فيها ولا حكمة **(بل رُكِّبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع، فغريزة الغضب خُلقت للتشفِّي والانتقام)** من المغضوب عليه **(فلا جَرَم لذتُها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضَىٰ طبعها. وغريزة شهوة الطعام مثلاً خُلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام)** للبدن **(فلا جَرَم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضَىٰ طبعها، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم)** وكذلك[١] حصول المرجوِّ عند القوة الوهمية والأمور الماضية عند القوة الحافظة يلتذُّ بتذكُّرها **(فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة)** فما كان ملائمًا يسمَّىٰ لذة، وما لا فألمًا، وكل ذلك **(بالإضافة إلىٰ مدرَكاتها، فكذلك في القلب غريزة تسمَّىٰ النور الإلهي)** والفيض القدسي **(لقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾** [الزمر: ٢٢] فذلك النور هو الذي ينفسح له الصدر فيتنوَّر بأشعَّة **(وقد تسمَّىٰ: العقل)** وقد تسمَّىٰ: عين القلب، وقد تسمَّىٰ: الروح، وقد تسمَّىٰ: النفس الإنساني **(وقد تسمَّىٰ: البصيرة الباطنة، وقد تسمَّىٰ: نور الإيمان**

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٢٠١.

واليقين) وكل ذلك تعبيرات عن عين في القلب منزَّهة عن نقائص العين الظاهرة **(ولا معنىٰ للاشتغال بالأسامي)** المختلفة **(فإن الاصطلاحات مختلفة)** ولا مشاحَّة فيها **(والضعيف)** البصيرة ربما **(يظن أن الاختلاف واقع في المعاني)** فيتوهَّم كثرتها بكثرة أساميها **(لأن الضعيف)** شأنه أبدًا **(يطلب المعاني من الألفاظ، وهو عكسُ الواجب)** فإنَّ دائرة المعاني أوسع من دائرة الألفاظ، فلا تكاد الألفاظ تحيط بها كما ينبغي **(فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها تُدرَك المعاني التي ليست متخيَّلة ولا محسوسة كإدراكه خلق العالَم أو افتقاره إلىٰ خالق قديم مدبِّر حكيم موصوف بصفات الإلهية، ولنسمِّ تلك الغريزةَ عقلاً)** متابعةً للجمهور في الاصطلاح، ونعني به المعنىٰ الذي يتميَّز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن المجنون وعن البهيمة **(بشرط أن لا يُفهَم من لفظ «العقل» ما تُدرَك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم «العقل» بهذا)** وسمَّوا العلوم المحصَّلة من طريقه بالمعقولات **(ولهذا ذمَّه بعض الصوفية)** لِما يطرأ في تلك العلوم التي طريقها العقل من الخيالات والأوهام والاعتقادات ما يكون سببًا لفاحش أغلاطهم **(وإلا فالصفة التي فارق الإنسانُ بها البهائمَ)** والأطفال والمجانين **(وبها يدرك معرفة الله تعالىٰ أعزُّ الصفات)** وأنفَسها وأعلاها، وهي الحقيقة بأن تسمَّىٰ باسم النور، وأَولىٰ بهذه التسمية من العين الظاهرة **(فلا ينبغي أن تُذَم)** ولا يُنسَب إليها النقص **(وهذه الغريزة خُلقت ليُعلَم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضَىٰ طبعها المعرفة والعلم، وهي لذتها، كما أن مقتضَىٰ سائر الغرائز هو لذتها، وليس يخفَىٰ أن في العلم والمعرفة لذة)** هي أنفس اللذائذ وأعلاها **(حتىٰ إن الذي يُنسَب إلىٰ العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، والذي يُنسَب إلىٰ الجهل ولو في شيء حقير يغتمُّ به، وحتىٰ إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدِّي بالعلم)** أي المباراة ومنازعته الغلبة به **(والتمدُّح به)** بين الناس **(في الأشياء الحقيرة، فالعالِم باللعب بالشطرنج علىٰ خسَّته)** وقلة قدره **(لا يطيق السكوتَ فيه عن التعليم، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإنَّ العلم من أخصِّ صفات الربوبيَّة،**

وهي منتهىٰ الكمال) وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم (ولذلك يرتاح الطبع إذا أُثني عليه بالذكاء وغزارة العلم؛ لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمالَ ذاته وكمال علمه فيُعجَب بنفسه ويلتذُّ به) ويرتاح إليه (ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة المُلك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر) والأدب (كلذة العلم بالله تعالىٰ وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم) فإن كان المعلوم شريفًا كان العلم به أشرف (حتىٰ إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس) وأسرارهم الخفيَّة (ويخبر بذلك يجد له لذة) ويرتاح إليه (وإن جهلَه تقاضاه طبعُه أن يفحص عنه) ويبحث ليحصِّله (فإن علم بواطنَ أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك) ومَن في معناهما (فإن اطَّلع علىٰ أسرار الوزير وتدبيره) ودقائق حركاته (وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهىٰ عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس) لرفعة منزلة الوزير علىٰ الرئيس (فإن كان خبيرًا بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي علىٰ الوزير) والحاكم عليه (كان ذلك أطيب عنده وألذ من اطِّلاعه بباطن أمور الوزير، وكان تمدُّحه بذلك وحرصه عليه وعلىٰ البحث عنه أشد، وحبه له أكثر؛ لأن لذته فيه أعظم) وهذا كله مراتب مرتَّبة بعضها علىٰ بعض (فبهذا استبانَ أن ألذَّ المعارف أشرفُها، وشرفها بحسب شرف المعلوم) كما تقدم (فإن كان في المعلومات ما هو الأجلُّ والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها، وليت شِعري هل في الوجود شيء أجلُّ وأعلىٰ وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلِّها) وموجِدها (ومكمِّلها ومزيِّنها ومبدئها ومعيدها ومدبِّرها ومرتِّبها) علىٰ أبدع ترتيب (وهل يُتصوَّر أن تكون حضرة في المُلك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم) وأجلَّ (من الحضرة الربَّانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها) وعِظَمها (وعجائب أحوالها وصفُ الواصفين) وإن بالغوا (فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع علىٰ أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية

المحيطة بكل الموجودات هو أعلىٰ أنواع المعارف والاطِّلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرَىٰ ما تستبشعر به النفوس عند الاتِّصاف به كمالَها وجمالها، وأجدر ما يعظُم به الفرحُ والارتياح والاستبشار، وبهذا يتبيَّن أن العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالىٰ وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته من منتهَىٰ عرشه إلىٰ تخوم الأرضين، فينبغي أن يُعلَم أن لذة المعرفة أقوىٰ من سائر اللذات، أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس) الظاهرة والباطنة (فإنَّ اللذات مختلفة بالنوع أولاً كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع، ولذة المعرفة للذة الرياسة. وهي مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشَّبَق للمغتلم) أي الهائج الشهوة (من الجماع للذة الفاتر الشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلىٰ الوجه) الحسن (الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلىٰ ما دونه في الجمال، وإنما تُعرَف أقوىٰ اللذات بأن تكون مؤثَرة علىٰ غيرها، فإنَّ المخيَّر بين النظر إلىٰ صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلىٰ الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج علىٰ اللعب وترك الأكلَ، فيُعلَم به أن لذة الغلبة) علىٰ قرنه (في الشطرنج أقوىٰ عنده من لذة الأكل) ولولا ذلك لترك اللعب واشتغل بالأكل (فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات، فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلىٰ ظاهرة كلذَّة الحواس الخمس) من إبصار واستماع وشم وذوق ولمس (وإلىٰ باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها؛ إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق، والمعاني الباطنة) أقوىٰ و(أغلب علىٰ ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خُيِّر الرجل بين لذة الدجاج المسمَّن واللوزينج) وهو الحلوىٰ المتخَذة من السكر واللوز (وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخيَّر خسيس الهمَّة) دنيئها (ميت القلب شديد البهيميَّة اختار اللحم والحلاوة، وإن كان عَلِيَّ الهمَّة) رفيعها حيَّ القلب (كامل العقل) منوَّر البصيرة (اختار الرياسة) والغلبة والاستيلاء (وهان عليه الجوعُ والصبر عن ضرورة القوت أيامًا

كثيرة، فاختياره للرياسة يدل علىٰ أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة. نعم، الناقص الذي لم تكمُل معانيه الباطنة بعدُ كالصبي أو كالذي ماتت قُواه الباطنة كالمعتوه لا يبعُد أن يؤثِر لذةَ المطعومات علىٰ لذة الرياسة) بمقتضَىٰ طبعهما (وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلبُ اللذات علىٰ مَن جاوز نقصانَ الصِّبا والعَتَه فلذة معرفة الله ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلىٰ أسرار الأمور الإلهية) بعين البصيرة (ألذ من الرياسة التي هي أعلىٰ اللذات الغالبة علىٰ الخلق) والعبارة عن هذه اللذة عسرة (وغاية العبارة عنه أن يقال) كما أخبر عنه الله تعالىٰ: (﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧] و) كما أخبر عنه رسوله ﷺ: (أنه أعدَّ لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر) وذلك فيما قاله حاكيًا عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ...» الحديث، رواه البخاري من حديث أبي هريرة (وهذا الآن لا يعرفه إلا مَن ذاق اللذتين جميعًا فإنه لا محالة يؤثِر التبتُّلَ والتفرُّد) عن الخَلق (والفكر والذِّكر) ويرابط قلبه علىٰ المراقبة (وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة) والاستعلاء (ويستحقر الخلق الذين يرأسهم) ويعلو عليهم (لعلمِه بفناء رياسته وفناء مَن عليه رياسته وكونه مشوبًا بالكدورات التي لا يُتصور الخلو عنها) ولا عن القدرة (وكونه مقطوعًا بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾) أي أرض الوجود (﴿زُخۡرُفَهَا﴾) أي زينتها (﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾) أي تلألأت بكمال بهجتها (﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾) وتمام الآية: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: ٢٤] والمراد بإتيان الأمر هو الموت (فيستعظم بالإضافة إليها لذةَ معرفة الله تعالىٰ ومطالعة صفاته) العليَّة (وأفعاله) ومعاملاته مع عبيده (ونظام مملكته من أعلىٰ عِلِّيِّين إلىٰ أسفل السافلين، فإنها خالية عن المزاحمات) والمدافعَات (والمكدِّرات، متَّسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم لكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدَّرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض) وإنما خصَّ العرض دون الطول لأن الطول تابع للعرض، أو

لأن العرض أقل من الطول، فإذا كان عرضها هكذا فما بالك بطولها (يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمِن من انقطاعها؛ إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة) فما من ثمرة يقطفها إلا وينبُت مكانَها مثلها وأحسن منها، ولا حرج علىٰ قاطفها (ثم هي أبديَّة سرمدية لا يقطعها الموت؛ إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالىٰ، ومحلُّها الروح الذي هو أمر ربانيٌّ سماوي، إنما الموت يغيِّر أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها) ويجرِّدها عنها (ويخليها من حبسها، فأما أن يعدمها فلا) قال الله تعالىٰ: (﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ الآية) وتمامها: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠] (ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة، فإنَّ للعارف بكل نفَس درجة ألف شهيد) في المعركة (وفي الخبر: إن الشهيد يتمنىٰ في الآخرة أن يُرَدَّ إلىٰ الدنيا فيُقتَل مرةً أخرىٰ؛ لعِظَم ما يراه من ثواب الشهادة) رواه الشيخان(١) من حديث أنس، وقد تقدم (و) في الخبر أيضًا: (إن الشهداء يتمنَّون لو كانوا علماء لِما يرونه من علو درجة العلماء. فإذًا جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوَّأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلىٰ أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيِّق بعضُهم علىٰ بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة متنزَّهاتهم بقدر تفاوتهم في اتِّساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوتُ درجاتهم، فقد ظهر أن لذة الرياسة - وهي باطنة - أقوىٰ في ذوي الكمال من لذات الحواس كلِّها، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه) إذ لا عقل لهم (وأن لذَّة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسةَ) علىٰ غيرها من اللذات (فأما معنىٰ كون

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٣٠٥، ٣١٠ - ٣١١. صحيح مسلم ٢/ ٩٠٩.

معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار مُلكه أعظم لذةً من الرياسة فهذا يختصُّ بمعرفته مَن نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند مَن لا قلب له؛ لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع علىٰ لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان، ولا رجحانه علىٰ لذة شم البنفسج عند العِنِّين؛ لأنه فقد الصفةَ التي بها تُدرَك هذه اللذة، ولكن مَن سَلِمَ من آفة العنَّة وسَلِمت حاسةُ شمِّه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقىٰ إلا أن يقال: مَن ذاق عرف) وفي مفهومه: مَن لم يذقْ لم يعرف. كما قيل:

ولـو يـذوق عاذلـي صبابتـي ... صبـا معـي لكنـه مـا ذاقهـا[١]

وفي أول قصيدة ابن عُنَين:

مَن ذاق طعـم شـراب القـوم يدريه ... ومَـن دَراه غـدًا بالـروح يشـريه[٢]

(ولعَمْري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشُّبهات التي قويَ حرصُهم علىٰ طلبها) والبحث عنها **(فإنها أيضًا معارف وعلوم، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية، فأما مَن طال فكرُه في معرفة الله سبحانه)** وكثرت مزاولتُه فيها **(وقد انكشف له من أسرار مُلك الله ولو الشيء اليسير)** والقدر القليل **(فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح)** والارتياح **(ما يكاد يطير به، ويتعجَّب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره، وهذا ممَّا لا يُدرَك إلا بالذوق)** العِرفاني الذي هو أعلىٰ مراتب الوجد **(والحكاية فيه قليلة الجدوَىٰ)** أي الفائدة **(فهذا القدر ينبِّهك علىٰ أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها)** وقد دلَّ علىٰ ذلك كلامُ المشايخ **(ولهذا قال أبو سليمان الداراني)**

---

(١) تقدم هذا البيت غير مرة.

(٢) تقدم هذا البيت في كتاب ذم الغضب والحسد، وأن قائله هو ناصر الدين محمد بن عبد الدائم المعروف بابن بنت الميلق.

رحمه الله تعالىٰ: (**إن لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله خوفهم النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله**)[1] نقله صاحب القوت.

(**ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي**) قُدِّس سره له: (**أخبِرْني**) عنك (**يا أبا محفوظ**) وهي كنية معروف (**أيُّ شيء هاجَك إلىٰ العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت، فقال**) أي ذلك البعض: (**ذِكرُ الموت؟ فقال: وأيُّ شيء الموت؟ فقال: ذِكر القبر والبرزخ؟ قال: وأيُّ شيء القبر والبرزخ؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأيُّ شيء هذا؟ إنَّ ملكًا هذا كله بيده إن أحببتَه أنساك جميعَ ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميعَ هذا**) نقله صاحب القوت، وزاد فقال: وحُدِّثت عن عبد الوهاب الحجبي قال: رأيت أحمد بن نصر الخزاعي في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أدخلني عليه في داره، وبسط لي حصيرًا من لؤلؤ رَطْب عن يمينه، وقال: يا أحمد، قُتلتَ فيَّ وصبرت لي. فقلت: نعم يا رب. فقال: ها أنا ذا أنزل إليك حتىٰ تنظر إلىٰ وجهي[2]. جلَّ جلال وجه ذي الجلال.

(**وفي أخبار عيسىٰ** عليه السلام: **إذا رأيتَ الغني مشغولاً**) ولفظ القوت: مستغرقًا (**بطلب الرب تعالىٰ فقد ألهاه ذلك عمَّا سواه**)[3] زاد في القوت: والمحب لله يحب النَّصَب لله تعالىٰ[4].

---

(١) تقدم هذا الأثر بلفظ: «إن من خلق الله خلقا ما تشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشغلون عنه بالدنيا».

(٢) هذه القصة رواها أبو الفضل الزهري في جزئه ص ٤٩٤ (ط - أضواء السلف) من طريقين.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٤٥ عن وهيب بن الورد قال: بلغني أن عيسىٰ عليه السلام قال: إذا أنت دخلت في الرهبة لله وروحانية الأبرار ومهيمنية الصديقين لم تكد تلقىٰ أحدا تأخذه عينك ولا تلحقه نفسك، وأنت ترىٰ التقي إن أنت رأيته واله القلب مشغولا في طلب مرضاة الرب قد ألهاه ذلك عما سواه.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٦٣ من قول مالك بن دينار. وروىٰ في موضع آخر ٦/ ٩٣ عن ثور بن يزيد الكلاعي قال: قرأت في التوراة: إن القلب المحب لله عز وجل يحب النصب لله عز وجل.

(ورأىٰ بعضُ الشيوخ) أبا نصر (بشر بن الحارث) الحافي قُدِّس سره (في النوم) ولفظ القوت: وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الحربي وغيره أنه رأىٰ بشر بن الحارث في النوم (فقال): فقلت له: (ما فعل أبو نصر التَّمَّار) هو[١] عبد الملك ابن عبد العزيز القُشَيري النسائي، ثقة، عابد، مات سنة ثمان وعشرين ومائتين وهو ابن إحدىٰ وتسعين سنة، روىٰ له مسلم والنسائي (وعبد الوهاب) بن[٢] عبد الحكم بن نافع، أبو الحسن (الورَّاق) البغدادي، ثقة، مات سنة خمسين ومائتين، روىٰ له أبو داود والترمذي والنسائي (قال: تركتُهما الساعةَ بين يدي الله يأكلان ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم اللهُ قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه)[٣] كذا في القوت.

(وعن) أبي الحسن (علي بن الموفَّق) تقدم ذِكره في كتاب الحج (قال: رأيت في النوم كأنِّي أُدخِلتُ الجنة، فرأيت رجلاً قاعدًا علىٰ مائدة، وملَكان عن يمينه وشِماله يلقمانه من جميع الطيِّبات، وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائمًا علىٰ باب الجنة يتصفَّح وجوهَ الناس فيُدخِل بعضًا ويردُّ بعضًا. قال: ثم جاوزتهما إلىٰ حظيرة القدس) وهو موضع في أعلىٰ الجنة عن يمين العرش (فرأيت في سرادق العرش) أي في الخيمة المحيطة به (رجلاً قد شخصَ ببصره ينظر إلىٰ الله تعالىٰ لا يطرف، فقلت لرضوان: مَن هذا؟ قال: هذا معروف الكرخي، عبدَ اللهَ لا خوفًا من ناره ولا شوقًا إلىٰ جنَّته بل حبًّا له، فأباحه الله النظرَ إليه إلىٰ يوم القيامة. وذكر أن الآخَرينِ بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل) نقله صاحب القوت، قال: وهذا مقام الأبدال من الصدِّيقين، لا يُقامون مقامَ أبدال الأنبياء إلا بعد صفاء اليقين وحُسن المعرفة،

(١) تقريب التهذيب ص ٦٢٤.

(٢) السابق ص ٦٣٣.

(٣) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٥٠٩ والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٢٨٦، ولكن عندهما: أحمد بن حنبل، بدل أبي نصر التمار.

فأول نصيبهم من الله نظرُهم إليه، فيجمع لهم بأول نظرة من النعيم والسرور ما لا يوصَف جميع ما فرَّقه في الجنان كلِّها من اللذة والسرور والنعيم والحبور، وفي النظرة الثانية فوق ذلك، وفي النظرة الثالثة أعلىٰ من ذلك، وليس من الله حدٌّ ولا عدد، ولهم أنصبة من وراء النظر أضعافًا مضاعَفة لا يعرفها سواهم، ولا يسع ذِكرُها إلا لهم، ولا يُطلَب بها أحد دونهم، لا يسع ذِكرُها في كتاب، ولا تجوز تسميتها بخطاب إلا لأهلها السائلين عنها، الطالبين لها، الراغبين فيها، هي من سر الجبروت ونهاية الرغبوت، ولا يبلغون دَرَج الصدِّيقين ولا يعطَون منازل الشهداء حتىٰ تغلب محبةُ الله علىٰ قلوبهم في كل حال، فيتألَّهون إليه، ويذهلون به عن غيره، وينسون في ذِكره مَن سواه، هو مذكورهم بذكره، ومأواهم بظلِّه، فالمحبُّون لله هم المخلصون نفوسهم لوجهه حقًّا فيعبدونه لأجله صِرفًا، وهم المقرَّبون، ونعيمهم في الجنان صِرفٌ، ويُمزَج لأهل المزج وهم أصحاب اليمين، كذلك كانوا في الدنيا، تحسُن علومُهم بعلمهم، وترتفع أعمالهم بمشاهدتهم، ويجدون المزيد في نفوسهم بقربهم منه ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقد قال عز وجل: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝﴾ [النبأ: ٢٦] أي وافق أعمالهم جزاؤهم. وقال: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي يعطيهم غدًا كوصفهم في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [الأنعام: ١٣٩] فمَن كان في هذه الدار اليوم نعيمه طيبات المُلك فكذلك غدًا يكون المُلك نعيمه، ومَن كان فيها نعيمه وروحه بالمُلك الطيب فهو غدًا في مقعد صِدق عنده.

(ولذلك قال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: **(مَن كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غدًا مشغول بنفسه، ومَن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غدًا مشغول بربِّه)** كذا في القوت.

(وقال) سفيان **(الثوري)** رحمه الله تعالىٰ **(لرابعة)** ابنة إسماعيل العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالىٰ، وكانت إحدىٰ المحبِّين، ماتت سنة ١٣٥، وكان الثوري يقعد بين يديها ويقول: علِّمينا ممَّا أفادكِ اللهُ من طرائف الحكمة. وكانت

تقول له: نِعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا. وقد كان الثوري زاهدًا عالمًا، إلا أنها كانت تجعل إيثار كَتْب الحديث والإقبال علىٰ الناس من أبواب الدنيا. وقال لها الثوري يومًا: لكل عقد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فـ(**ما حقيقة إيمانكِ؟ قالت: ما عبدتُه خوفًا من ناره ولا حبًّا لجنته فأكون كالأجير السوء**) إن خاف عملَ، أو إذا أُعطي عمل (**بل عبدتُه حبًّا له وشوقًا إليه**) وروىٰ عنها حماد بن زيد أنها قالت: إني لأستحي أن أسأل الدنيا مَن يملكها، فكيف أسألها مَن لا يملكها. فكان هذا جوابًا؛ لأنه قال لها: سليني حاجتَكِ[1]. وخطبها عبد الواحد بن زيد، فحجبته أيامًا حتىٰ سُئلت أن يدخل عليها، فقالت له: يا شهواني، اطلبْ شهوانية مثلك، أيَّ شيء رأيتَ فيَّ من آلة الشهوة. وخطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة علىٰ مائة ألف وقال: لي غلَّة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك. فكتبت إليه: ما يسرُّني أنك لي عبدٌ وأن كل ما لك لي وأنك شغلتني عن الله طرفة عين[2] (**و**) قد قالت (**في معنىٰ المحبة**) أبياتًا (**نظمًا**) تحتاج إلىٰ شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم، منهم سفيان الثوري وجعفر ابن سليمان الضبعي وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد، وهي هذه:

(أحبك حبينِ حب الهوىٰ ... وحبًّا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوىٰ ... فشغلي بذِكرك عمَّن سواك
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحُجُب حتىٰ أراك

---

(١) رواه الشجري في أماليه ٢/ ١٨٧ عن حماد بن زيد بلفظ آخر. وفي كتاب العلل ومعرفة الرجال عن الإمام أحمد رواية المروزي وغيره ص ٢٧٥ - ٢٧٦ (ط - الدار السلفية بالهند) عن أم محمد الخبطية قالت: قالت عشيرة رابعة لها: كلمي الأمير بأن يشتري دارا لعشيرتك يأوون إليها. فقالت: والله إني لأستحي ... الخ.

(٢) ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٧٩٧ مثل ذلك عن عابدة يقال لها: ألوف الموصلية، فروىٰ عن أبي سليمان الداراني قال: خطب رجل امرأة من أهل الموصل يقال لها ألوف، فقالت للرسول: قل له: ما يسرني ... الخ.

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك)[١]

وقد تكلم صاحب القوت علىٰ هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه مَن رُزِقه، وينكره مَن حُرِمه. والمصنف رحمه الله تعالىٰ أشار إلىٰ زبدة كلامه، فلنورد كلامه أولاً ثم كلام صاحب القوت. قال المصنف: (**ولعلَّها أرادت بحب الهوىٰ حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لِما هو أهلٌ له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها، وهو أعلىٰ الحبينِ وأقواهما**) فقد أشار بذلك إلىٰ أن كلامها يدل علىٰ أن المحبة بهذا السبب أقوىٰ الأسباب وأثبتها دوامًا. وأما صاحب القوت فقال: فأما قولها «حب الهوىٰ» وقولها «حب أنت أهل له» وتفرقتها بين الحبينِ فإنه يحتاج إلىٰ تفصيل حتىٰ يقف عليه من لا يعرفه، ويخبره مَن لم يشهده، وفي تسميته ونعت وصفِه إنكارٌ من ذوي العقول ممَّن لا ذوق له منه ولا قدم له فيه، ولكنا نجمل ذلك وندل عليه مَن عرفه. معنىٰ «حب الهوىٰ» أي رأيتك فأحببتك عن مشاهدة [عين] اليقين لا عن خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان فتختلف محبتي إذا تغيَّرت الأفعال لاختلاف ذلك عليَّ، ولكن محبتي من طريق العيان، فقربت منك وهربت إليك واشتغلت بك لمَّا تفرَّغت لك، كما قال المحب:

فرَّغت قلبَها اشتغالاً بذكري وكذا كل فارغٍ مشغولُ[٢]

وعلىٰ هذا المعنىٰ [مجاز] قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي ملآن بذكره حتىٰ فاض فكادت أن تظهره فتقول: هو ابني، فعبَّر عن الملء بالفراغ من ضده، لولا أن أوكينا عليه بربطنا فكظمت، ولو لم تفعل

---

(١) هذه الأبيات أوردها أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٤٨ عن امرأة مجهولة التقاها ذو النون المصري في تيه بني إسرائيل. وأوردها الكلاباذي في التعرف لأهل التصوف ص ١٢٩ وقال: أنشدونا لبعضهم ... فذكرها.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

لأظهرتْ، ولو أظهرتْه لقُتل. وأما الحب الثاني الذي هو أهلٌ له فتعني حب التعظيم والإجلال لوجه الله العظيم ذي الجلال، تقول: ثم إني مع ذلك لا أستحق علىٰ هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك في الآخرة علىٰ الكشف والعيان في محل الرضوان؛ لأن حبي لك لا يوجب عليك جزاءً عليه، بل يوجب علىٰ كل شيء ممَّا لا أطيقه ولا أقوم بحقِّك فيه أبدًا؛ إذ كنت قد أحببتك فلزمني خوف التقصير، ووجب عليَّ الحياءُ من قلة الوفاء، والخوف لِما تعرَّضتُ به من حبِّك؛ إذ ليس كمثلك شيء، كما قال المحب:

أصبحتُ صبًّا ولا أقول بمَن ... خوفًا لمَن لا يخاف من أحد
إذا تفكَّرتُ في هواي له ... لمستُ رأسي هل طار عن جسدي(١)

لولا أن الحب يُنطِق والشوق يُقلِق والوجد يحرق فالمحب لا يُلام لغَيبة النفس عنه والأنام، تقول: فتفضَّلتَ عليَّ بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضُّلك فأريتني وجهَك عندك آخرًا كما أريتنيه اليوم عندي أولاً، فلك الحمد علىٰ ما تفضَّلتَ به في [ذا عندي في الدنيا، ولك الحمد علىٰ ما تفضَّلت به في ذاك] عندك في الآخرة، ولا حمد لي في ذا ههنا، ولا حمد لي في ذاك هناك؛ إذ كنتُ إنما وصلتُ إليهما بك، فأنت المحمود فيهما؛ لأنك وصلتني بهما. فهذا الذي فسَّرناه هو وجدُ المحبِّين المحقِّين. وقد كانت تذكر الأنس في وجدها وترتفع إلىٰ وصف معنًىٰ من الخُلَّة في قولها السائر:

إني جعلتك في الفؤاد محدِّثي ... وأبحتُ جسمي مَن أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي(٢)

---

(١) البيتان لأبي نواس، وهما في ديوانه ٤/ ١٩٥.

(٢) البيتان في: معجم ابن المقرئ ص ٥٤. تاريخ دمشق لابن عساكر ٦٩/ ١١٨. البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٩٣٣. مرآة الجنان لليافعي ١/ ٢٢١. عوارف المعارف للسهروردي ص ١٢٣. صفة الصفوة لابن الجوزي ص ٨٥٩. وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧.

ومن قولها النادر في مقام الخُلَّة:

وتخلَّلتَ مَسلك الروح مني ... به سُمِّي الخليل خليلاً

فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا[١]

وقد أهَّلَ ذلك لها كلُّ مَن نقله عنها من العلماء ووصفوها به، فوصفنا من نعت المحبين بعضَ ما يصلُح من معنىٰ كلامها؛ لأنَّا ظننا بقولها ذلك؛ إذ كان لها في المحبة قدمُ [صدقٍ] ولا يسعنا أن نشرح في كتاب حقيقةَ كشفِ ما أجملناه، ولا أن نفصِّل وصف ما ذكرناه، ومَن لم يكن من المحبين كذلك حتىٰ لا يُدِلَّ بمحبته ولا يقتضي الجزاءَ عليها من محبوبه ولا يوجب علىٰ حبيبه شيئًا لأجل محبته فهو مخدوع بالمحبة ومحجوب بالنظر إليها، وإنما ذلك مقام الرجاء الذي ضده الخوف، وليس من المحبة في شيء، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت في المحبة. وقال بعض العارفين: ما عرفه مَن ظن أنه عرفه، ولا أحبَّه مَن توهَّم أنه أحبه.

هذا كله كلام صاحب القوت.

(ولذَّة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبَّر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيًا عن ربِّه تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين) أي لحضرتي من الجزاء **(ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر)** رواه أحمد[٢] والشيخان[٣] والترمذي[٤] وابن ماجه[٥] من حديث أبي هريرة. ورواه ابن جرير[٦] من حديث

---

(١) ينسب هذان البيتان لبشار بن برد، وهما في ديوانه ٤/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) مسند أحمد ١٣/ ٤٨٩، ١٥/ ٤٠٧، ١٦/ ٧١، ٢٦٥.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٤٣٢، ٣/ ٢٧٦، ٤/ ٤٠٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٩٨.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٢٥٦، ٣٢٢.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٩٢.

(٦) جامع البيان ١٨/ ٦٢٢ - ٦٢٣.

أبي سعيد وعن قتادة مرسلاً، ورواه ابن جرير أيضًا عن الحسن بلاغًا بلفظ: «قال ربُّكم: أعددتُ لعبادي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ علىٰ قلب بشر».

(**وقد تُعجَّل بعض هذه اللذات في الدنيا لمَن انتهىٰ صفاء قلبه إلىٰ الغاية، ولذلك قال بعضهم: إني**) لأجدُ الحضورَ فـ (**أقول: يا رب، أو: يا الله، فأجد ذلك أثقل علىٰ قلبي من الجبال**) قيل له: ولِمَ؟ قال: (**لأن النداء يكون من وراء الحجاب، وهل رأيتَ جليسًا ينادي جليسه**)؟ إنما هي إشارات وملاحظات ومناغات وملاطفات، فصاحب هذا المقام ممَّن عُجِّلت له هذه اللذة، وقد صدق فيما قال، فإن النداء لا يكون إلا للغائب، ومَن كان الذي يناديه جليسَه وأنيسَه فيستغني عن ندائه، كيف وهو مستغرق الهم به، ويُستأنَس له بما جاء في الخبر: «قال الله تعالىٰ: يا موسىٰ، أنا جليس مَن ذكرني». ويشبه أن يكون هذا مقام رابعة قدَّس الله سرها إذ قالت:

* وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي *

وقال صاحب القوت عقيب الكلام السابق: إلا أنه مستبعَد أن يقول، ومأخوذ عليه أن يكون فقيهًا بما يقول، ولا يخرج من موضع القُرب وإن وقع عليه الحكم بالقول والفعل، ولكل مقام مع الله تعالىٰ فقه خفيٌّ، ولكل عالِم بالله اللطيف علم لطيف غريب.

(**وقال بعضهم: إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغايةَ رماه الخَلق بالحجارة**) كما في القوت، ولفظه: ولقد قال لي رجل من أهل المعرفة: إذا بلغ أحدهم من هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة (**أي يخرج كلامه عن حدِّ عقولهم فيرون ما يقوله جنونًا أو كفرًا**) زاد صاحب القوت فقال: وقال آخَر: إذا تناهت معارفُهم انتهت إلىٰ حيرة ودهشة. انتهىٰ. ومن ذلك قول ابن عباس: لو فسَّرتُ لكم آية كذا

- وسمَّاها - لرميتموني بالحجارة. أي لقلتم بكفري، فإنه لا يُرجَم بالحجارة إلا مَن ارتدَّ عن دينه (فمقصد العارفين كلِّهم وصلُه ولقاؤه فقط، فهي قرَّة العين التي لا تعلم نفسٌ ما أُخفيَ لهم منها) من أنواع الأنصبة (وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها، وصار القلب مستغرقًا بنعيمها، فلو أُلقي في النار لم يحسَّ بها) ولم يدرك لها ألمًا (لاستغراقه) بكلِّيَّته (ولو عُرِض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه) أصلاً (لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية) ولا بعدها مرمىٰ (وليت شِعري مَن لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ، وما له صورة ولا شكل) تعالىٰ الله عن ذلك (وأيُّ معنًىٰ لوعد الله تعالىٰ به عباده وذِكره أنه أعظم النعم، بل مَن عرف الله عرف أن اللذات المفرَّقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة) وهذا هو معنىٰ الحب الأول الذي أشارت إليه رابعة قدَّس الله سرَّها (كما قال بعضهم[١]) أي من المحبين مشيرًا إلىٰ هذا المقام:

(كانت لقلبي أهواء مفرَّقة ... فاستجمعتُ مذ رأتك العينُ أهوائي)

أي كانت لي قبل ذلك أهواء متفرقة، فلمَّا رأيتك اجتمعتْ كلُّها، فصِرتَ أنت كلية القلب وجملة المحبة وأنسيتني ما سواك. وإليه يشير قول القائل:

وأنت جمعتَ من قلبي ... هوًىٰ قد كان مشتركًا[٢]

(فصار يحسدني مَن كنت أحسده ... وصِرت مولىٰ الوَرَىٰ مذ صرت مولائي

تركتُ للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم) أي من المحبين مشيرًا إلىٰ هذا المقام:

---

(١) هو الحلاج، والأبيات في ملحق ديوانه ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٢) تقدم هذا البيت مع بيتين آخرين في قصة لذي النون المصري في كتاب السماع، وفي كتاب ذم الجاه والرياء.

(وهجرُه أعظم من ناره ووصلُه أطيب من جنته[1]

وما أراد بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالىٰ علىٰ لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتُّع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط) وبه تمتُّعه (ومثال أطوار الخَلق في لذَّاتهم) هو (ما نذكره) هنا (وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه تظهر فيه غريزة بها يستلذُّ اللعب واللهو حتىٰ يكون ذلك عنده ألذَّ من سائر الأشياء) فإذا خُلِّي وطبعه مال إلىٰ ما جُبِل عليه (ثم تظهر) فيه (بعده) غريزة أخرىٰ بها يدرك (لذةَ الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب) فيشتغل بها (فيستحقر معها لذةَ اللعب) الذي كان يميل إليه ويحبه (ثم تظهر) فيه (بعده) غريزة أخرىٰ يدرك بها (لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها) من اللعب والزينة (في الوصول إليها. ثم تظهر) فيه (بعده) غريزة أخرىٰ يدرك بها (لذة الرياسة والعلو والتكاثُر) بالأموال والأولاد (وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها) ولذا كانت آخر ما يخرج من دماغ الإنسان من لذَّات الدنيا، هي كما قال بعضهم: أما العلو ففي النفس منه شيء (كما قال تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ الآية) [الحديد: ٢٠] فقد أشار فيه إلىٰ تلك المقامات الثلاث (ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرىٰ يدرك بها لذة معرفة الله تعالىٰ ومعرفة أفعاله) ومعاملاته (فيستحقر معها جميعَ ما) مرَّ (قبلها) من اللذات (فكل متأخر فهو أقوىٰ، وهذا هو الأخير؛ إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز، وحب النساء والزينة في سن البلوغ، وحب الرياسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين، وهي الغاية العليا) وما بعد العلوم والمعارف شيء (وكما أن الصبي يضحك علىٰ مَن يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلبِ الرياسة، فكذلك الرؤساء يضحكون علىٰ مَن يترك الرياسة

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت، وهو مع بيت آخر قبله هو:

امتحن الله به خلقه فالنار والجنة في قبضته

في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٢٦٦، وتفسير القرطبي ٢١/ ٢١، ونفح الطيب للتلمساني ٢/ ٣٩.

ويشتغل بمعرفة الله تعالىٰ، والعارفون يقولون: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون) إذا[1] كُشِفَ الغطاء، وارتفع الحجاب، وتحقَّقت الحقائق، وتنجلي الأسرار، ويصادف كلُّ واحد ما قدَّم من خير أو شر محضَرًا، ويشاهد كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضرًا، وعنده يقال له: فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد.

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٥٠.

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

(اعلمْ) هداكَ الله تعالىٰ (أن المدرَكات تنقسم إلىٰ ما يدخل في الخيال) وهي قوة تحفظ ما يدركه الحسُّ المشترَك (كالصور المتخيَّلة والأجسام المتلوِّنة والمتشكِّلة من أشخاص الحيوان والنبات، وإلىٰ ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالىٰ وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها) من صفات المعاني (ومَن رأىٰ إنسانًا ثم غضَّ بصره وجد صورته حاضرةً في خياله) بعد غيبوبة مادَّته بغضِّ البصر (كأنَّه ينظر إليها) بقوة الحس المشترَك (ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلىٰ اختلاف بين الصورتين؛ لأن الصورة المرئية تكون موافِقة للمتخيَّلة، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئيِّ صارت بالرؤية أتم انكشافًا ووضوحًا، وهو كشخص يُرَىٰ في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار، ثم رُؤي) وقتَ الضحوة (عند تمام الضوء، فإنه لا تفارق إحدىٰ الحالتين الأخرىٰ إلا في مزيد الانكشاف) وتمام الوضوح (فإذًا الخيال أول الإدراك) وهو خزانة الحس المشترك (والرؤية هي استكمال لإدراك الخيال) أي ما تخيَّله في تلك القوة (وهو غاية الكشف، وسُمِّي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف، لا لأنه في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المشكوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحقَّ أن يسمَّىٰ رؤيةً) فلا اختصاص للرؤية بالعين (وإذا فهمتَ هذا في المتخيَّلات فاعلمْ أن المعلومات التي لا تتشكَّل أيضًا في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان، إحداهما أولىٰ لها، والثانية استكمال لها، وبين الأولىٰ والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح) مثل (ما بين المتخيَّل والمرئيِّ، فيسمَّىٰ الثاني أيضًا بالإضافة إلىٰ الأول مشاهدةً ولقاء ورؤية، وهذه التسمية حق؛ لأن

الرؤية سُمِّيت رؤية لأنها غاية الكشف) وأصلها إدراك المرئيِّ، وهو علىٰ أضرُب بحسب قوة النفس **(وكما أن سنَّة الله تعالىٰ جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابًا بين البصر والمرئيِّ، ولا بد من ارتفاع الحُجُب لحصول الرؤية، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرَّد التخيُّل)** أي التصوُّر في الخيال **(فكذلك مقتضَىٰ سنَّة الله تعالىٰ أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضَىٰ الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية فإنها لا تنتهي إلىٰ المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار، والقول في سبب كونه حجابًا يطول)** ذِكرُه **(ولا يليق بهذا العلم)** فإنه من أسرار المكاشفات **(ولذلك قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام)** لمَّا طلب الرؤية (﴿لَن تَرَىٰنِي﴾) [الأعراف: ١٤٣] أي ما دمتَ محجوبًا بحجاب الحياة. وقال[1] سيدي عبد العزيز الدبَّاغ قُدِّس سره حين سُئل عن هذه الآية ما حاصله: أن سيدنا موسىٰ عليه السلام من أكابر أهل المشاهدة، ومشاهدة الذات العليَّة لا تخلُص لأهلها من مشاهدة أفعالها ولا تصفو عنها إلا لو كانت أفعال الذات العليَّة تنقطع، ولو انقطعت طرفة عين لانهدَّ الوجودُ واختلَّ نظام العالَم، فما من موجود إلا وفيه فعلُ الله، وهو مادَّته والسبب في بقائه، وهو الحجاب بينه وبين الذات العليَّة، ولو لا أنه تعالىٰ حجب ذواتنا بأفعاله فيها لاحترقت الذوات وذاب كلُّ حادث في العالَم، فلمَّا لم تَصْفُ المشاهدة لأهلها وصارت الأفعال المتقدمة بمنزلة القَذَىٰ في البصر سأل موسىٰ عليه السلام ربَّه أن يقطع عنه الفعل حتىٰ لا يحجبه عن مشاهدة الذات العليَّة علىٰ الصفاء، فقال له ربُّه عز وجل: إذا قطعت الفعل عن الحادث اختلَّت ذاتُه، وهذا الجبل أقوىٰ منك ذاتًا وأصلب منك جِرمًا فانظر إليه فإن استقرَّ مكانه بعد قطعِ فعلي عنه فسوف تراني، فلمَّا تجلَّىٰ ربُّه للجبل وقطع عنه الفعل الحاجب له عن سطوة الذات العليَّة تدكدك الجبل وتطايرت أجزاؤه حتىٰ صعق موسىٰ عليه السلام.

---

(١) الذهب الإبريز لأحمد بن مبارك ص ١٢٦ - ١٢٧.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] **أي في الدنيا**) لوجود الحجاب المانع من الرؤية (**والصحيح أن رسول الله ﷺ ما رأىٰ الله تعالىٰ ليلة المعراج**) قال العراقي[١]: هذا الذي صحَّحه المصنف هو قول عائشة، ففي الصحيحين[٢] أنها قالت: مَن حدَّثك أن محمدًا رأىٰ ربَّه فقد كذب. ولمسلم[٣] من حديث أبي ذر: سألتُ رسول الله ﷺ: أقد رأيتَ ربَّك؟ فقال: «نورٌ أنَّىٰ أراه». وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلىٰ إثبات رؤيته له، وعائشة لم تروِ ذلك عن النبي ﷺ. وحديث أبي ذر قال فيه أحمد: ما زلتُ له منكِرًا[٤]. وقال ابن خزيمة[٥]: في القلب من صحة إسناده شيء. وفي رواية لأحمد[٦] من حديث أبي ذر: «رأيتُه نورًا أنَّىٰ أراه». ورجال إسنادها رجال الصحيح.

قلت: ورواية[٧] أبي ذر الأولىٰ رواها كذلك الطيالسي[٨] والترمذي[٩] وابن حبان[١٠] وابن مردويه: هل رأيت ربَّك؟ قال ... فذكره. وروىٰ عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي ذر قال: رآه بقلبه، ولم يرَه بعينه.

---

(١) المغني ٢/ ١١٤٩.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٩، ٣/ ٢٩٨، ٤/ ٣٨٠. صحيح مسلم ١/ ٩٥.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٩٦.

(٤) رواه عنه أبو عوانة في مستخرجه علىٰ صحيح مسلم ١/ ١٢٩. وفي مختصر علل الخلال لابن قدامة ص ٢٨٠: «قال الأثرم: قيل لأبي عبد الله: حديث أبي ذر: نور أنىٰ أراه؟ فقال: ما أدري ما وجهه». وانظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤٥٣. كشف المشكل لابن الجوزي ١/ ٣٧٢. النهاية لابن الأثير ٥/ ١٢٤.

(٥) التوحيد ص ٥١١.

(٦) مسند أحمد ٣٥/ ٢٤١، ٣١١، ٣٩٣، ٤٢٠.

(٧) الدر المنثور ١٤/ ١٨ - ٢٤.

(٨) مسند الطيالسي ١/ ٣٨١.

(٩) سنن الترمذي ٥/ ٣١٧.

(١٠) صحيح ابن حبان ١/ ٢٥٥.

ورواه النسائي[١] مثله، إلا أنه قال: ولم يره ببصره. وقد رُوي عن أبي العالية مثله، كذا رواه ابن جرير[٢]. وأخرج عبد بن حميد والترمذي[٣] وابن جرير[٤] وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن الشعبي قال: لقي ابنُ عباس كعبًا بعرفة، فسأله عن شيء، فكبَّر حتىٰ جاوبته الجبالُ، فقال ابن عباس: إنَّا بني هاشم نزعم ونقول: إن محمدًا قد رأىٰ ربه مرتين. فقال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسىٰ عليهما السلام، فرآه محمد مرتين، وكلَّم موسىٰ مرتين. قال مسروق: فدخلتُ علىٰ عائشة فقلت: هل رأىٰ محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمتَ بشيء قفَّ له شعري. قلت: رويدًا. ثم قرأتُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨] قالت: أين يُذهَب بك؟ إنما هو جبريل، مَن أخبرك أن محمدًا رأىٰ ربه أو كتم شيئًا ممَّا أُمِر به أو يعلم الخمس التي قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٤٣] فقد أعظمَ الفريةَ، لكنه رأىٰ جبريل، لم يرَه في صورته إلا مرتين: مرة عند سِدرة المنتهَىٰ ومرة عند جياد له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق. وأما قول ابن عباس فرُوي عنه من طرق بألفاظ مختلفة، فعند الطبراني[٥] وابن مردويه عنه قال: إن محمدًا رأىٰ ربَّه مرتين: مرة ببصره، ومرة بفؤاده. وعند ابن مردويه عنه قال: إن النبي ﷺ رأىٰ ربه بعينه. وروىٰ الترمذي[٦] وحسَّنه والطبراني[٧] وابن مردويه والحاكم[٨] والبيهقي

---

(١) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٧٦.

(٢) في جامع البيان ٢٢/ ٢٤ من طريق أبي العالية عن ابن عباس.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٣١٥.

(٤) جامع البيان ٢٢/ ٣١.

(٥) المعجم الكبير ١٢/ ٩٠. وهو في صحيح مسلم ١/ ٩٤ بلفظ: رآه بفؤاده مرتين.

(٦) سنن الترمذي ٥/ ٣١٦. ولفظه: رأىٰ محمد ربه. قال عكرمة: أليس الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قال: ويحك! ذاك إذا تجلىٰ بنوره الذي هو نوره، وقد رأىٰ محمد ربه مرتين.

(٧) المعجم الكبير ١٠/ ٣٦٣، ١١/ ٢٤٣.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٢٤.

في الأسماء والصفات[١] عنه قال: قد رأىٰ النبي ﷺ ربَّه عَزَّوَجَلَّ. وروىٰ النسائي[٢] والحاكم[٣] وصحَّحه وابن مردويه عنه قال: أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم، والكلام لموسىٰ، والرؤية لمحمد عليهم السلام.

والكلام في المسألة طويل الذيل أورده شرَّاح الشفاء[٤]، فليراجَع.

(فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوَّثة بكدورات الدنيا، غير منفكَّة عنها بالكلِّية، وإن كانت متفاوتة، فمنها ما تراكم عليه الخبثُ والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكُم الخبث جوهرُها فلا تقبل الإصلاحَ والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربِّهم أبد الآباد، نعوذ بالله من ذلك) وإليهم يشير قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] **(ومنها ما لم ينتهِ إلىٰ حدِّ الرَّين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، فيُعرَض علىٰ النار عرضًا يقمع عنه الخبث الذي هو متدنِّس به)** ليصلُح للمشاهدة **(ويكون العرض علىٰ النار بقدر الحاجة إلىٰ التزكية، وأقلها لحظة خفيفة)** وإليه الإشارة في حديث المرور علىٰ الصراط: «كالبرق الخاطف» **(وأقصاها في حق المؤمنين - كما وردت به الأخبارُ - سبعة آلاف سنة)** قال العراقي[٥]: رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول[٦] من حديث أبي هريرة: «إنما الشفاعة يوم القيامة لمَن عمل الكبائر من أمَّتي ...» الحديث، وفيه: «وأطولُهم مكثًا فيها مثل الدنيا من يوم خُلِقت إلىٰ يوم القيامة، وذلك سبعة آلاف سنة». وإسناده ضعيف، وقد تقدم.

---

(١) الأسماء والصفات ٢/ ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٢) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٧٦.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٢٣، ٢/ ٣٣٨، ٥٥٢.

(٤) انظر: نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي ٣/ ١٢٢ - ١٤٤.

(٥) المغني ٢/ ١١٤٩.

(٦) نوادر الأصول ص ٤٣٠.

قلت: وهو حديث طويل، وهذا لفظه: «إنما الشفاعة يوم القيامة لمَن عمل الكبائرَ من أمَّتي ثم ماتوا عليها، فهم في الباب الأول من جهنم، لا تسود وجوههم، ولا تزرق أعينهم، ولا يغلَّون بالأغلال، ولا يُقرَنون مع الشياطين، ولا يُضرَبون بالمقامع [ولا يُطرَحون في الأدراك] منهم مَن يمكث فيها ساعة ثم يخرج، ومنهم مَن يمكث فيها يومًا ثم يخرج، ومنهم مَن يمكث فيها شهرًا ثم يخرج، ومنهم مَن يمكث فيها سنة ثم يخرج، وأطولهم مكثًا فيها يمكث مثل الدنيا من يوم خُلِقت إلىٰ يوم أُفنيتْ وذلك سبعة آلاف سنة ...» الحديث، وفيه ذِكرُ جماعة يخرجون من النار ويدخلون الجنة، وهم عُتَقاء الله من النار، إلا رجلاً واحدًا فإنه يمكث فيها بعدهم ألف سنة، ثم ينادي: يا حنَّان يا منَّان، فيبعث الله إليه ملَكًا ليخرجه ...» الحديث، وقد تقدم.

(**ولن ترتحل نفس عن هذا العالَم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما وإن قلَّت، ولذلك قال تعالىٰ**: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾) والمراد بالورود العرض عليها لا الدخول فيها (﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾) [مريم: ٧١ - ٧٢] أي جاثين علىٰ رُكَبهم (**فكل نفس مستيقنة للورود علىٰ النار وغير مستيقنة للصدر عنها**) وقد رُوي ذلك عن الحسن[1] (**فإذا أكمل الله تطهيرَها وتزكيتَها وبلغ الكتاب أجله**) المضروبَ (**ووقع الفراغ من جملة ما وعد به الشرع**) ونطقت به الأخبار (**من الحساب**) ووزنِ الأعمال (**والعرض وغيره ووافىٰ استحقاق الجنة، وذلك الوقت مبهَم**) غير معلوم (**لم يُطلِع الله عليه أحدًا من خلقه**) بل استأثر بعلمه (**فإنه واقع بعد**) يوم (**القيامة، ووقت القيامة مجهول**) كساعة الجمعة وليلة القدر وأضرابها (**فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات**

---

(١) روىٰ ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٠٠ وابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٢٤ عنه أنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه: يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أتاك أنك خارج منها؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضحك إذًا؟

حيث لا يرهق وجهَه غبرة ولا قترة) أي دخنة (لأن فيه يتجلَّىٰ الحقُّ سبحانه وتعالىٰ فيتجلَّىٰ له تجلِّيًا يكون انكشاف تجلِّيه بالإضافة إلىٰ ما علمه كانكشاف تجلِّي المرآة بالإضافة إلىٰ ما تخيَّله) أي يدركه في خياله (وهذه المشاهدة والتجلِّي هي التي تسمَّىٰ رؤية، فإذًا الرؤية حق) فمَن كان من أهل هذه المشاهدة ثم سأل الرؤية فإنما يسأله بقاءها ودوامها؛ لأن الرؤية أمرٌ وراء تلك المشاهدة (بشرط أن لا يُفهَم من الرؤية استكمال الخيال في متخيَّل متصوَّر مخصوص بجهة ومكان، فإنَّ ذلك ممَّا يتعالَىٰ عنه ربُّ الأرباب) جلَّ جلاله (علوًّا كبيرًا) لتنزهُّه عن المكان وعن تطرُّق الخيال والتصوير إليه (بل كما عرفتَه في الدنيا معرفةً حقيقية تامة من غير تخيُّل وتصوُّر وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك. بل أقول: المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تُستكمَل فتبلغ كمالَ الكشف والوضوح وتنقلب مشاهَدةً، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربنا من المثال) فيما سبق (في استكمال الخيال بالرؤية، فإذا لم يكن في معرفة الله تعالىٰ إثبات صورة وجهة) وتقدير شكل (فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقِّيها في الوضوح إلىٰ غاية الكشف أيضًا جهة وصورة؛ لأنها) هي (بعينها لا تفترق عنها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئيَّة هي المتخيَّلة بعينها) لا تفترق عنها إلا (في زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] إذ تمام النور لا يؤثِّر إلا في زيادة الكشف) كما يرشد إليه لفظ الإتمام الذي هو بمعنىٰ التوفية (ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا؛ لأن المعرفة هي النور الذي ينقلب في الآخرة مشاهدةً كما تنقلب النواة شجرة، والحبة زرعًا، ومَن لا نواة في أرضه فكيف يحصل له نخل، ومَن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع، فكذلك مَن لم يعرف الله تعالىٰ في الدنيا فكيف يراه في الآخرة. ولمَّا كانت المعرفة علىٰ درجات متفاوتة كان التجلِّي أيضًا علىٰ درجات متفاوتة، فاختلاف التجلِّي

بالإضافة إلىٰ اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلىٰ اختلاف البذر؛ إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلَّتها وحسنها وقوتها وضعفها، ولذلك قال النبي ﷺ: إن الله يتجلَّىٰ للناس عامةً، ولأبي بكر خاصةً) قال العراقي[١]: رواه ابن عدي[٢] من حديث جابر وقال: باطل بهذا الإسناد. وفي الميزان للذهبي[٣] أن الدارقطني[٤] رواه عن المحاملي عن علي بن عبدة، قال الدارقطني: وعلي بن عبدة كان يضع الحديث. ورواه ابن عساكر في التاريخ[٥] وابن الجوزي في الموضوعات[٦] [من حديث جابر وأبي هريرة وعائشة].

قلت: ورواه كذلك ابن النجار في تاريخه. وعلي بن عبدة هو التميمي، رواه عن ابن عُلَيَّة. وفي الجزء الأول من فوائد أبي الحسين ابن بشران[٧] من طريق أبي عبيدة عن الحسن قال: قال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، مَن أول مَن يحاسب اللهُ يوم القيامة؟ ... فساق الحديث، وفي آخره: «فيتجلَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لأبي بكر خاصةً، وللناس عامةً».

(فلا ينبغي أن يُظَن أن غير أبي بكر ممَّن هو دونه) في المعرفة **(يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر)** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(بل لا يجد إلا عُشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عُشر عشيره. ولمَّا فضل)** أبو بكر **(الناسَ بسرٍّ وقر في صدره فضلَ لا محالة بتجلٍّ انفرد به)** يشير إلىٰ ما سبق من حديث: ما فضلكم أبو بكر بفضل

(١) المغني ٢/ ١١٤٩.
(٢) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٥٨.
(٣) ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٠ - ١٢١.
(٤) رؤية الله تعالىٰ ص ١٦٠ (ط - مكتبة المنار بالأردن).
(٥) تاريخ دمشق ٣٠/ ١٦٠ - ١٦٣.
(٦) الموضوعات ١/ ٣٠٤ - ٣٠٨.
(٧) فوائد ابن بشران ١/ ١٩٩ - ٢٠٠ (ط - دار الكتب العلمية).

صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. رواه الحكيم[١] من قول بكر المزني. وتقدم الكلام عليه (**وكما أنك ترىٰ في الدنيا مَن يؤثِر لذةَ الرياسة علىٰ المطعوم والمنكوح، وترىٰ مَن يؤثر لذةَ العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهيَّة علىٰ الرياسة وعلىٰ المطعوم والمنكوح والمشروب جميعًا، فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذةَ النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ علىٰ نعيم الجنة؛ إذ**) كان (**يرجع نعيمها إلىٰ المطعوم والمنكوح، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطِّلاع علىٰ أسرار الربوبية علىٰ لذة المنكوح والمطعوم والمشروب، وسائر الخلق مشغولون به، ولذلك لمَّا قيل لرابعة**) بنت إسماعيل العدوية قدَّس الله سرها: (**ما تقولين في الجنة؟ فقالت**) مستشهدة بالحديث المشهور: (**الجار ثم الدار**)[٢] رواه الخطيب في الجامع[٣] من حديث عليٍّ بزيادة: «والرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل». ورواه الطبراني[٤] من حديث رافع بن خديج، وفيه زيادة أخرىٰ في آخره (**فبيَّنت أنه ليس في قلبها التفات إلىٰ الجنة، بل إلىٰ رب الجنة، وكل مَن لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل مَن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة؛ إذ ليس يُستأنَف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يُحشَر المرء إلا علىٰ ما مات عليه**) ففي الخبر: «يُبعَث كل عبد علىٰ ما مات

---

(١) نوادر الأصول ص ٩٠ - ٩١ بلفظ: «لم يفضل أبو بكر الناس بكثرة صوم ولا صلاة، إنما فضلهم بشيء كان في قلبه».

(٢) تقدم ذلك في كتاب التوبة بلفظ: «قيل لرابعة العدوية: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار».

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٣٥٠ - ٣٥١.

(٤) المعجم الكبير ٤/ ٢٦٩. وليس فيه الزيادة التي أشار إليها الشارح، وإنما فيه: «التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق».

عليه». رواه عبد بن حميد[١] ومسلم[٢] وابن ماجه[٣] وابن حبان[٤] والحاكم[٥] من حديث جابر. ورواه البغوي والطبراني والحاكم في الكنىٰ من حديث زيد بن حارثة. ورواه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عمر. ورواه ابن حبان من حديث جابر أيضًا بزيادة: «المؤمن علىٰ إيمانه، والمنافق علىٰ نفاقه». وعند ابن ماجه[٦] من حديث أبي هريرة: «إنما يُبعَث الناس علىٰ نيَّاتهم» **(ولا يموت إلا علىٰ ما عاش عليه، فما صحبَه من المعرفة هو الذي يتنعَّم به بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدةً بكشف الغطاء، فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤيةَ صورته، فإنَّ ذلك منتهَىٰ لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي، فمَن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالىٰ فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذَّىٰ به. فإذًا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالىٰ، وحب الله تعالىٰ بقدر معرفته، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبَّر الشرع عنها بالإيمان)** فقد رُوي من حديث عليٍّ: «الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان». رواه ابن ماجه[٧] والطبراني[٨] وتمام[٩] والشيرازي في الألقاب، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات[١٠].

(فإن قلتَ: فلذة الرؤية إن كانت لها نسبة إلىٰ لذة المعرفة فهي قليلة وإن

---

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٣٤.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٣١٦.

(٣) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢٨ بلفظ: «يحشر الناس علىٰ نياتهم».

(٤) صحيح ابن حبان ١٦/ ٣٠٤، ٣١٢.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٨٣، ٢/ ٥٣٢، ٥٧٧.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢٨.

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ٩٠.

(٨) المعجم الأوسط ٦/ ٢٢٦، ٨/ ٢٦٢.

(٩) فوائد تمام ١/ ٧٧.

(١٠) الموضوعات ١/ ١٢٨.

كانت أضعافها؛ لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة، فتضاعُفُها إلىٰ حدٍّ قريب لا ينتهي في القوة إلىٰ أن يُستحقَر سائر لذات الجنة فيها. فاعلمْ أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلوِّ عن المعرفة، فمَن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها، وإن انطوىٰ علىٰ معرفة ضعيفة وقلبُه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها، فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومُناجاتهم لله تعالىٰ لذاتٌ لو عُرِضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة. ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلىٰ لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلىٰ رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهيَّة) اللذيذة (إلىٰ ذوقها، ولا للذة اللمس باليد إلىٰ لذة الوقاع، وإظهار عِظَم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال، فنقول: لذة النظر إلىٰ وجه المعشوق في الدنيا بأسباب، أحدها: كمال جمال المعشوق ونقصانه، فإن اللذة في النظر إلىٰ الأجمل أكملُ لا محالة. والثاني: كمال قوة الحب والشهوة والعشق، فليس التذاذ مَن اشتدَّ عشقُه كالتذاذ مَن ضعفت شهوته وحبُّه. والثالث: كمال الإدراك، فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بُعد كالتذاذه بإدراكه علىٰ قرب من غير ستر وعند كمال الضوء، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرُّد) عنه (والرابع: اندفاع العوائق المشوِّشة) أي الموانع المكدِّرة (والآلام الشاغلة للقلب، فليس التذاذ الصحيح) البدن (الفارغ) البال (المتجرِّد للنظر إلىٰ المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألِّم أو المشغول قلبه بمهمٍّ من المهمَّات، فقدِّرْ) أنت في نفسك (عاشقًا ضعيف العشق ينظر إلىٰ وجه معشوقه من وراء ستر رقيق علىٰ بُعد بحيث يُمنَع انكشاف كُنْه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبَه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه، فلو طرأت علىٰ الفجأة حالةٌ انهتك بها السترُ وأشرق بها الضوء واندفعت عنه المؤذيات وبقي سليمًا فارغًا وهجمت عليه الشهوةُ القوية والعشق المفرط حتىٰ بلغ أقصىٰ الغايات

فانظر كيف تتضاعف اللذةُ حتىٰ لا يبقىٰ للأولىٰ إليها نسبة يُعتدُّ بها، فكذلك فافهمْ نسبة لذة النظر إلىٰ لذة المعرفة. فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به، والعقارب والزنابير مثال الشهوات) الخفيَّة المشوِّشة من داخل (المتسلِّطة علىٰ الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعفِ الشهوة) وأشباه ذلك (والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلىٰ الملأ الأعلىٰ والتفاتها إلىٰ أسفل السافلين، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلىٰ اللعب بالعصفور. والعارف وإن قويتْ في الدنيا معرفتُه فلا يخلو من هذه المشوِّشات، ولا يُتصور أن يخلو عنها ألبتَّة. نعم، قد تضعُف هذه العوائقُ في بعض الأحوال ولا تدوم، فلا جَرَم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقلَ وتعظُم لذتُه بحيث يكاد القلب يتفطَّر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف، وقلَّما يدوم، بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوِّشه وينغِّصه) ويكدِّر عليه (وهذه ضرورة دائمة) لا تنفكُّ (في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منغِّصة إلىٰ الموت، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت) فعند ذلك يحصل التجريد والراحة (وإنما العيش عيش الآخرة) كما ورد به الخبرُ (﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾) [العنكبوت: ٦٤] كما في الكتاب العزيز (وكل مَن انتهىٰ إلىٰ هذه المرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالىٰ، فيحب الموت ولا يكرهه) وفي الخبر: «لا راحة للمؤمن في الدنيا دون لقاء الله عز وجل». وفي أقوالهم: الموت جسرٌ يوصل الحبيب إلىٰ الحبيب[1] (إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة، فإن المعرفة كالبذر، وبحر المعرفة لا ساحل له، فالإحاطة بكُنْه جلال الله مُحال) إلا ما كان من طريق الأسماء والصفات (فكلَّما كثرت المعرفةُ بالله وصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويتْ كثُر النعيمُ في الآخرة وعظُمَ، كما أنه كلَّما كثر البذرُ وحسُنَ كثُرَ الزرعُ وحسُنَ، ولا يمكن تحصيل

---

(١) قائله هو حيان بن الأسود، كذا نقله عنه القرطبي في التذكرة ١/ ١١٦، والسيوطي في شرح الصدور ص ١٦.

هذا البذر إلا في الدنيا) إذ هي مزرعة للآخرة **(ولا يُزرَع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله)** قال العراقي[١]: رواه إبراهيم الحربي في كتاب «ذِكر الموت»[٢] من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطَّلب عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «السعادة كل السعادة طولُ العمر في طاعة الله». ووالد المطلب عبدُ الله بن حنطب مختلَف في صحبته. ولأحمد من حديث جابر: «إن من سعادة المرء أن يطول عمرُه ويرزقه الله الإنابة». وللترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «مَن طال عمرُه وحسُن عملُه». قال: هذا [حديث] حسن صحيح [وقد تقدم.

قلت: عبد الله بن حنطب] ذكره ابن حبان[٣] في الصحابة، وقال أبو عمر[٤]: له صحبة. وقال الترمذي[٥] بعد أن ساق له حديثًا من طريق عبد العزيز بن المطلب ابن [عبد الله بن] حنطب عن أبيه عن جدِّه في فضائل قريش: هذا مرسَل وعبد الله بن حنطب لم يدرك النبيَّ ﷺ. فهذا اختلافهم فيه، وحديثه المذكور رواه كذلك القضاعي والحاكم والديلمي من حديث ابن عمر. وأما حديث جابر فقد رواه أيضًا الحاكم. ورواه أبو الشيخ في كتاب «الثواب» بدون «إن». وأما حديث أبي بكرة فرواه كذلك أحمد وابن زنجويه والطبراني والحاكم والبيهقي بزيادة: «وشر الناس مَن طال عمرُه وساء عملُه». ورواه بالجملة الأولىٰ فقط أحمد وعبد بن

(١) المغني ٢/ ١١٥٠.
(٢) وكذلك الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٥٠٦.
(٣) الثقات ٣/ ٢١٩.
(٤) الاستيعاب ١/ ٥٣٢.
(٥) سنن الترمذي ٦/ ٤٩ - ٥٠. والحديث المشار إليه هو: أن رسول الله ﷺ رأىٰ أبا بكر وعمر فقال: «هذان السمع والبصر».

حميد والطبراني والبيهقي أيضًا من حديث عبد الله بن بُسر[١].

(لأن المعرفة إنما تكمُل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر، والمواظبة علىٰ المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرُّد للطلب، ويستدعي ذلك زمانًا لا محالة، فمَن أحب الموت أحبَّه لأنه رأىٰ نفسه واقفًا في المعرفة، بالغًا إلىٰ منتهَىٰ ما يُسِّرَ له، ومَن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمِّل مزيدَ معرفة تحصل له بطول العمر، ورأىٰ نفسه مقصِّرًا عمَّا تحتمله قوتُه لو عُمِّر، فهذا سبب كراهة الموت وحبِّه عند أهل المعرفة، وأما سائر الخلق فنظرُهم مقصور علىٰ شهوات الدنيا) ولذَّاتها (إن اتَّسعت أحبوا البقاءَ، وإن ضاقت تمنَّوا الموت، وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة، فالجهل والغفلة مصدر[٢] كل شقاوة، والعلم والمعرفة أساس كل سعادة.

فقد عرفتَ بما ذكرناه معنىٰ المحبة، ومعنىٰ العشق فإنه المحبة المفرطة القوية، ومعنىٰ لذة المعرفة، ومعنىٰ الرؤية، ومعنىٰ لذة الرؤية، ومعنىٰ كونها ألذَّ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوي النقصان كما لم تكن الرياسة ألذَّ من المطعومات) واللعب (عند الصبيان) فإن أنكروا فبعذرهم لنقصانهم عن درجة الكمال.

(فإن قلتَ: فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة؟ فاعلمْ أن الناس قد اختلفوا في ذلك، وأرباب البصائر لا يلتفتون إلىٰ هذا الخلاف، ولا ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المَبقلة) ويأخذ الهدية ولا يسأل عن الجالب (ومَن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقُه عن أن يلتفت إلىٰ أن رؤيته تُخلَق في عينه أو في جبهته، بل يقصد الرؤية ولذَّتها، سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب تهذيب النفس، وفي كتاب الصبر والشكر.
ويزاد هنا أن حديث جابر رواه أحمد في مسنده ٢٢/ ٤٢٦.

(٢) في الجميع: والغفلة مغرس كل شقاوة.

محل وظرف، لا نظر إليه، ولا حكم له. والحق فيه أن القدرة الأزليَّة واسعة، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين. هذا في حكم الجواز، فأما الواقع في الآخرة من الجائزات فلا يُدرَك إلا بالسمع) إذ لا مَدخل للعقل فيه **(والحق ما ظهر لأهل السنَّة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يُخلَق في العين؛ ليكون لفظ «الرؤية» و«النظر» وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مُجرًى على ظاهره؛ إذ لا تجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة. والله أعلم)** فروى أحمد[١] والشيخان[٢] من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا: هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «هل تضارُّون في رؤية القمر في ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ وهل تضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ فإنكم ترونه كذلك ...» الحديث بطوله. ورُوي كذلك من حديث أبي سعيد، فروى الطيالسي[٣] وأحمد[٤] والشيخان[٥] وابن خزيمة[٦] من حديث أبي سعيد: «هل تُضارُّون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس فيها سحاب؟ وهل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب؟ ما تُضارُّون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارُّون في رؤية أحدهما ...» الحديث بطوله. وروى النسائي وابن ماجه[٧] بعضه. وعند مسلم من حديث أبي هريرة: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم عَزَّ وَجَلَّ إلا كما تضارُّون في رؤية أحدهما ...» الحديث.

---

(١) مسند أحمد ١٣/ ١٤٤، ٣٠٤، ١٥/ ٢٤، ١٦/ ٥٢٦.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٦٠، ٤/ ٢٠٤، ٣٩٠. صحيح مسلم ١/ ٩٧، ٢/ ١٣٥٦.

(٣) مسند الطيالسي ٣/ ٦٢٩.

(٤) مسند أحمد ١٧/ ١٩٢، ٢٠٢.

(٥) صحيح البخاري ٣/ ٢١٧، ٤/ ٣٩١. صحيح مسلم ١/ ٩٩.

(٦) التوحيد ص ٤١٣، ٤٢١، ٤٢٣.

(٧) سنن ابن ماجه ١/ ١٨١.

بيـان الأسـباب المقوِّيـة لحب الله تعالى

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حبًّا لله تعالىٰ، فإن الآخرة معناها القدوم علىٰ الله تعالىٰ) والعرض عليه (ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدمَ علىٰ محبوبه بعد طول شوقه) وحنينه إليه (وتمكَّن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغِّص و) لا (مكدِّر، ومن غير رقيب ومزاحم) له في مشاهدته (ومن غير خوف انقطاع) أو نقص (إلا أن هذا النعيم علىٰ قدْر قوة الحب، فكلَّما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالىٰ في الدنيا) وهو فيها (وأصل الحب لا ينفكُّ عنه مؤمن؛ لأنه لا ينفكُّ عن أصل المعرفة) الذي هو أساس الإيمان (وأما قوة الحب واستيلاؤه) عليه بالكلِّية (حتىٰ ينتهي إلىٰ) حدِّ (الاستهتار الذي يسمَّىٰ عشقًا فذلك ينفكُّ عنه الأكثرون) وقد تقدَّم أن العشق هو مبالغة الحب (وإنما يحصل ذلك بشيئين، أحدهما: قطعُ علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يتَّسع للخلِّ مثلاً ما لم يخرج منه الماء، و) إليه يشير قوله تعالىٰ: (﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾) [الأحزاب: ٤] أي وإنما هو قلب واحد لا يتَّسع لشيئين (وكمال الحب في أن يحب الله عَزَّوَجَلَّ بكل قلبه، وما دام يلتفت إلىٰ غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، فبقدْر ما يشتغل بغير الله ينقُص منه حبُّ الله تعالىٰ، وبقدر ما يبقىٰ من الماء في الإناء ينقُص من الخلِّ المصبوب فيه، وإلىٰ هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١] وبقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠، الأحقاف: ١٣] بل هو معنىٰ قولك: لا إله إلا الله، أي لا معبود ولا محبوب سواه) وإنما قلنا ذلك (فإن كل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد، والمعبود هو المقيد به، وكل محب فهو مقيَّد بما يحبه، ولذلك

قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] أي جعل هواه مألوهًا له ومعبودًا وتقيَّد به.

(وقال ﷺ: **أبغضُ إلهٍ عُبِدَ في الأرض الهوىٰ**) رواه الطبراني[١] من حديث أبي أمامة بسند ضعيف: «أبغضُ إلهٍ عُبِد عند الله في الأرض هو الهوىٰ».

(**ولذلك قال ﷺ: مَن قال «لا إله إلا الله» مخلصًا دخل الجنة**) رواه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد، ورواه البغوي والطبراني من حديث أبي شيبة الخدري، وقد تقدم[٢]، ورواه ابن النجار من حديث أنس بزيادة: قيل: أفلا أبشِّر الناس؟ قال: «لا، إني أخاف أن يتَّكلوا» (**ومعنىٰ الإخلاص أن يُخلِص قلبَه لله فلا يبقىٰ فيه شركٌ لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط**) ولذلك اختارت مشايخ هذه الطائفة العليَّة أن يقولوا بعد ذكرهم ثلاث مرات: إلهي، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي[٣]. وقد جاءت الإشارة إلىٰ ما ذكره المصنف في معنىٰ الإخلاص في الخبر الذي يُروَىٰ عن زيد بن أرقم: «مَن قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة». قيل: وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجزه عن محارم الله». رواه الحكيم والطبراني وصاحب الحلية (**ومَن هذا حالُه فالدنيا سجنه**) أي بمنزلة السجن عليه (**لأنها مانعة له عن مشاهدة محبوبه، وموته خلاص من السجن وقدوم علىٰ المحبوب**) فهذا لا محالة يحب الموت (**فما حال مَن ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقُه وتمادىٰ عنه حبسُه**) أي طال عليه (**فخُلِّي من السجن ومُكِّن من المحبوب ورُوِّح بالأمن أبد الآباد. فأحد أسباب ضعفِ حب الله في القلوب قوةُ حب الدنيا، ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدوابِّ والبساتين**

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ١٢٣ بلفظ: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىٰ متبع».

(٢) في كتاب الأذكار والدعوات، وكذا حديث أنس وحديث زيد بن أرقم بعده.

(٣) مفتاح المعية شرح دستور الطريقة النقشبندية ص ٧٢.

والمتنزَّهات، حتىٰ إن المتفرِّج بطيب أصوات الطيور ورَوْح نسيم الأسحار ملتفت إلىٰ نعيم حب الدنيا، ومتعرِّض لنقصان حب الله بسببه) وكأنَّ المراد منه إذا أنسَ بها ووقف معها، وإلا فبمجرَّد ميل القلب إليها من غير سكون بها لا يكون محبًّا لها **(فبقدْر ما أنسَ بالدنيا فينقُص أنسُه بالله، ولا يؤتَىٰ أحد من الدنيا شيئًا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة)** كما دلَّت عليه الأخبار **(كما أنه لا يقرُب الإنسان من المشرق إلا ويبعُد بالضرورة عن المغرب بقدْره، و)** كما **(لا يطيب قلبُ امرأته إلا ويضيق به قلب ضَرَّتها فالدنيا والآخرة ضرَّتان)** إن أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرىٰ. رُوي ذلك من كلام عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مذكور في نهج البلاغة **(وهما كالمشرق والمغرب)** رُوي ذلك من كلام كعب الأحبار، كما في الحلية، وقد سبق كل ذلك في كتاب ذم الدنيا **(وقد انكشف ذلك لذوي القلوب)** والبصائر **(انكشافًا أوضح من الإبصار بالعين. وسبيل قلعِ حب الدنيا من القلب سلوكُ طريق الزهد)** عنها **(وملازمة الصبر)** بأنواعه المذكورة في محلِّه **(والانقياد إليهما)** أي إلىٰ طريق الزهد والصبر **(بزمام الخوف والرجاء، فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحدَ ركنَي المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخِر والجنة والنار، ثم يتشعَّب منه الخوف والرجاء، ويتشعَّب منهما التوبة والصبر عليها، ثم ينجرُّ ذلك إلىٰ الزهد في الدنيا وفي المال وفي الجاه وكل حظوظ الدنيا، حتىٰ تحصل من جميعه طهارةُ القلب عن غير الله فقط حتىٰ يتَّسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه، فكل ذلك مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركنَي المحبة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: الطهور شطر الإيمان)** رواه أحمد[1] ومسلم[2] والترمذي[3] من حديث أبي مالك بزيادة: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة

---

(١) مسند أحمد ٣٧/ ٥٣٦، ٥٤٢.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٢١.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٤٩٢.

نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبِقها» (كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة) فلا نعيده ثانيًا.

(السبب الثاني لقوة المحبة: قوة معرفة الله تعالىٰ واتِّساعها واستيلاؤها علىٰ القلب، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مَجرىٰ وضعِ البذر في الأرض بعد تنقيتها) وتنظيفها مما يخالطها (من الحشيش) والشوك وغير ذلك (وهو الشطر الثاني، ثم تتولَّد من هذا البذر شجرةُ المحبة والمعرفة، وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾) [إبراهيم: ٢٤] فعرفنا أن لها أصلاً ثابتًا في القلوب بما أمدَّها به من النظر والاعتبار، وعرفنا أنَّ لها فروعًا تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها (وإليها الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهي المعرفة ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فالعمل الصالح كالجمال[1] لهذه المعرفة وكالخادم لها، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولًا من الدنيا، ثم إدامة طهارته، فلا يُراد العمل إلا لهذه المعرفة، وأما العلم بكيفيَّة العمل فيُراد للعمل، فالعلم هو الأول) وهو الأصل الذي هو عقدٌ من عقود الإيمان بالله ولله (وهو الآخِر) أي العمل هو الآخِر؛ لأنه تنشئه المواجيدُ علىٰ القلوب والجوارح[2] (وإنما الأول علم المعاملة، وغرضه العمل، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته لتتَّضح فيه جليَّةُ الحق ويتزيَّن بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة، ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبةُ بالضرورة، كما أن مَن كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميلَ وأدركه بالعين الظاهرة أحبَّه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذةُ،

---

(١) كذا، ولعله: الحمَّال. والله أعلم، وقال القشيري في اللطائف ٣/ ١٩٦: ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

(٢) كذا يقول، ومراد الإمام أن العمل بين علمين علم يراد له وعلم آخر هو ثمرته وهو علم المكاشفة. وما بعده من كلام الإمام يجلي هذا ويوضحه. والله أعلم.

فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع[1] **المعرفة بالضرورة، ولا يوصل إلىٰ هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي)** من الكدر **(والذكر الدائم)** في كل حال **(والجد البالغ في الطلب، والنظر المستمر في الله وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته. والواصلون إلىٰ هذه الرتبة ينقسمون إلىٰ الأقوياء، ويكون أول معرفتهم لله تعالىٰ، ثم به يعرفون غيره. وإلىٰ الضعفاء، ويكون أول معرفتهم بالأفعال، ثم يترقَّون منها إلىٰ الفاعل)** فالأقوياء[2] ما يرون شيئًا إلا رأوا الله معه، وربما زاد علىٰ هذا بعضُهم فقال: ما رأيت شيئًا إلا رأيتُ الله قبله. لأن منهم مَن يرىٰ الأشياء به، والضعفاء يرون الأشياء فيرونه بالأشياء **(وإلىٰ الأول الإشارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾** [فصلت: ٥٣] **وبقوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾)** [آل عمران: ١٨] وصاحب هذا المقام صاحب مشاهدة، ودرجته درجة الصدِّيقين. وممَّا نُسِب للشيخ الأكبر قُدِّس سره:

سائلي عن عقيدتي ... أحســن اللهُ ظنَّــه

علــم اللهُ أنهـــا ... شـــهد الله أنَّــه

أشار بذلك إلىٰ مقام المشاهدة **(ومنه نظرُ بعضِهم)** وهو ذو النون المصري رحمه الله تعالىٰ **(حيث قيل له: بمَ عرفتَ ربَّك؟ فقال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لَما عرفت ربي)** رواه القشيري في الرسالة[3] قال: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول: سمعت يوسف بن الحسين يقول: قيل لذي النون: بمَ عرفتَ ربك؟ ... فساقه **(وإلىٰ الثاني الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾** [فصلت:

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٨/ ٤٣٧: تتبع. في كليهما.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٦٥ – ٦٦.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٥١٤.

٥٣] **وبقوله:** ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] **وبقوله تعالىٰ:** ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] **وبقوله تعالىٰ:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾)[الملك: ٣-٤] وصاحب هذا المقام صاحب استدلال، ودرجته درجة العلماء الراسخين (**وهذا الطريق هو الأسهل علىٰ الأكثرين، وهو الأوسع علىٰ السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبُّر والتفكُّر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر**) وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين.

(**فإن قلتَ: كِلا الطريقين مشكل، فأوضِحْ لنا منهما ما يُستعان به علىٰ تحصيل المعرفة والتوصُّل به إلىٰ المحبة. فاعلمْ أن الطريق الأعلىٰ هو الاستشهاد بالحق سبحانه علىٰ سائر الخلق، فهو**) مرتبة الصدِّيقين، وهو (**غامض**) أي خفيُّ المَدرك (**والكلام فيه خارج عن حدِّ فهمِ أكثر الخلق، فلا فائدة في إيراده في الكتب**) إذ لم ينتفع به أحد لدقَّته وغموضه (**وأما الطريق الأسهل الأدنىٰ فأكثره غير خارج عن حدِّ الأفهام، وإنما قصُرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبُّر**) فيه (**واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس، والمانع من ذِكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية؛ إذ ما من ذرَّة من أعلىٰ السموات إلىٰ تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل علىٰ كمال قدرة الله تعالىٰ وكمال حكمته ومنتهَىٰ جلاله وعظمته**) كما قال القائل:

فواعجبًا كيف يُعصَىٰ الإله ... أمْ كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيةٌ ... تدلُّ علىٰ أنه واحدُ[1]

(**وذلك ممَّا لا يتناهَىٰ، بل** ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن

---

(١) تقدم هذان البيتان مرارا.

﴿تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] **فالخوض فيه انغماسٌ في مجاري**[١] **علوم المكاشفة، ولا يمكن أن يُتطفَّل به علىٰ علوم المعاملة، ولكن يمكن الرمز إلىٰ مثال واحد علىٰ الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه، فنقول: أسهل الطريقين النظرُ إلىٰ الأفعال، فلنتكلم فيها، ولنترك الأعلىٰ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة، فلنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها، ولننظر في عجائبها، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها، أعني بالإضافة إلىٰ الملائكة وملكوت السموات، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعِظَم في الشخص فالشمس علىٰ ما ترىٰ من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيِّفًا وستين مرة)** وروىٰ أبو الشيخ في العظمة عن عكرمة قال: الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءًا من نور العرش **(فانظر إلىٰ صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلىٰ صغر الشمس بالإضافة إلىٰ فلكها الذي هي مركوزة فيه فإنه لا نسبة لها إليه، وهي في السماء الرابعة، وهي)** أي السماء الرابعة **(صغيرة بالإضافة إلىٰ ما فوقها من السموات السبع، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة)** مُلقاة **(في فَلاة)** من الأرض **(والكرسي في العرش كذلك)** وروىٰ[٢] ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لو أن السموات السبع والأرضين السبع بُسِطن ثم وُصِلن بعضهن ببعض ما كنَّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. وروىٰ ابن جرير وابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة[٣] عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال: «ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة مُلقاة بأرض فَلاة، وإنَّ فضل العرش علىٰ الكرسي كفضل الفلاة علىٰ تلك الحلقة»[٤]. وروىٰ أبو الشيخ[٥] عن عكرمة قال: الشمس

---

(١) في الجميع: بحار.

(٢) الدر المنثور ١/ ٢٣٦، ٣/ ١٨٩ - ١٩٤.

(٣) العظمة ٢/ ٥٧٠، ٦٤٩.

(٤) حديث أبي ذر عند ابن حبان في صحيحه ٢/ ٧٦، وأبي نعيم في الحلية ١/ ١٦٧، والبيهقي في الأسماء ٢/ ٢٩٩.

(٥) السابق ٢/ ٦٣٣.

جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءًا من نور العرش. وروىٰ ابن جرير[١] وابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: إن السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش. وروىٰ عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد علىٰ الجهمية»[٢] وأبو الشيخ في العظمة[٣] عن ابن مسعود قال: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماءين خمسمائة عام، وبُصْر كل سماء وأرض - يعني غِلظ ذلك - مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلىٰ الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي والماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش علىٰ الماء» **(فهذا نظرٌ إلىٰ ظاهر الأشخاص من حيث المقادير، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلىٰ البحار، فقد قال رسول الله ﷺ: الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض)** قال العراقي[٤]: لم أجد له أصلاً **(ومِصداق هذا عُرف بالمشاهدة والتجربة، وعُلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلىٰ كل الأرض)** ومساحة بسيطها مائة ألف ألف وثلاثة وثمانون ألف ألف وثلاثمائة ألف وعشرون وأربعمائة ميل، ومساحة بسيط عمارتها من الربع المسكون اثنان وثلاثون ألف ألف وأربعة وتسعون ألفًا ومائة وثمانية أميال، ونسبتها إلىٰ مساحة بسيط الأرض كلها السدس وسدس العُشر تقريبًا، وذلك من أقصىٰ العمارة تقريبًا بالمشرق إلىٰ أقصىٰ المغرب طولاً، ومن حيث خط الاستواء إلىٰ حيث يرتفع القطب ستة وستون جزءًا وربع وسدس جزء عرضًا **(ثم انظر إلىٰ الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلىٰ سائر الحيوانات وإلىٰ صغره بالإضافة إلىٰ الأرض)** وما أودع الله فيه من أسرار العالَم الكبير **(ودَعْ عنك جميعَ ذلك، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض**

---

(١) جامع البيان ٤/ ٥٣٨.

(٢) الرد علىٰ الجهمية ص ٥٩ (ط - المكتبة الإسلامية).

(٣) العظمة ٢/ ٥٦٥، ٦٨٨، ٣/ ١٠٤٧.

(٤) المغني ٢/ ١١٥١.

والنمل وما يجري مَجراه، فانظر إلىٰ البعوض) وهو[١] صنفان: صنف يشبه القرادَ لكن أرجله خفيفة ورطوبته ظاهرة، وإليه أشار الجوهري بقوله: وصنف في خلقة الفيل[٢]، وهو المعروف بالناموس، وهو المراد به هنا **(علىٰ صغر قدْره، وتأملْه بعقل حاضر وفكر صافٍ فانظر كيف خلقه الله تعالىٰ علىٰ شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات؛ إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه، وخلق له علىٰ شكله الصغير سائرَ الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين)** في كل ناحية ورجلين، فللفيل أربعة أرجل وخرطوم وذنَب، وللبعوض مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان وأربعة أجنحة **(وانظرْ كيف قسَّم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحَه، وأخرج يده ورجله، وشقَّ سمعه وبصره)** وأودع في مقدمة دماغه قوةَ الحفظ، وفي وسطه قوة الفكر، وفي مؤخره قوةَ الذِّكر، وخلق له حاسة البصر وحاسة السمع وحاسة اللمس وحاسة الشم **(ودبَّر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبَّره في سائر الحيوانات وركَّب فيه من القُوَىٰ الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركَّب في سائر الحيوانات)** وخلق له منفذًا للغذاء ومَخرجًا للفضلة، وخلق له جوفًا ومِعًىٰ وعظامًا. أنشد الزمخشري في الكشاف[٣]:

ويـرىٰ نيـاط عروقهـا في نحرهـا والمـخ في تلـك العظـام النُّحَّـلِ

(هذا في شكله وصفاته، ثم انظر إلىٰ هدايته كيف هداه الله تعالىٰ إلىٰ غذائه وعرَّفه أن غذاءه دم الإنسان، ثم انظر كيف أنبت له آلةَ الطيران إلىٰ الإنسان، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدَّد الرأس، وكيف هداه إلىٰ مَسامِّ بشرة الإنسان)

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري ١/ ١٨٤ - ١٩٢.

(٢) كلام الجوهري المنقول من حياة الحيوان للدميري انتهىٰ عند قوله: «البعوض الصغار»، ثم ابتدأ الدميري كلامًا من عند نفسه ظنه الزبيدي كلام الجوهري، وهو ذهول لا ينفك عنه أحد، رحم الله الجميع بمنه وكرمه. وانظر: الصحاح للجوهري ٣/ ٩١٣ (ط دار العلم للملايين)، وحياة الحيوان الكبرىٰ ١/ ١١٦ (ط إحياء التراث العربي).

(٣) الكشاف ١/ ٢٤٣.

التي يخرج منها العَرق فيتوخَّاها (**حتىٰ يضع خرطومه في واحد منها، ثم كيف قوَّاه حتىٰ يغرز فيه الخرطوم**) ويشتد عضُّه ويقوَىٰ علىٰ خرق الجلود الغلاظ. قال الراجز:

مثل السفاة دائمٌ طنينها ... رُكِّب في خرطومها سكينُها[1]

(**وكيف علَّمه المصَّ والتجرُّع للدم، وكيف خلق الخرطوم مع رقَّته مجوَّفًا حتىٰ يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلىٰ باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذِّيه**) فهو له كالبلعوم والحلقوم (**ثم كيف عرَّفه أن الإنسان يقصده بيده، فعلَّمه حيلة الهرب واستعداد آلته، وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعدُ بعيدة منه، فيترك المص ويهرب، ثم إذا سكنت يعود**) إلىٰ عمله، وفيه من الشَّرَه أنه يمص الدم إلىٰ أن يموت أو يعجز عن الطيران (**ثم انظر كيف خلق له حَدَقتين حتىٰ يبصر مواضعَ غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه، وانظر إلىٰ أن حدقة كل حيوان صغير لمَّا لم تحتمل حدقة الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقِلة لمرآة الحدقة عن القَذَىٰ والغبار خلق للبعوض والذباب يدين**) وهما الزائدتان علىٰ الفيل المتقدم ذِكرهما (**فتنظر إلىٰ الذباب فتراه علىٰ الدوام يمسح حدقتيه بيديه**) وكِلاهما من ذوي الخراطيم (**وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان**) لكل حدقة جفنانِ أعلىٰ وأسفل (**حتىٰ ينطبق إحداهما علىٰ الآخَر، وأطرافهما حادة، فيجتمع الغبار الذي يلحق الحدقةَ ويرميه إلىٰ أطراف الأهداب، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين، وتعين علىٰ الإبصار، وتحسِّن صورةَ العين**) وقد[2] خصَّت الحكمةُ الإلهية لون السواد بذلك، والبياض يفرِّق ضوء العين فيضعُف نورُه، حتىٰ إن إدامة النظر إلىٰ البياض المشرق - بل إلىٰ نور الشمس - يبهر نورَ العين ويمحقه كما ينمحق الضعيف في جنب القوي (**وتشبكها عند هيجان الغبار، فينظر من وراء**

(١) لم أقف علىٰ قائل هذا الرجز.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٤٤ - ٤٥.

شبَّاك الأهداب، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق له حدقتين مصقَلتين من غير أجفان، وعلَّمها كيفية التصقيل باليدين) ولكنه ليس ظاهرًا لبادئ النظر كما يظهر من الذباب **(ولأجل ضعفِ أبصارها تراها تتهافت)** وتتساقط **(علىٰ السراج؛ لأن بصرها ضعيف، فهي تطلب ضوء النهار، فإذا رأىٰ المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوَّة من البيت المظلم إلىٰ الموضع المضيء، فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه إليه، فإذا جاوزه ورأىٰ الظلام ظن أنه لم يُصِب الكوَّةَ ولم يقصدها علىٰ السداد، فيعود إليه مرةً أخرىٰ إلىٰ أن يحترق)** وإليه أشار القائل[1] وأحسنَ:

لهيب الخدِّ حين بدا لطرفي ... هوىٰ قلبي عليه كالفَراش
فأحرقه فصار عليه خالاً ... وها أثر الدخان علىٰ الحواشي

(ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها، فاعلمْ أن جهل الإنسان أعظم من جهلها، بل صورة الآدمي في الإكباب علىٰ شهوات الدنيا صورة الفَراش) وهي ذباب مثل البعوض، واحده: فراشة **(في التهافُت علىٰ النار؛ إذ تلوح للآدمي أنوارُ الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلىٰ أن ينغمس فيها ويتقيَّد بها ويهلك هلاكًا مؤبَّدًا، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش، فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلَّصت في الحال، والآدمي يبقىٰ في النار أبد الآباد أو مدة مديدة)** وقال المصنف في موضع آخر: من الحيوان ما إذا شاهد شيئًا حفظه وارتسمت صورته في ذهنه، فإذا رآه مرة أخرىٰ عرفه كالدابة ترىٰ الشعير والعصا، ومنه ما إذا شاهد شيئًا لم يحفظه ولم ترتسم عنده صورتُه كالفراش، فإنه يجد المصباح فيرمي بنفسه فيه ويجد حرارته،

---

(١) هو عون الدين أبو الربيع سليمان بن عبد المجيد ابن العجمي الحلبي المتوفى سنة ٦٥٦. وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ٢٥١ - ٢٥٢. الوافي بالوفيات للصفدي ١٥/ ٢٤٤. المنهل الصافي لابن تغري بردي ٦/ ٣٧ (ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب).

ثم يعود ويرمي بنفسه إليه، ولو ارتسمت عنده صورته لَما عاد إليه **(ولذلك كان ينادي رسول الله ﷺ ويقول: إني ممسك بحُجَزكم عن النار، وأنتم تتهافتون فيها تهافُت الفَراش)** قال العراقي[١]: متفق عليه من حديث أبي هريرة: «مَثلي ومَثل أمَّتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدوابُّ والفراش يقعن، فأنا آخِذٌ بحجزكم، وأنتم تقتحمون فيه». لفظ مسلم، واقتصر البخاري علىٰ أوله. ولمسلم من حديث جابر: «وأنا آخِذٌ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلَّتون من يدي». وقد تقدم.

قلت: لفظ المتفق عليه من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: «مَثلي كمَثل رجل استوقد نارًا، فلمَّا أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخِذ بحُجَزكم عن النار، هلمَّ عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني تقتحمون فيها». ورواه كذلك أحمد والترمذي. ولفظ حديث جابر عند مسلم من طريق همَّام عن أبي هريرة[٢]: «مثلي ومثلكم كمَثل رجل أوقد نارًا، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخِذٌ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلَّتون من يدي». ورواه كذلك الطيالسي وأحمد.

وقوله[٣] «بحُجَزكم» بضم الحاء المهملة وفتح الجيم، جمع حُجزة بالضم، وهي معقد الإزار والسراويل، وإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطَه أخذ بذلك الموضع منه.

قال النووي في شرح مسلم[٤]: مقصود الحديث أنه ﷺ شبَّهَ تساقُطَ الجاهلين

---

(١) المغني ٢/ ١١٥١.

(٢) كذا هنا، وهي غفلة من الشارح، فحديث جابر رواه مسلم من طريق سعيد بن ميناء عنه، أما طريق همام عن أبي هريرة فلفظه هو الذي أورده وعزاه إلىٰ طريق أبي الزناد عن الأعرج. وقد تقدم حديث أبي هريرة وحديث جابر في كتاب الصبر والشكر.

(٣) إكمال المعلم لعياض ٧/ ٢٥٣.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٥/ ٧٣.

والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم علىٰ الوقوع في ذلك مع منعه إيَّاهم وقبضِه علىٰ مواضع المنع منهم بتساقُط الفراش في نار الدنيا بهواه وضعفِ تمييزه، فكلاهما حريص علىٰ هلاك نفسه، ساعٍ في ذلك لجهله.

وقال أبو العباس القرطبي في شرحه[1]: هو مَثل لاجتهاد نبيِّنا ﷺ في نجاتنا وحرصه علىٰ تخليصنا من المهلكات التي بين أيدينا، ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا.

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: هذا مَثل غريب كثير المعاني المقصود منه أن الله ضرب مثلاً لجهنم وما ركَّب من الشهوات المستدعية لها، المقتضية للدخول فيها، وما نهىٰ عنها وتوعَّدَ عليها وأنذرها وذكر ذلك [فيها، ثم] تغلب الشهواتُ علىٰ التقحُّم باسم أنها مصالح ومنافع، وهي نكتة الأمثال، فإن الخلق لا يأتون ذلك علىٰ قصد الهلكة، وإنما يأتونه باسم النجاة والمنفعة، كالفراش تقتحم الضياءَ ليس لتهلك فيه ولكنها تأنس به وهي لا تصبر بحال، حتىٰ [قال بعضهم] إنها في ظلمة فتعتقد أن الضياء كوة يستظهر فيها النور فتقصدها لأجل ذلك فتحترق وهي لا تشعر، وذلك هو الغالب من أحوال الخلق أو كله[2]. ا.هـ.

---

(١) المفهم ٦/ ٨٧.

(٢) هكذا نقله عنه العراقي في طرح التثريب ٨/ ٢٢٤ باختصار. ونص ابن العربي في عارضة الأحوذي ١٠/ ٣٢٤ - ٣٢٥: «المعنىٰ في هذا الحديث بديع، ضرب النبي ﷺ فيه المثل لثلاثة بثلاثة، أحدها: تمثيل النبي ﷺ برجل، الثاني: تمثيل الأمة بالفراش وشبهها بما يتهافت في النار، الثالث: ضرب النار في الدنيا مثلا لنار الآخرة التي نار الدنيا جزء منها، وينشأ من ذلك معانٍ بديعة في خمس مسائل: الأولىٰ: تمثيل النبي برجل، وهو ﷺ رجل من جهة الآدمية رفيع كريم إلىٰ جنس الملائكة، وربما كان أرفع عند العلماء، ولقد ضرب الله علىٰ تقدسه عن صفات الحدوث وتنزهه عن سمات النقص وسلامته عن نعوت الآفات وسلامته عن المكروهات اللائق ذلك كله بالآدمية لنفسه في كتابه مثلا رجلا في مواضع، منها قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ والحكمة فيه أن تفهيم الخلق بالباري وصفاته وجلاله لا يمكن إلا بضرب الأمثال فيه؛ لنقصان الآدمي وآفاته، وبذكر نعت بنعت وصفة بصفة، ثم تفترق الحقائق في الكمال والنقصان بحسب حال العبد =

وقد جاء ذِكرُ تهافُت الفراش في حديث آخر رواه البيهقي في الشعب[١] عن النَّوَّاس بن سمعان أن النبي ﷺ قال: «أراكم تتهافتون في الكذب تهافُت الفراش في النار، ألا إن كل كذبٍ مكتوبٌ علىٰ ابن آدم كذبًا لا محالة، إلا أن يكذب الرجل في الحرب ... الحديث. ورواه كذلك ابن جرير[٢] والخرائطي في مساوئ الأخلاق[٣].

وروىٰ ابن لال[٤] من حديث أسماء بنت يزيد: «ما لي أراكم تتايعون في الكذب كما يتتايع الفراش في النار».

(فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنعِ الله تعالىٰ في أصغر الحيوانات، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأوَّلون والآخِرون علىٰ الإحاطة بكُنْهه عجزوا عن حقيقته، ولم يطَّلعوا علىٰ أمور جليَّة من ظاهر صورته، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطَّلع عليه إلا الله تعالىٰ. ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة) بل **(وأعاجيب تخصُّه)** دون غيره **(لا يشاركه فيها غيرُه)** فإن شئتَ بيان ذلك **(فانظر إلىٰ النحل)**: ذباب[٥] العسل،

= والمولىٰ. الثانية: تمثيل الأمة بالفراش، وذلك لكثرة تلبس الخلق بالشهوات ووقوعهم في حبائلها صارت كالفراش التي تقع في النار قاصدة إليها من غير تثبت فيما تصير إليه ولا معرفة بما تقع فيه. الثالثة: ضرب لله لجهالة الخلق بحال الشهوات وغفلتهم عن مواقع الخطايا والسيئات جهالة الفراش بالنار التي تقع فيه وغفلتهم عما ترد عليه منه. الرابعة: يقال إن الفراش في ظلمة، فإذا رأت الضوء اعتقدت أنها كوة يستطير منها النور فتقصدها لأجل ذلك فتحترق فيها، كذلك الخلق في عقائدهم الفاسدة وشهواتهم الغالبة التي يعتقدون أنها صحيحة نافعة وهي باطلة مضرة. الخامسة: ضرب الحجزة مثلا دون سائر جهات الثوب لأنها أوثق الثياب علىٰ البدن عقدةً وأخصها منها بستر العورة لما كان منه ﷺ من البيان للخلق والإرشاد إلىٰ الحق».

(١) شعب الإيمان ٦/ ٤٤٨.

(٢) تهذيب الآثار - مسند علي ص ١٢٥.

(٣) مساوئ الأخلاق ص ٧٨، ٩٠.

(٤) وكذلك أحمد في مسنده ٤٥/ ٥٥٠، والطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ١٦٥ - ١٦٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٢.

(٥) حياة الحيوان الكبرىٰ ٢/ ٤٦٣ - ٤٧٣.

واحده: نحلة، للذكر والأنثىٰ (**وعجائبها**) قال الزجّاج[١]: سُمِّيت نحلاً لأن الله تعالىٰ نحلَ الناسَ منها العسل الذي تخرجه (**وكيف أوحىٰ الله تعالىٰ إليها حتىٰ اتَّخذت من الجبال بيوتًا ومن الشجر وممَّا يعرشون**) وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: ٦٨] قال [القزويني] في عجائب المخلوقات[٢]: يقال ليوم عيد الفطر: يوم الرحمة؛ إذ أوحىٰ الله فيه إلىٰ النحل صنعةَ العسل. بيَّن[٣] سبحانه وتعالىٰ أن في النحل أعظم اعتبار، فتأملْ كمالَ طاعتها وحُسن ائتمارها بأمر ربِّها كيف اتخذت بيوتًا في هذه الأمكنة الثلاثة من الجبال والشجر وحيث يعرش الناس، أي يبنون العروش، فلا ترىٰ للنحل بيتًا في غير هذه [الأمكنة] الثلاثة ألبتَّة، وتأملْ كيف كان أكثر بيوتها في الجبال وهو المقدَّم في الآية، ثم الأشجار وهي دون ذلك، ثم العروش وهي أقل بيوتها، وانظر كيف أدَّاها حسنُ الامتثال إلىٰ أن اتخذت البيوت قبل المرعَىٰ، فهي تتخذها أولاً، فإذا استقرَّ لها بيتٌ خرجت منه فرعت وأكلت من الثمرات، ثم أوت إلىٰ بيوتها؛ لأنه تعالىٰ أمرها أولاً باتخاذ البيوت، ثم بالأكل بعد ذلك (و) انظر (**كيف استخرج من لُعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء، والآخَر شفاء**) لفٌّ ونشرٌ مرتَّب. وفي قوله «من لعابها» إشارة إلىٰ أن العسل يخرج من أفواهها، وهو قول الجمهور. ونقل ابن عطية في تفسيره[٤] عن علي رضي الله عنه أنه قال في تحقير الدنيا: أشرف لباس ابن آدم [فيها] لُعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة. وظاهر هذا أنه من غير الفم. قلت: والمعروف من كلامه: فأشرف المطعومِ العسلُ وهو مَذْقة ذباب. وقد تقدَّم ذِكرُه في كتاب ذم الدنيا. والتحقيق أن العسل يخرج من بطونها، ولا يُدرَىٰ من فيها أو غيره، وقد صنع أرسطاطاليس بيتًا من زجاج لينظر

(١) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٢.

(٢) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ٧٠ (ط - مؤسسة الأعلمي ببيروت).

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٤) المحرر الوجيز ص ١١٠٤.

إلىٰ كيفية ما تصنع، فأبت أن تعسِّل حتىٰ لطَّخته من باطن الزجاج بالطين. ذكره الغزنوي[١]. وفي تفسير الكواشي الأوسط: أن العسل ينزل من السماء فيثبُت في أماكن [من الأرض] فتأتي النحل فتشربه، ثم تأتي الخليَّةَ فتلقيه في [الشمع] المهيَّأ للعسل في الخلية، لا كما يتوهَّمه بعضُ الناس أن العسل من فضلات الغذاء وأنه قد استحال في المعدة عسلاً. هذه عبارته (**ثم لو تأملتَ عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار**) فيستحيل في جوفها عسلاً، وتلقيه من أفواهها، فيجتمع منه القناطيرُ المقنطَرة، وهذا الذي دلَّ عليه القرآن، واختلاف لونه وطعمه بحسب اختلاف المرعَىٰ، ومن هذا المعنىٰ قول عائشة: جرست نحلُه العُرْفُطَ. حيث شبَّهت رائحتَه برائحة المغافير (**واحترازها عن النجاسات والأقذار**) فلا تقع إلا علىٰ الطيِّبات من الثمار والأزهار، وتُخرِج رجيعها من الخليَّة؛ لأنه منتن الريح (**وطاعتها لواحد من جملتها**) يسمَّىٰ: اليعسوب (**هو أكبرها شخصًا، وهو أميرها**) ومن خصائصه أنه ليس له حُمَة يلسع بها، وأفضل ملوكها الشُّقْر، وأسوؤها الرقط بسواد، ولا يتم أمرُها إلا به. وقد جاء ذِكرُه في حديث أبي أمامة: «إن أحدكم إذا أراد أن يخرج من المسجد تداعت جنودُ إبليس [وأجلبت] واجتمعت كما تجتمع النحل إلىٰ يعسوبها». رواه ابن السني في اليوم والليلة[٢]. وروىٰ ابن عدي[٣] أن النبي ﷺ قال لعليٍّ: «أنت يعسوب المؤمنين» (**ثم ما سخَّر الله تعالىٰ له أميرها من العدل والإنصاف بينها، حتىٰ إنه لَيقتلُ علىٰ باب المنفذ كلَّ ما وقع منها علىٰ نجاسة**) أي إنها إذا رأت فسادًا من ملك إما أن تعزله وإمَّا أن تقتله، وأكثر ما تقتل خارج الخليَّة (**لقضيت منها عجبًا**) وفي نسخة: العجب (**إن كنت بصيرًا في نفسك وفارغًا من همِّ بطنك وفرجك وشهوات نفسك في مُعاداة أقرانك وموالاة إخوانك**) قال القزويني: هو حيوان ذو فهم وكَيْس وشجاعة ونظرٍ في العواقب ومعرفة بفصول السنة وأوقات

---

(١) نقله عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣٦٧.

(٢) عمل اليوم والليلة ص ١٠٩.

(٣) الكامل في الضعفاء ٥/ ١٨٨٥، ولفظه: «علي يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين».

المطر وتدبير المرتع [والمطعم] والطاعة لأميره والاستكانة لكبيره وقائده، بديع الصنعة. وقال غيره: ومن شأنه في تدبير معاشه أنه إذا أصاب موضعًا نقيًّا بنىٰ فيه بيوتًا من الشمع أولاً، ثم البيوت التي يأوي فيها الملوك، ثم بيوت الذكور التي لا تعمل شيئًا. والذكر أصغر جِرمًا من الأنثىٰ. وهيَ تكثِّر المادةَ داخل الخلية، وإذا طارت خرجت بأجمعها، وترتفع في الهواء، ثم تعود إلىٰ الخلية. والنحل تعمل الشمع أولاً، ثم تلقي البزر؛ لأنه لها بمنزلة العش للطير، فإذا ألقته قعدت عليه وحضنته كما يحضن الطيرُ، فيكون [من ذلك] البزر دود أبيض، ثم تنهض الدودة وتغذِّي نفسها ثم تطير. وهي لا تقعد علىٰ أزهار مختلفة بل علىٰ زهر واحد، وتملأ بعضَ البيوت عسلاً، وبعضها فراخًا. والملوك لا تخرج إلا مع جميع النحل، فإذا عجز [الملك] عن الطيران حملته. والنحل تجتمع فتقسم الأعمال، فبعضها يعمل العسل، وبعضها يعمل الشمع، وبعضها يسقي الماء، وبعضها يبني البيوت. ومن طبعه أنه يهرب بعضه من بعض، ويقاتل بعضه بعضًا في الخلايا، ويلسع مَن دنا من الخلية، وإذا هلك منها شيء داخل الخلية أخرجته الأحياء إلىٰ خارج، وهو يعسِّل زماني الربيع والخريف، والذي يعسِّله في الربيع أجود، والصغير أعملُ من الكبير، ويشرب من الماء ما كان عذبًا صافيًا، يطلبه حيث كان، ولا يأكل من العسل إلا قدْر شبعه، وإذا قلَّ العسلُ في الخلية قذفه بالماء ليكثُر خوفًا علىٰ نفسه من نفاده؛ لأنه إذا نفد أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور، وربما قتلت منها ما كان هناك. قال حكيم من اليونان لتلامذته: كونوا كالنحل في الخلايا. قالوا: كيف؟ قال: إنها لا تترك عندها بطَّالاً إلا نفته وأقصته عن الخلية؛ لأنه يضيِّق المكانَ، ويفني العسلَ، ويعلِّم النشيطَ الكسلَ. والنحل يسلخ جلده كالحيَّات، وتوافقه الأصواتُ اللذيذة المطربة، ويضرُّه السوسُ، ودواؤه أن يُطرَح في كل خلية كف ملح، وأن تُفتَح في كل شهر مرةً وتدخَّن بأخثاء البقر. ومن طبعه أنه إذا طار من الخلية ليرعَىٰ وعاد تعود كل نحلة إلىٰ مكانها لا تخطئه، وأهل مصر يحوِّلون الخلايا في السفن ويسافرون بها إلىٰ مواضع الزهر والشجر، فإذا اجتمع في المرعَىٰ فُتحت أبواب الخلايا، فيخرج

منها ويرعَىٰ يومه أجمع، فإذا أمسىٰ عاد إلىٰ السفينة، وأخذت كل واحدة مكانها لا تتغيَّر عنه.

وروىٰ البيهقي في الشعب[1] عن مجاهد قال: صحبت ابن عمر من مكة إلىٰ المدينة، فما سمعته يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث: «إن مَثل المؤمن كمثل النحلة، إن صاحبته نفعك، وإن شاورتَه نفعك، وإن جالسته نفعك، وكل شأنه منافع، وكذلك النحلة كلُّ شأنها منافعُ». قال ابن الأثير[2]: وجه المشابهة بين المؤمن والنحلة حِذقُ النحل، وفطنته، وقلة أذاه، وحقارته، ومنفعته، وقنوعه، وسعيه في الليل، وتنزُّهه عن الأقذار، وطِيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، ونحوله، وطاعته لأميره، وأن للنحل آفات تقطعه عن عمله، منها الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار، وكذلك المؤمن له آفات تفتِّره عن عمله: ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، وماء السعة، ونار الهوىٰ.

(**ثم دَعْ عنك جميعَ ذلك وانظر إلىٰ بنائها بيوتها من الشمع، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدَّس**) الذي لا ينخرق (**فلا تبني بيتًا مستديرًا ولا مربَّعًا ولا مخمَّسًا، بل مسدَّسًا لخاصِّية في الشكل المسدَّس يقصُر فهمُ المهندسين عن دركها**) وإحاطتها (**وهو أن أوسع الأشكال وأحواها**) أي أجمعها (**المستديرة**) أي المستديرة الشكل (**وما يقرُب منها، فإن المربَّع تخرج منه زوايا ضائعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتىٰ لا تضيع الزوايا فتبقىٰ فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فروجٌ ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جُمعت لم تجتمع متراصَّة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرُب في الاحتواء من المسدَّس، ثم تتراصُّ الجملةُ منه بحيث لا تبقىٰ بعد اجتماعها فرجةٌ إلا المسدَّس، وهذه خاصِّية هذا الشكل**) فبذلك[3] اتَّصلت حتىٰ صارت كالقطعة الواحدة، وبيانه

---

(١) شعب الإيمان ١١/ ٣٥٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٥/ ٢٩ - ٣٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦. مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ١٦٥.

أن الأشكال من الثلاثة إلىٰ العشرة إذا جُمع كل واحد منها إلىٰ أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فروج، إلا الشكل المسدَّس فإنه إذا جُمع إلىٰ أمثاله اتصل به كأنَّه قطعة واحدة، كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار[1]، وذلك من أثر صنعِ اللطيف الخبير وإلهامه إيَّاها (**فانظر كيف ألهم الله النحل علىٰ صغر جِرمه ولطافة قدِّه لطفًا به وعنايةً بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنَّأ بعيشه، فسبحانه، ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه!**

فاعتبِرْ) أيها السالك (**بهذه اللمعة اليسيرة من محقَّرات الحيوانات، ودَعْ عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات، فإنَّ القدْر الذي بلغه فهمُنا القاصر منه تنقضي الأعمارُ**) الطوال (**دون إيضاحه، ولا نسبة لِما أحاط به علمُنا إلىٰ ما أحاط به العلماء والأنبياء، ولا نسبة لِما أحاط به علمُ الخلائق كلِّهم إلىٰ ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه، بل كل ما عرفه الخلقُ لا يستحق أن يسمَّىٰ علمًا في جنب علم الله تعالىٰ**) لاتِّصافه بالنقص والقصور من كل وجه (**فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة، فإن كنت طالبًا سعادة لقاء الله فانبِذ الدنيا وراء ظهرك**) كما قال القائل:

* متىٰ ما تلقَ مَن تهوَىٰ دَعِ الدنيا وأهملْها[2] *

(**واستغرِق العمرَ في الذكر الدائم والفكر الملازم**) الناشئينِ عن مراقبة الحق تعالىٰ (**فعساك تحظَىٰ منها بقدْر يسير، ولكن تنال بذلك اليسير مُلكًا عظيمًا لا آخر له**) وسعادة أبديَّة لا انصرام لها أبد الآباد. والله الموفِّق.

---

(١) هو البركار الذي ترسم به الدوائر، وهو البرجل. وانظر: تاج العروس ١١/ ٣٣٣، المعجم الوسيط ١/ ١٤٧.

(٢) عجز بيت، صدره:

إذا ما شئت لقياه تذكر حافظ قولا

وهو لحافظ الشيرازي في ديوانه ص ١.

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

(اعلمْ) أسعدك الله تعالىٰ (**أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب؛ لاشتراكهم في أصل الإيمان، ولكنهم متفاوتون؛ لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا؛ إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها**) وهو[1] كالقدرة الحاصلة لهم بالغِنىٰ في المال، فمن واحد يملك الدانق والدرهم، ومن واحد يملك ألفًا، فكذا العلوم، بل التفاوت في العلوم أعظم؛ لأن المعلومات لا نهاية لها، وأعيان الأموال أجسام، والأجسام متناهية لا يُتصوَّر أن تنتفي النهاية عنها. فإذًا قد عرفتَ كيف يتفاوت الخلق في بحار معرفة الله تعالىٰ، وأن ذلك لا نهاية له (**وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالىٰ إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعَهم فتلقَّفوها وحفظوها**) فهو السبيل الذي فُتح لهم فيه، وفيه تتفاوت مراتبُهم (**وربما تخيَّلوا لها معاني يتعالَىٰ عنها ربُّ الأرباب**) جلَّ جلاله (**وربما لم يطَّلعوا علىٰ حقيقتها، ولا تخيَّلوا لها معنًىٰ فاسدًا، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل، وتركوا البحث**) فيها (**وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيِّلون**) لها بالمعاني الفاسدة (**هم الضالُّون، والعارفون بالحقائق هم المقرَّبون**) فهؤلاء ثلاثة أصناف (**وقد ذكر الله حال**) هذه (**الأصناف الثلاثة في قوله**: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ **الآية**) وتمامها: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤] وبيان[2] تفاوُت المراتب هو أنه لا يخفَىٰ عليك أنه ليس من يعلم أنه عالِم قادر علىٰ الجملة كمَن شاهد عجائب آياته في ملكوت السموات

---

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٥٨.

(٢) السابق ص ٥٥ - ٥٦.

والأرض وخلقِ الأرواح والأجساد واطَّلع علىٰ بدائع المملكة وغرائب الصنعة، ممعنًا في التفصيل، ومستغرقًا في دقائق الحكمة، ومستوفيًا لطائف التدبير، ومتَّصفًا بجميع الصفات المَلَكية المقرِّبة من الله تعالىٰ، نائلاً لتلك الصفات نيل اتصافٍ بها، بل بينهما من البون البعيد ما لا يكاد يُحصَىٰ، وفي تفاصيل ذلك ومقاديره يتفاوت الأنبياء والأولياء (**فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالاً فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي رحمه الله تعالىٰ، الفقهاء منهم والعوامُّ؛ لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحُسن سيرته ومحامد خصاله، ولكن العامِّي يعرف علمه مجملاً، والفقيه يعرفه مفصَّلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم، وإعجابه به وحبه له أشد**) أو نقول: إن الشافعي رحمه الله تعالىٰ يعرفه بوَّاب داره، ويعرفه المزني تلميذه. والبوَّاب يعرف أنه عالِم بالشرع ومصنِّف فيه ومرشد خلق الله إلىٰ الله علىٰ الجملة، والمزني يعرفه لا كمعرفة البوَّاب بل بمعرفة محيطة بتفاصيل صفاته ومعلوماته، بل العالِم الذي يُحسِن عشرةَ أنواع من العلوم لا يعرفه بالحقيقة تلميذه الذي لم يحصِّل إلا نوعًا واحدًا فضلاً عن خادمه الذي لم يحصِّل شيئًا من علومه، بل الذي حصَّل علمًا واحدًا فإنما عرف علىٰ التحقيق عُشره؛ إذ ساواه في ذلك العلم حتىٰ لم يقصُر عنه، فإن قصرَ عنه فليس يعرف بالحقيقة ما قصرَ عنه إلا بالاسم وإبهام الجملة وهو أنه يعرف أنه يعلم شيئًا سوىٰ ما علمه، فكذلك فافهمْ تفاوت الخلق في معرفة الله تعالىٰ. وأيضًا (**فإنَّ مَن رأىٰ تصنيف مصنِّف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبُه، فإن رأىٰ تصنيفًا آخر أحسن منه وأعجب تضاعَف لا محالة حبُّه؛ لأنه تضاعفت معرفتُه بعلمه، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حَسن الشعر فيحبه، فإذا سمع من غرائب شعره**) وصنعته ما عظُمَ فيه حِذقُه (**ازداد به معرفةً، وازداد له حبًّا. وكذا سائر الصناعات والفضائل. والعامِّي قد يسمع أن فلانًا مصنِّف وأنه حَسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف، فتكون له معرفة مجمَلة، ويكون**

له بحسبه مَيلٌ مجمَل، والبصير) الماهر (إذا فتَّش عن التصانيف واطَّلع علىٰ ما فيها من العجائب تضاعف حبُّه لا محالة؛ لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل علىٰ كمال صفات الفاعل والمصنِّف، والعالَم بجملته) من قمَّة العرش إلىٰ منتهَىٰ الثَّرَىٰ (صُنْع الله) المتقَن (وتصنيفه) وإيجاده (والعامِّي يعلم ذلك ويعتقده) ولا ينكره (وأما البصير) في العلم (فإنه يطالع تفصيل صنعِ الله تعالىٰ فيه حتىٰ يرىٰ في البعوض مثلاً من عجائب صنعِه ما ينبهر به عقلُه، ويتحيَّر فيه لبُّه، ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حبًّا، وكلَّما ازداد علىٰ أعاجيب صنعِ الله اطِّلاعًا) وتسلُّقًا (استدلَّ بذلك علىٰ عظمة الله الصانع وجلاله، وازداد به معرفةً وله حبًّا، وبحر هذه المعرفة - أعني معرفة عجائب صنعِ الله تعالىٰ - بحر لا ساحل له) ينتهي إليه (فلا جَرَم تفاوُت أهل المعرفة في الحب لا حصر له) ثم[1] إن تلك المعرفة الحاصلة من النظر في عجائب صنعِ الله تعالىٰ ليست معرفة تامَّة حقيقية؛ لأنَّا إذا علمنا ذاتًا عالمة فقد علمنا شيئًا مبهمًا لا ندري حقيقته، لكن ندري أنَّ له صفة العلم، فإن كانت صفة العلم معلومة لنا حقيقةً كان علمُنا بأنه عالِم أيضًا علمًا تامًّا بحقيقة هذه الصفة، وإلا فلا، ولا يعرف أحد حقيقة علمِ الله تعالىٰ إلا مَن له مثل علمِه، وليس ذلك إلا له، فلا يعرفه سواه، وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه، وعلمُ الله تعالىٰ لا يشبه علم الخلق ألبتَّة، فلا تكون معرفة [الخلق] به معرفة تامة حقيقية أصلاً، بل إبهامية تشبيهية. نعم، كلَّما ازداد العبد إحاطة بتفاصيل المعلومات وعجائب الصنائع كان حظُّه من تلك الصفة أوفر[2]؛ لأن الثمرة تدل علىٰ المثمر، كما أنه كلَّما ازداد التلميذ إحاطة بتفاصيل علوم الأستاذ وتصانيفه كانت معرفته به أكمل، واستعظامه له أتم، وهذا هو مراد المصنف من السياق، وإلىٰ هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين، ويتطرَّق إليه تفاوت لا يتناهَىٰ (وممَّا يتفاوت بسببه الحبُّ: اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب، فإنَّ مَن

---

(١) السابق ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) في المقصد: «كان حظه من معرفة صفة القدرة أوفر».

يحب الله مثلاً لكونه محسنًا إليه منعمًا عليه ولم يحبَّه لذاته ضعفت محبتُه؛ إذ تتغير بتغيُّر الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء، وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه) فهذا السبب هو أقوىٰ الأسباب (فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة، والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالىٰ، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلىٰ الأفهام وأسهلها علىٰ العقول، وترىٰ الأمر بالضد من ذلك، فلا بد من بيان السبب فيه. وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنًىٰ) تقدمت الإشارة إليه، وحاصله أن المحبة هي الوصلة بين العبد وبين الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة؛ إذ العارف لا يفارق المعروفَ، كما لا يريد عنه بدلاً؛ لأن معرفة الله ألذ المعارف وألذ الأشياء وأشهاها للقلوب؛ لأن كل ذات جميلة علىٰ اختلاف أنواعها ومراتبها لا يميل إليها البصر أو البصيرة إلا وهي تشهد كمالَ خالقها وكمال صانعها، وكلَّما كانت الصنعة شريفة جميلة دلَّت علىٰ شرف ذات الخالق وكمال صفاته من العلم والحكمة والقدرة، فإن كانت القلوب تميل إلىٰ الذوات الجميلة وتلتذُّ بإدراكها فالتذاذها بالأشرف أشرف، وبالأكمل أكمل، ولمعنىٰ هذا سبق النظر إلىٰ الخالق قبل الخلق، وهذا لا يكون إلا لمَن غلبت روحانيَّته علىٰ جثمانيته، وإلا فمَن غلبت جثمانيتُه علىٰ روحانيته سبق نظرُه إلىٰ الخلق دون الخالق وانعدم التذاذُه بالعلوم والمعارف، وهو جُلُّ الأسباب المانعة من معرفة الله تعالىٰ، وإلا فمعرفة الله أظهرُ المعارف، ووجوده أظهرُ الموجودات، وما مثالنا في الغفلة عن معرفة الله ووجوده إلا كمَن غفل عن وجود نفسه وكونه موجودًا حيًّا، وذلك إما لإلفه بوجوده أو شغلِ قلبه بمهمٍّ من المهمَّات أذهله عن وجوده، وإلا فمَن ظهر له وجود نفسه ظهر له وجود الله تعالىٰ؛ لأن نفسه ونفس العالَم أثرٌ من آثار قدرة الله تعالىٰ. وهذا المعنىٰ (لا تفهمه إلا بمثال وهو: أنَّا إذا رأينا إنسانًا يكتب أو يخيط مثلاً كان كونه حيًّا عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلَىٰ عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة؛ إذ

صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخُلُقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف إلا بعضها، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته) أي ظاهر جلده (وغير ذلك من صفاته، أما حياته وقدرته وعلمه وإرادته وكونه حيوانًا فإنه جليٌّ عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإنَّ هذه الصفات لا تُحَس) أي لا تُدرَك (بشيء من الحواس الخمس) الظاهرة (ثم لا يمكن أن تُعرَف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته) أي حركة يده (فلو نظرنا إلىٰ كل ما في العالَم سواه لم نعرف به صفته، فما عليه إلا دليل واحد، وهو مع ذلك جليٌّ واضح، ووجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كلُّ ما تشاهده وتدركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومَدَر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبَر وبحر ونار وهواء وجوهر وعَرَض، بل أول شاهد عليه أنفسُنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلُّب أحوالنا وتغيُّر قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهرُ الأشياء في علمنا أنفسُنا، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس، ثم مدرَكاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدرَكات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع ما في العالَم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبِّرها ومصرِّفها ومحرِّكها، ودالَّة علىٰ علمه وقدرته ولطفه وحكمته، والموجودات المدرَكة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يُتصوَّر في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلىٰ عظمته وجلاله) وعظيم قدرته (إذ كل ذرَّة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها، ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلىٰ موجِد ومحرِّك لها، يشهد بذلك أولاً تركيبُ أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكُّل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنَّا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لمَّا لم يبقَ في الوجود شيء مدرَك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد) عليه ودليل (ومعرِّف عِظَم

ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه، فإنَّ ما تقصر عن فهمه عقولُنا فله سببان، أحدهما: خفاؤه في نفسه وغموضه) ودقَّته **(وذلك لا يخفَىٰ مثالُه، والآخَر: ما يتناهَىٰ وضوحُه)** إلىٰ الغاية **(وهذا كما أن الخُفَّاش)** بضمٍّ[1] وتشديد: طائر معروف، قيل: هو الوطواط، غريب الشكل والوصف **(يبصر بالليل)** ويلتمس الوقتَ الذي لا ضوء فيه **(ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره)** وكثرة انتشار ضوئه، مع ضعفِ بصره، **(فإنّ بصر الخفَّاش ضعيف، يبهره نورُ الشمس إذا أشرقت)** وكذا ضوء القمر، وفيه يقول الشاعر[2]:

مثل النهار يزيد أبصارَ الورَىٰ ... نورًا ويعمي أعيُن الخفاش

(فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببًا لامتناع إبصاره، فلا يرىٰ شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعُف ظهورُه) وهو قرب الغروب، وفي هذا الوقت ينتشر البعوض يطلب القوت وهو دماء الإنسان، وينتشر الخفاش يطلب البعوضَ **(فكذلك عقولنا ضعيفة)** لا شعاع لها **(وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول حتىٰ لم يشذَّ عن ظهوره ذرَّةٌ من ملكوت السموات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه)** وفي هذا المعنىٰ أنشدني شيخنا المرحوم العارف وجيه الدين عبد الرحمن بن مصطفىٰ العيدروس الحَسَني قدَّس الله سره في ثامن عشر رجب سنة ١١٣٣ بالطائف لبعضهم:

ذِكرَ الإلهِ الزمْ هُديتَ لذكره ... فبه القلوب تطيب والأفواه

واجعلْ حلاكَ تُقاه إنَّ أخا التُّقَىٰ ... يا صاحِ مَن كانت حلاه تُقاه

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ ١/ ٤١٤ - ٤١٥.

(٢) هو هبة الله بن صاعد البغدادي الطبيب المعروف بابن التلميذ. وقبله بيت آخر وهو:

العلم للرجل اللبيب زيادة ... ونقيصة للأحمق الطياش

معجم الأدباء لياقوت الحموي ٦/ ٢٧٧٥. عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١/ ٢٦٩. مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ٩/ ٢٤٥.

واستعمِل الأفكار في ملكوته مستغرقًا في الكشف عن معناه
ولتخلع النعلين خلع محقَّق خليٍّ عن الكونين في مَسراه
ولتفْنَ حتىٰ عن فَنائك إنه عين البقاء وعند ذاك تراه
وإذا بدا فاعلمْ بأنك لست هو كلاًّ ولا أيضًا تكون سواه
شيئان ما اتَّحدا ولكن ههنا سرٌّ يضيق نطاقُنا عمَّا هو
يا سامعًا ما قد أشرتُ له أما قلب يفكر ما وعتْ أذناه
أزِل الحجابَ حجاب قلبك ينكشف لك سرُّ ما قد غاب عنك سَناه
إن الإله أجل ما متعرف مَن لا يراه فقد استبانَ عَماه
أنَّىٰ يغيب وليس يوجَد غيره لكنَّ شديد ظهوره أخفاه[١]

(فسبحان مَن احتجب بإشراق نوره، واختفىٰ عن البصائر والأبصار بظهوره) وفي «حقائق الأسماء» للشيخ الأكبر قُدِّس سره[٢]: وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه»[٣]. قال: فاشترك نوع الإنسان مع الملأ الأعلىٰ في الطلب، واختلفا في الكيفية؛ لأنهم يطلبونه بالأنوار العقلية لكونهم عقولاً مجرَّدة، وهو جلَّت عظمتُه محتجِب عن العقول، فأنَّىٰ لهم سبيل الوصول إلىٰ أسرار الذات وحقائق الصفات[٤]. انتهىٰ **(ولا يُتعجَّب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تُستبان**

---

(١) هذه الأبيات أوردها ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن ص ٣٢٢، وذكر أنها أنشدت بين يدي شيخه أبي العباس المرسي.
(٢) ونقله عنه صدر الدين القونوي في شرح الأسماء الحسنىٰ ص ١٠ (ط - كتاب وناشرون ببيروت).
(٣) لم أجده.
(٤) انظر: الفتوحات ٧/ ٣٤ (ط دار صادر)، والمطالب العالية للرازي ١/ ٤٨ (ط دار الكتاب العربي)، والأمد الأقصىٰ لابن العربي ١/ ٢٤١- ٢٤٣.

بأضدادها، وما عمَّ وجودُه حتىٰ إنه لا ضد له عسرٌ إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدلَّ بعضُها دون بعض أدركتَ التفرقةَ علىٰ قرب، ولمَّا اشتركت في الدلالة علىٰ نسق واحد أشكل الأمرُ) واشتبه الحالُ (ومثاله نور الشمس المشرق) المنبسط (علىٰ الأرض، فإنَّا نعلم أنه عَرَضٌ من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غَيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما فإنَّا لا نشاهد في الأسود إلا السواد، وفي الأبيض إلا البياض، وأما الضوء فلا ندركه وحده، ولكن لمَّا غابت الشمس وأظلمت المواضعُ أدركنا تفرقةً بين الحالين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتَّصفت بصفة فارقتْها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنا نطَّلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور، هذا مع أن النور أظهرُ المحسوسات؛ إذ به يُدرَك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره انظر كيف تُصُوِّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طرآن ضدِّه، فالله تعالىٰ هو أظهرُ الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدمٌ أو غَيبة أو تغيُّرٌ لانهدَّت السموات والأرض وبطل المُلكُ والملكوت، ولأُدرِكت بذلك التفرقة بين الحالين، ولو كان بعض الأشياء موجودًا به وبعضها موجودًا بغيره لأُدرِكت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء علىٰ نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافُه، فلا جَرَم أورثت شدةُ الظهور خفاءً) ولقد أفصح المصنف رحمه الله تعالىٰ عن هذا المبحث في كتابه مشكاة الأنوار[1] بما نصه: واعلم أن معنىٰ كونه نور السموات والأرض تعرفه بالنسبة إلىٰ النور الظاهر البصري، فإذا رأيتَ نور الربيع وخضرته مثلاً في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترىٰ الألوان، وربما ظننت أنك لست ترىٰ مع الألوان غيرَها، فإنك تقول: لست أرىٰ مع الخضرة غيرَها، ولقد أصرَّ علىٰ هذا

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٦٥ - ٦٦.

أقوامٌ فزعموا أن النور لا معنىٰ له، وأنه ليس مع الألوان غير الألوان، فأنكروا وجودَ النور، مع أنه أظهرُ الأشياء، وكيف لا وبه تظهر الأشياء، وهو الذي يبصر في نفسه ويبصر به غيرُه، لكن عند غروب الشمس وغَيبة السراج ووقوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موضع الضياء، فاعترفوا بأن النور معنىٰ وراء الألوان يُدرَك مع الألوان، حتىٰ كأنَّه لشدة اتحاده بها لا يُدرَك، ولشدة ظهوره يخفَىٰ، وقد تكون شدة الظهور سبب الخفاء، والشيء إذا جاوز حدَّه انعكس علىٰ ضده، فإذا عرفتَ هذا فاعلمْ أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله، فهو مع كل شيء [لا يفارقه، ثم يظهر كل شيء، كما أن النور مع كل شيء] وبه يظهر، ولكن بقي هنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يُتصوَّر أن يغيب بغروب الشمس ويُحجَب حتىٰ يظهر الظل، وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء لا تُتصوَّر غيبته، بل يستحيل تغيُّره، فيبقىٰ مع الأشياء دائمًا، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة، ولو تُصوِّرت غَيبته لانهدَّت السموات والأرض، ولأُدرِك به من التفرقة ما يُضطر معه إلىٰ المعرفة بما به ظهرت الأشياء، ولكن لمَّا تساوت الأشياء كلها علىٰ نمط واحد في الشهادة لوحدانية خالقها - إذ كل شيء يسبِّح بحمده لا بعض الأشياء، وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات - ارتفعت المعرفة[1] وخفيَ الطريقُ؛ إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد، فما لا ضد له ولا نقيض تتشابه الأحوال في الشهادة له، فلا يبعُد أن يخفَىٰ، ويكون خفاؤه لشدة جلائه، والغفلة عنه لإشراق نوره، فسبحان مَن اختفىٰ عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم لإشراق نوره. انتهىٰ.

(فهذا هو السبب في قصور الأفهام، وأما مَن قويت بصيرتُه ولم تضعُف مُنته) بضم الميم، أي قوَّته، وغلبت روحانيَّته علىٰ جثمانيَّته **(فإنه في حال اعتدال أمره لا يرىٰ إلا الله تعالىٰ)** مع الأشياء أو قبلها، والثاني أعلىٰ من الأول **(ولا يعرف غيره،**

---

(١) في المشكاة: ارتفع التفريق.

ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثرٌ من آثار قدرته، فهي تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومَن هذه حالُه فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرىٰ فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صُنْع الواحد الحق، فلا يكون نظرُه مجاوزًا له إلىٰ غيره) وهذا مقام الصدِّيقين، وذلك (كمَن نظر في شِعر إنسان أو خطِّه أو تصنيفه ورأىٰ فيه الشاعرَ والمصنف ورأىٰ آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج) اللذينِ بهما تركيب الحبر (مرقوم علىٰ بياض فلا يكون قد نظر إلىٰ غير المصنف، وكل العالَم تصنيف الله تعالىٰ، فمَن نظر إليه من حيث إنه فعلُ الله وعرفه من حيث إنه فعلُ الله وأحبَّه من حيث إنه فعلُ الله لم يكن ناظرًا إلا في الله، ولا عارفًا إلا بالله، ولا محبًّا إلا له، وكان هو الموحِّد الحق الذي لا يرىٰ إلا الله، بل لا ينظر إلىٰ نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله، فهذا الذي يقال فيه إنه فنيَ في التوحيد) الذي تقدَّمت الإشارة إليه غير مرة (وإنه فنيَ عن نفسه) أيضًا (وإليه الإشارة بقول مَن قال: كنا بنا فغُيِّبنا عنا) وفي نسخة: ففنينا عنا (فبقينا بلا نحن) وذكر السعد التفتازاني في إلهيَّات شرح المقاصد(١) بعد أن أبطل الحلولَ والاتحاد: وههنا مذهبان آخران يوهمان الحلولَ والاتحاد وليسا منه في شيء، الأول: أن السالك إذا انتهىٰ سلوكه إلىٰ الله وفي الله استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحلُّ ذاتُه في ذاته، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كل ما سواه، ولا يرىٰ في الوجود إلا الله. وهذا الذي يسمُّونه: الفناء في التوحيد، وإليه يشير الحديث الإلهي: «فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به». وحينئذٍ ربما صدرت عنه عبارات تُشعِر بالحلول والاتحاد؛ لقصور العبارة عن بيان تلك الحال، وتعذُّر الكشف عنه بالمقال، ونحن علىٰ ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد بقدْر الإمكان، ونعترف بأن طريق الفناء فيه العيان دون

---

(١) شرح المقاصد ٤/ ٥٩ - ٦٠.

البرهان. الثاني: أن الواجب هو الوجود المطلق، وهو واحد لا كثرة فيه أصلاً، وإنما الكثرة في الإضافات والتعيينات التي هي بمنزلة الخيال والسراب؛ إذ الكل في الحقيقة واحد يتكرر علىٰ الظاهر لا بطريق المخالطة، ويتكثَّر في النواظر لا بطريق الانقسام، ولا حلول هنا ولا اتحاد لعدم الاثنينية والغَيْرية[1]. انتهىٰ.

وقد تقدم أن من الصدِّيقين مَن قال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه. ومنهم مَن ترقَّىٰ فقال: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله. قال المصنف في مشكاة الأنوار[2]: وربما لا يفهم هذا الكلام بعض القاصرين فيفهم من قولنا «إن الله مع كل شيء كالنور مع الأشياء» أنه في كل مكان، تعالىٰ وتقدَّس عن النسبة إلىٰ المكان، بل نقول بأنه قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء، وأنه مُظهِر كل شيء، والمظهِر لا يفارق المُظهَر في معرفة صاحب البصيرة، فهذا الذي نعني بقولنا «إنه مع كل شيء». ثم لا يخفَىٰ عليك أن المظهِر قبل المظهَر وفوقه، وأنه معه، لكنه معه بوجه، وقبله بوجه، فلا تظنن أنه متناقض، واعتبِرْ بالمحسوسات التي هي درجتك في العرفان، وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركةَ ظل اليد وقبلها أيضًا، ومَن لم يتَّسع صدرُه لمعرفة هذا فليهجر هذا النمطَ من العلم، فلكل علمٍ رجالٌ، وكلٌّ ميسَّر لِما خُلِق له.

(فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهِمة موصلة) لهم **(للغرض إلىٰ الأفهام، واشتغالهم بأنفسهم، واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم ممَّا لا يعنيهم، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالىٰ، وانضمَّ إليه أن المدرَكات كلها التي هي شاهدة علىٰ الله إنما يدركها الإنسان في الصِّبا عند فقد العقل، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً)** علىٰ التدريج **(وهو مستغرق الهم بشهواته)** أي لتحصيلها **(وقد أنسَ بمدرَكاته ومحسوساته وألِفَها)** واستأنس بها **(فسقط وقعُها**

(١) وهذا الثاني أبطله التفتازاني ورد عليه.

(٢) مشكاة الأنوار ص ٦٦ - ٦٧.

عن قلبه بطول الأنس) وتمادي الإلف (ولذلك إذا رأىٰ علىٰ سبيل الفجأة حيوانًا غريبًا أو نباتًا غريبًا أو فعلاً من أفعال الله تعالىٰ خارقًا للعادة عجيبًا انطلق لسانه بالمعرفة طبعًا فقال: سبحان الله)! متعجِّبًا منه (وهو يرىٰ طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها؛ لطول الأنس) بها، ولا يسبِّح الله عند رؤيتها (ولو فُرِض أَكْمه) وهو الذي وُلِد أعمىٰ (بلغ عاقلاً ثم انقشعت غشاوة عينه فامتدَّ بصرُه إلىٰ السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعةً واحدة علىٰ سبيل الفجأة لخيفَ علىٰ عقله أن ينبهر؛ لعِظَم تعجُّبه من شهادة هذه العجائب لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدَّ علىٰ الخلق الاستضاءةَ بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة) قال[١] الشيخ الأكبر قُدِّس سره في حقائق الأسماء: ولا يجول في جو فضاء ساحات الغيب إلا مَن خلُصَ من قيود مدارك الفكر والحس، ولا تزول ظلمة الشرك والريب إلا بشهود تصاريف تجلِّيات الأسماء والصفات في فسيح حظائر القدس، وهذا النوع من العلوم لا يحصل من ترتيب المقدِّمات وإيراد الشبهات، بل بمخالفة الهوىٰ وقمع محبة الدنيا والتحقُّق بحقائق التقوىٰ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] انتهىٰ (فالناس في طلبهم معرفة الله تعالىٰ كالمدهوش الذي يُضرَب به المَثل إذا كان راكبًا لحماره وهو يطلب حماره) وهو قول العامة: ولدُه علىٰ كتفه وهو يدور عليه[٢] (والجليَّات) الواضحات (إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة، فهذا

---

(١) شرح الأسماء الحسنىٰ للقونوي ص ١٠.

(٢) أورده أحمد تيمور باشا في كتاب الأمثال العامية ص ٧، وقال: «أي يحمل ابنه علىٰ كتفه ثم يبحث عنه. يضرب في الذهول عن الشيء وهو قريب ممن يبحث عنه. وللشيخ عبد الغني النابلسي من مواليا:

للحب تطلب وأنت الحب يا حائر
أما سمعت الذي فيه المثل سائر
حبي معي وعلىٰ حبي أنا دائر

وفي مجمع الأمثال للميداني: من أمثال المولدين: ابنه علىٰ كتفه وهو يطلبه».

سر هذا الأمر، فليحقَّق. ولذلك قيل) في وصف التجلِّي والحجاب:

(لقد ظهرت فما تخفَىٰ علىٰ أحد   إلا علىٰ أَكْمه لا يعرف القمرا
(لكن بطنتَ بما أظهرتَ محتجبًا   فكيف يُعرَف مَن بالعُرف قد سُتِرا)

ويُروَىٰ: لا يبصر القمرا

وزاد صاحب القوت:

فصرتُ أحجب ما عاينتُ مجتهدًا   لأنني حاجب استطلع الخبرا[١]

قال: وأنشد بعضهم في وصف التوحيد والتعزيز بمعناه:

لقد بطنتَ فلم تظهر لذي بصرٍ   وكيف يُدرَك مَن بالعين مستترا
لكن عُرِفتَ بما عرَّفتَ من خبر   وكيف يُعرَف مَن بالخُبْر مختبرا
فصرتُ أسعىٰ لآثارٍ لنا رُسِمت   وغابت العينُ لا رسمًا ولا أثرا[٢]

ثم قال: والكلام في التجلِّي والاحتجاب والجمع والاتصال لا أرسمه في كتاب؛ لأنه يؤود العقولَ فتنفر منه فتطرحه، وتضيق عنه القلوب فيقبض عليها فتمجُّه، وإنما أمليه من قلب إلىٰ قلب، وأوعيه من عين إلىٰ عين.

وقال المصنف في المقصد الأسني[٣]: الظاهر الباطن وصفان من المضافات، فإن الظاهر يكون ظاهرًا من وجه، وباطنًا من وجه[٤]، ولا يكون من وجه واحد ظاهرًا وباطنًا، بل يكون ظاهرًا من وجه بالإضافة إلىٰ إدراك، وباطنًا من وجه آخر

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات، والبيت الأول فقط في ديوان ذي الرمة ص ٩٤ برواية: حتىٰ بهرت فما تخفىٰ ... الخ.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

(٣) المقصد الأسنىٰ ص ١٤٧ - ١٤٩.

(٤) في المقصد: يكون ظاهرا لشيء وباطنا لشيء.

بالإضافة إلىٰ إدراك، فإن الظهور والبطون إنما يكون بالإضافة إلىٰ الإدراكات، والله سبحانه باطن إن طُلِب من إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طُلِب من خزانة العقل بطريق الاستدلال. فإن قلتَ: أما كونه باطنًا بالإضافة إلىٰ إدراك الحواس فظاهر، وأما كونه ظاهرًا بالإضافة إلىٰ إدراك العقل فغامض؛ إذ الظاهر ما لا يُتمارَىٰ فيه ولا يختلف الناس في إدراكه، وهذا ممَّا وقع فيه الريب الكثير للخلق، فكيف يكون ظاهرًا؟ فاعلمْ أنه إنما خفيَ مع ظهوره لشدة ظهوره، فظهوره سبب بطونه، ونوره هو حجاب نوره، فكل ما جاوز عن حدِّه انعكس علىٰ ضده. ولعلك تتعجَّب من هذا الكلام وتستبعده ولا تفهمه إلا بمثال، فأقول: لو نظرتَ إلىٰ كلمة واحدة وكاتب يكتبها لاستدللتَ بها علىٰ كون الكاتب عالمًا قديرًا سميعًا بصيرًا، واستفدتَ منها اليقينَ بوجود هذه الصفات لذلك الكاتب، بل لو وجدتَ كلمة مكتوبة لحصل لك يقينٌ قاطع بوجود كاتب لها عالِم قادر سميع بصير حي، ولم يدلَّ عليه إلا صورة [كلمة] واحدة، فكما شهدتْ هذه الكلمةُ شهادةً قاطعة بصفات الكاتب فما من ذرَّة في السموات والأرض من فلك وكوكب وشمس وقمر وحيوان ونبات وصفة وموصوف إلا وهي شاهدة علىٰ نفسها بالحاجة إلىٰ مدبِّر دبَّرها وخالق خلقها وقدَّرها وخصَّصها بخصوص من صفاتها، بل لا ينظر الإنسان إلىٰ عضو من أعضاء نفسه وجزء من أجزائه ظاهرًا وباطنًا بل إلىٰ صفة من صفاته وحالة من حالاته التي تجري عليه قهرًا بغير اختياره إلا ويراها ناطقة بالشهادة لخالقها وقاهرها ومدبِّرها، وكذلك كل ما يدركه بحواسِّه في ذاته وخارجًا من ذاته، ولو كانت الأشياء مختلفة في الشهادة يشهد بعضُها ولا يشهد بعضُها لكان اليقين حاصلاً للجميع، ولكن لمَّا كثرت الشهادات حتىٰ اتفقت خفيت وغمضتْ لشدة الظهور، ومثاله أنَّ أظهر الأشياء ما تدركه الحواس، وأظهرُها ما يُدرَك بحاسَّة البصر، وأظهر ما يُدرَك بنور البصر نورُ الشمس المشرق علىٰ الأجسام الذي به يظهر كل شيء [فما به يظهر كل شيء] كيف لا يكون ظاهرًا، وقد أشكلَ ذلك

علىٰ خلق كثير حتىٰ قالوا: الأشياء المتلونة ليس فيها إلا ألوانها فقط من سواد وحمرة، فأما أن يكون فيها مع اللون ضوء ونور مقارن للون فلا، وسوىٰ هؤلاء إنما تنبَّهوا علىٰ قيام النور بالمتلوِّنات بالتفرقة التي يدركونها بين الظل وموضع النور، وبين الليل والنهار، فإن الشمس لمَّا تُصوِّرت غَيبتها بالليل [واحتجابها بالأجسام المظلمة بالنهار انقطع أثرها عن المتلوِّنات، و] عُرِف الفرق بين المتأثِّر والمستضيء بها وبين المظلم والمحجوب عنها فعُرِف وجود النور بعدم النور إذا أضيفت حالة الوجود إلىٰ حالة العدم فأُدرِكت التفرقة مع بقاء الألوان في الحالتين، ولو أطبق نورُ الشمس كلَّ الأجسام الظاهرة لشخص ولم تغِب الشمس عنه حتىٰ تُدرَك التفرقة لتعذَّرت عليه معرفةُ كون النور شيئًا موجودًا زائدًا علىٰ الألوان، مع أنه أظهرُ الأشياء، بل هو الذي يظهر به جميع الأشياء، ولو تُصُوِّر لله تعالىٰ [عدم أو] غَيبة عن بعض الأمور لانهدَّت السموات والأرض وكل ما انقطع نوره عنه، ولأُدرِكت التفرقة بين الحالتين وعُلِم وجوده قطعًا، ولكن لمَّا كانت الأشياء كلها متفقة في الشهادات والأحوالُ كلُّها مطَّردة علىٰ نسق واحد كان ذلك سببًا لخفائه، فسبحان مَن احتجب عن الخلق بنوره وخفيَ عليهم بشدة ظهوره، فهو الظاهر الذي لا أظهر منه، والباطن الذي لا أبطن منه. انتهىٰ.

وقال(١) الشيخ الأكبر قُدِّس سره في أول «حقائق الأسماء» لمَّا ذكر أن الملأ الأعلىٰ يطلبونه قال: فاشترك نوع الإنسان مع الملأ الأعلىٰ في الطلب، واختلفا في الكيفية، فإنهم يطلبونه بالأنوار العقلية لكونهم عقولاً مجرَّدة، وهو جلَّت عظمتُه محتجب عن العقول، فأنَّىٰ لهم ذلك. قال: ومن هذا النوع مَن يطلبه به لكون الحق سمعه وبصره، ومنهم مَن يطلبه بنظره العقلي، وطالب الدليل علىٰ صحة وجدان أهل الطريقة كطالب الدليل علىٰ حلاوة العسل ولذة الجماع مع العنت، وهذا شيء لا يقوم عليه دليل سوىٰ الذوق، وفيما جرىٰ بين الخضر وموسىٰ عليهما السلام

---

(١) شرح الأسماء الحسنىٰ للقونوي ص ١٠ - ١١.

تبصرة لأولي الأبصار، فالوصول إلىٰ معرفة الذات المتعالية لا يمكن للعقل من حيث النظر [فإن العلم بالله من حيث النظر] لا يزيد الناظرَ إلا حيرة، وإنما يُعلَم بإعلام الحق علىٰ الوجه الذي يليق بجلاله لمَن اختصَّه من عباده، فمن قال «إن الحق جلَّت عظمتُه يُعرَف بالدليل» فإنه يضرب في حديد بارد، ومن هذا قال مَن قال: العلم حجاب.

قلت: يريد بهذا القائلِ المصنفَ، كما صرَّح به في كتاب الشريعة. انتهىٰ.

قال: يريد به العلم النظريَّ، فأهل الله علموا الحقَّ بإعلامه تعالىٰ؛ لكون الحق علَّمهم لمَّا كان سمعهم وبصرهم، ومثل هؤلاء لو تُصُوِّر منهم نظرٌ فكريٌّ لكان الحق عينَ فكرِهم، لكن لا يُتصوَّر، فمَن يكون مشهده هذا أنَّىٰ يكون له فكرٌ، بل هو مع الفهم من ضروب إلهام الحق من غير تفكُّر؛ لاستهلاك صفاته في صفات الحق، ومَن كان فهمُه عن تفكُّر فما هو من أهل الذوق.

ثم قال(١) عند ذكره الظاهر الباطن: الظاهر لنفسه فما زال ظاهرًا، والباطن عن خلقه فلم يزل باطنًا، فهو الظاهر بالكفاية، والباطن بالعناية. اعلمْ أن لأهل [العناية في] الكشف مرتبتين إحداهما أعلىٰ من الثانية: فكامل يكون له به وهو السابق، وعارف يكون له بنفسه، وهو المقتصد المتحقِّق بحقائق العبودية، المتَّصف بجميع الأحوال، والمتقلِّب في أطوار المقامات، وهو برزخ بين الكمال والنقصان، فهو إذا تجلَّىٰ له الحق من اسم «الظاهر» لم يثبُت لظهوره؛ لأنه قائم بالحقوق بنفسه، ولم يثبُت لظهور الحق إلا مَن كان الحق بصره. وأما الكامل فهو له به لا بنفسه، فله الثبات في كل موطن بالقوة الإلهية السارية في ذاته، فلا يبقىٰ حال ولا مقام إلا ويظهر به ويتصرَّف فيه، فهو مالك الأحوال والمقامات؛ لكون الحق سمعه وبصره وجميع قُواه، كما ورد في الخبر: «إنما نحن به وله».

---

(١) السابق ص ١٤٧ - ١٥٠.

وهويَّته[1] في الدائرة الوجودية، والصاعد في الدائرة عين الهابط، وما انقسمت دائرة الوجود إلا بالخط الموهوم، ولا وجود لها إلا به، وهو عين المقيَّد، وإذا كان الحق سَمْع المقيَّد وبصره ارتفع التقييد والخط ولم يبقَ سوىٰ الدائرة، فهو الظاهر بنفسه لنفسه، والمُظهِر لغيره، ولكمال ظهوره وجلالة بروزه أورثت شدةُ ظهوره خفاءه. فسبحان مَن احتجب بإشراق نوره، واختفىٰ عن العقول والأبصار بشدة ظهوره.

وأما سر بطون الحق من اسم «الباطن» فهو أن يُعلَم أن رؤية الشيء تقتضي العلمَ به وهو علم الرائي أنه رأىٰ شيئًا ما وأحاط علمًا بما رآه، وعند أهل الحق لا تنضبط رؤيةُ الحق، وما لا ينضبط لا يقال فيه أنه يُرَىٰ أو يُعلَم، فما رآه إلا مَن رأىٰ أنه ما رآه، ولا يعلمه إلا مَن علم أنه ما علمَ، فالحُجُب الإلهية أبدًا مسدولة بينه وبين خلقه، ولو رُفِعت لأحرقت سبحاتُ الوجه ما أدركه بصرُه من خلقه، والحُجُب إن كانت مخلوقة فكيف لا تحرقه السبحات، وإن كانت غير مخلوقة فلا حجاب ولا احتجاب، فالحق فيها أنها أسرار أخفاها الله تعالىٰ عن خلقه، سُمِّي ذلك الإخفاء حجابًا، فالنورية منها ما حجب به من المعارف النظرية، والظُّلمانية ما حجب به من الأمور الطبيعية والرسمية، وليس الإحراق إلا اندراج النور الأدنىٰ في الأعلىٰ، كاندراج أنوار الكواكب تحت شعاع الشمس. ولمَّا كانت الأشياء تتحفظ بالحدود فإذا جاوز الشيءُ حدَّه انعكس إلىٰ ضده، كذلك ظهور الحق لمَّا تجاوز عن حدِّ العقول والإدراك بطنَ واستتر عن العامَّة، فلم يظهر لهم الأمر علىٰ ما هو عليه، وحدُّ العارفين في معرفته أن يعرفوا أنه لا يُعرَف؛ إذ لو عُرِف لم يكن باطنًا، وهو الباطن، والبطون يختصُّ بالممكنات، كما أن الظهور يختصُّ بالوجود، والبطون الذي وصف به نفسه إنما هو في حق الممكن، فالممكنات باطن الحق، والحق

---

(١) كذا هنا، وفي السياق انقطاع، ففي شرح الأسماء: «اعلم أن نسبة الصعود والهبوط علىٰ السواء في ظاهرية الحق وعدم تحير الذات المتعالية وبراءة ساحة الهوية عن التقييد والإطلاق والصعود والهبوط نعت، فلا صعود في ظهور الحق، ولا هبوط من حيث غيب هويته في الدائرة الوجودية ...» الخ.

ظاهره؛ لأنه من بطون الحق ظهر الكون، وبما ظهر استتر، وفيما بطنَ ظهر، فالظهور عين البطون، كما أن الآخِر عين الأول. انتهىٰ.

وقد انتهىٰ الكلام علىٰ المحبة وما يتعلق بها، ثم شرع المصنف في ذِكر ما يثمر المحبة من الشوق والأنس والرضا وغير ذلك ممَّا سيأتي بيانه، إلا أن صاحب القوت جعل الرضا مقامًا مستقلاً من مقامات اليقين كمقام المحبة، والشيخ أبو إسماعيل الهروي جعله ملحَقًا بمقام التوكل كالتسليم والتفويض، قال: لأنها من آدابه. وذكر جملة أحوال في باب المحبة وعدَّها مقامات علىٰ طريق منازلات العبد إلىٰ الله تعالىٰ وفي الله تعالىٰ حالاً بعد حال، وهذا رسمُه: البرق، والوجد، والذوق، واللحظ، والوقت، والصفاء، والنفس، والغرق، والغَيبة، والسكْر، والفناء، والبقاء، والوجود، والجمع، والتعظيم، والأنس، والقرب، والسكينة، والطمأنينة، والانبساط، والإدلال، والغيرة، والشوق، والوجد، وله أحوال ثلاثة: الدهش، والهيمان، والتمكُّن. قال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي: وهذا الترتيب أَولىٰ من ترتيب غيره؛ لأنه يحصل الجمع بين معرفتها وبين علم تدريجها في السلوك والمنازلات، والله سبحانه يفتح علىٰ كل عبد من عبيده من تقديم وتأخير، وقد يعطي الله بعض العارفين واحدًا منها، وقد يعطيه كلَّها، ويعطي أضعافها إلىٰ ما لا نهاية له ممَّا لا نعرف له وجودًا، ولا رأينا له رسمًا، ولا سمعنا له ذِكرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١].

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

وهو[١] من ثمار المحبة، وسُئل ابن عطاء: الشوق أعلىٰ أم المحبة؟ فقال: المحبة؛ لأن الشوق منها يتولَّد. وهو أفضل من الأنس، ولذلك قدَّمه؛ لأن الآنِس قصر نظرَه علىٰ ما انكشف له من جمال المحبوب، ولم يمتدَّ نظرُه إلىٰ استكشاف ما غاب عنه، والمشتاق كالعطشان الذي لا ترويه البحار؛ لمعرفته بأن الذي انكشف له من الأمور الإلهية بالنسبة إلىٰ ما غاب عنه كالذرَّة بالنسبة إلىٰ سعة الوجود، ولله المَثل الأعلىٰ.

(اعلمْ) وفَّقك الله (أنَّ مَن أنكر حقيقةَ المحبة لله تعالىٰ فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق) إلىٰ الله تعالىٰ (إذ لا يُتصوَّر الشوق إلا إلىٰ المحبوب) فإذا انتفت المحبة انتفَىٰ ما هو من ثمارها؛ إذ لا محالة أن الثمرة تبعٌ للمثمر (ونحن نثبت وجوبَ الشوق إلىٰ الله تعالىٰ) بإيجاب أصل المحبة (وكون العارف مضطرًّا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار، أما الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب، فكل محبوب يُشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يُشتاق إليه، فإن الشوق طلبٌ وتشوُّفٌ إلىٰ) طلب (أمر) ونزول النفس إليه (والموجود لا يُطلَب) ولا تتشوَّق إليه النفس (ولكن بيانه أن الشوق لا يُتصوَّر إلا إلىٰ شيء أُدرِكَ من وجه ولم يُدرَك من وجه، فأما ما لا يُدرَك أصلاً فلا يُشتاق إليه) لانقطاع الأطماع منه (فإنَّ مَن لم يرَ شخصًا ولم يسمع وصفه لا يُتصوَّر أن يشتاق إليه، وما أُدرِكَ بكماله لا يُشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية) بحاسَّة البصر (فمَن كان في مشاهدة محبوبه مداومًا للنظر إليه لا يُتصوَّر أن يكون له شوق) روىٰ

---

(١) روضة الطالبين ص ١٣٢ [ضمن مجموع رسائل الغزالي].

القشيري عن بعضهم: الشوق لهيب ينشأ بين أثناء الحشا يسنح عن الفرقة، فإذا وقع اللقاء طفئ، وإذا كان الغالب علىٰ الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوقُ. وقيل لبعضهم: هل تشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلىٰ غائب، وهو حاضر (ولكن الشوق إنما يتعلَّق بما أُدرِكَ من وجه ولم يُدرَك من وجه، وهو من وجهين: [1] لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات، فنقول مثلاً: مَن غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خيالُه فيشتاق إلىٰ استكمال خياله بالرؤية، فلو انمحىٰ عن قلبه ذِكرُه وخياله ومعرفته حتىٰ نسيه لم يُتصوَّر أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يُتصوَّر أن يشتاق في وقت الرؤية. فمعنىٰ شوقه: تشوُّقُ نفسه إلىٰ استكمال خياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلىٰ استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه.

والثاني: أن يرىٰ وجه محبوبه ولا يرىٰ شعره مثلاً ولا سائر محاسنه، فيشتاق إلىٰ استكمال رؤيته وإن لم يرَها قط ولم يثبُت في نفسه خيالٌ صادر عن الرؤية، ولكنه يعلم أن له عضوًا وأعضاء جميلة، ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية، فيشتاق إلىٰ أن ينكشف له ما لم يرَه قط. والوجهان جميعًا متصوَّران في حق الله تعالىٰ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإنَّ ما اتَّضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كانت في غاية الوضوح) عندهم (فكأنَّه من وراء ستر رقيق، فلا يتَّضح غاية الاتِّضاح، بل يكون مشوبًا بشوائب التخيُّلات، فإن الخيالات لا تفتر في هذا العالَم عن التمثيل والمُحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدِّرات للعارف ومنغِّصات) وأيضًا، فإن الصور تتنوَّع عليهم في تجلِّيات المشاهد مع أَحَديَّة العين في نفس الأمر (وكذلك يُضاف إليها شواغل الدنيا) وصوارفها (فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة) العيانية (وتمام إشراق التجلِّي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة) حين يبلغ الكتاب أجله (وذلك بالضرورة يوجب الشوقَ، فإنه منتهَىٰ محبوب العارفين. فهذا أحد نوعَي

---

(١) زاد في ط المنهاج ٨/ ٤٥٥: الأول: هو أن يتضح اتضاحًا ما، لكنه محتاج إلىٰ استكمال، و...إلخ.

الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتَّضح اتِّضاحًا ما. الثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها) ولا حدَّ لها تنتهي إليه **(وإنما ينكشف لكل عبد من العِباد بعضها، وتبقىٰ أمور لا نهاية لها غامضة)** خفيَّة المَدرك **(والعارف يعلم وجودها وكونها معلومةً لله تعالىٰ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر ممَّا حضر، فلا يزال متشوِّقًا إلىٰ أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل ممَّا بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة)** كما هو مقتضىٰ الترقِّي والزيادة **(والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنىٰ الذي يسمَّىٰ رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يُتصوَّر أن يسكن)** هذا الشوق **(في الدنيا، فقد كان إبراهيم بن أدهم)** رحمه الله تعالىٰ **(من المشتاقين)** وكانت له أماكن من المحبة رفيعة ومكاشفات في القرب عليَّة **(فقال: قلت ذات يوم: يا رب، إن أعطيتَ أحدًا من المحبِّين لك ما يسكن به قلبُه قبل لقائك فأعطني ذلك، فقد أضرَّ بي القلق. قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال: يا إبراهيم، أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبُك قبل لقائي؟ وهل يسكن المشتاقُ قبل لقاء حبيبه)**؟ أي هل يستريح المحبُّ إلىٰ غير معشوقه؟ قال: **(فقلت: يا رب، تهتُ في حبك فلم أدرِ ما أقول، فاغفر لي وعلِّمْني ما أقول. فقال: قل: اللهم رضِّني بقضائك، وصبِّرني علىٰ بلائك، وأوزِعْني شكر نَعمائك)** نقله صاحب القوت. ورواه أبو محمد السَّرَّاج في مصارع العُشَّاق[١] بسنده إلىٰ إبراهيم بن عبد الله البلخي عن إبراهيم بن أدهم قال: وجدت يومًا راحة وطاب قلبي لحُسن صُنْع الله بي واختياره لي فقلت ... فساقه إلىٰ قوله: فلم أدرِ ما أقول.

وقد لاحظ هذا المعنىٰ القطب أبو الحسن الشاذلي قُدِّس سره فأدرج هذه الكلمات في حزبه الكبير مفرَّقة في موضعين منه. وفيه إشعار بأن الأدب مع الله مطلوب في كل حال، فإن الله تعالىٰ قد يُعرِض عن محبِّيه تعزُّزًا؛ ليزعجهم الشوقُ

---

(١) مصارع العشاق ١/ ٢٧٨.

إليه، ويقلقهم الأسف عليه، ويستخرج منهم لطف التملُّق له، ثم ينظر إليهم في إعراضه عنهم من حيث لا يعلمون لينظروا إليه من حيث يعلمون فيسكنون بالأدب بين يديه.

(فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة، وأما الشوق الثاني فيشبه أن لا تكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالىٰ وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالىٰ، وهو مُحال؛ لأن ذلك لا نهاية له، ولا يزال العبد عالمًا بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتَّضح له) اتِّضاحًا تامًّا **(فلا يسكن قط شوقُه لا سيَّما مَن يرىٰ فوق درجته درجات كثيرة إلا أنه تشوَّق إلىٰ استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقًا لذيذًا لا يظهر فيه ألمٌ، ولا يبعُد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية)** أي متتابعة **(إلىٰ غير نهاية، فلا يزال النعيم واللذة متزايدًا أبد الآباد، وتكون لذَّة ما يتجدَّد من ألطاف النعيم شاغلاً عن الإحساس بالشوق إلىٰ ما لم يحصل، وهذا بشرط أن يمكن حصولُ الكشف فيما لم يحصل فيه الكشف في الدنيا أصلاً، فإذا كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفًا علىٰ حدٍّ لا يتضاعف، ولكن يكون مستمرًّا علىٰ الدوام. وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾** [التحريم: ٨] **محتمل لهذا المعنىٰ وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوَّد من الدنيا أصلَ النور)** واكتسبه منها **(ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلىٰ مزيد الاستكمال والإشراق، فيكون هو المراد بتمامه)** والأول أوفق بلفظ الإتمام **(وقوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾** [الحديد: ١٣] **يدل علىٰ أن الأنوار لا بد وأن يُتزوَّد أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقًا، فأما أن يتجدَّد نورٌ)** لم يكن أصله في الدنيا **(فلا)** ومن هنا قيل: «الدنيا مزرعة الآخرة»، «المرء مع مَن أحب وله ما اكتسب» **(والحكم في هذا برجم الظنون مخطر)** لأنه من الأمور الغيبية، وليس للعقل فيها

مجال (**ولم ينكشف لنا فيه بعدُ ما يوثَق به**) ويُعتمَد عليه، وإنما نحن علىٰ بحر التمني (**فنسأل الله تعالىٰ أن يزيدنا علمًا ورشدًا**) إلىٰ الصواب (**ويرينا الحقَّ حقًّا**) ويرزقنا اتِّباعَه (**فهذا القدْر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه**.

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تُحصَىٰ. فممَّا اشتهر من دعاء رسول الله ﷺ أنه كان يقول: اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلىٰ وجهك الكريم، والشوق إلىٰ لقائك) رواه الطبراني[1] من حديث فضالة بن عبيد بلفظ: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذَّة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، من غير ضَرَّاء مُضِرَّة ولا فتنة مضلَّة».

وروىٰ ابن أبي شيبة[2] وأحمد[3] من حديث عمَّار بن ياسر بلفظ: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك علىٰ الخلق أحيني ما علمتَ الحياة خيرًا لي، وتوفَّني ما علمتَ الوفاة خيرًا لي، اللهم أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغِنىٰ، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، في غير ضَرَّاء مضرَّة ولا فتنة مضلَّة، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين».

وقال القشيري في الرسالة: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان الأهوازي، أخبرنا أحمد بن عبيد البصري، حدثنا ابن أبي قماش، حدثنا إسماعيل بن زُرارة، عن حماد بن زيد، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبيه قال: صلىٰ بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها، فقلت: خفَّفت يا أبا اليقظان. فقال: وما عليَّ من ذلك؟ فلقد دعوت الله سبحانه بدعوات سمعتُها من رسول الله ﷺ. فلما قام تبعه رجلٌ من

---

(١) المعجم الكبير ١٨/ ٣١٩.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٤٩١.

(٣) مسند أحمد ٣٠/ ٢٦٥.

القوم فسأله عن الدعوات، فقال: «اللهم بعلمك الغيب ...» فساقه، إلا أنه قال: كلمة الحق، بدل: كلمة الإخلاص. وقال: نعيمًا لا يبيد، بدل: لا ينفد. وقال: بعد القضاء. كما عند المصنف، والباقي سواء، وقد رواه أيضًا ابن النجار في تاريخه هكذا.

وروى أبو نعيم في الحلية[1] من حديث الهيثم بن مالك الطائي: «اللهم اجعلْ حبك أحب الأشياء إليَّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررتَ أعيُن أهل الدنيا من دنياهم فأقِرَّ عيني من عبادتك».

(وقال أبو الدرداء) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(لكعب)** الأحبار رحمه الله تعالى: **(أخبِرْني عن أخصِّ آية. يعني في التوراة. فقال: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: طال شوقُ الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم لأشدُّ شوقًا)** ولفظ القوت: طال شوق أوليائي إليَّ، وأنا إليهم أشوَقُ **(قال: ومكتوب إلى جانبها: مَن طلبني وجدني، ومَن طلب غيري لم يجدني. فقال أبو الدرداء: أشهد أني لَسمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا)** نقله صاحب القوت، وأغفله العراقي. والذي رواه أبو الدرداء مرفوعًا هو قوله: «يقول الله تعالى: مَن طلبني وجدني، ومَن طلب غيري لم يجدني»[2].

(وفي أخبار داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إن الله تعالى قال: يا داود، أبلِغْ أهلَ أرضي أني حبيب لمَن أحبني، وجليس لمَن جالسني، وأنيس لمَن أنسَ بذكري)** ولفظ القوت: مؤانِس لمَن أنسَ بذكري، وأنيس لمَن أنسَ بي **(وصاحب لمَن صاحَبَني، ومختار لمَن**

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٨٢.

(٢) رواه أبو زكريا السلماسي في كتاب منازل الأئمة الأربعة ص ٥٣ (ط - الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) بسنده إلى أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أيها الزهاد المراءون، وأيها العُبَّاد المنافقون، كم تخادعون الله ورسوله، وكم تبهرجون الناس بما تقولون دون ما تفعلون، لا تبيعوا دينكم بدنياكم فتنقلبوا خاسرين، من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، وهو غدا يوم القيامة في زمرة النادمين».

اختارني، ومطيع لمَن أطاعني، ما أحبني عبدٌ أعلمُ ذلك يقينًا من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حبًّا لا يتقدَّمه أحدٌ من خلقي، مَن طلبني بالحق وجدني، ومَن) طلبني بغير حق أو (طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلمُّوا إلىٰ كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائنسوا أؤانسكم وأسارع في محبَّتكم، فإني خلقت طينة أحبَّائي من طينة إبراهيم خليلي وموسىٰ نجيِّي ومحمد صفيِّي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعَّمتها بجلالي) قال صاحب القوت بعد أن ذكره: فهذا في مقام خُلَّة وحال مطلوب، وهو من وصف مقرَّب ونعت محبوب، ومَن صدر عن مقام محب بعد وروده رُفِع إلىٰ هذا المقام؛ لأنه مقام محبوب.

(ورُوي عن بعض السلف) من العلماء القدماء: (إن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعض الصدِّيقين: إنَّ لي عبادًا من عبادي يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، فإن حذوتَ) أي اتَّبعت وسلكت (طريقَهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتُّك. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمَه، ويحنُّون إلىٰ غروب الشمس كما يحنُّ الطائر إلىٰ وكره عند الغروب، فإذا جنَّهم الليلُ) أي سترهم (واختلط الظلام وفُرِشت الفُرُش ونُصِبت الأَسِرَّة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليَّ أقدامَهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملَّقوا إليَّ بإنعامي، فبين صارخ وباكٍ، وبين متأوِّه وشاكٍ، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحمَّلون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترىٰ مَن أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه)[1]؟ قال صاحب القوت بعد أن ذكره بطوله: فهؤلاء الذين أقبل الله تعالىٰ بوجهه عليهم، هم الذين أحبوه

---

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب ترتيب الأوراد.

بكل قلوبهم، فكان كما قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠] وكان كما قال: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦] فنظروا إلىٰ وجهه بنور وجهه، فتجلَّىٰ بوصف محبوب فأحبوه، كما روينا عنه في خبر موسىٰ عليه السلام: إني إذا نظرت إلىٰ عبدي بوجهي كلِّه زويت عنه الدنيا كلَّها[١]. فالله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ الأجسام والنفوس؛ لأنهما من الدنيا، وهو لا ينظر إليها، إنما ينظر إلىٰ الأعمال والقلوب؛ لأنهما من الآخرة، وهو ينظر إليها بعينه فتزداد إشراقًا وحسنًا عن نوره وحسنه، ثم لا ينظر إلا إلىٰ قلوب الموقنين وأعمالهم، فبنوره رأوه. فأما العموم فقلوبهم كأجسادهم، وأعمالهم تشبه قلوبَهم، فالله تعالىٰ ينظر إليهم كنظره إلىٰ الدنيا بعين التدبير والتقدير، فمعارفهم ظاهر التوحيد عن ظاهر الصفات والأسماء، فهم عرفوه بالمُلك والحكمة، وشهدوه بالقِدَم والأزليَّة عن معنىٰ ما نظر به إليهم، فسبحان مَن وسع كلَّ شيء رحمةً وعلمًا، وسبحان مَن نظر إلىٰ مَن يحب بالوصف الذي يحب فأحبوه عن نظره. فأما الشوق فإنه مقام رفيع من مقامات المحبة، وليس يُبقِي الشوق للعبد راحةً ولا نعيمًا في غير مشوقه، والمشتاقون مقرَّبون بما أُشهِدوا من الشوق إليه، وهم المأمور بطلبهم، الموجود الحبيب عندهم، مثوبةً منه لهم لمَّا شوَّقَهم إليه في قوله لموسىٰ عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، المشتاقين من أجلي المحبين.

ثم قال: فمقام الشوق في المحبة يجلُّ عن الوصف، ويتجاوز في العلو والفضل كلَّ عُرفٍ، ولا يصلُح أن نَصِفَه، إلا أنَّا نذكر من ذلك ما سمعناه نقلاً، فلا تنكرنَّ لأحبَّاء الله وأوليائه فضلاً، ولا تمزجنَّ فيه بالتدبير والقياس عقلاً، فقد جاوز مقامُهم كلَّ عقل، كما اشتمل حالهم ووجدُهم بمحبوهم كلَّ فضل.

(و) قد روينا (في أخبار داود عليه السلام: **إن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه: يا داود، إلىٰ كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليَّ؟ قال: يا رب، مَن المشتاقون إليك؟ قال: إن**

(١) تقدم هذا الأثر بأطول مما هنا في كتاب الزهد والفقر.

المشتاقين إليَّ الذين صفَّيتُهم من كل كدر، ونبَّهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إليَّ خرقًا ينظرون إليَّ) وهي عين البصيرة (وإني لأحملُ قلوبهم بيدي فأضعها علىٰ سمائي، ثم أدعو نُجَباء ملائكتي، فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول: إني لم أدْعُكم لتسجدوا لي، ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إليَّ، وأباهي بكم أهلَ الشوق إليَّ، فإن قلوبهم لَتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض. يا داود) إنه مَن ذكرني ذكرتُه، ومَن أنسَ بي آنسته، ومَن جلس إليَّ جالسته؛ لأني أنا أكرم الكرماء وأحكم الحكماء. يا داود (إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، ونعَّمتها بنور وجهي، فاتخذتهم لنفسي محدِّثي) أصله: محدِّثين، سقطت النون للإضافة، ثم شُدِّدت الياء. ولفظ القوت: محدِّثين (وجعلت أبدانهم موضعَ نظري إلىٰ الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقًا ينظرون به إليَّ يزدادون في كل يوم شوقًا. قال داود) عليه السلام: (يا رب، أرني أهلَ محبتك. فقال: يا داود، ائْتِ جبل لُبْنان) وهو بضم اللام وسكون الموحدة، كأنَّه مثنًىٰ لبن: جبل من جبال الشام شاهق (فإنَّ فيه أربعة عشر نفسًا، فيهم شبَّان، وفيهم شيوخ، وفيهم كهول، فإذا أتيتَهم فأقرِئهم مني السلامَ، وقل لهم: إن ربكم يقرئكم السلامَ ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة؟ فإنكم أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلىٰ محبَّتكم. فأتاهم داود عليه السلام، فوجدهم عند عين من العيون يتفكَّرون في عظمة الله عز وجل، فلمَّا نظروا إلىٰ داود عليه السلام نهضوا ليتفرَّقوا عنه) أي لخوفهم عن شغلهم بغير الله تعالىٰ (فقال داود) عليه السلام: (إني رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم. فأقبلوا نحوه، وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلىٰ الأرض، فقال داود) عليه السلام: (إني رسول الله إليكم، يقرئكم السلامَ ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبَّائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلىٰ محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة) لولدها (قال: فجرت الدموع علىٰ خدودهم، فقال شيخهم) أي كبيرهم في السن: (سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضىٰ

من أعمارنا. وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فامنُنْ علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك. وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجترئ علىٰ الدعاء وقد علمتَ أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأَدِمْ لنا لزومَ الطريق إليك، وأتمِمْ بذلك المنَّةَ علينا. وقال الآخر: نحن مقصِّرون في طلب رضاك، فأعِنَّا عليه بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكُّر في عظمتك، أفيجترئ علىٰ الكلام مَن هو مشتغل بعظمتك متفكِّر في جلالك؟ وطلبتنا الدنو من نورك) ولفظ القوت: منك (وقال الآخر: كلَّت ألسنتُنا عن دعائك لعظيم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منَّتك علىٰ أهل محبتك. وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرَّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرَنا في شكرك. وقال الآخر: قد عرفتَ حاجتنا، إنما هي النظر إلىٰ وجهك. وقال الآخر: كيف يجترئ العبد علىٰ سيده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهَبْ لنا نورًا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات. وقال الآخر: ندعوك أن تُقبِل علينا وتديمه) ولفظ القوت: تزيده (عندنا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك، فامنُنْ علينا بالنظر إلىٰ جمال وجهك. وقال الآخر: نسألك تمامَ نعمتك فيما وهبتَ لنا وتفضَّلت به علينا. وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلىٰ الدنيا وأهلها، وقلبي عن الاشتغال بالآخرة. وقال الآخر: قد عرفتُ تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك، فامنُنْ علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك) فهذه أربعة عشر قولاً (فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود) عليه السلام: (قل لهم: قد سمعتُ كلامكم، وأجبتكم إلىٰ ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه، وليتَّخذ لنفسه سربًا، فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتىٰ تنظروا إلىٰ نوري وجلالي. فقال داود) عليه السلام: (يا رب، بِمَ نالوا هذا منك؟ قال: بحسن الظن، والكف عن الدنيا وأهلها، والخلوات بي، ومُناجاتهم لي) ولفظ القوت: في مناجاتهم (وإنَّ هذا منزل لا يناله إلا مَن رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذِكرها، وفرَّغ قلبه لي، واختارني علىٰ جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه، وأفرِّغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه

حتىٰ ينظر إليَّ نظر الناظر بعينه إلىٰ الشيء، وأريه كرامتي في كل ساعة، وأقرِّبه من نور وجهي، إن مرضَ مرَّضتُه كما تمرِّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلتُ به ذلك يا داود عميتُ نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أحبِّبها إليه، لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدومَ، وأنا أكره أن أميته؛ لأنه موضع نظري من بين خلقي، لا يرىٰ غيري، ولا أرىٰ غيره، فلو رأيتَه يا داود وقد ذابت نفسُه ونحل جسمُه وتهشَّمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري، أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي، يزداد خوفًا وعبادةً، وعزَّتي وجلالي يا داود لأقعدنَّه في الفردوس، ولأشفينَّ صدره من النظر إليَّ حتىٰ يرضىٰ وفوق الرضا) قال صاحب القوت بعد أن ساقه بطوله: فهذه مقامات المشتاقين في مراتب الشوق عن درجات الحب ومراقي المعارف والوجد، فكل مشتاق منهم نطق بحقيقة وجده، وعبَّر عن وجهة حبه، دلَّ بذلك علىٰ حاله، وأخبر به عن سرِّه. قال: وقد أحببت أن أشرح أحوالهم، وأفصِّل مواجيدهم، وأكشف سرائر مراتبهم، وأبيِّن رفيع مكانهم، وأوسِّع أنصبة تمكينهم، ويعزُّ عليَّ أني لا أستطيع ذلك، ولا يصلُح رسمُه في كتاب؛ لأن الكتاب يُتداوَل والرسم ينتقل، فتعذَّر ذلك عليَّ، وقلة إمكانه من قِبَل السامعين، ولقلة أنصبة الواعين، وخيفة إنكار ذوي العقول لحجبهم بالعقل؛ إذ هو حجاب اليقين، فإذا أخبرناهم بما ليس في وسعهم وكاشفناهم بما قصرت عنه أوهامهم ولم تفكِّر فيه قط أفهامهم، تفاوت الأمرُ عليهم فأوهم ضبطه وتشتَّت به قلوبهم فلم تجتمع علىٰ حفظه، ولكن الطريق القاصد إلىٰ الله تعالىٰ الموصِّل أهله إلىٰ رضاه ومحبته اللذينِ هما سبب هذا الفضل هو بغضُ الدنيا وأبنائها، فهو أصل كل مرتبة عليَّة، كما أن حبها وحب أبنائها أصل كل نفاق وخطيئة. انتهىٰ.

(وفي أخبار داود) عليه السلام (أيضًا): يا داود (قل لعبادي المتوجِّهين إلىٰ محبتي: ما ضرَّكم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتىٰ تنظروا إليَّ بعيون قلوبكم، وما ضرَّكم ما زويتُ عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم، وما

ضرَّتكم مَسخطة الخلق إذا التمستم رضائي) نقله صاحب القوت.

(وفي أخبار داود) عليه السلام (أيضًا: إن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه: تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرِجْ حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب) واحد (يا داود، خالِصْ حبيبي مخالصةً، وخالط أهلَ الدنيا مخالطةً، ودينك فقلِّدْنيه، ولا تقلِّد دينَك الرجالَ، أمَّا ما استبانَ لك ممَّا وافق محبتي فتمسكْ به، وأما ما أشكل عليك فقلِّدنيه، حقًّا عليَّ أني أسارع إلىٰ سياستك وتقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني، وأعينك علىٰ الشدائد، وإني قد جعلت علىٰ نفسي أني لا أنيب إلا عبدًا قد عرفتُ من طلبته وإرادته إلقاءَ كَنَفه بين يدي، وأنه لا غِنىٰ به عني، فإذا كنتَ كذلك نزعتُ الذلة والوحشة عنك، وأُسكِنُ الغِنىٰ قلبك، فإني قد جعلت علىٰ نفسي أنه لا يطمئن عبدٌ لي إلىٰ نفسه ينظر إلىٰ فِعالها إلا وكلتُه إليها، أضِف الأشياءَ إليَّ، لا تضادَّ عملَك فتكون متعنِّيًا، ولا ينتفع بك مَن يصحبك، ولا تجد لمعرفتي حدًّا، فليس لها غاية، ومتىٰ طلبتَ مني الزيادة أعطِك، ولا تجد للزيادة مني حدًّا، ثم أعلِمْ بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسبٌ، فلتعظُم رغبتهم وإرادتُهم عندي أُبِحْ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر) ولفظ القوت: علىٰ قلب امرئ (ضعني بين عينيك، وانظر إليَّ ببصر) ولفظ القوت: بعين (قلبك، ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلىٰ الذين حجبت عقولهم عني فأمرحوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها، فإني حلفت بعزَّتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبدٍ دخل في طاعتي للتجربة والتسويف. تواضعْ لمَن تعلمه، ولا تتطاول علىٰ المريدين، فلو علم أهلُ محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضًا يمشون عليها. يا داود، لأنْ تُخرِجَ مريدًا من سَكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدًا، ومَن كتبتُه عندي جهيدًا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلىٰ المخلوقين. يا داود، تمسَّكْ بكلامي، وخذْ من نفسك لنفسك، لا تؤتينَّ منها فأحجب عنك محبتي. لا تؤيِّس عبادي من رحمتي أقطع شهوتك لي، فإنما أبحتُ الشهوات لضَعَفة خلقي.

ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تُنقِص حلاوةَ مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنىٰ ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني، فإني لم أرضَ الدنيا لحبيبي، ونزَّهته عنها. يا داود، لا تجعل بيني وبينك عالِمًا يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قُطَّاع الطريق علىٰ عبادي المريدين. استعِنْ علىٰ ترك الشهوات بإدمان الصوم، وإيَّاك والتجربة في الإفطار، فإن محبتي في الصوم إدمانه. يا داود، تحبَّبْ إليَّ بمعاداة نفسك، امنعْها الشهوات أنظر إليك وترىٰ الحُجُب بيني وبينك مرفوعة، إنما أداويك مداواةً) ولفظ القوت: إنما أداريك مداراةً **(لتقوَىٰ علىٰ ثوابي إذا مننت به عليك، وإني أحبسه عنك وأنت متمسِّك بطاعتي)**[1] قال صاحب القوت بعد أن ساقه بطوله: واعلمْ أن كل محب لله عَزَّوَجَلَّ فعن محبة الله سبحانه؛ لأن وجود العبد بمحبته الله تعالىٰ علامة غيب محبة الله له، يتبيَّن ذلك الغيب من الله تعالىٰ في الشهادة من عنده. ثم إن كل عبدٍ أحب اللهَ فمن حيث أحبه الله، كما أنه عرفه من حيث واجهه، وكل مَن خدمه وتأدَّب بين يديه وعبده وتعبَّد له بمعنًىٰ من معاني العبادات فذلك هو عن معنىٰ ما أحبه وواجهه من معاني الصفات، لا يمكننا شرح ذلك، إلا أنه كما نقول في الدعاء إلىٰ الله تعالىٰ والأدلة عليه والمطرِّقين للعباد إليه أن كل داعٍ ودليل دعا إلىٰ الله فمن حيث دعاه الله تعالىٰ إليه ودلَّ علىٰ الله، فمن حيث دلَّه عليه وطرَّق إليه سبيلَ العبادات وسهَّلَ منهاجَ القُربات فمن حيث طرَّقه اللهُ تعالىٰ وسهَّل له السبيلَ إليه.

(وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ: **(يا داود، لو يعلم المدبِرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلىٰ ترك معاصيهم لماتوا شوقًا إليَّ، وتقطَّعت أوصالهم من محبتي. يا داود، هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ)** كذا في الرسالة للقشيري. وزاد غيره: **(يا داود، أحوج ما يكون العبد إليَّ إذا استغنىٰ عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجلُّ ما يكون**

---

(١) رواه أبو إسحاق الختلي في كتاب المحبة لله ص ١٠٧ - ١٠٨ بنحوه عن ثور بن يزيد الشامي.

عندي إذا رجع إليَّ) نقله صاحب القوت.

وفيه أيضًا: في أخبار داود ﷺ أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه: تزعم أنك منقطع إليَّ، وتدَّعي عشقي، وتسيء الظنَّ بي، أَلْقِ كَنَفَك بين يدي أكن [أختار] لك، فإنَّ محبتي من عبادي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون، مصابيح القلوب، كن في الدنيا وحدانيًّا، ولا تهتمَّ بالخبز وأنت تريدني، آثِرْ هواي علىٰ هواك، واغضبْ لي أشد مما تغضب لنفسك.

وقال القشيري في الرسالة: سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق يقول: خرج داود ﷺ يومًا إلىٰ بعض الصحاري منفردًا، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: ما لي أراك يا داود وحدانيًّا؟ فقال: استأثر الشوقُ إلىٰ لقائك علىٰ قلبي فحال بيني وبين صحبة الخلق. فأوحىٰ الله إليه: ارجعْ إليهم، فإنك إن أتيتني بعبد آبِقٍ أثبتُّك في اللوح المحفوظ عبدًا جهيدًا شهيدًا.

(فهذه الأخبار ونظائرها ممَّا لا يُحصَىٰ تدل علىٰ إثبات المحبة والشوق والأنس، وأما تحقيق معناها فقد انكشف ممَّا سبق) والله الموفِّق.

بيـان محبـة الله للعبد ومعناهـا

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ **(أن شواهد القرآن متظاهرة علىٰ أن الله تعالىٰ يحب عبده، فلا بد من معرفة معنىٰ ذلك، ولنقدِّم الشواهد)** الدالَّة **(علىٰ محبته)** تعالىٰ له **(فقد قال الله تعالىٰ:)** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾) ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذا الخبر هو متصل بالابتداء في المعنىٰ؛ لأن الله تعالىٰ وصف المؤمنين المحبِّين بفضله عليهم، وما [اعترض] بينهما من الكلام فهو نعتُ المحبوبين.

(وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾) [الصف: ٤] وقد رُوي في الخبر: «ما كان الله ليعذِّب حبيبه بالنار».

(وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولذلك ردَّ الله سبحانه علىٰ مَن ادَّعىٰ أنه حبيب الله) واحتجَّ عليهم **(فقال:** ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [المائدة: ١٨].

وقد روىٰ) إسماعيل بن أبي زياد عن أبان عن **(أنس)** رضي الله عنه **(عن النبي** ﷺ **أنه قال: إذا أحب الله عبدًا لم يضرَّه ذنبٌ، والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له. ثم تلا:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾) كذا في القوت. قال العراقي[١]: ذكره صاحب الفردوس[٢]، ولم يخرجه ولدُه في مسنده. وروىٰ ابن ماجه الشطرَ الثاني من حديث ابن مسعود، وتقدم في التوبة. انتهىٰ.

---

(١) المغني ٢/ ١١٥١.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٧٧.

قلت: رواه بتمامه ابن أبي الدنيا والقشيري في الرسالة[١] وابن النجار في تاريخه. قال القشيري: حدثنا أبو بكر ابن فورك، أخبرنا أحمد بن محمود بن خرزاد، حدثنا محمد بن الفضل بن جابر، حدثنا سعيد بن عبد الله، حدثنا أحمد بن زكريا، حدثنا أبي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبدًا لم يضرَّه ذنبٌ». ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾. قيل: يا رسول الله، ما علامة التوبة؟ قال: «الندامة». وتقدم في التوبة.

(ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضرَّه الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضر الكفرُ الماضي بعد الإسلام) فقد[٢] ورد: «الإسلام يجُبُّ ما كان قبله». رواه ابن عساكر[٣] من حديث خالد بن الوليد. ورواه ابن سعد من حديث الزبير بن العوام، وأيضًا من حديث سعيد بن محمد بن جبير بن مطعِم عن أبيه عن جدِّه رفعه **(وقد اشترط الله تعالىٰ للمحبة غفرانَ الذنب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾)** [آل عمران: ٣١] كذا في القوت.

(وقال ﷺ: إن الله تعالىٰ يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا مَن يحب) قال العراقي[٤]: رواه أحمد[٥] [والحاكم[٦]] وصحَّح إسناده والبيهقي في الشعب[٧] من حديث ابن مسعود.

(وقال رسول الله ﷺ: مَن تواضع لله رفعه الله، ومَن تكبَّر وضعه الله، ومَن

(١) الرسالة القشيرية ص ١٧٨.

(٢) الجامع الكبير للسيوطي ٣/ ٥٥٥.

(٣) تاريخ دمشق ١٦/ ٢٢٨.

(٤) المغني ٢/ ١١٥٢.

(٥) مسند أحمد ٦/ ١٨٩.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٨٠، ٢/ ٥٢٥، ٤/ ٢٧٩.

(٧) شعب الإيمان ٢/ ١٢٠، ٧/ ٣٦٧.

أكثر ذِكر الله أحبه الله) قال العراقي[١]: رواه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله: ومَن أكثر ... الخ، فرواه أحمد وأبو يعلىٰ بهذه الزيادة، وفيه ابن لهيعة. انتهىٰ.

قلت: ورواه ابن النجار من حديث أبي هريرة بلفظ: «مَن تواضع لله رفعه الله، ومَن اقتصد أغناه الله، ومَن ذكر الله أحبَّه الله». وروىٰ الشطر الأول والثاني في سياق المصنفِ ابنُ منده وأبو نعيم من حديث أوس بن خولي، والشطر الأول فقط أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة، والشطر الأخير فقط ابنُ شاهين من حديث عائشة[٢].

(**وقال ﷺ: قال الله تعالىٰ: لا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ... الحديث**) أوله:« مَن آذىٰ لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي ...» الخ، وتمامه: «ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، فلئن سألني أعطيته، ولئن استعاذ بي أعذته، وما تردَّدت في شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته». رواه البخاري[٣] عن محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن شريك بن عبد الله بن أبي نَمِر، عن عطاء، عن أبي هريرة. قال الذهبي[٤]: هو من غرائب الصحيح، ممَّا تفرَّد به شريك عن عطاء، وتفرَّد به خالد عن سليمان. ورواه أبو نعيم في أول الحلية[٥] من طريق ابن المؤمل والسَّراج كِلاهما عن ابن كرامة. وقد تقدَّم قريبًا

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٢.

(٢) تقدمت هذه الأحاديث في مواضع متفرقة، منها كتاب العلم، وكتاب ذم البخل، وكتاب ذم الكبر.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢.

(٤) تذكرة الحفاظ ص ١٤٦٤. ميزان الاعتدال ١/ ٦٤١.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٤.

(وقال زيد بن أسلم[1]**)** العدوي مولاهم التابعي الثقة، وكان كثير الإرسال: **(إن الله لَيحبُّ العبدَ حتىٰ يبلغ من حبه له أن يقول: اعملْ ما شئتَ فقد غفرتُ لك)** كذا في القوت.

(وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر) فمن مشهور ذلك: ما رواه الشيخان[2] من حديث أبي هريرة: «إذا أحب الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا نادىٰ جبريلَ: إن الله يحب فلانًا فأحبِبْه. فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه. فيحبه أهل السماء، ثم يوضَع له القبول في الأرض». وفي الحلية[3] من حديث أنس: «إذا أحب الله عبدًا قذف حبه في قلوب الملائكة ...» الحديث **(وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالىٰ حقيقة وليست بمجاز؛ إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلىٰ الشيء)** الملائم **(الموافق، والعشق)** الذي هو أحد مراتبها **(عبارة عن الميل الغالب المفرط)** المتجاوز عن الحد. وقد اختُلِف في إطلاقه، وقد أنكره جماعة من العلماء، ففي الرسالة للقشيري: سمعت أبا علي الدَّقَّاق يقول: العشق: مجاوزة الحد في المحبة، والحق لا يوصَف بأنه يجاوز الحدَّ، فلا يوصف بالعشق، ولو جُمِعت [مَحابِّ] الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ذلك استحقاقَ قدْر الحق، فلا يقال: إن عبدًا جاوز الحدَّ في محبة الله، ولا يوصف الحق بأنه يعشق، ولا العبد في صفته سبحانه، فنفىٰ العشق، ولا سبيل له إلىٰ وصف الحق، لا من الحق للعبد، ولا من العبد للحق. انتهىٰ.

والذي يقتضيه سياقُ المصنف هنا وفي بعض مواضع أُخَر سبقت من الكتاب جواز إطلاقه في وصف العبد مع الله تعالىٰ.

---

(١) الصحيح: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كذا رواه عنه أبو إسحاق الختلي في كتاب المحبة لله ص ٣٦، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصفهان ٣/ ١٧١.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٤، ٤/ ٩٨، ٤٠١. صحيح مسلم ٢/ ١٢١٧.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٧٧.

وقال صاحب القوت: وقد كان أبو يزيد وأبو شعيب المقفَّع وسري بن مغلس وأبو عبد الله ابن الجَلاَّء والجنيد بعدهم رحمهم الله تعالىٰ يذكرون العشق في مقامات خليل ومحب، وزاد أبو يزيد ذِكر العشق في مقام [محبوب] وجعله معشوقًا، وقد كان يشير بذلك ويظهره عن نفسه لنفسه، كأنَّهم يريدون وصفًا من الحب مخصوصًا لا عن فعل ولا سبب بل لوصف تحلَّىٰ به. ثم قال: إلا أن هذا ليس من معارف العامة، ولا تهتدي إليه قلوبهم، ولا يقدح في جوهر عقولهم، وليست صفاتهم مكانًا لهذا، ولا أخلاقهم مخلَّقة عليه، ولا علومهم نافذة فيه، فذِكرُه منكَر؛ لأن العقول تنكره، والقلوب تمجُّه، والهِمَم لا تسري فيه، فلذلك كان طيُّه أحسن من نشره، وإنما ينتسخ من قلب إلىٰ قلب، وقد روينا لفظًا من هذا المقام في أخبار داود عليه السلام أن الله تعالىٰ أوحىٰ إليه: تزعم أنك منقطع إليَّ، وتدَّعي عشقي، وتسيء الظنَّ بي ... وقد تقدَّم باقيه.

(**وقد بيَّنَّا أن الإحسان موافق للنفس، والجمال موافق أيضًا، وأن الجمال والإحسان تارةً يُدرَك بالبصر، وتارةً بالبصيرة، والحب يتبع كلَّ واحد منهما، فلا يختصُّ بالبصر**) هذا ظاهر في حب العبد لله تعالىٰ (**فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنىٰ أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أُطلِقت علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ غير الله**) تعالىٰ (**لم تنطلق عليهما بمعنًىٰ واحد أصلاً، حتىٰ إن اسم «الوجود» الذي هو أعمُّ الأسماء اشتراكًا لا يشمل الخالق والخلقَ علىٰ وجه واحد، بل كل ما سوىٰ الله تعالىٰ فوجوده مستفاد من وجود الله تعالىٰ، فالوجود التابع لا يكون مساويًا لوجود المتبوع، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم، نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم «الجسم»؛ إذ معنىٰ الجسمية وحقيقتها متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لأنْ يكون فيه أصلاً، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخَر، وليس كذلك اسم «الوجود» لله ولا لخلقه**) قال السيد الشريف في الرسالة الوجودية التي عبَّر عنها بعض العارفين بالفارسية ما نصُّه: اعلمْ أن الوجود له مراتب، الأولىٰ: وجود

مستفاد من الغير، وهو المشهور عند العقلاء في الماهيَّات الممكنات، فهذا لا بد فيه من ثلاثة أشياء، أحدها: ذات ماهية الممكن، والثاني: وجودٌ هو مستفاد من الغير، والثالث: هو الغير مفيض الوجود علىٰ الماهية. ولا شك أن انفكاك الوجود من هذه الموجودات بنظر ذاتها جائز، بل واقع. الثانية: ذات تقتضي وجودًا من حيث إن انفكاكه مُحال، كوجود واجب الوجود عند جمهور المتكلمين، فههنا لا بد من الاثنينية، أحدهما: ذات الواجب، والثاني: وجوده المستفاد منها. وانفكاك الوجود من هذه الموجودات مُحال، لكن باعتبار مغايرتها للذات في التصور يمكن انفكاكه. الثالثة: موجود بوجوده، وذاته عينه، وقائم بذاته لا بغيره، فحقيقة الوجود في هذه المرتبة لا يكون إلا أمرًا واحدًا هو موجود، ووجود الأشياء موجود به، فلاتحاد الوجود والذات انفكاكُ التصوُّر مُحال، وفي الموجودية فوق هذه المرتبة لا يمكن التصوُّر، وهذا كحال الواجب الوجود عند المتكلمين، وعند الطائفة الصوفية واجب الوجود وجودٌ بحت، يعني في واجب الوجود لا يكون شيئان ذات ووجود هو عارض لها، بل واجب الوجود هو ذات محض قائم بذاته، وهم مع الطائفة الأولىٰ متفقون عليه بهذا المقدار، ولم يقولوا: الوجود عين الموجود، هذا يُفهَم من بديهيات العقل، لا يمكن الوجود أعلىٰ وأقوىٰ من هذه المرتبة، وإن كان ممكنًا من هذه المرتبة فوقيَّة الوجود لا بد هو واجب الوجود لا هذا. وأرباب النظر يقولون: العقل يحكم أن حقيقة واجب الوجود ينبغي أن يكون وجودًا، وواجب الوجود لا ينبغي أن يكون كليًّا، يعني لا يكون كليًّا والعموم عارض له؛ لأنه إن كان كليًّا لا بد أن يكون في الخارج له صورة، فيلزم أن يكون واجب الوجود مركَّبًا من كليٍّ، وتعيُّن التركيب علىٰ واجب الوجود مُحال، بل ينبغي لواجب الوجود أن يكون في حدِّ ذاته متعينًا، أو تعيُّنه عين ذاته حتىٰ لا يُتصوَّر بوجه من الوجوه التركيب والتعدُّد، فينبغي أن يكون الواجب قائمًا بذاته، وإن كان قائمًا بالغير فيكون محتاجًا إليه، ونسبة الاحتياج إلىٰ الواجب مُحال، بل تصوُّرُ الاحتياج إليه كفرٌ، فلزم أن تكون حقيقة الوجود عين الواجب، فحقيقة الوجود بذاته يكون

متعينًا حقيقيًّا وقائمًا بذاته، فحينئذٍ تعدُّد حقيقة الوجود بحسب الأفراد، وعروض حقيقة الوجود للماهيات الممكنات من المُحالات، وقد فُهِم من هذا أن واجب الوجود وجود مطلق، والمراد بالمطلق أن لا يكون عارضًا للماهية، بل قائم بذاته ومقيد بتعيُّنه وبذاته متعين ومقيد، وأن إطلاق الوجود علىٰ غير واجب الوجود مجاز؛ لأن الوجود ليس عارضه ولا جزؤه ولا عينه، بل موجودية الأشياء لها تعلُّق به، وله أثرٌ فيها، ولا يكون الوجود لها عارضًا ولا فيها. هذا كلام أرباب البحث والنظر والعقل، والصوفية يقولون: عندنا طريق غير طريق العقل وهو المكاشفة، والعقل فيها عاجز، وقد تقرَّر عندنا أن حقيقة الوجود عين واجب الوجود، وهو لا كلِّي ولا جزئي، ولا خاص ولا عام، بل مطلق من جميع القيود حتىٰ من قيد الإطلاق أيضًا، وهذه الحقيقة في جميع الأشياء تتَّصف بوجود التجلِّي والظهور، يعني لا تكون الأشياء خالية عنه، وإن كانت خالية عن حقيقة الوجود، فإن لوحظت باعتبار الإطلاق المذكور سُمِّيت: أَحَدية الجامعية، وباعتبار عدم القيود والتعيُّنات سُمِّيت: أحدية الصرف.

(**وهذا التباعُد في سائر الأسامي أظهرُ كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالقُ الخلقَ، وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولاً للخلق، فإن الخلق أسبقُ إلىٰ العقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوُّز والنقل**) قال المصنف في المقصد الأسنىٰ[1]: وكأنَّا إذا عرفنا أن الله تعالىٰ حي قادر عالِم فلم نعرف أولاً إلا أنفسنا، ولم نعرفه إلا بأنفسنا؛ إذ الأصم لا يُتصوَّر أن يفهم معنىٰ قولنا: إن الله سميع، والأكمه لا يعرف معنىٰ قولنا: إنه بصير. ولذلك إذا قال القائل: كيف يكون الله عالمًا بالأشياء؟ فنقول له: كما تعلم أنت أشياء. فإذا قال: كيف يكون قادرًا؟ فنقول: كما تقدر أنت. فلا يمكنه أن يفهم شيئًا إلا إذا كان فيه ما يناسبه، فيعلم أولاً ما هو متَّصف به، ثم يعلم

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٥٢.

غيرَه بالمقايسة إليه، فإذا كان لله وصفٌ وخاصِّية ليس فينا ما يناسبه ويشاركه ولو في الاسم لم يُتصوَّر فهمه ألبتَّة، فما عرف أحد إلا نفسه ثم قايَسَ بين صفات الله تعالىٰ وبين صفات نفسه، وتتعالىٰ صفات الله تعالىٰ وتتقدَّس عن أن تشبه صفاتنا **(والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلىٰ موافق ملائم، وهذا إنما يُتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالاً فتلتذُّ بنيله، وهذا مُحال علىٰ الله تعالىٰ، فإنَّ كل جمال وكمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدًا وأزلاً، ولا يُتصوَّر تجدُّده ولا زواله، فلا يكون له إلىٰ غيره نظرٌ من حيث إنه غيره، بل نظرُه إلىٰ ذاته وأفعاله فقط، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله)** وهذا أيضًا صريح في القول بوحدة الوجود[1]، وقد صرَّح بذلك الشيخ الأكبر في مواضع من الفتوحات **(ولذلك قال الشيخ أبو سعيد)** الفضل بن أحمد بن محمد **(المِيهني)** بكسر الميم وسكون التحتية نسبة إلىٰ ميهنة: قرية بخابران بين سرخس وأبيورد. وأبو سعيد المذكور يُعرَف بابن أبي الخير، صاحب كرامات، وسمع الحديث من زاهر السرخسي وغيره، توفي سنة ٤٤٠ **(رحمه الله تعالىٰ لمَّا قُرئ عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾** [المائدة: ٥٤] **فقال: بحقٍّ يحبهم، فإنه ليس يحب إلا نفسه**[2]. **علىٰ معنىٰ أنه الكل، وأن ليس في الوجود غيره)** إذ وحدته ذاتيَّة، وكثرته اعتبارية، فهو عين كل ما في تعيُّناته من حيث الظهور فقط **(فمَن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبُّه ذاتَه وتوابعَ ذاته من حيث هي متعلِّقة بذاته، فهو إذًا لا يحب إلا نفسه)** هذا من حيث الحقيقة **(وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤوَّل ويرجع معناه)** إمَّا **(إلىٰ كشف الحجاب عن قلبه حتىٰ يراه بقلبه)** أي بعين بصيرته الباطنة **(و)** إما **(إلىٰ**

---

(١) الغزالي من المنكرين صراحة لمذهب أهل الوحدة، ولكن الإشكال في الإجمال، والشارح قد أول وحدة الوجود بوحدة الشهود فيما سبق.

(٢) تقدم هذا الكلام - مع ترجمة الميهني - في كتاب الصبر والشكر، ولكن بلفظ: «العمري يحبهم، ودعه يحبهم، ودعهم يحبونه، فبحق يحبهم؛ لأنه إنما يحب نفسه».

تمكينه إيَّاه من القرب منه، و) إما (إلىٰ إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمَن أحبَّ أزليٌّ مهما أضيفَ إلىٰ الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكينَ هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيفَ إلىٰ فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له، كما قال تعالىٰ) في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة: (ولا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه) وقد تقدَّم تمامه قريبًا (فيكون تقرُّبه بالنوافل سببًا في صفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربِّه، وكل ذلك فعلُ الله ولطفه به، فهو معنىٰ حبه) فمحبة العبد لله لأجل حب الله له، وحمدُ الله لعبده من أجل حبه له، فالسعداء من العباد محبوبون محمودون من الله، والله محمود منهم، وبحمد الله نالوا حمده كما نالوا بحبه لهم حبه، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨].

قال القشيري في الرسالة: المحبة حالة شريفة، شهد الحقُّ سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد، فالله سبحانه يوصَف بأنه يحب العبد، والعبد يوصَف بأنه يحب الحق، والمحبة علىٰ لسان العلماء هي الإرادة، وليس مراد القوم بالمحبة الإرادة، فإن الإرادة لا تتعلق بالقديم، اللهم إلا أن تُحمَل علىٰ إرادة التقرُّب إليه والتعظيم له. ثم قال: فمحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعام مخصوص عليه، كما أن رحمته إرادة الإنعام، فالرحمة أخصُّ من الإرادة، والمحبة أخصُّ من الرحمة، فإرادة الله تعالىٰ أن يوصل إلىٰ العبد الثوابَ والإنعام تسمَّىٰ: رحمة، وإرادته أن يخصَّه بالقربة والأحوال العليَّة تسمَّىٰ: محبة، وإرادته سبحانه صفة واحدة فبحسب تفاوت متعلَّقاتها تختلف أسماؤها، فإذا تعلَّقت بالعقوبة تسمَّىٰ غضبًا، وإذا تعلَّقت بعموم النعم تسمَّىٰ رحمة، وإذا تعلَّقت بخصوصها تسمَّىٰ محبة، وقوم قالوا: محبة الحق للعبد مدحُه له وثناؤه عليه بالجميل. فيعود معنىٰ محبته له علىٰ هذا القول إلىٰ كلامه، وكلامه قديم. وقال قوم: محبته للعبد من

صفات فعله، فهو إحسان مخصوص يلقىٰ الله العبد به وحالة مخصوصة يرقِّيه إليها، كما قال بعضهم: إن رحمته بالعبد نعمته معه. وقوم من السلف قالوا: محبته من الصفات الخيرية. فأطلقوا اللفظ، وتوقَّفوا عن التفسير، فأما ما عدا هذه الجملة ممَّا هو المعقول من صفات محبة الخلق كالميل إلىٰ الشيء والاستئناس بالشيء وكحالة يجدها المحب مع محبوبه من المخلوقين فالقديم سبحانه يتعالَىٰ عن ذلك ا.هـ. المقصود منه.

وقوله «فإن الإرادة لا تتعلق بالقديم» أي الإرادة من العبد، وهذا بناء علىٰ أنَّ أثرها التخصيص، فلا تتعلق بالقديم، كما لا تتعلق بالمستحيل. وحاصل ما ذكره من الأقوال أربعة، وهي ترجع إلىٰ قولين: الإرادة والكلام لرجوع الفعل إلىٰ الإرادة، والخيرية إلىٰ الكلام.

(ولا يُفهَم هذا إلا بمثال، وهو أن الملك قد يقرِّب عبده من نفسه، ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه) والمثول بين يديه **(لميل الملك إليه، إما لينصره بقوَّته، أو ليستريح بمشاهدته، أو ليستشيره في رأيه، أو ليهيِّئ أسباب طعامه وشرابه. فيقال: إن الملك يحبه، ويكون معناه: ميله إليه لِما فيه من المعنىٰ الموافق الملائم له. وقد يقرِّب عبدًا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد)** في خدمته **(ولكن لكون العبد في نفسه موصوفًا من الأخلاق المرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبًا من حضرة الملك، وافر الحظ من قربه، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال: قد أحبه. وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضَىٰ رفع الحجاب يقال: قد توصَّل)** إلىٰ الملك **(وحبَّب نفسَه إلىٰ الملك.**

فحبُّ الله) تعالىٰ **(للعبد إنما يكون بالمعنىٰ الثاني لا بالمعنىٰ الأول، وإنما يصح تمثيله بالمعنىٰ الثاني بشرط أن لا يسبق إلىٰ فهمك دخولُ تغيُّر عليه عند تجدُّد القرب، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالىٰ، والقرب من الله تعالىٰ**

في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين) من الحرص والطمع والكبر والغضب والشهوة وغيرها من الرذائل (والتخلُّق بمكارم الأخلاق) ومحاسنها (التي هي الأخلاق الإلهية) وقد تقدم ذِكرُها (فهو قرب بالصفة لا بالمكان) فإن[1] قلتَ: ظاهره يشير إلىٰ [إثبات] مشابَهة بين العبد وبين الله تعالىٰ؛ لأنه إذا تخلَّق بأخلاقه كان شبيهًا له، ومعلوم شرعًا وعقلاً أنه تعالىٰ ليس كمثله شيء، وأنه لا [يشبه شيئًا ولا] يشبهه شيءٌ. قلت: لا ينبغي أن يُظَن أن المشاركة في كل وصف توجب المماثلةَ، بل المماثَلة عبارة عن المشاكلة في النوع والماهية، والخاصِّية الإلهية لا تُتصوَّر فيها مشاركة ألبتَّة (ومَن لم يكن قريبًا فصار قريبًا فقد تغيَّر، فربما يُظَن بهذا أن القرب لمَّا تجدَّد فقد تغيَّر وصفُ العبد والرب جميعًا؛ إذ صار قريبًا بعد أن لم يكن، وهو مُحال في حق الله تعالىٰ؛ إذ التغيُّر عليه مُحال، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال علىٰ ما كان عليه في أزل الآزال، ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحرُّكهما جميعًا، وقد يكون أحدهما ثابتًا فيتحرك الآخَر، فيحصل القربُ بتغيُّر في أحدهما من غير تغيُّر في الآخر) فهكذا ينبغي أن يُفهَم قرب العبد من الله تعالىٰ (بل القرب في الصفات أيضًا كذلك، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله، والأستاذ واقف في كمال علمه، غير متحرك بالنزول إلىٰ درجة تلميذه، والتلميذ متحرك مترقٍّ من حضيض الجهل إلىٰ ارتفاع[2] العلم، فلا يزال دائبًا في التغيُّر والترقِّي إلىٰ أن يقرُب من أستاذه، والأستاذ ثابت غير متغيِّر. فكذلك ينبغي أن يُفهَم ترقِّي العبد في درجات القرب) من الله تعالىٰ (فكلَّما صار أكمل صفةً وأتم علمًا وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوةً في قهر الشيطان) والنفس (وقمعِ الشهوات وأظهر نزاهةً عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال، ومنتهَىٰ الكمال لله تعالىٰ، وقربُ كل واحد من الله تعالىٰ بقدْر كماله. نعم، قد يقدر التلميذ علىٰ القرب من

(١) المقصد الأسنىٰ ص ٤٦ - ٤٧.

(٢) في أ، وب، وط المنهاج ٨/ ٤٧٤: يفاع. وهو الأصوب.

الأستاذ وعلىٰ مساواته وعلىٰ مجاوزته، وذلك في حق الله تعالىٰ مُحال، فإنه لا نهاية لكماله، وسلوك العبد في درجات الكمال متناهٍ، ولا ينتهي إلا إلىٰ حدٍّ محدود، فلا مَطمع له في المساواة) فضلاً عن المجاوزة (ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتًا لا نهاية له أيضًا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال) وسبب[1] ذلك تفاوت درجات القرب بتفاوتهم في درجات المعرفة، وإنما كان هذا التفاوت لا نهاية له لأن ما لا يقدر الآدمي علىٰ معرفته من معلومات الله تعالىٰ لا نهاية له، وما يقدر عليه أيضًا لا نهاية له، وإن كان ما يدخل في الوجود منه متناهيًا، ولكنَّ مقدور الآدمي من العلوم لا نهاية له، وإن كان ما يدخل في الوجود متناهيًا. نعم، الخارج إلىٰ الوجود متفاوت في القلة والكثرة، وبه يظهر تفاوت الناس في المعرفة والكمال والقرب (فإذًا محبة الله تعالىٰ للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتىٰ يشاهده كأنَّه يراه بقلبه. وأما محبة العبد لله فهو ميله إلىٰ درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه) وعريٌّ عنه (فاقد له، فلا جَرَم يشتاق إلىٰ ما فاته، وإذا أدرك منه شيئًا يلتذُّ به. والمحبة بهذا المعنىٰ مُحال علىٰ الله تعالىٰ) فليست محبة العبد له متضمِّنة ميلاً ولا احتظاظًا، كيف وحقيقة الصَّمَدية مقدَّسة عن اللحوق والدرك والإحاطة.

(فإن قلتَ: محبة الله للعبد أمر ملتبس، فبِمَ يعرف العبد أنه حبيب الله تعالىٰ؟ فأقول: يستدلُّ عليه بعلاماته، وقد قال ﷺ: إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن أحبه الحب البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلاً ولا مالاً) هكذا هو في القوت. وقد رواه الطبراني من حديث أبي عنبة الخولاني، وقد تقدم قريبًا.

(فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره، ويحول بينه وبين غيره) فلا يشغله بسواه (قيل لعيسىٰ عليه السلام: لِمَ لا تشتري حمارًا فتركبه) فإنه كان كثير السياحة علىٰ رجليه، والقائل له بعض الحواريين (فقال: أنا أعزُّ علىٰ الله تعالىٰ من أن

---

(١) السابق ص ٥٧ – ٥٨.

يشغلني عن نفسه بحمار) رواه أبو بكر ابن أبي شيبة في المصنَّف[١] عن ثابت البُناني قال: قيل لعيسىٰ عليه السلام: لو اتخذتَ حمارًا تركبه [لحاجتك]. فقال: أنا أكرم علىٰ الله من أن يجعل لي شيئًا يشغلني به.

(وفي الخبر: إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه) هكذا في القوت. وقال العراقي[٢]: ذكره صاحب الفردوس[٣] من حديث علي بن أبي طالب، ولم يخرجه ولدُه في مسنده.

(وقال بعض العلماء: إذا رأيتَك تحب الله ورأيتَه يبتليك فاعلمْ أنه يريد أن يصافيك) كذا في القوت. ويشهد له ما رواه البيهقي في الشعب[٤] من مرسل سعيد ابن المسيب: «إذا أحب الله عبدًا ألصق به البلاءَ، فإن الله يريد أن يصافيه».

(وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولِعتُ بشيء من المحبة. فقال: يا بني، هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرتَ عليه إياه؟ قال: لا. قال: فلا تطمع في المحبة، فإنه لا يعطيها عبدًا حتىٰ يبلوه) أي يختبره. كذا في القوت.

(وقد قال رسول الله ﷺ: إذا أحب الله عبدًا جعل له واعظًا من نفسه وزاجرًا من قلبه يأمره وينهاه) قال العراقي[٥]: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا».

قلت: وليس عند الديلمي قوله «زاجرًا من قلبه».

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ٩.

(٢) المغني ٢/ ١١٥٢ - ١١٥٣.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٥١.

(٤) شعب الإيمان ١٢/ ٢٣٨، وفيه نهشل بن سعيد القرشي، كذاب متروك الحديث، وعبد الرحمن بن أنعم الأفريقي، والكلام فيه معروف، فلا يصلح هذا المرسل شاهدًا بحال.

(٥) المغني ٢/ ١١٥٣.

(وقد قال) ﷺ: (إذا أراد الله بعبد خيرًا بصَّره بعيب نفسه) قال العراقي[١]: رواه الديلمي في مسند الفردوس[٢] من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

(فأخصُّ علاماته حبُّه لله تعالىٰ، فإنَّ ذلك يدل علىٰ حب الله) له (وأما الفعل الدالُّ علىٰ كونه محبوبًا فهو أن يتولَّىٰ الله تعالىٰ أمره ظاهره وباطنه وسره وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبِّر لأمره) والمزكِّي لفعله (والمزيِّن لأخلاقه، والمستعمِل لجوارحه، والمسدِّد لظاهره وباطنه، والجاعل همومه همًّا واحدًا، والمبغِّض للدنيا في قلبه، والموحِش له من غيره، والمؤنس له بلذة المُناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحُجُب بينه وبين معرفته. فهذا وأمثاله هو علامة حب الله) تعالىٰ (للعبد. فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله تعالىٰ، فإنها أيضًا علامات حب الله) تعالىٰ (للعبد) والله الموفِّق.

---

(١) السابق ٢/ ١١٥٣.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٢٤٢ بلفظ: «إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خصال: فقهه في الدين، وزهده في الدنيا، وبصره عيوبه».

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ **(أن المحبة يدَّعيها كلُّ أحد، وما أسهل الدعوىٰ، وما أعز المعنىٰ)**

فكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلىٰ وليلىٰ لا تقرُّ لهم بذاك[1]

(فلا ينبغي أن يغترَّ الإنسان بتلبيس الشيطان وخِدَع النفس) المكَّارة **(مهما ادَّعت محبةَ الله تعالىٰ)** والشوق إليه والأنس به **(ما لم يمتحنها بالعلامات)** الدالَّة علىٰ دعواها **(و)** ما **(لم يطالبها بالبراهين)** الكشفية **(والأدلة)** العقلية **(والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت)** في أرض القلوب **(وفرعها في السماء)** أي في سماء الأرواح **(وثمارها تظهر علىٰ القلب)** فتولِّد المعرفةَ **(و)** علىٰ **(اللسان)** فتورث الذِّكرَ **(و)** علىٰ **(الجوارح)** فتثمر الأعمالَ **(وتدل تلك الآثار الفائضة منها علىٰ القلب)** واللسان **(والجوارح علىٰ المحبة دلالةَ الدخان علىٰ النار، ودلالة الثمار علىٰ الأشجار، وهي)** أي تلك العلامات **(كثيرة)** ولكن ذكر منها نحو عشرة قال: **(فمنها حب لقاء الحبيب بطريق)** العيان و**(الكشف والمشاهدة في دار السلام)** ومحل القرب **(فلا يُتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول)** إلىٰ لقائه **(إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محبًّا للموت، غير فارٍّ منه، فإن المحب لا يثقُل عليه السفرُ من وطنه إلىٰ مستقَرِّ محبوبه ليتنعَّم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلىٰ المشاهدة)** ومن هنا قالوا: الموت جسر يوصل الحبيب إلىٰ الحبيب. وروىٰ الديلمي[2] من حديث عائشة: «الموت غنيمة».

---

(١) تقدم هذا البيت غير مرة.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١٥٥، ٤/ ٢٣٨.

وروىٰ الدارقطني[١] من حديث جابر: «الموت تحفة [المؤمن]» (قال ﷺ: مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) ومَن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قال العراقي[٢]: متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة.

قلت: رواه الطيالسي وأحمد والدارمي والشيخان والترمذي والنسائي وابن حبان من رواية أنس عن عبادة بن الصامت. ورواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي من حديث عائشة. ورواه الشيخان من حديث أبي موسىٰ. ورواه مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة. ورواه النسائي والطبراني من حديث معاوية[٣].

(وقال حذيفة) بن اليمان ﷺ (عند الموت: حبيب جاء علىٰ فاقة، لا أفلح مَن ندم) رواه أبو نعيم في الحلية[٤] من طريقين:

الأولىٰ: حدثنا عبد الرحمن بن العباس، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، حدثنا محمد بن يزيد الأدمي، حدثنا يحيىٰ بن سليم، عن إسماعيل بن كثير، عن زياد مولىٰ ابن عيَّاش قال: حدثني مَن دخل علىٰ حذيفة في مرضه الذي مات فيه فقال: لولا أني أرىٰ أن هذا اليوم آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به، اللهم إنك تعلم أني كنت أحب الفقر علىٰ الغنىٰ، وأحب الذلة علىٰ العز، وأحب الموت علىٰ الحياة، حبيبٌ جاء علىٰ فاقة، لا أفلح مَن ندم. ثم مات رحمه الله.

الثانية: بالسند إلىٰ إبراهيم بن إسحاق، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا السري بن يحيىٰ، عن الحسن قال: لمَّا حضر حذيفةَ الموتُ قال: حبيب جاء علىٰ فاقة، لا أفلح مَن ندم، الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها.

---

(١) ومن طريقه رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٨٨٥.

(٢) المغني ٢/ ١١٥٣.

(٣) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب الأذكار والدعوات.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٨٢.

(وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلىٰ الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود) نقله صاحب القوت وقال: **(فقدَّم حبَّ لقاء الله علىٰ السجود)** علىٰ أن كثرة السجود من أفضل الأعمال، كما وردت به الأخبار **(وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتلَ في سبيل الله، حيث قالوا: إنَّا نحب الله. فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] **وقال:** ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾**)** [التوبة: ١١١] ولفظ القوت: وقد شرط سبحانه لحقيقة الصدق القتلَ في سبيله، وأخبر أنه يحب قتل محبوبه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ بعد قوله معيِّرًا لهم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢] حيث قالوا: إنَّا نحب الله، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذه مال محبوبه ونفسه؛ إذ يقول: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾.

قلت: أخرج أحمد(١) والدارمي(٢) والترمذي(٣) وابن أبي حاتم وابن المنذر والبيهقي(٤) من حديث عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أيَّ الأعمال أقرب إلىٰ الله تعالىٰ لعملناه. فأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الآيات. وفي حديث ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرَض الجهاد يقولون: لَوددنا أن الله دلَّنا علىٰ أحب الأعمال فنعمل به ... الحديث، أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. وقال مجاهد: نزلت في نفر من الأنصار منهم عبد الله بن رواحة قالوا في مجلس لهم: لو نعلم أيَّ الأعمال أحب إلىٰ الله لعملناه حتىٰ نموت. فأنزل الله فيهم .. أخرجه عبد بن حميد وابن

---

(١) مسند أحمد ٣٩/ ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) سنن الدارمي ٢/ ٢٦٣.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٣٣٦.

(٤) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٦٨ - ٢٦٩.

المنذر وابن عساكر. وقد تقدم في كتاب الصبر[١] مفصَّلاً.

(وفي وصيَّة أبي بكر لعمر ﷺ: الحق ثقيل، وهو مع ثقله مريء، والباطل خفيف، وهو مع خفَّته وبيء، فإن حفظتَ وصيتي لم يكن غائبٌ أحب إليك من الموت، وهو مدركك، وإن ضيَّعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت، ولن تعجزه) هكذا هو في القوت. ورواه أبو نعيم في الحلية[٢] فقال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا بشر بن موسىٰ، حدثنا خلاَّد بن يحيىٰ، حدثنا فطر بن خليفة، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط قال: لمَّا حضر أبا بكر الصدِّيق الموتُ دعا عمرَ فقال له: اتقِ الله يا عمر، واعلمْ أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتىٰ تؤدَّىٰ الفريضة، وإنما ثقلت موازينُ مَن ثقلت موازينُه يوم القيامة باتِّباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان [يوضَع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين مَن خفَّت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الباطل في الدنيا وخفَّته عليهم، وحقٌّ لميزان] يوضَع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالىٰ ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيِّئه، فإذا ذكرتُهم قلت: إني لأخافُ أن لا ألحق بهم، وإن الله تعالىٰ لمَّا ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتُهم قلت: إني لأرجو أن لا أكون مع هؤلاء؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا، لا يتمنىٰ علىٰ الله، ولا يقنط من رحمته، فإن أنت حفظتَ وصيتي فلا يكُ غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك، وإن أنت ضيَّعت وصيتي فلا يكُ غائب أبغض إليك من الموت، ولست بمعجزه.

ورویٰ أبو نعيم[٣] في ترجمة ابن مسعود قال: الحق ثقيل مريء، والباطل

---

(١) تقدم تفسير ابن عباس ومجاهد في كتاب الزهد والفقر.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٦.

(٣) السابق ١/ ١٣٤.

خفيف وبيء، ورُب شهوة تورث حزنًا طويلاً.

(ويُروَىٰ عن إسحاق بن سعد بن أبي وقَّاص) تابعيٌّ روىٰ عن أبيه (قال: حدثني أبي) سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن عبد الله بن جحش) بن[1] رئاب بن يعمُر الأسدي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حليف بني عبد شمس، أمُّه أميمة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله ﷺ، وهو أحد السابقين، هاجر إلىٰ الحبشة، وشهد بدرًا، وصاهر رسولَ الله ﷺ بأخته زينب بنت جحش (قال له يوم أحد: ألا تدعوا الله؟ فخلوا في ناحية، فدعا عبد الله بن جحش فقال: يا رب، إني أقسمت عليك إذا لقيتُ العدوَّ غدًا فلقِّني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حَرَدُه) محرَّكة، أي غضبُه (أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني) أي يقلعهما (ويبقر بطني) أي يشقُّه (فإذا لقيتُك غدًا قلتَ) أنت: (يا عبد الله، مَن جدع أنفَك وأذنك؟ فأقول: فيك يا رب وفي رسولك. فتقول: صدقتَ. قال سعد: فلقد رأيتُه آخر النهار وإنَّ أنفه وأذنه لمعلَّقتان في خيط) قال العراقي[2]: رواه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية[3]، وإسناده جيد.

قلت: لفظ أبي نعيم: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا طاهر بن عيسىٰ المصري، حدثنا أصبغ بن الفرج، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن يزيد ابن عبد الله بن قسيط، عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص، حدثني أبي أن عبد الله ابن جحش قال له يوم أُحُد ... فذكر الحديث. ورواه البغوي[4] من هذه الطريق، وفيه أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا نأتي فندعو؟ قال: فخلونا في ناحية، فدعا سعدٌ فقال: اللهم رب إذا لقينا القوم غدًا فلقِّني رجلاً شديدًا [بأسُه شديدًا] حَرَدُه أقاتله فيك [ويقاتلني] ثم ارزقني الظَّفر عليه حتىٰ أقتله وآخُذ سلبه. قال:

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ٣٤ - ٣٥. الاستيعاب ١/ ٥٢٣ - ٥٢٥.

(٢) المغني ٢/ ١١٥٣.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٠٩.

(٤) معجم الصحابة ٣/ ٥٢٥.

فأَمَّنَ عبد الله بن جحش ثم قال عبد الله: اللهم ارزقني غدًا رجلاً شديدًا حَرَدُه [شديدًا بأسه] أقاتله فيك [ويقاتلني] حتىٰ يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتُك قلتَ: [يا عبد الله، فيمَ جُدِع أنفك وأذنك؟ فأقول]: هذا فيك وفي رسولك. فتقول: صدقتَ. قال سعد: فكانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتي، ولقد رأيتُه آخر النهار وإن أنفه وأذنه لَمعلَّقة في خيط.

(**قال سعيد بن المسيب**) رحمه الله تعالىٰ: (**أرجو أن يبرَّ الله آخر قسمه كما أبرَّ أولَه**) رواه أبو نعيم في الحلية[1] قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن، حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي قال: حدثنا ابن الصبَّاح، حدثنا سفيان، عن ابن جدعان، عن سعيد بن المسيب قال: قال عبد الله بن جحش: اللهم أقسم عليك أن ألقىٰ العدوَّ غدًا فيقتلوني، ثم يبقروا بطني ويجدعوا أنفي وأذني جميعًا، ثم تسألني: فيمَ ذلك؟ فأقول: فيك. قال سعيد بن المسيب: فإني أرجو أن يبرَّ الله آخر قَسمه كما أبرَّ أوله. وأخرجه ابن شاهين من وجه آخر عن سعيد بن المسيب أن رجلاً سمع عبد الله بن جحش ... فذكر نحوه. قال الحافظ: وهذا أخرجه عبد الله بن المبارك في الجهاد[2] مرسلاً.

(**وقد كان**) سفيان (**الثوري وبشر**) بن الحارث (**الحافي**) رحمهما الله تعالىٰ (**يقولان: لا يكره الموتَ إلا مريب**)[3] أي شاكٌّ (**لأن الحبيب علىٰ كل حال لا يكره لقاء حبيبه**) نقله صاحب القوت.

(**وقال**) أبو[4] يعقوب يوسف بن يحيىٰ المصري (**البُوَيطي**) بضم الموحدة

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٠٩.

(٢) الجهاد ص ١٠٢.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٩ عن بشر بلفظ: «ما كره الموت إلا مريب، وأنا أكره الموت».

(٤) لباب الأنساب لابن الأثير ١/ ١٨٩.

وفتح الواو، نسبة إلىٰ بُوَيط: قرية بمصر بالصعيد الأدنىٰ، وهو صاحب الشافعي وخليفته علىٰ أصحابه بعده، كان زاهدًا متعبِّدا، قال له الشافعي: أما أنت فتموت في الحديد. فمات مقيَّدًا ببغداد سنة ٢٣١ في محنة القرآن (**لبعض الزهَّاد: أتحب الموت؟ فكأنَّه توقَّف، فقال: لو كنتَ صادقًا لأحببتَه، وتلا قوله تعالىٰ:** ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤، الجمعة: ٦] **فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ: لا يتمنَّينَّ أحدكم الموتَ. فقال: إنما قال: لضرٍّ نزل به؛ لأن الرضا بقضاء الله تعالىٰ أفضل من طلب الفرار منه)** نقله صاحب القوت، قال: وهذا كما قال البويطي؛ لأن التائب إذا صدقت توبتُه طلب الموتَ خشيةَ الحَوَل عن حاله، فإذا كان كذلك كان هو التائب الذي هو حبيب الله، إلا أن مقام الرضا أعلىٰ من مقام تمنِّي الموت، فلذلك قال: «لا يتمنىٰ الموت للضر ينزل به»، أي فرضاه بقضائه أفضل من تمنِّي لقائه ليُقبَض علىٰ مقام الرضا.

والحديث المذكور بهذا اللفظ رواه الباوردي والطبراني[١] والحاكم[٢] من حديث الحكم بن عمرو الغِفاري. ورواه أحمد[٣] من حديث عَبْس الغِفاري. ورواه أيضًا هو[٤] والطبراني[٥] وصاحب الحلية[٦] من حديث خَبَّاب. ويُروَىٰ بزيادة: «إما محسنًا فلعله أن يعيش يزداد خيرًا وهو خير له، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب». رواه النسائي[٧] بهذه الزيادة من حديث أبي هريرة، ورواه أحمد[٨]

---

(١) المعجم الكبير ٣/ ٢٣٨.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٥٤٤.

(٣) مسند أحمد ٢٥/ ٤٢٧.

(٤) السابق ٣٤/ ٥٣٤، ٥٥٠، ٤٥/ ١٩٢.

(٥) المعجم الكبير ٤/ ٦١، ٦٢، ٦٤، ٧١، ٧٥.

(٦) حلية الأولياء ١/ ١٤٤ - ١٤٥، ٤/ ١٤٧.

(٧) سنن النسائي ص ٢٩٤.

(٨) مسند أحمد ١٣/ ٢٣، ٤٤٨، ٥١٥، ١٤/ ٢٦٠، ١٦/ ٣٩١.

والشيخان[١] نحوه، ورواه الشيخان من حديثه بزيادة: «ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيرًا». ورواه ابن عساكر من حديثه بزيادة: «حتىٰ يثق بعمله». ورواه ابن أبي شيبة من حديث عمرو بن عبسة بلفظ: «إلا أن يثق بعمله». ورواه الخطيب[٢] من حديث ابن عباس بزيادة: «فإنه لا يدري ما قدَّم لنفسه». وأما قول البويطي «إنما قال: لضرٍّ نزل به» فقد رواه الطيالسي[٣] وأحمد[٤] وعبد بن حميد[٥] والشيخان[٦] وأبو داود[٧] والترمذي[٨] والنسائي[٩] وابن ماجه[١٠] وأبو عوانة وابن حبان[١١] من حديث أنس، ولفظه: «لا يتمنَّينَّ أحدكم الموتَ لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنِّيًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي وأفضل».

(فإن قلتَ: فمَن لا يحب الموت فهل يُتصوَّر أن يكون محبًّا لله تعالىٰ؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسُّف علىٰ فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمالَ حب الله تعالىٰ؛ لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كلَّ القلب، ولكن لا يبعُد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبةٌ من حب الله ضعيفةٌ،

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٣٥١. صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٦. والزيادة المذكورة عند مسلم فقط.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٤٣.

(٣) مسند الطيالسي ٣/ ٤٩٦، ٥٣٧، ٥٤٠.

(٤) مسند أحمد ١٩/ ٤١، ٧٣، ٢٠/ ١٦١، ٣٢٢، ٤٠٤، ٢١/ ٢٠٠، ٤٠٨.

(٥) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٢٥٥، ٣١٠، ٣٢١.

(٦) صحيح البخاري ٤/ ٣٠، ١٦٣. صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٦.

(٧) سنن أبي داود ٤/ ١٤.

(٨) سنن الترمذي ٢/ ٢٩٢.

(٩) سنن النسائي ص ٢٩٤.

(١٠) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٥٠.

(١١) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٤٨، ٢٥٠، ٧/ ٢٣٢، ٢٦٨.

فإن الناس متفاوتون في الحب) تفاوتهم في المعرفة **(ويدل علىٰ التفاوت ما رُوي أن أبا حذيفة)** مهشِّم[١]، وقيل: هُشَيم، وقيل: هاشم، وقيل: قيس **(بن عُتبة بن ربيعة ابن عبد شمس)** بن عبد مَناف القرشي العَبْشمي، من السابقين، هاجر الهجرتين، وصلىٰ إلىٰ القِبلتين، كان طوالاً، حسن الوجه، استشهد يوم اليمامة وهو ابن ست وخمسين سنة **(لمَّا زوَّج أختَه فاطمة)** ابنة عُتبة **(من سالم مولاه)** هكذا هو نص القوت، والذي في الإصابة[٢] في ترجمة سالم: وكان أبو حذيفة قد تبنَّاه كما تبنَّىٰ رسولُ الله ﷺ زيدَ بن حارثة، فكان أبو حذيفة يرىٰ أنه ابنه، فأنكحه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة، فلمَّا أنزل الله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] ردَّ كلَّ أحد تبنَّىٰ ابنًا من أولئك إلىٰ أبيه، ومَن لم يُعرَف [أبوه رُدَّ] إلىٰ مواليه. قال: أخرجه مالك في الموطأ[٣] عن الزهري عن عروة بهذا. وذكر[٤] في ترجمة فاطمة بنت الوليد بن عتبة هذه: أنها من المهاجرات الفاضلات، زوَّجها عمُّها أبو حذيفة بن عتبة سالمًا الذي يقال له: مولىٰ أبي حذيفة. وذكر[٥] في ترجمة فاطمة بنت عتبة أخت أبي حذيفة أنها أخت هند أم معاوية بن أبي سفيان، ونقل عن ابن سعد[٦] أنه قال: تزوجها قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فولدت له الوليد وهشامًا ومسلمًا وعتبة وأبيًّا [وآمنة] وفاختة، ثم أسلمت وبايعت، وتزوجها عقيل بن أبي طالب. وذكر لها معه قصة. وقد ظهر بما ذكرنا أن التي تزوجها سالم هي فاطمة بنت الوليد لا ابنة عتبة، فتأملْ **(عاتبته قريش في ذلك وقالوا: أنكحتَ عقيلةً من عقائل قريش لمولًىٰ)** يعنون به سالمًا رضي الله عنه **(فقال: واللهِ لقد أنكحته إيَّاها وإني لأعلمُ**

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١١/ ٨١.

(٢) السابق ٤/ ١٠٣ - ١٠٦.

(٣) الموطأ ٢/ ٦٠٥.

(٤) الإصابة ١٣/ ٨٧.

(٥) السابق ١٣/ ٨٤.

(٦) الطبقات الكبرىٰ ١٠/ ٢٢٦.

أنه خير منها. فكان قوله ذلك عليهم أشد من فعله، قالوا: وكيف وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَن أراد أن ينظر إلىٰ رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلىٰ سالم) هكذا هو في القوت. وقال العراقي[١]: لم أرَه من حديث أبي حذيفة، وروىٰ أبو نعيم في الحلية[٢] المرفوعَ منه من حديث عمر: «إن سالمًا يحب الله حقًّا من قلبه». وفي رواية له: «إن سالمًا شديد الحب لله عَزَّوَجَلَّ، ما عصاه». وفيه ابن لهيعة.

قلت: قال أبو نعيم: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا أحمد بن حماد ابن سفيان، حدثنا زكريا بن يحيىٰ بن أبان قال: حدثني أبو صالح كاتب الليث قال: حدثني عبد الله بن لهيعة، عن عُبادة بن نُسَيٍّ، عن عبد الرحمن بن غُنم قال: سمعت عبد الله بن الأرقم يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ ذكر سالمًا مولىٰ أبي حذيفة فقال: «إن سالمًا شديد الحب لله». ورواه حبيب بن نجيح عن عبد الرحمن بن غُنم، حُدِّثتُ عن سعيد بن سليمان قال: حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن الجرَّاح بن مِنهال، عن حبيب بن نجيح، عن عبد الرحمن بن غنم قال: قدمت المدينة في زمان عثمان، فأتيت عبدَ الله بن الأرقم، فقال: حضرتُ عمرَ عند وفاته مع ابن عباس والمسور ابن مَخرمة، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سالمًا شديد الحب لله، لو كان لا يخاف الله ما عصاه». فلقيت ابنَ عباس فذكرت ذلك له، فقال: صدق، انطلِقْ بنا إلىٰ المسور حتىٰ يحدِّثك به. فجئنا المسورَ، فقلت: إن عبد الله بن الأرقم حدثني بهذا الحديث. فقال: حسبك، لا تسأل عنه بعد عبد الله بن الأرقم. حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي، حدثنا محمود بن خداش، حدثنا مروان بن معاوية، حدثنا سعيد قال: سمعت شهر بن حوشب يقول: قال عمر بن

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٤.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٧٧.

الخطاب: لو استخلفتُ سالمًا مولىٰ أبي حذيفة فسألني عنه ربي: ما حملك علىٰ ذلك؟ لقلت: رب، سمعت نبيَّك ﷺ وهو يقول: «إنه يحب الله حقًّا من قلبه».

(فهذا يدل علىٰ أنَّ من الناس مَن لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضًا غيرَه، فلا جَرَم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه علىٰ قدْر حبه، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت علىٰ قدر حبه لها) وقال صاحب القوت بعد أن أورد الحديث المذكور ما نصه: ففي دليله أنَّ من المؤمنين مَن يحب اللهَ ببعض قلبه فيؤثره بعض الإيثار وتوجد فيه محبة الأغيار، ومنهم مَن يحبه بكل قلبه فيؤثره علىٰ ما سواه، فهذا عابد، ومألوهه الذي لا معبود له ولا إله إلا إياه، وفيه دليل علىٰ أنهم علىٰ مقامات في المحبة عن معاني مشاهدات الصفات ما بين البعض في القلوب والكلِّية.

وقال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي: ذهب قوم من السلف إلىٰ أن محبة الزوجة والولد والأسباب التي هي من ضرورات الحياة تُنقِص المحبةَ، وذهب الإمام الغزالي إلىٰ خلاف ذلك فقال في بعض كلام له: كل ما يحبه العبد من الدنيا ليتوصَّل بذلك إلىٰ محبة الله فهو من محبة الله. وأما الإمام أبو طالب المكي فقال: الركون إليها يُخرِج عن المحبة. قلت: إذا ركن إليها بطبعه وعقله، وأما بمجرد الطبع فلا يخرج عن المحبة، لكن ينقص كمالها عندي؛ لأن المحبة إذا قويتْ كدَّرت صفو ما سواها من الشهوات، فيكون المحب معها بقالبه لا بقلبه، ويكون مع الشهوات المباحة لأجل أمر الله، لا شهوة ولا رغبة، وهذا هو الذي أراده الإمام أبو طالب بقوله: إن محبة الزوجة والولد لا تُنقِص ذلك عندي، وعلَّله فقال: إن محبة الله من نور الإيمان، ومحبة الزوجة والولد من العقل، ومثل هذا لا يخفَىٰ عليه أن العقل لا يحب المحسوسات ولا يميل إليها، وإنما - والله أعلم - لمَّا كان للقلب وجهتان: وجهة إلىٰ الله مستمَدٌّ منها المعارف ومزايد القلب، ووجهة إلىٰ بدنه ليدبِّره ويقوم بمصالحه، وكان المحب لا يرجع من الوجه الذي يلي ربَّه إلىٰ الوجه الذي يدبِّر به المصالح إلا لضرورة سفره سُمِّيت محبة الزوجة والولد بهذا

الاعتبار عقلاً؛ لأن هذا لا يتناول من الدنيا إلا كما يتناول المريض الأدوية النافعة لا يأخذ منها إلا بقدر الحاجة، وهذه أحوال السلف من المحبِّين.

(**وأما السبب الثاني للكراهة فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت، وإنما يكره عَجَلته قبل أن يستعدَّ للقاء الله، فذاك لا يدل علىٰ ضعف الحب، وهو كالمحب الذي وصله الخبرُ بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومُه ساعةً ليهيِّئ له دارَه ويعدَّ له أسبابَه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر من العوائق**) لا للتمتُّع بالدنيا (**فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمالَ الحب أصلاً**) وتركُ اختياره لاختيار الله في هذا الباب أَولىٰ (**وعلامته الدؤب في العمل واستفراغ الهم في الاستعداد**) فإن قصَّر في عمله فليس من الاستعداد في شيء (**ومنها: أن يكون مؤثِرًا ما يحبه الله تعالىٰ علىٰ ما يحبه في ظاهره وباطنه**) لأن المحبة لا تدع لغير المحبوب موضعًا في القلب، والإيثار هو ميزان العقل والصدق للمحبة، فعلىٰ قدْر إيثارك له تعرف محبتك له، فلا تغترَّ، فإن المحبة خفيَّة لا تُعرَف إلا بإيثارها، وقد أشار إلىٰ ثمرة الإيثار بقوله: (**فيَلزم مشاقَّ العمل، ويجتنب اتِّباع الهوىٰ، ويُعرِض عن دَعة الكسل**) أي راحته (**ولا يزال مواظبًا علىٰ طاعة الله ومتقرِّبًا إليه بالنوافل**) كما ورد به الخبر؛ لأن عمل المحبة لا تداخله سآمة ولا ملالة، وهو أحد الأسباب المشرفة لأعمال المحبِّين (و) لا يزال (**طالبًا عنده مزايا الدرجات**) أي خواصَّها (**كما يطلب المحب مزيد القُرب في قلب محبوبه، وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال:** ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] أي احتياج وفقر. وقال صاحب القوت: أدلُّ علامات المحبة الإيثارُ للمحبوب علىٰ ذخائر القلوب، ولذلك وصف الله تعالىٰ المحبين بالإيثار، ووصف العارفين بذلك، فقال في صفة المحبين: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [ثم قال]: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقال في وصفه تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] (**ومَن بقي مستمرًّا**

علىٰ متابعة الهوىٰ فمحبوبه ما يهواه) وإليه يشير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] **(بل يترك المحب هوىٰ نفسه لهوىٰ محبوبه، كما قيل:**

أريـد وصالَـه ويريـد هجـري فأتـرك مـا أريـد لِمـا يريـدُ[١]

أورده القشيري في الرسالة.

وقال صاحب القوت: أنشدني بعض الأشياخ لبعض المحبين:

أَلَـذُّ جميـلَ الصبـر كيمـا ألـذُّه وأهوىٰ لمَن أهواه تركًا فأتركه[٢]

(بل الحب إذا غلب) علىٰ القلب وغمره **(قمع الهوىٰ فلم يبقَ له تنعُّمٌ بغير المحبوب، كما رُوي)** في الأخبار السالفة **(إن زَلِيخا)** بفتح فكسر، وهي امرأة العزيز **(لمَّا آمنت وتزوج بها يوسف ﷺ انفردت عنه وتخلَّت للعبادة وانقطعت إلىٰ الله تعالىٰ، فكان يدعوها إلىٰ فراشه نهارًا فتدافعه إلىٰ الليل، فإذا دعاها ليلاً سوَّفت به)** أي أخَّرت **(إلىٰ النهار، وقالت: يا يوسف، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأما إذ عرفتُه فما أبقتْ محبتُه محبةً لسواه، وما أريد به بدلاً. حتىٰ قال لها: إن الله عَزَّوَجَلَّ أمرني بذلك، وأخبرني أنه مُخرِج منكِ ولدين وجاعلهما نبيَّين. فقالت: أما إذا كان الله أمرك بذلك وجعلني طريقًا إليه فطاعة لأمر الله تعالىٰ. فعندها سكنت إليه)** هكذا نقله صاحب القوت[٣]. فكأنَّما كانت طاعتها امتثالاً لأمر الله تعالىٰ، وهو دليل المحبة.

(فإذًا مَن أحب اللهَ لا يعصيه) بمخالفة أمره **(ولذلك قال)** عبد الله **(ابن**

---

(١) تقدم هذا البيت في كتاب آداب الصحبة.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

(٣) قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٨٣: «روي أن الله تعالىٰ ألقىٰ في قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنك لا تحبينني كما كنتِ في أول مرة؟ فقالت له: لما ذقتُ محبة الله تعالىٰ شغلني ذلك عن كل شيء».

المبارك) رحمه الله تعالىٰ **(فيه:**

تعصـي الإلـهَ وأنـت تُظهِـر حبَّـه هـذا لعَمْـري في الفِعـال بديـعُ
لـو كان حبـك صادقًـا لأطعتَـه إن المحب لمَـن يحـب مطيـع)[1]

وهي أبيات سائرة من جملة قصيدة له نسبها إليه غير واحد من العارفين. وروىٰ البيهقي في الشعب[2] عن الحسن بن محمد ابن الحنفية أنه قال: مَن أحب حبيبه لم يعصِه. ثم قال:

تعصـي الإلـه وأنـت تُظهِـر حبَّـه عـارٌ عليـك إذا فعلـتَ شـنيعُ
لـو كان حبـك صادقًـا لأطعتَـه إن المحـب لمَـن أحـب مطيـعُ

ثم قال:

مـا ضرَّ مَن كانت الفـردوس منزله مـا كان في العيش من بـؤس وإقتارِ
تـراه يمشـي حزينًـا خائفًـا شـعثًا إلىٰ المسـاجد يسعىٰ بين أطمارِ[3]

ونسب السهروردي[4] البيتين المذكورين إلىٰ رابعة. وقد ظهر من مجموع كلامهم أن ابن المبارك ورابعة كانا ينشدان ذلك، وأصل الإنشاد لابن الحنفية، فتأملْ.

(وفي هذا المعنىٰ قيل أيضًا:

(١) تقدم هذان البيتان والاختلاف في قائلهما في كتاب آداب الصحبة.

(٢) شعب الإيمان ٢/ ٤٤.

(٣) هذان البيتان نسبهما أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٧٤ والآجري في الغرباء ص ٦٧ - ٦٨ إلىٰ سفيان الثوري.

(٤) عوارف المعارف ص ٣٥٢.

وأتـــرك مـا أهـوىٰ لِمـا قـد هويتَه وأرضىٰ بما ترضىٰ وإن سخطتْ نفسي)[١]

هكذا أنشده صاحب القوت لبعضهم.

(وقال سهل) التستري (رحمه الله تعالىٰ: علامة الحب إيثاره علىٰ نفسك) ولفظ القوت: الإيثار يشهد للحب، فعلامة حبه إيثاره علىٰ نفسك (و) قال: (ليس كل مَن عمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ صار حبيبًا، وإنما الحبيب مَن اجتنب المَناهي) ولفظ القوت: و[لكن] كل مَن اجتنب ما نهاه عنه صار حبيبًا (وهو كما قال؛ لأن محبته لله تعالىٰ سبب محبة الله له، كما قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وإذا أحب الله عبدًا تولاَّه ونصره علىٰ أعدائه، وإنما عدوُّه نفسه وشهواته، فلا يخذله، ولا يَكِله إلىٰ هواه وشهواته، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾) [النساء: ٤٥] ولفظ القوت بعد أن أورد كلام سهل: وهذا كما قال؛ لأن المحبة تستبين بترك المخالفة، ولا تستبين بكثرة الأعمال، كما قيل: أعمال البِر يعملها البَر والفاجر، والمعاصي لا يتركها إلا صديق. وقيل: أفضل منازل الطاعات الصبرُ عن المعاصي ثم الصبر علىٰ الطاعة، وإن الصبر علىٰ الطاعة يضاعَف إلىٰ سبعين ضِعفًا، والصبر عن المعصية يضاعَف إلىٰ سبعمائة، كأنَّه أقيمَ مقامَ المجاهد في سبيل الله؛ لأن نفسه عدوَّة لله وله، فمخالفته هواها هو جهادها في سبيل الله؛ لأنه يقع اختيارًا من الله وضرورةً لا من كلِّية النفس، فإذا ترك هواه فقد ترك نفسه، فأقل ما له في ذلك الزهدُ في الدنيا والجهاد في سبيل الله، ومن أجل ذلك ضوعِفت حسناته إلىٰ سبعمائة، ومن أجله ثبتت له المحبة؛ لدخوله في أهل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] وأيضًا، فقد اندرج الخوف في حاله، وهو مقام ثانٍ يفضل جنة ثانية لترك المخالفة، فلذلك قال [تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] ففضَّله علىٰ غيره بحبه.

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

وأعجب ما سمعتُ في هذا أن موسىٰ عليه السلام سأل الخضر: بأيِّ شيء بلغتَ هذه المنزلة؟ فقال: بترك المعاصي كلها. وقد كان سهل يقول في قوله] تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] قال: عيش نفوسهم الفاني، وهو عاجل حظوظهم من الشهوات.

(**فإن قلتَ: فالعصيان هل يضادُّ أصلَ المحبة؟ فأقول: إنه يضادُّ كمالَها، ولا يضادُّ أصلَها**) وإليه ذهب أبو طالب المكي وتبعه المصنفُ وقالا: (**فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض، ويحب الصحة ويأكل ما يضرُّه مع العلم بأنه يضرُّه، وذلك لا يدل علىٰ عدم حبه لنفسه، ولكن المعرفة قد تضعُف، والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة**) قالا: (**ويدل عليه ما رُوي**) في الصحيح (**أن نُعَيمان**) بن عمرو بن رفاعة الأنصاري (**كان يؤتَىٰ به رسولَ الله ﷺ في كل قليل فيحدُّه في كل معصية يرتكبها**) وهي أنه كان يصيب من الشراب، كما ذكره الزبير بن بكّار في كتاب «الفكاهة والمزاح» (**إلىٰ أن أُتي به يومًا، فحدَّه**) حد الشرب (**فلعنه رجل**) يقال: اسمه عُمَير، كما بيَّنه الحافظ في الفتح (**وقال: ما أكثر ما يؤتَىٰ به رسول الله ﷺ! فقال ﷺ: لا تلعنه**) وعند الزبير بن بكّار: لا تفعل (**فإنه يحب الله ورسوله**) رواه البخاري من طريق وُهَيب عن [أيوب عن] ابن أبي مُلَيكة عن عقبة بن الحارث أن النبي ﷺ أُتي بالنعيمان أو ابن النعيمان. كذا بالشك، والراجح: النعيمان، بلا شك كما عند أحمد. ورواه بالشك أيضًا ابن سعد في الطبقات. وقد تقدم ما يتعلق به[١].

(**فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة**) أي عن أصلها. قال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي: وقد رأيت أيضًا في كتاب الله ما يدل علىٰ ذلك، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية [النور: ٢٢] فلم تخرجه الكبيرةُ عن اسم الهجرة (**نعم، تخرجه المعصية عن كمال الحب، وقد قال بعض العارفين**) مشيرًا إلىٰ ذلك: (**إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب اللهَ تعالىٰ حبًّا متوسطًا، فإذا دخل**

---

(١) في كتاب آفات اللسان [الآفة الثامنة: اللعن].

سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي) ولفظ القوت: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب - يعني على الفؤاد - كان المؤمن يحب الله حبًّا متوسطًا، فإذا دخل الإيمان في باطن القلب وكان في سويدائه أحبه الحب البالغ. ومحنة ذلك أن ينظر: فإن كان يؤثر حب الله على جميع هواه ويغلِّب محبتَه على هوى العبد حتى تصير محبة الله هي محبة العبد من كل شيء، فهو محب لله حقًّا، كما أنه مؤمن به حقًّا عن مشاهدة اليقين الذي يغلِّب رؤيتَه على رؤية الخلق فيشهده في كل شيء، ويكون واجدًا به دون كل شيء؛ إذ قد تجلَّى لمَن أيقن بكل شيء، فإن رأيتَ قلبك دون ذلك فلك من ذوق محبة سواه بقدر ما لك من شوب اليقين ممزوجًا بشهادة الخلق والوجد بهم دون الخالق، وذلك أيضًا عن خالص شهادة التوحيد، ومن المحبة بقدر ذلك له في مقامات الخالصين، أو مشوبًا بالشرك الخفي بالنظر إلى الأواسط والثواني في إخلاص عموم المخلصين. وقال بعض العلماء: إن ظاهر القلب محل الإسلام، وباطنه محل الإيمان، فمن ههنا تفاوت المحبُّون في المحبة لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر. وفرَّق بعضُ علمائنا بين القلب والفؤاد فقال: الفؤاد مقدم القلب وما استدقَّ منه، والقلب أصله وما اتسع منه. وقال مرةً: في القلب تجويفان: فالتجويف الظاهر هو الفؤاد وهو مكان العقل، والتجويف الباطن هو القلب، وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة، وهو محل الإيمان، وقد قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧] فمحبة الإسلام مفترضة على الخلق، وهي متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم طاعةً لله ومحبة له، فأما محبة المقرَّبين فعن مشاهدة معاني الصفات بعد معرفة أخلاق الذات، فعبادة أولئك بالعادات وللحاجات، وعبادة المحبِّين للإجلال والتعظيم، وهي مخصوصة لمخصوصين، والأصل في هذا أن المحبة عن المعرفة، وأن المعرفة عموم وخصوص، فلخصوص العارفين خاصِّية المحبة،

ولعمومهم عموم المحبة. انتهىٰ.

وقال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي: والذي ترجَّح عندي أن العاصي يكون محبًّا حكمًا لا حقيقةً، كما يُطلَق اسم الإيمان علىٰ النائم، فإنه مؤمن حكمًا لا حقيقةً، وبهذه القاعدة ينكشف سرُّ قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»؛ لأن دخان الشهوة حجب نظره عن الوعد والوعيد فصار كالغافل عن الإيمان كالنوم، فالغافل يسمَّىٰ مؤمنًا حكمًا لا حقيقةً؛ لأن حقيقة الإيمان حضورُ العبد مع الله أو شهوده للآيات الدالَّة علىٰ وجوده، فالغافل العاصي عن هذا بمعزل، والإنسان خُلِق في الأصل مجبولاً علىٰ الغفلة وعلىٰ الرجوع إلىٰ الأحوال البشرية، وإنما رحمة الشرع جاءت بتشريع العبادات وترتيبها في أوقات متقاربة؛ ليرجع القلب بذلك إلىٰ الله تعالىٰ، فانقسم الناس في رجوعهم إلىٰ الله تعالىٰ أو إلىٰ الدنيا هذا الانقسام.

(**وبالجملة، في دعوىٰ المحبة خطرٌ**) عظيم، وقد قال بعض العلماء: إذا تمَّ التوحيد تمَّت المحبة، وإذا جاءت المحبة تم التوكلُ، فتم إيمانُه، وخلُص فرضُه، وسُمِّي ذلك يقينًا (**ولذلك قال الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ في فرض المحبة: (**إذا قيل لك: أتحب الله تعالىٰ؟ فاسكت، فإنك إن قلت لا كفرتَ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقتَ**)[1] نقله صاحب القوت.

(**ولذا قال بعض العلماء: ليس في الجنة نعيم أعلىٰ من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب مَن ادَّعىٰ المعرفة والمحبة ولم يتحقَّق بشيء من ذلك**) نقله صاحب القوت، وزاد فقال: وقال عالِم فوقه: كل أهل المقامات يُرجَىٰ أن يُعفَىٰ عنهم ويُسمَح لهم، إلا مَن ادَّعىٰ المعرفة والمحبة فإنهم يطالَبون بكل شعرة مطالبةً، وبكل حركة وسكون، وكل نظرة وخطرة لله تعالىٰ

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب الرجاء والخوف بلفظ: «إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم كذبت؛ إذ ليس وصفك وصف من يخاف الله».

وبالله تعالىٰ وفي الله تعالىٰ ومع الله تعالىٰ.

(ومنها) أي من علامات حب العبد لله تعالىٰ (**أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالىٰ**) أي مولَعًا به (**لا يفتر عنه لسانُه، ولا يخلو عنه قلبه**) بل يكون القلب موافقًا للسانه في حال الذِّكر (**فمَن أحب شيئًا أكثرَ بالضرورة من ذِكره**) كما ورد في الخبر: «مَن أحب شيئًا أكثرَ من ذِكره». رواه صاحب الحلية من حديث عائشة، وقد تقدم. وكثرة الذِّكر دليل محبة المذكور للذاكر، وهو من أفضل مننه علىٰ خلقه، وفي الخبر: «إن لله تعالىٰ في كل يوم صدقةً يمنُّ بها علىٰ خلقه، وما تصدَّق علىٰ عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذِكره». وروىٰ سفيان عن مالك بن مغول: قيل: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبًا من ذكر الله». ويُروَىٰ: «أكثِروا من الذكر حتىٰ يقول المنافقون: إنكم مراؤون». وفي حديث أبي سلمة عن أبيه عن جده: «ومَن أكثرَ ذِكر الله أحبَّه الله» (و) كذلك مَن أحب شيئًا أكثرَ من (**ذِكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه**) وتكريره علىٰ الأسماع والقلوب (**وحب رسوله ﷺ**) الذي هو حبيبه وصفيُّه، وكذا حب سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ لأن الفضائل المتواترة عنهم موجِبة للمحبة، ويجب حب الملائكة لشرفهم في ذواتهم ولِما أصلح الله بهم الأنبياءَ ونفع بهم العباد، ويُستحَب حب الطاعة التي هي خدمة، ويتأكَّد الاستحباب للأولياء الذين هم خاصة، وكذا للمؤمنين علىٰ حسب درجاتهم، قال تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩] (و) كذا (**حب كل مَن يُنسَب إليه**) أي إلىٰ رسول الله ﷺ بالولادة، وكذا إليهم بالنسب الظاهر أو الباطن (**فإنَّ مَن يحب إنسانًا يحب**) كلَّ ما يتعلق به حتىٰ (**يحب كلب محلَّته**) وقصة مجنون بني عامر مع كلب وقع بصره عليه فأحبه وجوابه لمَن سأله عن ذلك بأنه رآه مرةً في حي ليلىٰ وقوله:

* أحب لحبها سودَ الكلابِ[1] *

---

(١) هذا عجز بيت، صدره:

مشهورة. فهذا الذي ذكره كله ممَّا يتعلق بحب الله تعالىٰ

(فالمحبة إذا قويتْ تعدَّت من المحبوب إلىٰ كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شركة في المحبة) وكمال المحبة يقتضي رفعَ الاشتراك **(فإنَّ مَن أحب رسول المحبوب لأنه رسوله و)** أحب **(كلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبُّه إلىٰ غيره، بل هو دليل علىٰ كمال حبه، ومَن غلب حبُّ الله علىٰ قلبه)** وغمره بكلِّيته **(أحب جميع خلق الله؛ لأنهم خلقه)** وتصنيفه وإبداعه **(فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين)** إلا أن المحبة في بعض الأفراد المذكورة بالوجوب كالقرآن والرسول وسائر الأنبياء والملائكة، وفي بعضها بالاستحباب كجميع المؤمنين علىٰ درجاتهم في الطاعة، وفي بعضها يتأكَّد الاستحباب كحب خواص العباد من الأولياء والصالحين **(وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوَّة والصحبة، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾)** [آل عمران: ٣١] فإن قلتَ: فلِمَ كانت محبة الطاعة واجبة وكذا محبة الأولياء؟ فأقول: الوجوب مبنيٌّ علىٰ أصل الإيمان لا علىٰ كمال الإيمان، ولا تتقوَّىٰ المحبة حتىٰ تتعدَّىٰ إلىٰ ما يتعلق بالمحبوب إلا بكمال الإيمان، وذلك لو وقعت الطاعة بباعث الخوف أو الرجاء قام الإجماع علىٰ صحتها وقبولها، وفيما ذكرناه نظرٌ؛ لتجاذُب المسألة بين ما قلناه وبين أن الطاعة فرع المحبة، والمحبة واجبة، وعسىٰ الله أن يكشف عن الحق في ذلك. فإن قلتَ: هذا يدل علىٰ أن بغض المؤمنين ليس بحرام. فأقول: نفس البغض مكروه، وبعضه أشد كراهةً من بعض علىٰ حسب درجة الوليِّ، لكن للبغض آثار باطنة وآثار ظاهرة، فلو طلب زوال

أحب لحبها السودان حتىٰ

وليس هو لمجنون بني عامر، بل قائله مجهول. وهو في: عيون الأخبار لابن قتيبة ٤/ ٤٤. الألفاظ لابن السكيت ص ٣٣٨ (ط - مكتبة لبنان). مصارع العشاق للسراج ٢/ ٣٦. ربيع الأبرار للزمخشري ٤/ ٤١٤. خزانة الأدب للبغدادي ٧/ ٢٧٣، ١١/ ٤٥٩.

النعمة عنه بسبب بغضه حرُمَ عليه ذلك، ولو تكلم بما ينقصه أو يقدح في عِرضه حرُمَ عليه ذلك. وبعض هذه المهلكات أقبح من بعض.

(وقال ﷺ: **أحِبُّوا الله لِما يغذوكم به من نعمه، وأحِبُّوني لله تعالىٰ**) رواه الترمذي[١] من حديث ابن عباس بلفظ: «وأحِبُّوني لله، وأحِبُّوا أهل بيتي لحبي». وقد تقدم.

(**وقال سفيان: مَن أحب بالله تعالىٰ فإنما أحب الله، ومَن أكرم بكرم الله تعالىٰ فإنما يكرم الله تعالىٰ**) نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: وقال سفيان وغيره: مَن أحب الله تعالىٰ فإنما أحب الله ... الخ.

(**وحُكي عن بعض المريدين قال: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن**[٢] **الإرادة**) أي في أول السلوك ونشاطه (**فأدمنت**) أي داومت علىٰ (**قراءة القرآن ليلاً ونهارًا، ثم لحقتني فترةٌ**) أي سكون (**فانقطعتُ عن التلاوة. قال: فسمعت قائلاً يقول في المنام: إن كنت تزعم أنك تحبني فلِمَ جفوتَ كتابي؟ أما تدبَّرت**) ولفظ القوت: أما ترىٰ (**ما فيه من لطيف عتابي؟ قال: فانتبهت وقد أُشرِب في قلبي محبة القرآن، فعاودت إلىٰ حالي**)[٣] الأولىٰ من الإدمان علىٰ التلاوة. نقله صاحب القوت، زاد: وقال بعض العارفين: لا يكون العبد مريدًا حتىٰ يجد في القرآن كلَّ ما يريد[٤].

---

(١) سنن الترمذي ٦/ ١٢٦.

(٢) في أ، وب، وط المنهاج ٨/ ٤٨٦: شرة. أي النشاط والحرص.

(٣) روىٰ ابن العديم في تاريخ حلب ٢/ ٦٠٩ بسنده إلىٰ أحمد بن جعفر الأرتاحي قال: دخلت أولاس، فإذا شيخ كبير، فدنوت منه، فقلت له: يا شيخ، حدثني بشيء ينفعني الله ﷻ به. قال: عليك بالجد، فإنه كان لي وِرد أقرأ فيه جزأين من القرآن كل ليلة، فنمت عنه، فنوديت من زاوية البيت: إن كنت تزعم حبي فلِم جفوت يا هذا كتابي؟ أو ما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي وأذكاري ومواعظي وآلائي وإعجازي؟

(٤) تقدم هذا الأثر في كتاب آداب تلاوة القرآن بزيادة: «ويعرف منه النقصان من المزيد، ويستغني بالمولىٰ عن العبيد». وتقدم فيه أيضا أثر ابن مسعود وكلام سهل التستري.

(وقال ابن مسعود) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله.

وقال سهل) التستري (رحمة الله تعالىٰ عليه: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنَّة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغضُ الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادًا وبلغة إلىٰ الآخرة) نقله صاحب القوت.

(ومنها) أي ومن علامات المحبة: (أن يكون أنسه بالخلوة ومُناجاته لله تعالىٰ وتلاوة كتابه، فيواظب علىٰ التهجُّد) وهو قيام الليل (ويغتنم هدء الليل) أي سكونه (وصفاء الوقت بانقطاع العوائق) أي الموانع (وأقل درجات الحب التلذُّذ بالخلوة بالحبيب والتنعُّم بمناجاته، فمَن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذَّ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته)؟! وفي الحديث القُدسي: «كذب مَن ادَّعىٰ محبتي إذا جنَّه الليل نام عني». إلا أن بعضهم جعل سهر الليل في مقام بعينه، فذُكِر له هذا الخبر فقال: ذاك إذا أقامه مقامَ الشوق، فأما إذا أنزل عليه السكينة وآواه بالأنس في القرب استوىٰ نومه وسهره. ثم قال: رأيت جماعة من المحبِّين نومهم بالليل أكثر من سهرهم، وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسول الله ﷺ كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومه أكثر من قيامه، ولكن لم يكن تأتي عليه ليلة حتىٰ ينام فيها.

(قيل لإبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ (وقد نزل من الجبل: من أين أقبلتَ؟ فقال: من الأنس بالله) يشير إلىٰ أنه كان في خلوته مع الله تعالىٰ ومناجاته له.

وقال أحمد بن أبي الحواري: دخلت علىٰ أبي سليمان الداراني، فرأيتُه يبكي، فقلت: ما يبكيك رحمك الله؟ قال: ويحك يا أحمد! إذا جنَّ هذا الليلُ وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعُهم علىٰ خدودهم أشرف الجليلُ الجبار جلَّ جلاله عليهم فقال: بعيني مَن تلذَّذ بكلامي واستراح إلىٰ مناجاتي، وإني مطَّلع عليهم في

خلواتهم، أسمع أنينَهم، وأرىٰ بكاءهم، يا جبريل، نادِ فيهم: ما هذا البكاء الذي أراه فيكم؟ هل خبَّركم عني مخبر أن حبيبًا يعذِّب أحبابه بالنار؟ بل كيف يجمل بي أن أرهب قومًا بالعذاب إذا جنَّهم الليل تملَّقوا إليَّ؟ فبي حلفت إذا وردوا القيامة أن أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم رياضَ قُدسي(١).

(و) يُروَىٰ (في أخبار داود عليه السلام): قال الله تعالىٰ: يا داود (**لا تأنس إلىٰ أحد من خلقي، فإني إنما أقطع عني رجلين: رجلاً استبطأ ثوابي فانقطع، ورجلاً نسيني فرضي بحاله، وعلامة ذلك أن أَكِله إلىٰ نفسه، وأن أَدَعه في الدنيا حيران**) نقله صاحب القوت.

(**ومهما أنسَ بغير الله كان بقدْر أنسه بغير الله مستوحشًا من الله تعالىٰ، ساقطًا عن درجة محبَّته**) وقالوا: الاستيحاش من الخلق علامة الأنس بالخالق. وقال سهل رحمه الله تعالىٰ: جناية المحب عند الله أشد من معصية العامَّة، وهو أن يسكن إلىٰ غير الله ويستأنس بسواه.

(و) يُروَىٰ (**في قصة بُرْخ**) بضم الموحدة وسكون الراء وآخره خاء معجمة، وهو اسم سرياني (**وهو العبد الأسود الذي استسقَىٰ به موسىٰ عليه السلام أن الله تعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام: إن برخ نِعم العبد**) و(**هو لي، إلا أن فيه عيبًا. قال**) موسىٰ: (**يا رب، وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومَن أحبني لم يسكن إلىٰ شيء**) نقله صاحب القوت وقال: فالسكون في هذا الموضع الاستراحة إلىٰ الشيء والأنس به، والسكون في غير هذا الموضع النظرُ إلىٰ الشيء والإدلال به والطمأنينة والقطع به. قال: وذكرتُ هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة، فقال: لم يُرِدْ بهذا برخَ، إنما أراد به موسىٰ؛ لأنه أقامه مقام المحبة، فاستحىٰ أن يواجهه بذلك، أي وهو

---

(١) هكذا أورده السهروردي في عوارف المعارف ص ٣٥٤. وقد رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٦ والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٦ والختلي في المحبة لله ص ١١١ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٨/ ١٣٧ - ١٣٨ مطولا ومختصرا.

قد سمح لبرخ بذلك؛ إذ لم يوافقه عليه، فعرَّض له ببرخ، أي لأنه عالِم، وكان هذا جوابًا منه. ثم إني سألته: لِمَ أخبر موسىٰ بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه؟ فأجاب بهذا قال: المقرَّبون من المحبِّين إنما نعيمهم بالله، ورَوحهم وراحتهم إليه من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك في سواه كانت ذنوبًا لهم عن غفلة أُدخِلت عليهم ليتوبوا منها إليه فيغفر لهم.

(**ويُروَىٰ أن عابدًا عبد اللهَ تعالىٰ في غَيضة دهرًا طويلاً**) أي زمانًا، والغيضة: المكان الملتفُّ شجرُه (**فنظر إلىٰ طائر وقد عشَّشَ في شجرة**) أي اتَّخذ عليها عشًّا (**يأوي إليها**) أي إلىٰ تلك الشجرة (**ويصفِّر عندها**) أي يصوِّت بالصفير (**فقال: لو حوَّلتُ مسجدي إلىٰ تلك الشجرة فكنت آنَسُ بصوت هذا الطائر. قال: ففعل**) أي حوَّل مسجده إليها (**فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيِّ ذلك الزمان: قل لفلان العابد: استأنستَ بمخلوق؟ لأحطَّنَّك درجةً لا تنالها بشيء من عملك أبدًا**) نقله صاحب القوت. ورواه البيهقي في الشعب[1] عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أخي[2] يقول: تعبَّد رجل من بني إسرائيل في غيضة في جزيرة في البحر أربعمائة سنة، فطال شعرُه، حتىٰ إذا كان في الغيضة تعلَّق بأغصانها بعضُ شعره، فبينما هو ذات يوم يدور إذ مرَّ بشجرة فيها وكر طائر، فنقل موضع مصلاَّه إلىٰ قريب منها. قال: فنودي: أنستَ بغيري؟ وعزَّتي وجلالي لأحطَّنَّك ممَّا كنت فيه درجتين.

(**فإذًا علامة المحبة**) الصادقة الخالصة (**كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعُّم بالخلوة به**) والانقطاع إليه بوجود نسيم الأنس به، ومصادفة الاستراحة والرَّوح منه بمحادثة في المجالسة، ومناجاة في الخلوة، وتملُّقٍ في السريرة (**وكمال الاستيحاش من كل ما ينغِّص عليه الخلوةَ ويعوق عن لذة المناجاة**) ثم ذوق حلاوة النعيم في ترك المخالفة لغلبة حب الموافقة، ثم الطمأنينة

---

(١) شعب الإيمان ٢/ ٣٣ - ٣٤.

(٢) سماه في حلية الأولياء ١٠/ ٩ محمدًا.

إلىٰ الحبيب، وعكوف الهم علىٰ القريب، ودوام النظر إلىٰ الرقيب، فمَن عرفه أحبه، ومَن أحبه نظر إليه، ومَن نظر إليه عكف عليه، دلَّ علىٰ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ [طه: ٩٧] (**وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقًا بلذة المناجاة كالذي يخاطب معشوقَه ويناجيه**) ويناغيه (**وقد انتهت هذه اللذةُ ببعضهم حتىٰ كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به**) تقدم في كتاب الصلاة (**وقُطعت رِجل بعضهم بسبب علَّة**) الأكلة (**أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به**) وهو عروة بن الزبير، وقد تقدم أيضًا (**ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرَّة عين**) له (**يدفع بها جميع الهموم**) فلا يشعر بشيء يَرِدُ عليه (**بل يستغرق الأنس والحبُّ قلبَه حتىٰ لا يفهم أمور الدنيا ما لم تتكرَّر علىٰ سمعه مرارًا**) فيظن الناس به بلهًا وغفلة (**مثل العاشق الولهان فإنه يكلِّم الناسَ بلسانه وأنسُه في الباطن بذكر حبيبه**) وما يتعلَّق به (**فالمحب**) الصادق (**مَن لا يطمئن إلا بمحبوبه**) ولا يستأنس إلا بذكره.

(**وقال قتادة**) بن دعامة السدوسي أبو الخطَّاب البصري التابعي (**في قوله تعالىٰ**: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: ٢٨] **قال: هشَّت إليه واستأنست به**) رواه[1] ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ. وقال مجاهد: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ بمحمد وأصحابه. رواه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ. وفي حديث أنس: «هل تدرون ما معنىٰ ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾»؟ قال: «ذلك مَن أحب الله ورسولَه وأحب أصحابي». رواه أبو الشيخ. وفي حديث عليٍّ قال: «ذلك مَن أحب اللهَ ورسوله وأحب أهل بيتي صادقًا غير كاذب، وأحب المؤمنين شاهدًا وغائبًا، ألا بذكر الله يتحابُّون».

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٤٣٥. جامع البيان للطبري ١٣/ ٥١٨ - ٥١٩.

(وقال) أبو بكر (**الصدِّيق** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **مَن ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر**) قد تقدَّم.

(**وقال مطرف بن أبي بكر**) هكذا في سائر نسخ الكتاب، والصواب: مطرف أبو بكر[(١)]، وهو[(٢)] مطرِّف بن طريف الحارثي، كنيته أبو بكر، من أهل الكوفة، قال أحمد وأبو حاتم: ثقة. مات سنة ١٤٣[(٣)]، روىٰ له الجماعة (**المحب لا يسأم من حديث حبيبه**[(٤)]).

وأوحىٰ الله إلىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: **قد كذب مَن ادَّعىٰ محبتي، إذا جنَّه الليلُ نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه؟ فها أنا ذا موجود لمَن طلبني**)[(٥)] وكذلك رواه

---

(١) بل ما ذكره الغزالي هو الصواب، فالمراد هنا مطرف بن أبي بكر الهذلي البصري، لم يرو إلا عن أبيه، ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٩٨.

(٢) تهذيب الكمال للمزي ٢٨/ ٦٢ - ٦٧. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٣١٣.

(٣) وقيل: سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وقيل: سنة إحدىٰ أو اثنتين وأربعين ومائة.

(٤) تهذيب الأسرار للخركوشي ص ٥٩، ورواه الختلي في كتاب المحبة لله ص ٦٤ عن مطرف بن أبي بكر حكايةً عن إحدىٰ العابدات، قال: «كانت عجوز في عبد القيس متعبدة، فكانت إذا جاء الليل تحزمت وقامت إلىٰ المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلىٰ القبور، وكانت تقول: المحب لا يسأم من خدمة حبيبه، ولا ينزل في جميع أموره إلا عند هواه، ورجاء المحب تحقيق، وقربان المحب الوسائل». ورواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٣٩٢ وسمىٰ هذه العجوز: عافية البصرية المشتاقة، بلفظ: «المحب لا يسأم من مناجاة حبيبه، ولا يهمه سواه».

(٥) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٠٠ - ١٠١ عن الحسين بن زياد قال: أخذ الفضيل بن عياض بيدي فقال: يا حسين، ينزل الله تعالىٰ كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا فيقول: من ادعىٰ محبتي إذا جنه الليل نام عني؟ أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا مطلع علىٰ أحبائي إذا جنهم الليل مثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني علىٰ المشاهدة، وكلموني علىٰ حضوري، غدا أقر أعين أحبائي في جناتي. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ١/ ٤٤٥ عن الحسين بن الحسن قال: أخذ الفضيل بيدي ثم قال لي: يا حسين، يقول الله تعالىٰ في بعض كتبه: كذب من ادعىٰ مودتي ... فذكره بنحوه. وروىٰ السلفي في الطيوريات ٣/ ١٠٣٤ مثله عن أبي سليمان الداراني، وزاد: «فلم يحسن

كعب الأحبار من التوراة، ويُروَىٰ عن أبي الدرداء رفعه: «يقول الله تعالىٰ: مَن طلبني وجدني، ومَن طلب غيري لم يجدني». وقد تقدم.

(وقال موسىٰ عَلَيْسَلِم: **يا رب، أين أنت فأقصدك**)؟ ولفظ القوت: فأقصد قصدك (**فقال**) ولفظ القوت: فأوحىٰ الله إليه: (**إذا قصدتَ فقد وصلتَ**.

وقال **يحيىٰ بن معاذ**) الرازي رحمه الله تعالىٰ: (**مَن أحب اللهَ أبغض نفسَه**.

وقال أيضًا: مَن لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحبٍّ: يؤثر كلامَ الله تعالىٰ علىٰ كلام الخلق، ولقاءَ الله تعالىٰ علىٰ لقاء الخلق، والعبادةَ علىٰ خدمة الخلق.

ومنها) أي ومن علامات المحبة: (**أن لا يتأسَّف علىٰ ما يفوته ممَّا سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ**) أي يترك الأسف علىٰ كل فائت سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ (**ويُعظِم التأسُّفَ علىٰ فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالىٰ وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات**) إلىٰ الله تعالىٰ (**بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة**) ونسيان حظوظ النفس بتذكار حقوق الرب تعالىٰ (**قال**) أبو الفضل الشكلي وغيره حكايةً عن (**بعض العارفين**) أنه وصف المحبِّين فقال: (**إنَّ لله عبادًا أحبوه واطمأنوا إليه، فذهب عنهم التأسُّفُ علىٰ الفائت، فلم يتشاغلوا بحظِّ أنفسهم إذ كان مُلك مليكهم تامًّا، وما شاء كان، فما كان لهم فهو واصل إليهم**) لا محالة (**وما فاتهم فبحُسن تدبيره لهم**) ولفظ القوت: فما كان لهم فهو موصله إليهم من جميع الأشياء، وما فات من إدراك غيرهم فبحسن تدبيره لهم.

(**وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يُقبِل علىٰ محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول: رب، بأيِّ ذنب قطعتَ بِرَّك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذِكرٍ ورقَّة قلب يكفِّر**

بي يوم القيامة إلا أن أروح أبدانهم وقلوبهم، الناس يوم القيامة في كرب وجهد، وهم علىٰ كراسي في ظل عرشي».

عنه ما سبق من الغفلة، وتكون هفوته سببًا لتجدُّد ذِكره وصفاء قلبه، ومهما لم يرَ المحبُّ إلا المحبوب ولم يرَ شيئًا إلا منه لم يتأسَّف ولم يشكَّ، واستقبل الكلَّ بالرضا، وعلم أن المحبوب لم يقدِّر له إلا ما فيه خيرته، ويذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] ولفظ القوت: وقد يحسُن بالمريد المتحبِّب أن يكون يأسف علىٰ فوت ساعة وطرفة ذهبت عنه قليلاً قليلاً في غير ذِكر مولاه، فأما المحب المحبوب فقد لاحت له الأعلامُ فقلَّ صبرُه عن الحبيب ومواصلته وملاطفته، فالواجب عليه أن يرجع إلىٰ وارده فيسأله: لِمَ قطعتَ بِرَّك عني؟ ولِمَ لمْ تُدِمْه لي؟ ولِمَ تشوبه بالكدر؟ ولِمَ تُدخِل بيني وبينك الخلقَ؟ فإن كان صادقًا في محبته فيستعمله محبوبه في الخير، فيكون مكان الاستغفار من الغفلة معاتبةٌ يستخرج بها أكثر من الذي فاته من الذكر، فتكون تلك الهفوة عليه بركة إن كانت عاقبتها الاتصال والزيادة في القرب، والعبد المحب لله عَزَّوَجَلَّ مأسور معلَّق هناك لا يدري ما حقيقة التوحيد، غير أنه إذا أسفَ علىٰ فقد وحدانية التوحيد فزع من ذلك فرجع فوجد بقاء الواحد بالوحدانية وانفراده في الصمدية، فينسىٰ نفسه، ويذهب طعم كل ذِكر كان ينعم به، ولم يرَ فوتَ كل شيء، وذهب استبعاده في هذا الموضع حتىٰ يستبعده المحبُّ من مكان آخر فيردُّه إلىٰ علم التوحيد، والتوحيد والحب بلاء كثير، والعِباد قد أَلِفوا العِبادةَ والذِّكر الطيِّب الذي يعقلون به، وأول التوحيد عند المحبين أن يعبدوا الله تعالىٰ لوجهه حبًّا له، لا خوفًا من ناره، ولا رغبة في جنَّته، فيكون الحبيب مرادهم، والوصول إليه مُناهم، حتىٰ يرجع لهم علىٰ التعظيم والإجلال، فلا يرون نفوسهم تصلُح للقائه، فتحس القلوب فترجع بالهيبة والرهبة، فيعبدون الله عَزَّوَجَلَّ، ويبقىٰ الشوق والأنس، فأما الصدق والصبر والإخلاص والزهد فهذه الأخلاق الشريفة كائنة معهم في سرِّهم ووصفِهم لا تفارقهم، ولا يخليهم منها محبوبُهم، ولو أخلاهم مولاهم ما ذاقوا طعم شيء من هذه الخصال ولبطلت العبادات وانقطعت الطرق ولكانوا مكتفينَ به، ولكنه

يدبِّرهم بأمره، ويردُّهم إلىٰ هذه الأحوال، فيذوقون طعمها، كما يردُّهم إلىٰ مصالح الجسم ومرافق العقل، فلذلك اسمهم: الموحِّدون المشتاقون المحبُّون؛ لأنهم عبدوه وحده، وأحبُّوه دون غيره، واشتاقوا إليه لا سواه، ولم يريدوا منه شيئًا؛ إذ كان الله تعالىٰ هو الغالب علىٰ همِّهم، القاهر لقلوبهم، الموجود في سرِّهم، المالك لعقولهم، فلو وضع من نعيمهم ذرَّة علىٰ كل خائف وعابد لاحترقوا من نورهم، وهم أعلىٰ الخليقة، وليس فوقهم أحد. هذا نقلته من كلام الشكلي وغيره من العارفين. انتهىٰ سياق صاحب القوت.

والشِّكْلي بكسر الشين المعجمة وسكون الكاف هو أبو الفضل العباس بن يوسف بن إسماعيل البغدادي، روىٰ عن السري وعمِّه محمد بن إسماعيل الشكلي، وعنه أبو بكر القطيعي وأبو حفص ابن شاهين، منسوب إلىٰ شِكْلة[1]: اسم امرأة، والمعروف بها إبراهيم ابن شكلة الأمير الذي امتدحه أبو تمام، وقد تقدم له ذِكرٌ في هذا الكتاب.

(ومنها) أي ومن علامات المحبة: **(أن يتنعَّم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها)** لأن عمل المحبة لا تداخله سآمةٌ ولا ملالة، وهذا أحد الأسباب المشرفة للمحبين **(كما قال بعضهم: كابدت الليلَ عشرين سنة، ثم تنعَّمت به عشرين سنة)** وهو قول ثابت البُناني، وقال مرةً: كابدت القرآن. وقد سبق في كتاب ترتيب الأوراد.

(وقال) أبو القاسم **(الجُنَيد)** قُدِّس سره: **(علامة المحبة دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنَه ولا تفتر قلبَه)** كذا في القوت.

(وقال بعضهم: العمل علىٰ المحبة لا يدخله الفتورُ[2]**.**

---

(١) الذي في الأنساب للسمعاني ٣/ ٤٤٩: (شكل) بدون هاء. ولم يفسره.
أما شكلة التي ينسب إليها إبراهيم فهي بفتح الشين.

(٢) رواه الختلي في المحبة لله ص ٦٧ عن عبيد الله بن محمد التيمي قال: سمعتهم يذكرون عن بعض

وقال بعض العلماء[1]: واللهِ ما اشتفَىٰ محبٌّ لله من طاعته ولو حلَّ بعظيم الوسائل) كذا في القوت.

(فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات، فإنَّ العاشق لا يستثقل السعيَ في هوىٰ معشوقه، ويستلذُّ خدمتَه بقلبه وإن كان شاقًّا علىٰ بدنه، ومهما عجز بدنُه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرةُ وأن يفارقه العجزُ حتىٰ يشتغل به، فهكذا يكون حب الله تعالىٰ، فإنَّ كل حب صار غالبًا قهرَ لا محالة ما هو دونه، فمَن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبِّه، وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتىٰ) بلغ المجهودَ و(لم يبقَ له شيء) منهما (ما كان سبب حالك هذا في المحبة؟ فقال): كلمة سمعتُها من خلق لخلقٍ عملتْ بي هذا البلاءَ. قيل: وما هي؟ قال: (سمعت يومًا محبًّا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا واللهِ أحبك بقلبي كله، وأنت مُعرِض عني بوجهك كله. فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأيش تنفق عليَّ؟ قال: يا سيدي، أملِّكك ما أملك، ثم أنفق عليك روحي حتىٰ تهلك. فقلت: هذا خلق لخلق وعبدٌ لعبد، فكيف بعبد لمعبود) وخَلْق لخالق؟ (فكل هذا بسببه) نقله صاحب القوت وقال: فقد دخلت الأموال في الأنفس، ودخلت الأنفُس تحت الشراء، وقد باعوه نفوسَهم فما دونها لمحبتهم إياه، وقد اشتراها منهم لنفاستها عنده، فعلامة محبته لها اشتراؤها منهم، وعلامة شرائها طيُّها عنهم، فإذا طواها فلم تكن عليهم منها بقيةُ هوًىٰ في سواه فقد اشتراها.

(ومنها) أي ومن علامات المحبة: (أن يكون مشفقًا علىٰ جميع عِباد الله،

أولئك الضخام أنه قال: إن العمل علىٰ المخافة قد يغيره الرجاء، والعمل علىٰ المحبة لا يدخله الفتور.

(١) هو الفضل بن عيسىٰ الرقاشي، كما رواه عنه الختلي في المحبة لله ص ٣٩، وفيه: «ولو حل بعظم الوسائل منازل الأبرار».

رحيمًا بهم) يصافيهم ويوادِدهم، ويحب لهم أكثر ممَّا يحبه لنفسه؛ لأنه في نفسه راضٍ بما يجري عليه من أحكام ربِّه، فلا يختار لنفسه حالاً من الأحوال وهو يختار للمسلمين أحسن الأحوال وأكمل الحالات، وهذه الحالة إذا وجدها المحب في نفسه يتحقَّق أن الله تعالىٰ منحه مقامَ الربَّانيين المتخلِّقين بأخلاق الله (و) يُستحَب أن يكون **(شديدًا علىٰ جميع أعداء الله، وعلىٰ كل مَن يقارف شيئًا ممَّا يكرهه)** علىٰ حسب درجاتهم في البعد من الله تعبُّدًا لأمر الله سبحانه، مع مشاهدة كمال علم الله وحكمته فيهم **(كما قال الله تعالىٰ)** في وصف المحبِّين: (﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾) [الفتح: ٢٩] فوصفهم بالشدة علىٰ أعداء الله، والتراحُم فيما بينهم (و) يتأكَّد أن **(لا تأخذه)** في الله **(لومةُ لائم)** ولا عذل عاذل **(ولا يصرفه عن الغضب لله صارفٌ، وبه وصف الله أولياءه إذ قال: الذين يكلفون بحبِّي كما يكلف الصبيُّ بالشيء، ويأوون إلىٰ ذِكري كما يأوي النسر إلىٰ وكره، ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حردَ، فإنه لا يبالي قلَّ الناسُ أو كثروا)** هكذا أورده صاحب القوت. وقد رواه الطبراني[1] ومن طريقه أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا أحمد بن منصور المدائني، حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا عبد الله بن محمد ابن يحيىٰ بن عروة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي ﷺ: «أن موسىٰ عليه السلام قال: يا رب، أخبِرْني بأكرم خلقك عليك؟ قال: الذي يسرع إلىٰ هواي إسراعَ النسر إلىٰ هواه، والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلَف الصبي بالناس، والذي يغضب إذا انتُهِكت محارمي غضب النمر لنفسه، فإن النمر إذا غضب لم يبالِ أقلَّ الناسُ أو كثُروا».

(فإذا نظر إلىٰ هذا المثال) وتدبَّره **(فإن الصبي إذا كلفَ بالشيء لم يفارقه أصلاً، وإن أُخِذ منه لم يكن له شغلٌ إلا البكاء والصياح حتىٰ يُرَدَّ إليه، فإذا نام أخذه**

---

(١) المعجم الأوسط ٢/ ٢٣٤.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٣، وهو عند ابن المبارك في الزهد (٢١٦)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (٣٧)، والبيهقي في الشعب ١٢/ ٧٨.

معه في ثيابه، فإذا انتبه) من نومه (**عاد**) إليه (**وتمسَّك به، ومهما فارقه بكىٰ، ومهما وجده ضحك**) إليه (**ومَن نازعه فيه أبغضه، ومَن أعطاه أحبه، وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب**) لنفسه (**حتىٰ يبلغ من شدة غضبه أنه يُهلِك نفسَه**) وذلك أنه يغيب الخلق عنه حتىٰ نفسه فلا يعقل ما يفعل، فلذلك ضرب الله هذا المَثل في قوله «لا يبالي قلَّ الناس أو كثروا» لحقيقة الإخلاص بغيبته عن مداراة الناس.

(**فهذه علامات المحبة**) يعني الكلف بالحب، والإيواء إلىٰ الذِّكر، والغضب للمحارم (**فمَن تمَّت فيه هذه العلامات**) المذكورةُ (**فقد تمَّت محبتُه وخلُص حبُّه**) لله تعالىٰ (**فصفا في الآخرة شرابُه، وعذبَ مَشربُه**) وهو من المقرَّبين، ونعيمه في الجِنان صِرفٌ؛ لأنه كان يعبده لأجله صِرفًا (**ومَن امتزج بحبِّه حبُّ غير الله تنعَّم في الآخرة بقدر حبه**) وهو من أصحاب اليمين (**إذ يُمزَج شرابه بقدرٍ**) ما (**من شراب المقرَّبين، كما قال الله تعالىٰ في الأبرار**) أي وصفِ نعيمهم: (﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [المطففين: ٢٢] **ثم قال**: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾) [المطففين: ٢٥-٢٦] ثم قال في نعت شراب المقرَّبين: (﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾) يعني مزاج شراب الأبرار (﴿مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾) [المطففين: ٢٧-٢٨] أي يشرب بها المقرَّبون صِرفًا، ويُمزَج لأصحاب اليمين (**فإنما طاب شرابُ الأبرار لشوب الشراب الصِّرف الذي هو للمقرَّبين**) ولفظ القوت: فما طاب شراب الأبرار إلا بمزاج شراب المقرَّبين (**والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان، كما أن الكتاب عبَّر به عن جميع الأعمال**) ولفظ القوت: فعبَّر عن جُمَل نعيم الجنان بالشراب، كما عبَّر عن العلوم والأعمال بالكتاب (**فقال**) في نعت الأبرار مثله: (﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨] **ثم قال**: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ٢١] **فكانت أمارة علوِّ كتابهم أنه ارتفع إلىٰ حيث يشهده المقرَّبون**) فما حسُنَ عملُهم ولا صفتْ أعمالهم ولا علا كتابُهم إلا بشهادة المقرَّبين لمَّا قرُبَ منهم وحضروه (**وكما أن الأبرار**) في الدنيا تحسُن علومُهم بعلمهم وترتفع أعمالهم

بمشاهدتهم و(يجدون المزيد في) نفوسهم و(حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقرَّبين ومشاهدتهم لهم، فكذلك يكون حالهم) غدًا (في الآخرة) وقد قال تعالىٰ: (﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾) [لقمان: ٢٨] وقال تعالىٰ: (﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وكما قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦] أي وافق الجزاءُ أعمالَهم) أو وافقت أعمالُهم جزاءهم (فقوبِل الخالص بالصِّرف من الشراب، وقوبِل المشوب بالمشوب، وشوبُ كلِّ شراب علىٰ قدْر ما سبق من الشوب في حبِّه وأعماله) قال الله تعالىٰ: (﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] و) قال تعالىٰ: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] و) قال تعالىٰ: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾) [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالىٰ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي يعطيهم غدًا كوصفهم في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٣٩﴾ [الأنعام: ١٣٩] (فمَن كان حبه في الدنيا) اليوم (ورجاؤه لنعيم الجنة) وطيِّبات المُلك (وللحور العين والقصور مُكِّنَ) غدًا (من الجنة ليتبوَّأ منها حيث يشاء) وهو أجر العاملين لأجلها (فيلعب مع الولدان، ويتمتَّع بالنسوان، فهناك تنتهي لذَّته في الآخرة؛ لأنه إنما يُعطىٰ كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسُه وتلذُّ عينُه) فنِعم الأجر أجره (ومَن كان مقصده رب الدار ومالك المُلك) دون الدار والمُلك (ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق أُنزِل) غدًا (في مقعد صِدق عند مليك مقتدِر) وشَتَّان بينهما (فالأبرار يرتعون في البساتين، ويتنعَّمون في الجنان مع الحور العين والولدان) وغير ذلك من أنواع النعيم (والمقرَّبون ملازمون للحضرة) علىٰ بساط المشاهدة (عاكفون بطرفهم عليها، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلىٰ ذرَّة منها، فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة أقوام آخرون، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

أكثرُ أهل الجنة البُلْه، وعِلِّيُّون لذوي الألباب) قال العراقي[١]: رواه البزار[٢] من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرًا علىٰ الشطر الأول، وقد تقدم، والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري، ولعله أُدرِج فيه. انتهىٰ.

قلت: قد تقدم الكلام فيه، وأن سهلاً التستري فسَّره فقال: هم الذين ولهت قلوبُهم وشُغلت بالله عَزَّوَجَلَّ.

(ولمَّا قصرت الأفهام عن درك معنىٰ «علِّيِّين» عظَّم) **الله** تعالىٰ **(أمره فقال:** ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٩ - ٢١] **كما قال تعالىٰ:** ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝﴾) وأصله[٣]: ما هي؟ أيْ أيُّ شيء هي علىٰ التعظيم لشأنها والتهويل لها، فوضع الظاهر موضعَ المضمر؛ لأنه أهولُ لها (﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝﴾) [القارعة: ١ - ٣] أيْ أيُّ شيء أُعلِمُك ما هي؛ لأنك لا تعلم كُنْهها، فإنها أعظم من أن يبلغ دركها أحدٌ، ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

(ومنها) أي من علامات المحبة: **(أن يكون في حبه خائفًا)** وجِلًا **(متضائلاً)** أي متصاغرًا **(تحت الهيبة والتعظيم)** فشرف العِباد كلِّهم وقربهم من ربِّهم علىٰ قدْر تعظيمهم له ومعرفتهم بحقِّه ليتذلَّلوا ويتصاغروا عبوديةً له وإجلالًا لعظمته ومهابة وصغارًا لكبريائه **(وقد يُظَن أن الخوف يضادُّ الحبَّ، وليس كذلك)** وقال صاحب القوت بعد أن فسَّر أبيات رابعة قدَّس الله سرَّها التي ذُكرت في المحبة بلزوم خوف التقصير ووجوب الحياء من قلة الوفاء والخوف لِما تعرَّض به من حبه، ما نصه: ومَن لم يكن من المحبِّين كذلك حتىٰ لا يُدِلَّ بمحبته ولا يقتضي الجزاءَ عليها من محبوبه ولا يوجب علىٰ حبيبه شيئًا إلا لأجل محبته فهو مخدوع

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٤ - ١١٥٥.

(٢) مسند البزار ١٣/ ٣٢.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٣٩.

بالمحبة، ومحجوب بالنظر إليها، وإنما ذلك مقام الرجاء الذي ضده الخوف، ليس من المحبة في شيء، ولا تصحُّ المحبة إلا بخوف المقت في المحبة، وقال بعض العارفين: ما عرفه مَن ظن أنه عرفه، ولا أحبَّه مَن توهَّم أنه أحبه **(بل إدراك العظمة يوجب الهيبةَ، كما أن إدراك الجمال يوجب الحبَّ)** وتحقيق ذلك يُفهَم من معنىٰ التعظيم، فلنذكره: اعلمْ أن التعظيم المعهود هو ما فات البصرَ إدراكُه، والرب تعالىٰ منزَّه عن إدراك حس تعلو ذاتُه عن الأجسام والأعراض ومشابهة المحدَثات، والتعظيم بطريق الاستعارة والتجوُّز ما فات البصائرَ إدراكه، إما لمانع في البصيرة أو في الذات المبصرة، والرب تعالىٰ قد فات الأبصارَ والبصائرَ إدراكُه علىٰ ما هو عليه، لا لمانع وضعه الله؛ إذ يمكن رفعُ ذلك المانع، ولكن لصفته التي هي حقه وهي قيُّوميَّته بنفسه واستغناؤه عن الموجِب والموجِد والكيف والنظير، لا لعلم سبق ولا لحُكم قُدِّر، بل لأجل أن عظمته إزاره وكبرياءه رداؤه، ولمَّا كان عظيمًا في ذاته وكان ناظرًا لذاته بعين الكبرياء وكان محتجبًا بهذين الوصفين عن عباده وقع الأخبار عنهما بالإزار والرداء الحاجبينِ للابس أن تظهر ذاته؛ إذ بصفاته احتجبت ذاتُه عن أن تُدرَك، لا أن بينه وبين العقول العالمة به حُجُبًا، إنما الحُجُب المخلوقة ما تصنعه من الأكِنَّة في قلوب الجهلة، وأما العلماء فما يحتجب عنهم إلا بأنوار صفاته.

ولهذا الكلام بقية تقدَّمت الإشارة إليها في مواضع من هذا الكتاب.

(ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة) من نسبة أحوالهم **(ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض)** ولفظ القوت: وللمحب سبع مخاوف ليست لشيء من أهل المقامات، بعضها أشد من بعض **(فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد)** من حضرة القرب **(وهذا المعنىٰ من سورة هود هو الذي شيَّب سيدَ المحبين)** ﷺ **(إذ سمع قوله تعالىٰ)** في سورة هود: (﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: ٦٨] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ

﴿٩٥﴾) [هود: ٩٥] وقال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتها». وقد تقدم الكلام عليه (**وإنما تعظُم هيبةُ البعد وخوفه في قلب مَن أَلِفَ القربَ وذاقه وتنعَّم به، فحديث البعد في حق المبعَدين يشيِّب سماعُه أهلَ القرب في القرب، ولا يحنُّ إلىٰ القرب مَن أَلِفَ البعدَ**) بل ولا يعرف البعدَ مَن لم يقرُب (**ولا يبكي لخوف البعد مَن لم يمكَّن من بساط القرب**) ولم يعهده (**ثم**) أشد منه (**خوف الوقوف**) مع التحديد (**وسلب المزيد**) وهذا يكون للخصوص في الإظهار والإخبار منهم، فيُسلَبون المزيد من نوعه إن كان من الآيات، وحقيقة ذلك عقوبة لهم، ويكون للعموم عند إيثار الشهوات علىٰ أوامر الطاعات (**فإنَّا قدَّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها**) كما أن درجات المعرفة لا نهاية لها (**وحق العبد أن يجتهد في كل نفَس حتىٰ يزداد فيه قربًا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: مَن استوىٰ يوماه فهو مغبون، ومَن كان يومه شرًّا من أمسه فهو ملعون**)[١] قال العراقي[٢]: لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رَوَّاد قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله، أوصِني، فقال ذلك بزيادة في آخره. رواه البيهقي في الزهد[٣].

قلت: بل رواه الديلمي[٤] من حديث محمد بن سوقة عن الحارث عن عليٍّ به مرفوعًا، وسنده ضعيف. قاله الحافظ السخاوي في المقاصد[٥]، ولفظه: «مَن استوىٰ يوماه فهو مغبون، ومَن كان آخر يوميه شرًّا فهو ملعون، ومَن لم يكن في الزيادة فهو في النقصان [ومَن كان في النقصان] فالموت خيرٌ له، ومَن اشتاق إلىٰ الجنة سارع في الخيرات».

---

(١) صدره في القوت بقوله: وجاء في الأثر. ولم أحقق مقصده بالأثر، ورواه الدينوري في المجالسة ٥/ ٥٧ من كلام أبي حازم، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٨/ ٣٥ منامًا للحسن البصري.

(٢) المغني ٢/ ١١٥٥.

(٣) الزهد الكبير ص ٣٦٧.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٦١١.

(٥) المقاصد الحسنة ص ٤٠٢.

قلت: والشطر الأخير هو أول حديث رواه البيهقي[١] وتمام[٢] وابن عساكر[٣] وابن النجار من حديث عليٍّ بزيادة، ولفظه: «مَن اشتاق إلىٰ الجنة سابَقَ إلىٰ الخيرات، ومَن أشفق من النار لها عن الشهوات، ومَن ترقَّب الموتَ صبرَ عن اللذَّات، ومَن زهدَ في الدنيا هانت عليه المصائب». وقد تقدَّم.

(**وكذلك قال ﷺ: إنه لَيغانُ علىٰ قلبي في اليوم والليلة حتىٰ أستغفر الله سبعين مرةً**) رُوي ذلك من حديث الأغرِّ بن يسار المُزَني بلفظ: «إنه لَيُغانُ علىٰ قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». رواه أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان والبغوي وابن قانع والباوَرْدي والطبراني[٤]. وأما حديث الاستغفار سبعين مرة فقد رُوي من حديث أبي هريرة وأنس وأبي موسىٰ، فلفظ حديث أبي هريرة: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليوم سبعين مرةً». رواه الترمذي[٥] وقال: حسن صحيح، وابن السني[٦]. ورُوي عنه أيضًا بلفظ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة». رواه ابن أبي شيبة[٧] وابن ماجه[٨] وابن السني[٩]. ورُوي عنه أيضًا بلفظ: «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة وأتوب إليه». رواه أحمد[١٠]. ولفظ حديث أنس: «إني لأتوب إلىٰ الله [في اليوم] سبعين مرة». رواه

---

(١) شعب الإيمان ١٣/ ١٧٦.
(٢) فوائد تمام ٥/ ٨٠ – ٨١.
(٣) تاريخ دمشق ١٣/ ٣١، ١٤/ ٣٠، ٢٥/ ٢٩٢.
(٤) تقدم حديث الأغر في كتاب الأذكار والدعوات، وفي كتاب ذم الجاه والرياء.
(٥) سنن الترمذي ٥/ ٣٠٢.
(٦) عمل اليوم والليلة ص ٢٢٣.
(٧) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٥١٥.
(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٤٥.
(٩) عمل اليوم والليلة ص ٢٢٢.
(١٠) مسند أحمد ١٣/ ٢٠٤.

النسائي[١] وأبو يعلىٰ[٢] وابن حبان[٣] والضياء[٤]، ورواه سمويه والضياء أيضًا بلفظ: «إني لأستغفرُ الله في اليوم سبعين مرة». ولفظ حديث أبي موسىٰ: «إني لأستغفرُ الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة». رواه ابن ماجه[٥]، ورواه الطبراني[٦] بلفظ «مائة مرة».

(وإنما كان استغفاره) ﷺ **(من القدم الأول، فإنه كان بعدًا بالإضافة إلىٰ القدم الثاني)** وهذا أحد المعاني المذكورة في تفسير الحديث المتقدم **(ويكون ذلك)** الوقوف وسلبُ المزيد **(عقوبة لهم علىٰ الفتور في الطريق والالتفات إلىٰ غير المحبوب، كما رُوي)** في الأخبار القدسية **(أن الله تعالىٰ يقول: إن أدنىٰ ما أصنع بالعالِم إذا آثرَ شهوات الدنيا علىٰ طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي)**[٧] نقله صاحب القوت. وهو في الشعب[٨] عن بشر قال: أوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا داود، إنما خلقتُ الشهوات واللذَّات لضعفاء عبادي، فأما الأبطال فما لهم وللشهوات واللذات؟ يا داود، فلا تعلِّقن قلبَك منها بشيء، فأدنىٰ ما أعاقبك به أن أسلب حلاوة حبي من قلبك.

(فسلبُ المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجردُ الدعوىٰ والعُجب والركون إلىٰ ما ظهر من مبادئ اللطف) ولفظ

---

(١) السنن الكبرىٰ ٩/ ١٦٥.
(٢) مسند أبي يعلىٰ ٥/ ٣١٠، ٣٤٧.
(٣) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٠٤.
(٤) الأحاديث المختارة ٧/ ٥٠ - ٥٣.
(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٤٦.
(٦) الدعاء ص ١٦١٢ - ١٦١٣.
(٧) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١/ ٩٤ عن سفيان الثوري قال: بلغني أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: إن أهون ما أصنع بالعالم إذا آثر الدنيا أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلبه.
(٨) شعب الإيمان ٢/ ٣٣.

القوت: وقد يكون عند الدعوىٰ للمحبة ووصفِ النفس بحقيقتها، وإنما معه علمها دون الوجد بها، فينقصون معهم ولا يفطنون لذلك (**وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر علىٰ الاحتراز منه إلا ذوو الإقدام الراسخة. ثم**) أشد منه (**خوف فوت ما لا يُدرَك بعد فوته**) ولفظ القوت: ثم خوف الفوت الذي لا درك له (**سمع إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالىٰ وهو أحد المحبين (**قائلاً يقول وهو في سياحته، وكان علىٰ جبل:**

كل شيء منك مغفور سوىٰ الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات بقي ما فات منا

فاضطرب) جسمه (**وغشي عليه، فلم يفقْ يومًا وليلة، وطرأت عليه أحوال**) في قصة طويلة كانت له بعد مقامات أقيمَ فيها (**ثم**) نُقِل عنها إلىٰ هذا [المكان] حتىٰ (**قال**) في آخر ذلك: (**سمعت النداء من الجبل: يا إبراهيم، كنْ عبدًا، فكنت عبدًا واسترحت**) نقله صاحب القوت وقال: معناه: لا يملكك إلا واحد تكون عبدًا له، حرًّا ممَّا سواه، ولا تملك شيئًا، فإن الأشياء في خزانة مليكها، فلا تتملَّكها فتحجبك عن مالكك وتأسرك بمقدار ما ملكتَها. وقد ضرب الله مثلاً بينه وبين خلقه أن رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون متشاحُّون عليه من أهل ومال وشهوات، كل واحد يجذبه إليه، ويريد نصيبه منه، ويشغله به، ويحب فراغه له، وآخر سالمًا من الشركاء، خالصًا من الشرك، متوحِّدًا لواحد، أنهما لا يستويان، في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ علىٰ إتقان صنعِه وتحسين خلقه ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾ [الزمر: ٢٩] أي الأكثر ليسوا علماء كهذا الواحد [للواحد] فتنافسوا في واحده، وسلكوا شاكلة توحيده (**ثم**) أشد منه (**خوف السلوِّ عنه**) وهذا أخوف ما يخافون (**فإن المحب يلازمه الشوقُ والطلب الحثيث، فلا يفتر عن طلب المزيد، ولا يتسلَّىٰ إلا بلطف جديد، فإن تسلَّىٰ عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته**) لأن حب المحبين له كان به لا بهم، ومنه لا منهم، وهو نعمة عظيمة لا يعرف قدرها

فكيف يشكره عليها ولا يقوم لها شيء، وكذلك سُلوُّهم عنه يكون به كما كان حبُّهم له به (**والسُّلوُّ يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر**) فيجد السلوَّ به كما كان يجد الحب له، فتكون قد سلوتَ عنه وأنت لا تدري كيف سلوتَ؛ لأنه يدرِّجك بما يخدعك به من الاستبدال عنه بما تدري (**فإنَّ هذه التقلُّبات لها أسباب خفيَّة سماوية ليس في قوة البشر الاطِّلاع عليها**) فأنت لا تفطن لذلك (**وإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفَىٰ عنه ما ورد عليه من السلوِّ، فيقف مع الرجاء، أو يغترُّ بحُسن الظن**) الذي كان يعهده منه (**أو تغلبه الغفلة أو الهوىٰ**) أو الشهوة (**أو النسيان، فكل ذلك من جنود الشيطان**) في الأرض (**التي تغلب**) أضدادَها من (**جنود الملائكة**) في السماء (**من العلم والعقل والذِّكر والبيان**) قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الآية ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يوصَل إليه إلا به ﴿حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾ [البقرة: ٢٠٩] حكم عليكم بالزلل عنه، إلا أنه يدرِّج في ذلك استدراجًا بلطائف الحكمة علىٰ معهود الأسباب ومألوف المعتاد (**وكما أنَّ من أوصاف الله تعالىٰ ما يظهر فيقتضي هيجانَ الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة**) فأجبتَه وأنت لا تدري كيف أجبتَه لأنه أشهدك وصفه به باطِّلاع القدرة عن جنان الرحمة واللطف، فاقتضاك الحبَّ له فوجدتَ نفسك محبًّا له (**فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلوَّ كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء**) فترجع المحبة كما جاءت تحجبك عنه عن فعلٍ مكروهٍ يبدو لك منه ظهر عن وصف الكبر والجبرية، فتجد قلبك ساليًا عنه بلا حول ولا قوة منك ولا اجتلاب ولا حيلة، وهذا لا يصفه إلا عارف بدقيق بلائه، ولا يحذره إلا خائف من خفيِّ مكره وابتلائه، فإذا سلوتَ به عنه كان ذلك دليلاً منه علىٰ أنه قد رفضك واطَّرحك، كما أنك إذا كنت تحبه إنما أحببتَه به (**وذلك من مقدمات المكر**) الذي يحيق بالممكور (و) هو دركُ (**الشقاء والحرمان**) الذي أدرك المغرورَ (**ثم**) أشد من هذا كله (**خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلىٰ حب غيره**) وإنما كان أشد لأنه لا ثنويَّة فيه (**وذلك هو المقت**) وهذا هو حقيقة الاستدراج، يقع عن نهاية المقت من المحبوب

وغاية البغض منه والبعد (**والسلوُّ عنه مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب مقدمة السلو**) أي بداية ذلك كلِّه (**وضيق الصدر بالبِر وانقباضه عن دوام الذِّكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها**) المبعِدة، والمدارج المدرَّجة إذا قويتْ وتزايدت أخرجت إلىٰ هذا كله، وإذا تناقضت وبُدِّل بها الصالحات والحسنات أدخلت في مقام المحبة والقربات، كما جاء به الخبر: «التائب حبيب الله». كذلك في تدبُّر الخطاب أن العاكف علىٰ هواه مقيتُ الله (**وظهور هذه الأسباب**) فيك ووجدُ هذه الأوصاف منك (**دليل علىٰ**) ما غاب عنك من الاستبدال بك والإسقاط الذي هو (**النقل عن مقام الحب إلىٰ مقام المقت، نعوذ بالله منه، وملازمة الخوف**) من هذه المعاني (**لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل علىٰ صِدق الحب**) وعلامة المعرفة بأخلاقه المكوِّنة المقلِّبة (**فإنَّ مَن أحب شيئًا خاف لا محالة فقده، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب ممَّا يمكن فواتُه، وقد قال بعض العارفين: مَن عبد اللهَ تعالىٰ بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومَن عبدَه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومَن عبدَه من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالىٰ فقرَّبه ومكَّنه وعلَّمه**) نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: مَن عرف اللهَ، بدل: مَن عبد، في المواضع الثلاثة، ثم قال: وليس العجب من خوف [الخائفين؛ إذ لا يعرفون إلا الصفات المخوفات والأفعال القاصمات، وإنما العجب من خوف] المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه وشهدوا من تعطُّفه وألطافه ما لم يعرف الخائفون، ثم هم مع حبِّهم يهابونه، وعلىٰ أنسهم به يجلُّونه، وفي فزعهم منه يشتاقون إليه، وفي بسطه لهم ينقبضون بين يديه، وفي إعزازه لهم يذلُّون له؛ لأن مَن قُبِض فانقبض فليس بعجب، ولكن مَن بُسِط فانقبض فهو العجب، ومَن امتُهِنَ فذلَّ فلا عجب، ولكن مَن أُعِزَّ وأُكرِم فتواضع وذلَّ فهو العجب. فللمحبين الانقباض في البسط، وللخائفين الانقباض في القبض. وللمحبين الذل مع العز

والكرامة، وللخائفين الذلة مع الهيبة والمهنة. فهذا يدل علىٰ أن معرفة المحبين به أعظم المعارف؛ إذ كانت أوائل أحوالهم المخاوفُ (**فالمحب لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو عن محبة، ولكن الذي غلبت عليه المحبةُ حتىٰ اتَّسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسيرٌ يقال: هو في مقام المحبة، ويُعَدُّ من المحبين**) فكل محبٍّ لله خائفٌ منه، وليس كل خائف بمحب، يعني محبة المقرَّبين؛ لأنه لم يذُق طعم الحب؛ لأن محبة المسلمين المعترضة لا يقع بها اعتبارٌ في مقامات الخصوص؛ لأنها لا توجد عنها مواجيد الأحوال، ولا يُعلَىٰ بها في مشاهدات الانتقال؛ لأنها قوت الإيمان، منوطة بصحته، وموجودة بوجوده، فأشبهت محبتُهم معرفتَهم بالله تعالىٰ التي عنها توحيدهم، فإنهم عرفوه بوصف الأزل والقِدَم والسرمدية والأبدية، وهذا مندرج في اسمين من أسمائه: أول وآخر. والعارفون عرفوه بصفات الجبر والقهر والقدرة والمكر، وهذا قد أحكمَه في اسمين: ظاهر وباطن. وليس هذا من معارف المحبين في شيء، والمحبون عرفوه بصفات التجلِّي ومعاني المعاني ونعوت الأخلاق، وفي هذا سرائر الغيوب ومشاهدات المحبوب (**وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكْر الحب، فلو غلب الحبُّ واستولت المعرفة لم تثبُت لذلك طاقةُ البشر، فإنما الخوف يعدله ويخفِّف وَقْعه علىٰ القلب**) قال صاحب القوت: والمحبة لا ترفع الهيبةَ، فلذلك كان كل محب خائفًا؛ لأن المحبوب مهيب، والخوف قد يقبض عن المحبة لشغلِ الخائف بوصله السالف، وهذا كشفُ الأبرار، وهو حجاب المقرَّبين، إلا أن المحبين لهم من الخوف قوتٌ، ومن المحبة اتساعٌ، والخائفين لهم من الخوف اتساعٌ، ومن المحبة قوتٌ. وهذا كما نقول في الرجاء والخوف؛ لأنهما وصفا الإيمان، إلا أن الخائف يندرج الرجاء في حاله، والراجي ينطوي الخوفُ في رجائه. كذلك المحب يصير الخوف في عقده، ويظهر الحب في وجده، والخائف يغيب الحبُّ في عقده، ويظهر الخوف في وجده ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] هذا لظهور الطرقات ومباني الدرجات؛ إذ

كان لا بد من مجموعهما في قلب؛ لأنهما من شرط الإيمان وحقيقته، فتلطَّف سبحانه لحكمته بقدرته. وفي سبقِ ترتيب المقامات من الله تعالىٰ حكمٌ غريب وحكمة لطيفة لا يعرفها إلا مَن أُعطيَ يقين شهادتها، إن سبق إلىٰ العبد بمقام [الخوف كان محبًّا حب المقرَّبين العارفين، وإن سبق إليه بمقام] المحبة كان محبًّا محبة أصحاب اليمين، ولم يكن له مقامات المحبين المستأنسين ولا المشتاقين في مقامات المقرَّبين، وكل هؤلاء موقنون صالحون، وإن سبق إلىٰ العبد بمقام الخوف كان محبًّا حب المقرَّبين العارفين ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣] وربما كانت المحبة ثوابًا للخوف ومزيدًا له، وهذا في مقام العاملين [وربما كان الخوف مزيد المحبة وثوابها، وهذا في مقام العالِمين] فمَن كانت المحبة مزيده بعد الخوف كان من المقرَّبين المحبوبين، ومَن كان الخوف مزيد محبته فهذا من الأبرار المحبين وهم أصحاب اليمين (فقد) نُقِل من وصف مَن أذيقَ منه ولم يفصح بذكر وصفه أنه **(رُوي في بعض الأخبار أن بعض الصدِّيقين سأله بعض الأبدال أن يسأل اللهَ تعالىٰ أن يرزقه ذرَّة من معرفته، ففعل ذلك، فهام في الجبال)** وفي بعض النسخ: في الحال. وهو لفظ القوت **(وحارَ عقلُه، وولهَ قلبُه، وبقي شاخصًا)** ببصره إلىٰ السماء **(سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصدِّيق ربَّه تعالىٰ فقال: يا رب، انقصه من الذرَّة بعضَها. فأوحىٰ الله إليه: إنما أعطيناه جزءًا من مائة ألف جزء من ذرَّة من المعرفة، وذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئًا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخَّرتُ إجابتَهم إلىٰ أن شفعت أنت لهذا، فلمَّا أجبتُك فيما سألتَ أعطيتُهم كما أعطيتُه، فقسمتُ ذرَّة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك. فقال: سبحانك يا أحكم الحاكمين! أنقِصْه ممَّا أعطيتَه. فأذهب اللهُ عنه جملة)** ذلك **(الجزء، وبقي معه عُشر مِعشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرَّة، فاعتدل خوفه وحبُّه)** وعلمُه **(ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين)** فهذا النوع من شأن المعرفة وتجلِّي الوصف بمعنىٰ المحبة يليق به، لا يسع الخلقَ، ولا يصلُح لهم، ولا

يستقيمون عليه، فلذلك كان طيُّه أحسن من نشره؛ لأن العقول تنكره، والقلوب تمجُّه، والهِمَم لا تُسَرُّ به، والقلب لا يجد به، ولا يحببه الله تعالىٰ من العموم.

(**وقد قيل في وصف حال العارف**) المحبوب، من بحر المتقارب:

(**قريب الوجد ذو مرمَىٰ بعيد … عن الأحرار منهم والعبيد**
غريب الوصف ذو علم غريب … كأنَّ فؤاده زُبَر الحديد
لقد عزَّت معانيه فغابت … عن الأبصار إلا للشهيد
يرىٰ الأعياد في الأوقات تجري … له في كل يوم ألف عيد
وللأحباب أفراح بعيد … ولا يجد السرور له بعيد)[١]

هكذا أنشد هذه الأبيات صاحبُ القوت، إلا أنه بتقديم البيت الأخير علىٰ الذي قبله.

وأنشد أيضًا في هذا المقام لبعضهم:

ظهرتَ لمَن أفنيتَ بعد فنائه … فكان بلا كونٍ لأنك كُنْتَه
فمنك بدا عزٌّ بحب تَمازجا … بماءِ وصالٍ كنت أنت وصلتَه
وأبدأتَ وصفًا بالعلوم مخبِّرًا … فشتَّت قلبًا بالعلوم جمعتَه
وأفردتَ حبًّا فيك منك بمشهد … بلا علم في العقل حين بسطتَه
تعزَّزتَ بالعز المنيع وكل مَن … أشاد إلىٰ عزٍّ فأنت خدعته[٢]

قال: وذُكرت هذه الأبيات لأبي القاسم الجنيد رحمه الله تعالىٰ (قال) صاحب القوت: (**وقد كان الجنيد رحمه الله تعالىٰ ينشد أبياتًا يشير بها إلىٰ أسرار**

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

أحوال العارفين) وأوصاف المقرَّبين المحبوبين **(وأن ذلك لا يجوز إظهارُه، وهي هذه الأبيات)** من بحر الطويل:

(سرتْ بأُناس في الغيوب قلوبُهم ... فحلُّوا بقرب الماجد المتفضِّل

عراصًا بقرب الله في ظلِّ قُدسه ... تجول بها أرواحُهم وتنقل

مواردهم فيها على العز والنُّهَىٰ ... ومصدرهم عنها لِما هو أكمل

تروح بعزٍّ مفرد من صفاته ... وفي حُلَل التوحيد تمشي وترفُل

ومن بعد هذا ما تدقُّ صفاتُه ... وما كتمَه أَولىٰ لديه وأعدل

سأكتم من علمي به ما يصونه ... وأبذل منه ما أرىٰ الحق يبذل

وأُعطي عباد الله منه حقوقَهم ... وأمنع منه ما أرىٰ المنع أفضل

علىٰ أن للرحمن سرًّا يصونه ... إلىٰ أهله في السر والصون أجمل)

هكذا أنشد هذه الأبيات للجنيد صاحبُ القوت.

(وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يُظهِرها مَن انكشف له شيء منها لمَن لم ينكشف له) شيء منها **(بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا)** واختلَّ نظامها **(فالحكمة تقتضي شمولَ الغفلة لعمارة الدنيا، بل لو أكل الناس كلُّهم الحلال أربعين يومًا لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعايش)** ولفظ القوت: ومثل هذا المقام في الأحوال مثل أكل الحلال في المأكول، لا يريد الله تعالىٰ أن يطعمه الكلَّ لعمارة الدار؛ لأن الأمَّة كلها لو أكلوا حلالاً أربعين يومًا خربت الأسواق لزهدهم [في الدنيا] فليس ذلك من الحكمة **(بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم، ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير ممَّا انتشر من العلوم)** ولفظ القوت: ولو أن العلماء كلهم أكلوا حلالاً لم نسمع من هذه العلوم التي نسمعها شيئًا؛ لشغلهم بنفوسهم وإعراضهم

عن أصحابهم، ففي ترك ذلك حكمةٌ حسنة ورحمة واسعة (**ولكن لله تعالىٰ فيما هو شر في الظاهر**) حسبما يبدو لنا (**أسرار وحِكَمٌ، كما أنَّ له في الخير أسرارًا وحِكَمًا، ولا منتهَىٰ لحكمته، كما لا نهاية لقدرته**) وذكر صاحب القوت بعد أن أورد المقامات السبعة للمحبين في الخوف ما نصه: فالخوف من هذه المعاني علامة المعرفة بأخلاقه المكوِّنة المقلِّبة، ولا يصلُح شرحُ هذه المقامات في كتاب، ولا تفصيلها برسمِ خطابٍ، إنما تُشرَح في قلب بيقينه قد شُرِح، وتفصَّل لعبد من نفسه قد فُصل، فأما قلب مشترَك وعبدٌ في هواه مرتبك فليس لذلك أهلاً. والله المستعان.

قال: وثَم خوفٌ ثامن عن شهادة حبٍّ عالٍ يغرب اسمُه ويلتبس ويخفَىٰ وصفُه لقلة اشتهاره في الأسماع فيُجهَل لم نسمِّه؛ لأنه خوف عن مقام له اسم من المحبة يتشنَّع علىٰ كثير من سامعيه فينكرونه، ويتشبَّح في أوهام غير مشاهديه فيمثِّلوه بالخلق، فإن ذكرنا خوفه نمَّ علىٰ ذِكر مقامه فظهر بإظهاره، فكان طيُّه أفضل من نشره إلىٰ أن يُسئل عنه مَن ابتُلي به ثم صدر عنه بعد أن شرب منه؛ لأن مقامات المحبة كلها إلىٰ جنب مقامه كنهر أضيفَ إلىٰ بحر مثله، كمثل مشاهدات اليقين كلها إلىٰ جنب شهادة التوحيد بالتوحيد، وهو وصفٌ من المحبة بقرب [القرب] لأنه من شوق الحبيب إلىٰ المحب، وهو من معنىٰ قول رابعة رحمها الله تعالىٰ: حب الهوىٰ. ومن معنىٰ قول عائشة ﵂ للنبي ﷺ: أرىٰ ربَّك يسارع إلىٰ هواك.

(**ومنها**) أي ومن علامات المحبة: (**كتمان الحب**) للغيرة والستر لنفيس الذخيرة (**واجتناب الدعوىٰ**) فإنها كما قالوا: فضيحة ولو كانت نصيحة (**والتوقِّي عن إظهار الوجد والمحبة تعظيمًا للمحبوب وإجلالاً له وهيبةً منه وغيرةً علىٰ سرِّه، فإن الحب سر من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوىٰ ما يتجاوز حدَّ المعنىٰ ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، وتعظُم العقوبةُ عليه في العقبَىٰ، وتتعجَّل عليه البلوىٰ في الدنيا**) وقد قرن اللهُ الدعوىٰ بفِرية الكذب لأنها كذبُ القلب بمنزلة كذب اللسان في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ

شَىۡءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] ونهىٰ عنها كنهيه عن التولِّي عنه في قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١] **(نعم، قد يكون للمحب سكْرة في حبِّه حتىٰ يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبُّه، فإن وقع ذلك منه من غير تمحُّل)** أي تكلُّف **(أو اكتساب فإنه معذور؛ لأنه مقهور)** قال بعض المحبين: ورد عليَّ حالٌ من التعظيم أخرسني عن الكلام والتفهيم بما لا أطيقه صفةً من الإجلال والعظمة، فحكم عليَّ فلم أتحكَّم، وملَّكني فلم أتملَّك ولم أتكلم، فلو شيء من حق الله تعالىٰ كان إليَّ وقدرت عليه لم آذَن لأحد من أهل السموات والأرضين من ملَك مقرَّب ولا نبي مرسَل أن يقول: الله؛ إذ كل قائل فيما قُوِّلَ، وكل قريب من حيث قُرِّب، وكل عارف فيما عُرِّف، وكل الكل محجوب عن كُنْه القرب وعن حقيقة التوحيد ومن عظمة التعظيم، فلن يستطيع أحد أن يقول: الله، فمكثت سنةً لا أتكلم، وسمعت رَجَفان قلبي في صدري وزواله عن مستقرِّه إلىٰ نحري. ويحك! أما سمعتَه يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢] فهذا وجلُ القلوب من ذكر غافل سمعوه، فكيف بذكر ذاكر ذكروه، فما قال التوحيد إلا الواحد، وما قال «الله» إلا الله ... ثم ذكر الباقي. فهذا الذي ذكر حالٌ في مقام بعينه بمشاهدة عينٍ من عظمة منفردة لمتفرِّد، وقربٌ عن وصف قريب متَّحد لموحِّد، والتوحيد والتفريد وراء هذا، والإيحاد والأَحَدية والانفراد والوحدانية فوق ذلك، والآحاد والأفراد المفرِّدون بما أفردوا والموحِّدون بما وحَّدوا والذاكرون بذكره الذي به ذكروا والمسبِّحون بسبحاته التي بها سبَّحوا هم حُجَّاب هذا المقام وخُزَّان هذا المعنىٰ، كشفُهم لهذا السر هو منهم كفرٌ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١] فوقفوا مع الأمر لغلبة القهر، وسكنوا لأجل الحمد، فرسموا له الحدَّ. وإليه أشار المصنف بقوله: **(وربما تشتعل من الحب نيرانُه فلا يُطاق سلطانه، وقد يفيض القلبُ به فلا يندفع فيضانُه، فالقادر علىٰ الكتمان يقول:**

وقالوا قريب قلت ما أنا صانعٌ بقرب شعاع الشمس لو كان في حِجري
فما لي منه غير ذِكر بخاطر يهيج نارَ الحب والشوق في صدري[(١)]

والعاجز عنه يقول:

يخفي فيبدي الدمعُ أسرارَه ويظهر الوجد عليه النفسُ)[(٢)]

وذلك أن العبد إذا قهرته الأحوال وغلبت علىٰ قلبه وأحسَّ من نفسه العجزَ عن حملها تنفَّس إما صعدًا وإما تلفُّظًا بما هو فيه بكلام أو إشارة؛ لأنه ما دام حيًّا لا بد أن يتروَّح بدخول النفَس وخروجه، وناهيك بهذه الحالة فإنها حالة أهل الجنة؛ إذ جاء في الخبر: «إن الذكر يجري منهم مَجرىٰ النفَس» (ويقول أيضًا:

ومَن قلبُه مع غيره كيف حاله ومَن سرُّه في جفنه كيف يكتم[(٣)]

وقد قال بعض العارفين) من المحبين: (أكثر الناس من الله عَزَّوَجَلَّ بعدًا أكثرهم إشارة به[(٤)]. كأنَّه أراد) أن (مَن يُكثِر التعريضَ به في كل شيء ويُكثِر التصنُّع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عَزَّوَجَلَّ) لنقص مقامه في المحبة.

(ودخل ذو النون المصري) رحمه الله تعالىٰ (علىٰ بعض إخوانه ممَّن كان يذكر المحبة) ويشير إليها ويتعرَّض لها بالإشارة والعبارة (فرآه مبتلًىٰ ببلاء، فقال) ذو

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص ١١٣ من قصيدة يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الأصبع الكاتب.

(٤) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٧٣ عن أبي يزيد البسطامي بلفظ: «المعرفة في ذات الحق جهل، والعلم في حقيقة المعرفة حيرة، والإشارة من المشير شرك في العبارة، وأبعد الخلق من الله أكثرهم إشارة إليه». ورواه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٨ بلفظ: «أكثر الناس إشارة أبعدهم منه».

النون: (لا يحبه مَن وجد ألم ضرِّه[1]) كأنَّه رآه مضطربًا من ذلك البلاء (فقال الرجل: لكني أقول: لا يحبه مَن لم يتنعَّم بضرِّه[2]) كأنَّه أشار إلىٰ أنه غير مضطرب باطنًا (فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه مَن شهر نفسَه بحبه. فقال الرجل) لمَّا سمع ذلك منه: (أستغفر الله وأتوب إليه) فقد أرشده إلىٰ كتمان الحب وعدم إفشائه.

(فإن قلتَ: المحبة منتهَىٰ المقامات) وبها تكمُل المقاماتُ (وإظهارها إظهارٌ للخير، فلماذا يُستنكَر) ويؤمَر بالكتمان؟ (فاعلمْ أن المحبة محمودة، وظهورها محمود أيضًا، وإنما المذموم التظاهُر بها؛ لِما يدخل فيها من الدعوىٰ والاستكبار) علىٰ الإخوان (وحق المحب) الصادق (أن ينم علىٰ حبه الخفيِّ) في صدره (أفعاله وأحواله دون أقواله) بصريح العبارات والإشارات، فإنها لا تخلو من الدعاوىٰ (وأفعاله، وينبغي أن يظهر حبُّه من غير قصدٍ منه إلىٰ إظهار الحب) المكتوم (ولا إلىٰ إظهار الفعل الدالِّ علىٰ الحب، بل ينبغي أن يكون قصدُ المحب اطِّلاع الحبيب فقط، فأما إرادته اطِّلاع غيره فشركٌ في الحب وقادح فيه، كما ورد في الإنجيل: إذا تصدَّقت فتصدَّقْ بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك، فالذي يرىٰ الخفيَّات يجزيك به علانيةً، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلاً يعلم بذلك غير

---

(١) في أ: مرضه. وفي ب، وط المنهاج ٨/ ٥٠٤: ضربه.

(٢) في أ، ب، وط المنهاج: بضربه.

ربِّك)[١] روىٰ أحمد في الزهد[٢] عن هلال بن يساف قال: كان عيسىٰ عليه السلام يقول: إذا تصدَّق أحدكم بيمينه فليخفِها عن شماله، وإذا صلىٰ فليُدْنِ عليه ستر بابه، فإن الله يقسم الثناءَ كما يقسم الرزق.

وروىٰ عبد الله بن أحمد[٣] في زيادات الزهد من طريق مسروق عن ابن مسعود قال: إذا أصبح أحدكم صائمًا - أو قال: إذا كان أحدكم صائمًا - فليترجَّل، وإذا تصدَّق بصدقة بيمينه فليخفِها عن شماله، وإذا صلىٰ صلاة أو صلىٰ تطوُّعًا فليصلِّها في داخله. وقد تقدم.

(فإظهار الفعل والقول كله مذموم، إلا إذا غلب عليه سكْرُ الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يُلام فيه صاحبه) فإنه مقهور عليه **(حُكي أن رجلاً رأىٰ من بعض المجانين ما استجهله فيه)** أي عدَّه جهلاً وجنونًا **(فأخبر بذلك معروفًا الكرخي رحمه الله تعالىٰ، فتبسَّم)** معروف **(ثم قال: يا أخي، له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين، فهذا الذي رأيتَه من مجانينهم)** فلم يخرجه من حدِّ

---

(١) جاء في الإصحاح السادس من إنجيل متىٰ: [احترز من أن تصنع صدقتك قدام الناس لكي ينظروك، وإلا فليس لك أجر عند الله الذي في السموات، فمتىٰ صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة لكي يمجدوا من الناس، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتىٰ صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك، لكي تكون صدقتك في الخفاء، فربك الذي يرىٰ في الخفاء هو يجازيك علانية]. وفيه أيضا: [متىٰ صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتىٰ صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائما بل لربك الذي في الخفاء، فربك الذي يرىٰ في الخفاء يجازيك علانية]. الكنز الجليل في تفسير الإنجيل للدكتور وليم إدي - الجزء الأول شرح بشارة متىٰ ص ٨٠ - ٨٢، ٩٠ - ٩١ (ط - مجمع الكنائس في الشرق الأدنىٰ ببيروت).

(٢) الزهد ص ٤٩.

(٣) ومن طريقه رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٣٦.

المحبة إذ طاش عقلُه من سكْره وتكلم بما يعيب عليه سامعُه، فالأَولىٰ الأدب معهم، ولا يقيس حالَهم بسواهم، كما أرشد إليه معروف رحمه الله تعالىٰ.

(وممَّا يُكرَه التظاهر بالحب بسببه أن المحب إن كان عارفًا) بالله تعالىٰ، ولا بد أن يكون كذلك، فإن المحبة ثمرة المعرفة (وعرف أحوال الملائكة) عليهم السلام (في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه، وعلم قطعًا أنه من أخسِّ المحبين في مملكته) وأقلِّهم (وأن حبه أنقص من حب كل محب لله تعالىٰ) ومن ذلك (قال بعض المكاشفين من المحبين: عبدتُ الله ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح) أي من الذِّكر والمراقبة والأعمال الظاهرة (علىٰ بذل المجهود واستفراغ الطاقة، حتىٰ ظننت أنَّ لي عند الله شيئًا) أي مقامًا مقرَّبًا بسبب تلك الطاعات (فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات) أي آيات ملكوتها (في قصة طويلة قال في آخرها: فبلغت صفًّا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن المحبُّون لله عَزَّوَجَلَّ، نعبده ههنا منذ ثلاثمائة ألف سنة، ما خطر علىٰ قلوبنا قط سواه، ولا ذكرنا غيرَه. قال: فاستحييت من أعمالي) واستحقرتها بجنب أعمالهم (فوهبتها لمَن حقَّ عليه الوعيد) أي كلمة العذاب (تخفيفًا عنهم في جهنم.

فإذًا مَن عرف نفسه وعرف ربَّه واستحيا منه حق الحياء خرسَ لسانُه عن التظاهُر بالدعوىٰ) فلا يدَّعي لنفسه مقامًا ولا حالاً (نعم، يشهد علىٰ حبِّه حركاتُه وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردُّداته، كما حُكي عن الجنيد) قُدِّس سره (أنه قال: مرضَ أستاذُنا السري) السقطي (رحمه الله تعالىٰ، فلم نجد لعلَّته دواءً، ولا عرفنا لها سببًا) حتىٰ نهتدي به إلىٰ الدواء (فوُصِف لنا طبيب حاذق) أي ماهر في صنعته (فأخذنا) إليه (قارورة مائه، فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليها مليًّا، ثم قال لي: أراه بول عاشق) قد فُتِّت كبده (قال الجنيد: فصُعِقت وغشي عليَّ) من سماع ذلك

القول (**ووقعت القارورة من يدي، ثم رجعت إلىٰ السري، فأخبرته، فتبسَّم، ثم قال: قاتله اللهُ، ما أبصره! قلت: يا أستاذ، وتتبيَّن المحبةُ في البول؟ قال: نعم**) لأن الشوق والعشق يؤثِّران في الكبد فيفتِّتانه فينزل الماء أبيض صافيًا برَّاقًا، ومن هنا قال الجنيد: قال رجل للسري: كيف أنت؟ فأنشأ يقول:

مَن لم يبِتْ والحبُّ حشو فؤاده ... لم يدرِ كيف تفتَّت الأكبادُ[1]

قال: ودفع إليَّ السريُّ رقعة مرة وقال: احفظ هذه الرقعة. فإذا فيها:

ولمَّا شكوتُ الحب قالت كذبتني ... فما لي أرىٰ الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتىٰ يلصق الجلد بالحشا ... وتذبل حتىٰ لا تجيب المناديا

وتنحل حتىٰ لا يبقىٰ لك في الهوىٰ ... سوىٰ مُقلة تبكي بها وتناجيا[2]

(**وقد قال السري مرةً: لو شئتُ أقول: ما أيبس جلدي علىٰ عظمي ولا سلَّ جسمي إلا حبه. ثم غشي عليه**) ولفظ البيهقي في الشعب[3] عن الجنيد قال: سمعت السري يقول وقد كلَّمتُه يومًا في شيء من المحبة، فضرب بيده إلىٰ جلدة ذراعه فمدَّها، ثم قال: واللهِ، إن قلتُ إنَّ هذا جفَّ علىٰ هذا من محبة الله لصدقتُ. ثم أغمي عليه، ثم تورَّدَ وجهُه حتىٰ صار مثل القمر.

(**وتدل الغشية علىٰ أنه أفصحَ في غلبة الوجد ومقدمات الغشية**) وإن كان مقهورًا.

(**فهذه**) أربع (**مجامع علامات الحب وثمراته، ومنها الأنس والرضا، كما سيأتي**) قريبًا. وحاصله أن يكون المحب مستأنسًا راضيًا بقضاء الله، وكلَّما كان أحب كان أرضىٰ، فأول درجات الرضا الداخلة تحت التكليف أن يكره المصيبة

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١١٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٤٤.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٠/ ٤٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٣) شعب الإيمان ٢/ ٤٣.

بطبعه ويرضىٰ بفعله، والثانية: أن يرضىٰ بطبعه وعقله من غير سرور، والثالثة: سروره بما يجري موافقةً لمحبة الله فيما أبدع وحكم، والرابعة: أن لا يحسَّ بما يجري عليه؛ لفناء صفاته في صفات محبوبه، وهذه أشرفها وأعزُّها وقوعًا. فهذه عشر علامات أوردها المصنف، وهي علىٰ عدد معاني المحبة العشرة التي ذكرها الحليمي في شعب الإيمان[١]، حيث قال: محبة الله تبارك وتعالىٰ اسم لمعانٍ كثيرة،

أحدها: اعتقاد أنه تعالىٰ محمود من كل وجه، لا شيء من صفاته إلا وهو مدحة له.

والثاني: اعتقاد أنه محسن لعباده، منعم، متفضِّل عليهم.

والثالث: اعتقاد أن الإحسان الواقع منه أجلُّ وأكثر من أن يحصيه قول العبد وعمله وإن كثُر شكرُه.

والرابع: أن لا يستقلَّ العبد قضاياه، ولا يستكثر تكاليفه.

والخامس: أن يكون في عامة الأوقات مشفقًا وجِلاً من إعراضه عنه وسلبه معرفته التي أكرمه بها وتوحيده الذي حلاَّه وزيَّنه به.

والسادس: أن تكون آماله معقودة به، لا يراه في حال من الأحوال أنه غنيٌّ عنه.

والسابع: أن يحمله تمكُّنُ هذه المعاني في قلبه علىٰ أن يديم ذِكرَه بأحسن ما يقدر عليه.

والثامن: أن يحرص علىٰ أداء فرائضه والتقرُّب إليه في نوافل الخير بما يطيقه.

والتاسع: أنه إن سمع من أحد ثناء عليه وعرف منه تقرُّبًا إليه وجهادًا في سبيله سرًّا وعلانية مالاه ووالاه.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٩٦ - ٤٩٧.

والعاشر: أنه إن سمع من أحد ذكرًا له [أعانه] بما يجلُّ عنه، أو عرف منه غيًّا عن سبيله سرًّا وعلانية ناوأه.

فإذا اجتمعت هذه المعاني في قلب أحد فاجتماعها هو المشار إليه باسم: محبة الله تعالىٰ، وهي وإن لم تُذكَر مجتمعة في موضع فقد جاءت متفرقة عن النبي ﷺ فمَن دونه. انتهىٰ.

وقد بقيت للمحبة دلائل وعلامات لم يذكرها المصنف صراحةً، وإن كان بعض منها مذكورًا ضمنًا، فمن ذلك: تقديم أمور الآخرة في كل ما يقرِّب من الحبيب علىٰ أمور الدنيا من كل ما تهوَىٰ النفسُ. ومنها: المبادرة بأوامر المحبوب ونوادبه قبل عاجل حظوظ النفس. ومنها: التعزُّز علىٰ أبناء الدنيا المؤثِرين لها، كما قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ قال: التكبُّر علىٰ المتكبِّرين. وقال عليٌّ رضي الله عنه لفتح الموصلي في منام رآه: ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء رجاءَ ثواب الله، وأحسن من ذلك تيهُ الفقراء علىٰ الأغنياء ثقةً بالله[1]. ومنها: المجاهدة في طريق المحبوب بالمال والنفس ليقرُب منه ويبلغ مرضاته ويقطع كلَّ قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلىٰ قربه، كما قال تعالىٰ مخبراً عن مُحِبِّه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: ٨٤] وكما أمر حبيبَه ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل: ٨] أي انقطِعْ إليه انقطاعًا عمَّا سواه بالإخلاص له، أو اقطعْ كلَّ قاطع حتىٰ تصل إليه. فهذان من أدلِّ الدليل علىٰ المحبة. ومنها: أن لا يخاف في حبِّه لومةَ لائم من الخلق لامَه علىٰ محبته أو علىٰ السلوك إليه بشق النفس وهجر الدار ورفضِ المال، ولا يرجو في محبته مدح مادح، ولا يرغب في ثناء العباد بإيثاره له علىٰ الأهل والمال والدار. ومنها: رؤية البلاء منه نعمةً، كما قال قائلهم[2]:

---

(١) تقدم بتمامه في كتاب ذم الكبر والعجب.

(٢) هو إبراهيم بن أدهم، الزاهد المشهور. تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/ ٣٠٦. مرآة الجنان لليافعي ١/ ٢٧١. مثير العزم الساكن لابن الجوزي ٢/ ٢٧.

فلـو قطَّعتنـي في الحـب إربًـا لَمـا حـنَّ الفـؤادُ إلـىٰ سـواكا

ومنها: موافقة الحبيب فيما أحب حبًّا له، كما قال عمر لصهيب: رحم الله صهيبًا، لو لم يخَف اللهَ لم يعصِه. أي إن محبته له تمنعه من مخالفته من غير خيفة، فهو يطيعه حبًّا له، وكان صهيب يقول: إنه [يستخرج مني حبي لربِّي شيئًا] لا يستخرجه غيره(١). يعني من معاني الصفات المخوفة والأفعال المرجوَّة. ومنها: وجود الرَّوح بالشكوىٰ إليه، والاستراحة إلىٰ علمه به وحده، وإخلاص المعاملة لوجهه، وحسن الأدب فيها وهو الإخفاء لها، وكتمُ ما يحكم به من الضِّيق والشدائد، وإظهار ما ينعم به من الألطاف والفوائد، وكثرة التفكُّر في نعمائه وخفيِّ ألطافه وغرائب صنعته وعجائب قدرته، وحُسن الثناء عليه في كل حال، ونشر الآلاء منه والأفضال، والصبر علىٰ بلائه؛ لأنه قد صار من أهله وأوليائه، وقد يعسف بأوليائه ويعنُف بأحبَّائه؛ لتمكُّنه منهم، ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون به بدلاً، ولا يبغون عنه حِوَلاً؛ إذ ليست لهم [راحة لسواه، ولا] بُغية في سواه، ولا لهم همَّة إلا إياه. وقال بعضهم في هذا المقام:

يـا بلائـي ويـا بـلاء البـلاء أنـت دائـي فكيـف أكـره دائـي(٢)

وقال آخَر في معناه:

---

(١) لم أجد هذا القول عن صهيب، ولكن روىٰ ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٠٠ والختلي في المحبة لله ص ٥٤ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٥٣ - ٥٤ عن وهب بن منبه قال: قال حكيم من الحكماء: إني لأستحي من ربي عَزَّوَجَلَّ أن أعبده رجاء ثواب الجنة، فأكون كالأجير إن أعطي أجرا عمل، وإلا لم يعمل، وإني لأستحي من ربي عَزَّوَجَلَّ أن أعبده مخافة النار، فأكون كعبد السوء، إن رهب عمل، وإن لم يرهب لم يعمل، ولكني أعبده كما هو له أهل، وإنه يستخرج مني حب ربي عَزَّوَجَلَّ ما لم يستخرج مني غيره. وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٣ نحوه مختصرا عن الفضيل بن عياض عن بعض الحكماء.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

لا تطلبــنَّ شـفاءً عنـد غيرهــم فليـس يحييـك إلا مَـن توفَّـاكا[١]

وقال المحب في معناه:

إن شئتِ جودي وإمَّا شئتِ فامتنعي كِلاهما منكِ منسوبٌ إلىٰ الكرمِ

فأنت عندي وإن أورثتني سقمًا أحَبُّ من غيرك يشفي من السقمِ[٢]

ومنها: المسارعة إلىٰ ما نُدِب إليه من أنواع البِر بوجد الحلاوة، وشرح الصدر، ودوام التشكِّي والحنين إليه، وسبقُ النظر إلىٰ الخالق في كل شيء، وسرعة الرجوع إليه بكل شيء. ومنها: التناصُح بالحق والتَّواصي به، والصبر علىٰ ذلك. ومنها: أن لا يطلب بخدمته سواه، وأن يجتمع في محبته همُّه وهواه، فلا يهوَىٰ إلا ما فيه رضا المولىٰ، ولا يقضي عليه مولاه إلا بما يهوىٰ. قال بعضهم: إذا رأيتَه يوحشك من خلقه فاعلمْ أنه يريد أن يؤنسك به[٣]. وفي أخبار عيسىٰ عليه السلام: إذا رأيت التقيَّ مشغولاً في طلب الرب فقد ألهاه ذلك عمَّا سواه[٤]. وكان الجنيد رحمه الله

---

(١) هذا البيت نسبه ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ٧/ ٢٧٠ وابن الجوزي في المنتظم ١٣/ ٨٧ لابن المعتز، ولم أقف عليه في ديوانه.

وقبله:

إن الذيــن بخيــر كنــت تذكرهم قضــوا عليك وعنهــم كنت أنهاكا

وعندهما: حياة، بدل: شفاء.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

(٣) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٤٣، ٣٧٧ والبيهقي في الزهد الكبير ص ٧٨ أن ذا النون المصري سئل: ما علامة الأنس بالله؟ قال: إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه يوحشك من نفسه، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فإنه يؤنسك بنفسه.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٤٥ عن وهيب بن الورد قال: بلغني أن عيسىٰ عليه السلام قال: إذا أنت دخلت في الرهبة لله وروحانية الأبرار ومهيمنية الصديقين لم تكد تلقىٰ أحدا تأخذه عينك ولا تلحقه نفسك، وأنت ترىٰ التقي إن أنت رأيته واله القلب مشغولا في طلب مرضاة الرب، قد ألهاه ذلك عما سواه.

تعالىٰ يقول: من علامة المحب في المكاره والأسقام هيجان المحبة وذِكرُها عند نزول البلاء؛ إذ هو لطفٌ من مولاه، وفيه القربة إلىٰ محبوبه، وقلة التأذِّي بكل بلاء يصيبه لغلبة الحب علىٰ قلبه. وقد كان بعض المحبِّين يقول: أصفَىٰ ما أكون ذِكرًا إذا كنتُ محمومًا.

(**وبالجملة، جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب، وما لا يثمره الحب فهو اتِّباع للهوىٰ، وهو من رذائل الأخلاق. نعم، قد يحب اللهَ لإحسانه إليه، وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه، والمحبُّون لا يخرجون عن هذين القسمين**) والقسم الثاني أفضل وأعلىٰ؛ لتعلُّقها بالذات والصفات من كِلا طرفيها وهما السلب والإثبات، وما قبلهما وهو القسم الأول متعلقه بالله من حيث قدرته علىٰ الإنعام والإحسان، ففيها شغلٌ عن الله، والمحبة الناشئة عن الجمال والجلال من أشرف نعم الله علىٰ العباد؛ لأنها تعريف له بما هو به وتقريب منه، إلا أن المقصود يصير كامنًا تحت أشعة الأفضل إذا امتلأ القلب بالأفضل، ويكون الحكم والجزاء للغالب (**ولذلك قال الجنيد**) قُدِّس سره: (**الناس في محبة الله تعالىٰ عام وخاص، فالعوامُّ نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه، فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقلُّ محبتُهم وتكثُر علىٰ قدر النعم والإحسان**) لأن الإحسان يزيد وينقُص (**فأما الخاصة فنالوا المحبة بعِظَم القدْر والقدرة والعلم والحكمة والتفرُّد بالمُلك، فلمَّا عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنىٰ**) وتخلَّقوا بها قدْر طاقتهم (**لم يمتنعوا أن أحبوه؛ إذ استحقَّ عندهم المحبةَ بذلك؛ لأنه أهلٌ لها ولو أزال عنهم جميعَ النعم**) وإليه يشير قول رابعة رحمها الله تعالىٰ:

* وحـب لأنـك أهـل لذاكـا *

(**نعم، من الناس من يحب هواه وعدو الله إبليس، وهو مع ذلك يلبِّس علىٰ نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل، وهو الذي فُقِدت فيه هذه العلامات**) التي ذُكرت (**أو يلبِّس بها نفاقًا ورياء وسمعة، وغرضه عاجل حظ**

الدنيا، وهو يُظهِر من نفسه خلاف ذلك، كالعلماء السوء والقرَّاء السوء) الذين يأكلون الدنيا بالدين (أولئك بُغَضاء الله في أرضه) فهم عن محبة الله بمعزل (وكان سهل) التستري رحمه الله تعالىٰ (إذا تكلم مع إنسان قال: يا دُوسْت) بضم الدال المهملة وسكون الواو والسين المهملة والتاء، فارسية (أي: يا حبيب) من ذلك عوتِب مرةً في العلَّة التي كانت به، وكان يداوي الناس منها ولا يداوي نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: يا دوست، ضرب الحبيب لا يوجع. كما نقله صاحب القوت (فقيل له: قد لا يكون حبيبًا، فكيف تقول هذا)؟ أي كيف تقول لكلِّ مَن تخاطبه بهذا اللفظ وقد لا يكون بعضهم ممَّن يتَّصف بالمحبة؟ (فقال في أذن القائل سرًّا): هذا الذي أقول له «يا دوست» (لا يخلو إما أن يكون مؤمنًا أو منافقًا) يكتم إيمانه[١] (فإن كان مؤمنًا فهو حبيب الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان منافقًا فهو حبيب إبليس) فهو علىٰ كل حال يصح أن يطلَق عليه هذا اللفظ. وهذا نظير ما كان يقول لنا شيخنا المرحوم القطب السيد عبد الله بن إبراهيم الحسيني نزيل الطائف قُدِّس سره في معنىٰ قوله عَزَّوَجَلَّ: «أعددت لعبادي الصالحين» أي الثواب والعقاب؛ إذ كلٌّ منهما صالح إما للثواب فله منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وإما للعقاب فله منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

(وقال أبو تراب) عسكر بن حصين (النخشبي) رحمه الله تعالىٰ (في علامات المحبة) ودلائلها الخاصة (أبياتًا وهي هذه)، من مشطور الرَّجَز:

(لا تخدعنَّ فللحبيب[٢] دلائلُ ... ولديه من تُحَف الحبيب وسائل

منها تنعُّمه بمُرِّ بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعلُ

فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبِر عاجل

ومن الدلائل أن يُرَىٰ من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألحَّ العاذل

---

(١) كذا يقول الزبيدي رحمه الله، ولا معنىٰ لكلامه.

(٢) في أ، وب، وط المنهاج ٨/ ٥٠٨: فاللمحب.

ومـن الدلائـل أن يُـرَىٰ متبسِّـمًا ... والقلـب فيـه مـن الحبيـب بلابـل
ومـن الدلائـل أن يُـرَىٰ متفهِّمًـا ... لـكلام مَـن يحظـىٰ لديـه السـائلُ
ومـن الدلائـل أن يُـرَىٰ متقشِّـفًا ... متحفِّظًـا مـن كل مـا هـو قائـلُ

وقال يحيىٰ بن معاذ) الرازي رحمه الله تعالىٰ في هذا المعنىٰ، إلا أنه خفض القافيةَ:

(ومـن الدلائـل أن تـراه مشـمِّرًا ... في خرقتيـن علىٰ شطوط السـاحل
ومـن الدلائـل حزنُـه ونحيبـه ... جـوفَ الظـلام فمـا لـه مـن عـاذل
ومـن الدلائـل أن تـراه مسـافرًا ... نحـو الجهـاد وكل فعـلٍ فاضـل
ومـن الدلائـل زهـدُه فيمـا يـرىٰ ... مـن دار ذلٍّ والنعيـم الزائـل
ومـن الدلائـل أن تـراه باكيًـا ... أنْ قـد رآه علـىٰ قبيـحِ فعائـلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه مسـلِّمًا ... كلَّ الأمـور إلـىٰ المليـك العـادل
ومـن الدلائـل أن تـراه راضيًـا ... بمليكـه في كل حكـم نـازلِ
ومن الدلائـل ضحكُـه بين الـوَرَىٰ ... والقلـب محـزون كقلـب الشـاكل)

وقد ذيَّلتُ علىٰ هذه الأبيات عند تشطيري لها، زدت فيها ذِكر بعض العلامات التي أشرتُ إليها آنفًا فقلت:

ومـن الدلائـل خوفُـه مـن حَجْبـه ... وبِعـاده عـن السـلوِّ الحاصـلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه عابـدًا ... حبًّـا لـه مـن غيـر خـوفٍ حائـلِ
ومـن الدلائـل أن تـراه آنسًـا ... بوليِّـه المولـىٰ وليـس بغافـل
ومـن الدلائـل أن تـراه مبـادرًا ... لأوامـر المحبـوب قبـل العاجـل
ومـن الدلائـل أن تـراه جامعًـا ... كل الهمـوم لهـمٍّ يـوم آجـل

ومن الدلائل أن تراه موافقًا ... لمَحابِّ مولاه بغير تغافُلِ
ومن الدلائل ذلُّه بين الوَرَىٰ ... لذوي الوَلا والبغض للمتجاهل
ومن الدلائل أن تراه واثقًا ... في تيهه في الله فوق الجاهل
ومن الدلائل أن تراه مجاهدًا ... بالنفس والمال النفيس الحاصل
ومن الدلائل أنه في حبِّه ... لم يَخَفْ لومةَ لائم أو عاذلِ
ومن الدلائل أن تراه مسارعًا ... للحق ثم مجانبًا للباطل
ومن الدلائل أن تراه ناشرًا ... أفضال مولاه بحمدٍ واصلِ
ومن الدلائل أن تراه صابرًا ... لبلائه في كل أمر نازل
ومن الدلائل أن تراه ناصحًا ... متواصيًا بالحق غير مخاتِل
ومن الدلائل أن تراه هاجرًا ... مألوفه في حب مولًىٰ كاملِ
ومن الدلائل أن تراه خائفًا ... عن أعين في زيِّ عبدٍ خاملِ

بيان معنى الأنس بالله عَزَّوَجَلَّ

اعلمْ أنَّا (قد ذكرنا) فيما سبق (أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة) ومن ثمراتها (إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف علىٰ المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلُّعُ من وراء حُجُب الغيب إلىٰ منتهَىٰ الجمال واستشعر قصورَه عن الاطِّلاع علىٰ كُنْه الجلال) لصعوبته (انبعث القلب إلىٰ الطلب وانزعج له وهاج إليه، وتسمَّىٰ هذه الحالة في الانزعاج شوقًا، وهو بالإضافة

إلىٰ أمر غائب) نظره **(وإذا غلب عليه الفرحُ بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف)** والمعاينة **(وكان نظرُه مقصورًا علىٰ مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلىٰ ما لم يدركه بعدُ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمَّىٰ استبشاره أنسًا)** إلا أن الشوق أفضل من الأنس؛ لأن الآنِس قصر نظرَه علىٰ ما انكشف له من الجمال، ولم يمتدَّ نظرُه إلىٰ استكشاف ما غاب عنه، والمشتاق كالعطشان الذي لا ترويه البحار؛ لمعرفته بأن الذي انكشف له من الأمور الإلهية بالنسبة إلىٰ ما غاب عنه كالذرَّة بالنسبة إلىٰ سعة الوجود. وقد تقدَّم تحقيقه **(وإن كان نظرُه إلىٰ صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطرِ إمكان الزوال والبعد تألَّم القلب بهذا الاستبشار، فيسمَّىٰ تألُّمه خوفًا)** وقد تقدم تحقيقُه في كتاب الخوف **(وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرُها)** لكثرتها **(فالأنس معناه: استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال)** والكمال والقرب ممَّا انكشف له منها **(حتىٰ إنه إذا غلب وتجرَّد)** وقصر نظرَه **(عن ملاحظة ما غاب عنه)** من مزيد الألطاف **(وما يتطرَّق إليه من خطر الزوال عظُمَ نعيمُه و)** قويتْ **(لذَّته)** واستحقر في جنب لذَّته وتنعُّمه لقرب حبيبه جميعَ ما سواه، حتىٰ لو انفهقت له الجنان جميعُها لم تذهله ولم تشغله عن التذاذه بجمال محبوبه؛ لأنَّا إذا رأينا صفة جميلة محكمة أحببنا الصانعَ لذلك، فإن رأينا ما هو أجمل منه وأحسن وأشرف وأحكم ازددنا فيه حبًّا. هذا في دار الاختبار ومحل الاستدلال، فكيف بالعارفين في دار القرار ومحل الكشف والعيان، ويبطُل حكمُ الدليل والاستدلال، ويرجع الحق تعالىٰ مشهودًا للعباد، كما قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] فحينئذٍ لا تعلم نفسٌ ما أُخفيَ لهم من قرَّة أعيُن **(ومن هنا نظر بعضُهم)** وهو الأنطاكي، كما صرَّح به صاحب العوارف **(حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلىٰ غائب، فإذا كان**

الغائب حاضرًا فإلىٰ مَن يشتاق؟)[١] نقله القشيري في الرسالة، وقد تقدم، وحكاه صاحب العوارف[٢] فقال: وأنكر بعضُهم مقامَ الشوق وقال: إنما [يكون] الشوق إلىٰ الغائب، ومتىٰ يغيب الحبيب عن الحبيب حتىٰ يشتاق؟! ولهذا سُئل الأنطاكي عن الشوق فقال: إنما يُشتاق إلىٰ الغائب، وما غبتُ عنه منذ وجدته. قال: وإنكار الشوق مطلقًا لا أرىٰ له وجهًا؛ لأن رُتَب العطايا والمِنَح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف يُنكَر الشوق من المحب؟! فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلىٰ ما وجد، ولكن يكون مشتاقًا إلىٰ ما لم يجد من أنصبة القرب، وكيف يُمنَع حال الشوقِ والأمرُ هكذا؟! ووجه آخر: أن الإنسان لا بد له من أمور يردُّها بحكم الحال لموضع بشريَّته وطبيعته وعدم وقوفه علىٰ حدِّ العلم الذي يقتضيه حكمُ الحال، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق، ولا نعني بالشوق إلا مطالبة تنبعث من الباطن إلىٰ الأَولىٰ والأعلىٰ من أنصبة القرب، وهذه المطالبة كائنة في المحبِّين، فالشوق إذًا كائن، لا وجه لإنكاره، وقد قال قوم: شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة، فيكون في حال الغيبوبة مشتاقًا إلىٰ اللقاء، ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقًا إلىٰ زوائد ومبادٍ من الحبيب وأفضاله، وهذا هو الذي أراه وأختاره. انتهىٰ.

(وهذا كلام) غريب الحال **(مستغرق بالفرح بما ناله، غير ملتفت إلىٰ ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف، ومَن غلب عليه حالُ الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد)** عن الخلق **(والخلوة)** مع الله تعالىٰ **(كما حُكي أن إبراهيم بن أدهم)** رحمه الله تعالىٰ إذ **(نزل من الجبل)** وكان مختليًا به **(فقيل له: من أين أقبلتَ؟ فقال: من الأنس بالله)** يشير إلىٰ مقام الانفراد. رواه أبو نعيم في الحلية[٣] من طريق

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ٦٩.
(٢) عوارف المعارف ص ٣٥٥.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠.

عبد الصمد عن أبيه قال: رُؤي إبراهيم بن أدهم خارجًا من الجبل ... فذكره.

(وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحُّش من غير الله تعالىٰ، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء علىٰ القلب، كما رُوي) في بعض الأخبار (أن موسىٰ عليه السلام لمَّا كلَّمه ربُّه) عز وجل (مكث دهرًا) أي زمانًا طويلاً (لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغَثَيان) وهو تلاعُب النفْس من باطن، وهو من مبادئ القيء (لأن الحب يوجب عذوبةَ كلام المحبوب وعذوبة ذِكره، فتخرج من القلب عذوبةُ ما سواه، ولذلك قال[1] بعض الحكماء) من المحبِّين (في) جملة (دعائه: يا مَن آنسني بذكره وأوحشني من خلقه) وما أوحشَه من خلقه إلا وقد أراد منه أن يأنس به.

(و) في الأخبار (قال الله عز وجل لداود عليه السلام): يا داود (كنْ لي مشتاقًا، وبي مستأنسًا، ومن سواي مستوحشًا.

وقيل لرابعة) العدوية رحمها الله: (بِمَ نلتِ هذه المنزلة)؟ يعني في المحبة (قالت: بتركي ما لا يعنيني) أي لا يهمُّني (وأنسي بمَن لم يزل) جلَّ شأنه.

(وقال عبد الواحد بن زيد) البصري رحمه الله تعالىٰ: (مررت) في سياحتي (براهب، فقلت له: يا راهب، لقد أعجبتك الوحدةُ. فقال: يا هذا، لو ذقتَ حلاوةَ الوحدة لاستوحشتَ إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة[2]. قلت: يا راهب، ما أقل ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس، والسلامة من شرِّهم. قلت:

---

(١) من هنا إلىٰ قول بعض الحكماء (كيف استأنست بسواك عنك) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/١٠٧ - ١٠٨ بسياق واحد عن الجنيد بن محمد قال: سئل الحارث بن أسد وقيل له: ما علامة الأنس بالله؟ قال: التوحش من الخلق. قيل له: فما علامة التوحش من الخلق؟ قال: الفرار إلىٰ مواطن الخلوات والتفرد بعذوبة الذكر، فعلىٰ قدر ما يدخل القلب من الأنس بذكر الله يخرج التوحش، كما قال بعض الحكماء في مناجاته: يا من آنسني بذكره ... الخ.

(٢) بعده في الحلية: ما أنستها الفكرة.

يا راهب، متىٰ يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالىٰ؟ قال: إذا صفا الودُّ وخلصت المعاملةُ) أي عن شوب المشاركة **(قلت: ومتىٰ يصفو الودُّ؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار همًّا واحدًا في الطاعة)** قال الخطابي في كتاب العزلة[1]: ولو لم يكن في العزلة إلا السلامة من آفة الرياء والتصنُّع للناس وما يُدفَع إليه الإنسان إذا كان فيهم من استعمال المداهنة معهم وخداع المواربة في رضاهم لكان في ذلك ما يرغِّب في العزلة ويحرِّك إليها. انتهىٰ.

وقد تقدم شيء من هذا في كتاب العزلة.

(وقال بعض الحكماء) من المحبين في مناجاته: **(عجبًا للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً، عجبًا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟**

فإن قلتَ: فما علامات الأنس) وشواهده؟ **(فاعلمْ أن علامته الخاصة: ضِيقُ الصدر من معاشرة الخلق)** إن لم يمكنه الهروبُ منهم **(والتبرُّم بهم)** أي التضجُّر من مخالطتهم **(واستهتاره بعذوبة الذِّكر)** حتىٰ يمتزج به لحمه ودمُه بحيث لو طرقته ساعةٌ وهو لم يذكر يتغيَّر حاله ويتأسَّف عليه **(فإن خالط)** وهو هكذا **(فهو كمنفرد في جماعة)** وحيٌّ في أموات **(ومجتمِع في خلوة، وغريب في حضرٍ، وحاضر في سفر، وشاهد في غَيبة، وغائب في حضور، مخالط بالبدن، منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذِّكر)** وهو[2] آخر المقامات الثمانية التي عليها مبنىٰ طريقة السادة النقشبندية، ويعبرون عنها بقولهم: خلوت دَرْ انجمن. يعني الخلوة في الجلوة، الظاهر مع الخلق، والباطن مع الحق، اليد بالشغل، والقلب بالحق. وأنشدوا:

ومن داخل كنْ صاحبًا غيرَ غافلٍ ... ومن خارج خالِطْ كبعض الأجانبِ[3]

---

(١) العزلة ص ١٠١.

(٢) مفتاح المعية في شرح دستور الطريقة النقشبندية ص ١١٦ - ١١٨.

(٣) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

وإلىٰ هذا أشارت رابعة ﷺ حيث قالت:

إني جعلتُك في الفؤاد محدِّثي ... وأبحتُ جسمي مَن أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وحكىٰ البيهقي في الشعب[1] عن علي بن سهل: الأنس بالله أن يستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله تعالىٰ (**كما قال عليٌّ كرَّم الله وجهه في وصفهم: هم قوم**) وذلك فيما رواه أبو نعيم في الحلية[2] من طرق عن كميل بن زياد قال: أخذ علي بن أبي طالب بيدي فأخرجني إلىٰ ناحية الجَبَّان، فلما أصحرنا جلس، ثم تنفَّس، ثم قال: يا كميل ابن زياد، القلوب أوعية، فخيرها أوعاها ... فساق الحديث إلىٰ أن قال: أولئك هم الأقلُّون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتي يؤدُّوها إلىٰ نظائرهم ويزرعوها في قلوب أشباههم (**هجم بهم العلمُ علىٰ حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعر**) منه (**المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلىٰ**) وفي رواية: بالملأ الأعلىٰ (**أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلىٰ دينه**) هاء هاء شوقًا إلىٰ رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقمْ.

وقد ذُكر الحديث بطوله مع ذِكر أسانيده وشرح ألفاظه واختلاف رواياته في أول كتاب العلم، فراجعْه إن شئتَ.

(**فهذا معنىٰ الأنس بالله، وهذه علاماته، وهذه شواهده**) ولنذكر قاعدة تجمع ما أشار إليه المصنف في هذا الفصل فنقول: اعلمْ أن معرفة العارفين بقرب الله تعالىٰ منهم سببٌ لقربهم من الله واتصالهم به، وعنه تتشعَّب جملةُ أحوالهم؛ لأن

---

(١) شعب الإيمان ٢/ ٣٠.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٧٩ - ٨٠.

الأحوال نتيجة الصفة المشهودة مع القرب، فالقرب أصل لا يفارقه العارفون، فإن اقترن به شهودُ الجمال أثمر المحبةَ والأنس، وإن اقترن بالقرب شهودُ الجلال أثمر المهابةَ، وإن اقترن به شهودُ الكبرياء أثمر الصَّغار والإمحاق، وإن اقترن به تركُ المبالاة وشهود السلطان أثمر المخافةَ، وإن كان معه العلم أثمر الأمانَ، وإن اقترن به شهودُ الغيوب أثمر الغِنىٰ عن الأكوان، وإن اقترن به شهودُ مزايا الألطاف خيفَ علىٰ عقله من فرحه بالجود والإفضال. وأما الأبرار فأحوالهم تنشأ عن العلم بوجود الرب مطلقًا، مع اقتران العلم باقتداره علىٰ المنع والعطاء والسعادة والإشقاء، فيتولَّد من ذلك ما يحثُّهم علىٰ خوفه ورجائه. وإذا كان القرب بهذه المنزلة العظيمة فلا بد من ذِكر لمعة منه يُستعان بها علىٰ إدامة الأحوال. نقل القشيري[1] عن أبي سعيد الخرَّاز أنه قال: إن حقيقة القرب فقدُ حسِّ الأشياء من القلب وهدوء الضمير إلىٰ الله تعالىٰ. قال الكمال محمد بن إسحاق: وهذا[2] الذي ذكره هو الوسيلة لنيل القرب لا نفس القرب؛ لأنه سبق أن «الطهور شطر الإيمان»، والذي ذكره طهورٌ للقلب عمَّا سوىٰ الله تعالىٰ، وإذا تطهَّر [القلب] عمَّا سوىٰ الله تعالىٰ كان الله حاضرًا مع العبد؛ لأنه ليس بين العبد وربه إلا حجاب نفسه وعوارضها، فإذا فنيَ عن نفسه وعن عوارضها عرف قرب الله، وجملة ذلك أن كل ذرَّة من بدن العالَم وبدن الإنسان قد تعلَّق العلمُ بها كشفًا، والإرادة تخصيصًا، والقدرة إيجادًا وإبقاءً، والصفات لا تفارق الموصوفَ، بل صفاته قائمة بذاته، فإذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه، وإن سمع فلا يسمع بنفسه، وهكذا ورد الحديث الصحيح كما تقدم. فهذا نظرُ العارف المقرَّب، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [الواقعة: ٨٥] جاءت الآيات علىٰ وزن «أفعل» للمبالغة في القرب؛ لعسر الفرق

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٥.

(٢) روضة الطالبين ص ١٣١ [ضمن مجموع رسائل الغزالي] مع زيادات.

ودقَّته بين الدالِّ والمدلول فالعارفون يرون ربَّهم في الدنيا بعين الإيقان والبصائر، ويرونه في الأخرىٰ بالأبصار رأي العين، فهو قريب منهم في الدارين، وليس قربه [منهم] في الأخرىٰ مخالفًا لقربه في الدنيا إلا بمزيد اللطف والعطف، وإلا فقد ارتفع هنا وهناك قربُ المسافة، ولم يكن بينه وبين مخلوق إضافة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذه المعرفة مثمرة الأنس بشرط الصفاء لا محالة.

(وقد ذهب بعض المتكلمين إلىٰ إنكار الأنس والشوق والرضا والحب؛ لظنِّه أن ذلك يدل علىٰ التشبيه، وجهلِه بأن جمال المدرَكات بالبصائر أكملُ من جمال المبصَرات) بالحواس **(ولذة معرفتها أغلب علىٰ ذوي العقول)** كما تقدمت الإشارة إليه في أول هذا الكتاب **(ومنهم أحمد بن غالب)** وكان من أئمَّة النحو والكلام **(يُعرَف بغلام الخليل)** هو الخليل بن أحمد النحوي شيخ النحاة، وإنما عُرف بالغلام لأنه لزم الخليلَ فأكثر القراءةَ عليه ولو لم يخدمه **(أنكر علىٰ)** أبي القاسم **(الجنيد وعلىٰ أبي الحسين النوري والجماعة)** ممَّن نحا نحوَهم **(حديثَ الحب والشوق والعشق، حتىٰ أنكر بعضُهم مقامَ الرضا وقال: ليس إلا الصبر، فأما الرضا فغير متصوَّر)** كما سيأتي في باب الرضا **(وهذا كله كلامُ ناقصٍ قاصرٍ لم يطَّلع من مقامات الدين إلا علىٰ القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإنَّ المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشرٌ مجرَّد، ووراءه اللُّب المطلوب، فمَن لم يصل من الجوز إلا إلىٰ قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور)** لعدم اطِّلاعه والوقوف علىٰ الكُنْه **(ولكنَّ عذره غير مقبول)** عند ذوي التحقيق **(وقد قيل)** في ذلك:

(الأنس بالله لا يحويه بَطَّال ... وليس يدركه بالحَوْل محتالُ

والآنِسون رجال كلهم نُجُبٌ ... وكلهم صفوة لله عمَّالُ)[1]

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبةُ الأنس

(اعلمْ) أرشدكَ الله (أن الأنس) يثمر السكينةَ والطمأنينة والانبساط والإدلال، وذلك لأن لذة الأنس تطير ألبابَ العارفين وتوجب لهم الطغيانَ؛ لأن الإنسان يطغىٰ عند الغنىٰ، فيمدُّهم الله بعنايته وتوفيقه، ويُنزِل عليهم سكينة فيثبِّتهم بها ويوقِفهم علىٰ حدِّ الاعتدال في آداب الحضرة، قال الله تعالىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧] وهذه سعادة لا يُعطاها كل أحد؛ لأن الأدب يزيد في القرب من المحبوب، قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [الفتح: ٤] ولفظ «السكينة» ورد في كتاب الله تعالىٰ علىٰ أحوال مختلفة؛ لاشتراكها في نفس السكون، والطمأنينة فوق السكينة؛ لأن السكينة صولة تعدِّل طغيانَ القلب وتثبِّته، والطمأنينة: وجودٌ بعد اعتدال بفرح واستبشار لمعرفة القلب بالمزيد، والطمأنينة مستصحبة مع الأنس؛ لأنها مقصودة في نفسها، والسكينة وسيلة تحثُّه علىٰ الأدب والاعتدال. وأما الانبساط والإدلال فإن الأنس **(إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوِّشه قلقُ الشوق)** لقصور نظرِه علىٰ طِيب حاله **(ولم ينغِّصه خوفُ التغيُّر والحجاب فإنه يثمر نوعًا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالىٰ، وقد يكون منكَر الصورة)** لا يليق بحال التعظيم والإجلال الموجِبين للهيبة **(لِما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمَل ممَّن أقيمَ في مقام الأنس)** وقد يليق بالمستأنس المنبسط ما لا يليق بالهائب المتضائل، وذلك مثل قول عائشة ﵂ لمَّا سمعت قوله تعالىٰ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] قالت: إن ربَّك لَيسارعُ في رضاك، أو هواك **(ومَن لم يقُم في ذلك المقام ويتشبَّه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرفَ علىٰ الكفر)** عياذًا بالله منه **(ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالىٰ كليمَه موسىٰ ﵇ أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل بعد**

أن قحطوا سبع سنين) ومُنع عنهم المطر (وخرج موسىٰ عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفًا، فأوحىٰ الله عز وجل إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبُهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعونني علىٰ غير يقين، ويأمنون مكري، ارجعْ إلىٰ عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج) فيدعو (حتىٰ أستجيب له. فسأل عنه موسىٰ عليه السلام) بني إسرائيل (فلم يُعرَف) لأنه كان مجهولاً عندهم، لا يؤبَه به، ولا يُشار إليه (فبينا موسىٰ) عليه السلام (ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه ترابٌ من أثر السجود، في شملة قد عقدها علىٰ عنقه، فعرفه موسىٰ عليه السلام بنور الله عز وجل، فسلَّم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ. قال: فأنت طلبتنا) أي مطلوبنا (منذ حين، اخرجْ) إلىٰ الصحراء (فاستسقِ لنا) ربَّك (فخرج) مطيعًا له، ورفع يديه ودعا (فقال في) جملة (كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حِلمك، وما الذي بدا لك؟ أنقصت عليك عيونك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفد ما عندك؟ أم اشتد غضبُك علىٰ المذنبين؟ ألست كنت غفَّارًا قبل خلق الخطَّائين؟ خلقتَ الرحمة، وأمرتَ بالعطف، أم ترينا أنك ممتنع؟ أم تخشىٰ الفوتَ فتعجِّل بالعقوبة؟ قال) الراوي: (فما برح) مكانه (حتىٰ) اجتمع السحاب في أكناف السماء و(أخضلت بنو إسرائيل بالقطر، وأنبت الله تعالىٰ العشب في نصف يوم حتىٰ بلغ الرُّكَب. قال: فرجع برخ، فاستقبله موسىٰ عليه السلام، فقال) برخ: (كيف رأيتَ حين خاصمت ربي كيف أنصفني؟ فهمَّ موسىٰ عليه السلام به) ليؤدِّبه (فأوحىٰ الله إليه): لا تفعل (إن برخ يضحكني كل يوم ثلاث مرات) يشير إلىٰ أنه من ضنائن أوليائه.

(و) رُوي (عن الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ (قال: احترقت أخصاص) جمع خُص بالضم: اسم لِما يُبنَىٰ من القصب (بالبصرة، فبقي في وسطها خصٌّ لم يحترق، وأبو موسىٰ) الأشعري رضي الله عنه (يومئذٍ أمير البصرة) كان[1] ولاَّه عمر رضي الله عنه بعد عزل المغيرة بن شعبة، وأقرَّه عثمان علىٰ عمله قليلاً، ثم عزله بعبد الله

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٩٦.

ابن عامر، فسكن أبو موسىٰ الكوفة، وولاّه عثمان إياها بعد عزل سعيد بن العاص (فأُخبِر بذلك، فبعث إلىٰ صاحب الخُص. قال: فأُتيَ بشيخ، فقال) له: (يا شيخ، ما بال خصِّك لم يحترق؟ فقال: إني أقسمت علىٰ ربي عَزَّوَجَلَّ أن لا يحرقه. فقال أبو موسىٰ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدق الشيخ (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون في أمَّتي قومٌ شعثة رؤوسهم، دنِسة ثيابهم، لو أقسموا علىٰ الله لأبرَّهم) قال العراقي[1]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء[2]، وفيه انقطاع [وجهالة].

قلت: ورواه أيضًا الديلمي[3]، ولفظه: «يكون في أمَّتي رجال طُلْس رؤوسهم، دُنَّس ثيابهم، لو أقسموا علىٰ الله لأبرَّهم». وأشار بالانقطاع بين الحسن وأبي موسىٰ؛ لِما ذكرنا أنه حين وليَ أميرًا بالبصرة لم يكن الحسن قد وُلِد. والمشهور في الباب حديث أنس: «إنَّ من عباد الله مَن لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه». رواه الجماعة إلا الترمذي[4].

(قال: ووقع حريق بالبصرة، فجاء أبو عبيدة) عبَّاد بن عبَّاد (الخوَّاص) ترجمه أبو نعيم في الحلية[5] وهكذا سمَّاه وكنَّاه. وفي رجال أبي داود رجل هكذا بعينه اسمه عباد بن عباد، وكنيته أبو عتبة، فقيل: هو هو. وقد روىٰ صاحب الحلية في الترجمة من طريق رَوَّاد بن الجرَّاح، حدثنا عباد بن عباد أبو عتبة، عن الأوزاعي ... فساق حديثًا. وروىٰ من طريق أبي مسهر قال: حدثني عبَّاد الخوَّاص، حدثني أبو بكر بن أبي مريم ... فساق حديثًا. وروىٰ من طريق حماد بن واقد قال: سمعت أبا عبيدة يقول ... فساق قولاً له. ومن طريق أبي مسلم الصوري قال: كتب عباد بن عباد

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٥.

(٢) الأولياء ص ٢٢.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ٥/ ٤٠٩.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٢٦٩، ٣٠٨، ٣/ ١٩٦، ٢٢٤. صحيح مسلم ٢/ ٧٩٨. سنن أبي داود ٥/ ١٨٠. سنن النسائي ص ٧٢٦. سنن ابن ماجه ٤/ ٢٣٦.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ٢٨١ - ٢٨٢.

الخوَّاص إلىٰ إخوانه ... فساق كلامًا له. وكل هذا الاختلاف في ترجمة واحدة، فلعله كان يكنىٰ بكلٍّ منها. وقرأت في ديوان الضعفاء[١] للذهبي بخطه: عباد بن عباد، أبو عتبة الأرسوفي الخوَّاص، وثَّقه ابن معين[٢]، وقال ابن حبان[٣]: كان يأتي بالمناكير فاستحقَّ التركَ. وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب[٤]: عباد بن عباد الرملي الأرسوفي، أبو عتبة الخوَّاص، صدوق يَهِمُ، أفحش ابنُ حبان فقال: يستحق الترك. ا.هـ. والذي يظهر أن هذا غير الذي ذُكر في القصة فإنه بصري، وهذا رمليٌّ **(فجعل يتخطَّىٰ النارَ، فقال له أمير البصرة: انظرْ لا تحترق بالنار. فقال: إني أقسمت علىٰ ربِّي عَزَّوَجَلَّ أن لا يحرقني بالنار. قال: فاعزمْ علىٰ النار أن تطفأ. قال: فعزم عليها فطفئت)** في الحال.

(وكان أبو حفص) عمر بن سلم الحدَّاد النيسابوري، شيخ الجنيد، تقدَّم ذِكرُه **(يمشي ذات يوم، فاستقبله رُستاقيٌّ)** أي سواديٌّ **(مدهوش)** أي ذاهل العقل **(فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ قال: ضلَّ حماري ولا أملك غيره. قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزَّتك، لا أخطو خطوة ما لم تردَّ عليه حمارَه. قال: فظهر حماره في الوقت، ومر أبو حفص رحمه الله تعالىٰ)** في شأنه.

(فهذا وأمثاله ممَّا يجري لذوي الأنس) من الانبساط والإدلال **(وليس لغيرهم أن يتشبَّه بهم. قال الجنيد)** قُدِّس سره: **(أهل الأنس يقولون في كلفهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفرٌ عند العامة. وقال مرةً: لو سمعها العموم لكفَّروهم، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك، وذلك يُحتمَل منهم ويليق بهم)**

---

(١) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٢٠٧.

(٢) رواه عنه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٦/ ٨٣.

(٣) المجروحون من المحدثين ٢/ ١٦١، ونصه: «كان ممن غلب عليه التقشف والعبادة حتىٰ غفل عن الحفظ والإتقان، وكان يأتي بالشيء علىٰ حسب الوهم حتىٰ كثرت المناكير في روايته علىٰ قلتها، فاستحق الترك».

(٤) بل في تقريب التهذيب ص ٤٨٢.

قال صاحب القوت: فلو رأيتَ أيها المستمع ما يكون بينه وبينهم في سرِّهم وما يجالسهم به ويحادثهم في هذه المواطن لكنت تعذرهم في كل قول وفعل، فهؤلاء [قوم] محكوم عليهم في أمورهم، قد حيلَ بينهم وبين كثير من العلم المعقول والرسم المنقول، إنما أوجدُهم مأخوذٌ بالعلم المجهول عند ذوي العقول، فمراده ساقط، وعزمه مفسوخ، ومحبته في الأمور منقوصة، والخليقة منه في حيرة.

(وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهوٌ بسيدهم — والعبد يزهو علىٰ مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عمَّا سواه له — يا حُسن رؤيتهم في عزٍّ ما تاهوا[1]

ولا تستبعدنَّ رضاه عن العبد بما يغضب به علىٰ غيره مهما اختلف مقامُهما، **ففي القرآن تنبيهات علىٰ هذه المعاني لو فُطنت وفُهمت، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتىٰ ينظروا إليها بعين الاعتبار، فإنما هي عند ذوي الاغترار من الأسمار)** أي الحكايات التي يُسمَر بها في المجالس **(فأول القصص قصة آدم** عليه السلام **وإبليس، أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة)** للأوامر الإلهيَّة **(ثم تبايَنا في الاجتباء والعصمة، أما إبليس فأبلسَ عن رحمته وقيل: إنه من المبعَدين)** ولذلك سُمِّي إبليسًا وشيطانًا، من شطنَ: إذا بعُدَ **(وأما آدم** عليه السلام **فقيل فيه:** ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾) أي ضلَّ عن رشده (﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾) [طه: ١٢١ - ١٢٢] فكم بين جناية تسبَّبت إلىٰ الطرد من الحضرة الإلهية وجناية تسبَّبت إلىٰ التقرُّب منها.

(وقد عاتب اللهُ تعالىٰ نبيَّه ﷺ **في الإعراض عن عبد والإقبال علىٰ عبد، وهما في العبودية سيان، ولكن في الحال مختلفان، فقال:** ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾)

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

أي[١] يسرع طالبًا للخير (﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾) الله، أو إذاية الكفار في إتيانك، أو كبوة الطريق لأنه أعمىٰ لا قائد له (﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾) [عبس: ٨ - ١٠] أي تتشاغل (**وقال في الآخر**: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾) [عبس: ٥ - ٦] أي تتعرَّض له بالإقبال عليه. وفي ذِكر التلهِّي والتصدِّي إشعار بأن العتاب علىٰ اهتمام قلبه بالغني وتلهِّيه عن الفقير، ومثله لا ينبغي له ذلك. والمراد بالأول عبد الله بن أم مكتوم، وبالثاني أميَّة بن خلف. وروىٰ ابن أبي حاتم[٢] عن ابن زيد قال: لو أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من الوحي كتم هذا عن نفسه.

(**وكذلك أمره بالقعود مع طائفة فقال**: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] **وأمره بالإعراض عن غيرهم فقال**: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ **حتىٰ قال**: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨] **وقال تعالىٰ**: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾) [الكهف: ٢٨] وهم أهل الصُّفَّة، وقد تقدم الكلام عليه.

(**فكذا الانبساط والإدلال يُحتمَل من بعض العباد دون بعض، فمن انبساط الأنس قولُ موسىٰ** عليه السلام: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] **وقوله في التعلُّل والاعتذار لمَّا قيل له**: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤، النازعات: ١٧] **فقال**: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] **وقوله**: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٢ - ١٣] **وقوله**: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: ٤٥] **وهذا**) وأمثاله (**من غير موسىٰ** عليه السلام) معدود (**من سوء الأدب**) في الحضرة الإلهية (**لأن الذي أقيمَ مقام الأنس يلاطَف ويحتمَل، ولم**

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٨٦.

(٢) ورواه أيضا الطبري في جامع البيان ٢٤/ ١٠٥.

يُحتمَل ليونس عليه السلام **ما)** هو **(دون هذا)** بكثير وهو[1] ذهابه مغاضبًا لقومه قبل أن يؤمَر، وقيل [وعدهم] بالعذاب، فلم يأتِهم لميعادهم بتوبتهم، ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك **(لمَّا)** أن **(أقيمَ مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث)**: بطن الحوت والبحر والليل، وكانت مدة مكثه في بطن الحوت أربع ساعات، وقيل: ثلاثة أيام **(ونودي عليه إلىٰ يوم القيامة: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾)** يعني[2] التوفيق للتوبة وقبولها **(﴿لَنُبِذَ﴾)** أي طُرِح **(﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾)** أي بالأرض الخالية عن الأشجار **(﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩﴾)** أي مَليم مطرود من الرحمة والكرامة **(قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ: **(العراء هو القيامة. ونُهي نبيُّنا** ﷺ **أن يقتدي به وقيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾)** وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم **(﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾)** يونس **(﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾)** في بطن الحوت **(﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾)** [القلم: ٤٨ - ٤٩] مملوء غيظًا من الضجرة فتُبتلَىٰ ببلائه. وقال[3] قتادة: أي لا تعجل كما عجِلَ، ولا تُغاضِب كما غاضَبَ. رواه أحمد في الزهد[4]. وقال وهب: كان في خُلُق يونس ضِيقٌ، فلمَّا حُمِّلت عليه أثقال النبوَّة تفسَّخ منها [تفسُّخ] الرَّبَع، فقذفها من يديه وهرب. رواه الحاكم[5]. وقال ابن عباس: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾ أي مغموم. رواه ابن أبي حاتم[6].

(وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات، وبعضها لِما سبق في الأزل من التفاضُل والتفاوت في القسمة بين العباد، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [الإسراء: ٥٥] **وقال)** في تفاوت مراتبهم: **(﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ**

---

(١) أنوار التنزيل ٤/ ٥٩.

(٢) السابق ٥/ ٢٣٧.

(٣) الدر المنثور ١٤/ ٦٥٧ - ٦٥٨.

(٤) ورواه أيضا: عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١١، والطبري في جامع البيان ٢٣/ ٢٠٠.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٦٨٨.

(٦) ورواه أيضا الطبري في جامع البيان ٢٣/ ٢٠٠.

ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] **فكان عيسىٰ** عليه السلام **من المفضَّلين، ولإدلاله)** وانبساطه (**سلَّم علىٰ نفسه فقال:** ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾) [مريم: ٣٣] كما أخبر الله تعالىٰ عنه (**وهذا انبساطٌ منه لمَّا شاهد من اللطف في مقام الأنس.**

وأما يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام فإنه أقيمَ مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتىٰ أثنىٰ عليه خالقُه فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ١٥].

وانظر كيف احتُمِل لإخوة يوسف) عليهم السلام (**ما فعلوه بيوسف)** عليه السلام، وهم: يهوذا، وروبيل، وشمعون، ويشجر، وداني، ودينة، وزبلون، ونفتالي، وآشر، وجاد، ولاوىٰ (**وقد قال بعض العلماء**[1]**: قد عددتُ من أول قوله تعالىٰ:** ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨] **إلىٰ رأس العشرين)** آية (**من إخباره تعالىٰ عن زهدهم فيه نيفًا وأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث)** منها (**والأربع، فغفر لهم وعفا عنهم)** وقبلَ شفاعةَ أبيهم واستغفاره فيهم، ومنهم مَن شرَّفه بالنبوَّة.

(**ولم تُحتمَل لعُزَير)** بن ساروحا (**في مسألة واحدة سأل عنها في القدَر)** وقصته في القرآن: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الآية، وكان يحفظ التوراة عن ظهر قلبه، فلمَّا أحياه الله تعالىٰ بعد مائة عام، وكان بُخْتَنَصَّر قد أحرق نسخ التوراة كلها، فجدَّد لهم التوراة عن ظهر قلبه، ولذلك قالوا فيه: عُزَير ابن الله. وقد أخرج قصته ابن عساكر[2] من طرق عن كعب ووهب والحسن وابن عباس (**حتىٰ قيل: مُحِيَ من ديوان النبوَّة)** بسبب ذلك.

---

(١) هو أبو طالب المكي صاحب القوت.

(٢) تاريخ دمشق ٤٠/ ٣١٧ - ٣٣٨.

(وكذلك كان بَلعم بن باعوراء) في بني إسرائيل (من أكابر العلماء) وممَّن كان يعرف الاسم الظاهر (فأكل الدنيا بالدين، فلم يُحتمَل له ذلك) فغضب اللهُ عليه، وكان ما كان، وقصته في القرآن، وقد تقدم ذِكرُها في كتاب ذم الدنيا[1].

(وكان آصِف) بن برخيا بن شمويل ابن خالة سيدنا سليمان عليه السلام ووزيره ومعينه، قيل: هو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠] قيل: كان يعرف الاسم الأعظم، لكنه كان (من المسرفين) علىٰ نفسه (وكانت معصيته في الجوارح، فعفا عنه، فقد رُوي أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ سليمان عليه السلام: يا رأس العابدين، ويا ابن مَحَجَّة الزاهدين، إلىٰ كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرةً بعد مرة؟ فوعزَّتي وجلالي لئن أخذته عصفةٌ من عصفاتي عليه لأتركنَّه مُثْلة لمَن معه، ونكالاً لمَن بعده) أي ليعتبر به المعتبِرون (فلمَّا دخل آصف علىٰ سليمان أخبره بما أوحىٰ الله تعالىٰ إليه، فخرج) آصف (حتىٰ علا كثيبًا من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: إلهي وسيدي، أنت أنت) أي في كمال عزِّك وربوبيَّتك (وأنا أنا) أي في كمال ذلِّي وعبوديَّتي (فكيف أتوب إن لم تتبْ عليَّ؟ وكيف أستعصم؟ إن لم تعصمني لأعودنَّ) أي إلىٰ المعصية (فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه) بواسطة سيدنا سليمان عليه السلام: (صدقتَ يا آصف، أنت أنت، وأنا أنا، استقبِل التوبةَ، فقد تبتُ عليك، وأنا التواب الرحيم) وبقي علىٰ رتبته التي كان عليها، وقد رُويتْ عنه العلوم الغريبة من الفلكيات والطلاسم، وإليه ينتهي إسنادها (وهذا كلام مدلٍّ به عليه، وهارب منه إليه، وناظر به إليه.

وفي الخبر: أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عبد تداركَه) بتوفيقه وعصمته وحفظه (بعد أن كان أشفَىٰ) أي أشرفَ (علىٰ الهلكة) وقال: (كم من ذنب واجهتَني به غفرتُه لك) ما (قد أهلكتُ في دونه أمَّةً من الأمم.

---

(١) بل في كتاب ذم الكبر والعجب.

فهذه سنَّة الله تعالىٰ في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير علىٰ ما سبقت به المشيئةُ الأزلية، وهذه القصص وردت في القرآن لتُعرَف بها سنَّة الله في عباده الذين خلوا) أي مضوا **(من قبل، فما في القرآن شيء إلا وهو هدىٰ ونور وتعرُّفٌ من الله إلىٰ خلقه، فتارةً يتعرَّف إليهم بالتقديس فيقول:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] **وتارةً يتعرَّف إليهم بصفات جلاله)** وكِلاهما يتعلَّق بذات الله تعالىٰ من سلب نقص وإثبات كمال **(فيقول)** في الإثبات: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧] ويقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢] ويقول: (﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ﴾) [الحشر: ٢٣] وأما السلب فكقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلىٰ آخرها، وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف: ٥١] وقوله تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥] أي مثيلًا ونظيرًا، فهذه هي المعرفة الخاصة **(وتارةً يتعرَّف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوَّة فيتلو عليهم سنَّته في أعدائه وفي أنبيائه، فيقول:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: ٦ - ٧] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١] **ولا يعدو القرآن هذه الأقسامَ الثلاثة وهي: الإرشاد إلىٰ معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنَّته مع عباده)** ولذلك انقسم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال **(ولمَّا اشتملت سورة الإخلاص علىٰ أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس)** أعني به تنزيهَ الرب تعالىٰ عن الجسمية وتوابعها **(وازنَها رسولُ الله ﷺ بثلث القرآن فقال: مَن قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن)** قال العراقي[(١)]: رواه أحمد من حديث أبيِّ بن كعب بإسناد صحيح، ورواه البخاري من حديث أبي سعيد، ومسلم

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٥.

من حديث أبي الدرداء نحوه.

قلت: لفظ أحمد[١]: «مَن قرأ قل هو الله أحد فكأنَّما قرأ ثلث القرآن». وهكذا رواه أبو عبيد[٢] والنسائي[٣] وابن منيع ومحمد بن نصر[٤] والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والضياء[٥].

ولفظ البخاري[٦]: «قل هو الله أحد تعدل ثلثَ القرآن». وهكذا رواه أيضًا أحمد[٧] وأبو داود[٨] والنسائي[٩] وابن حبان[١٠].

ورواه البخاري أيضًا من رواية أبي سعيد عن أخيه قتادة بن النعمان.

ورواه مسلم[١١] بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء.

وقد رُوي كذلك بهذا اللفظ من حديث أنس، رواه ابن ماجه[١٢] والطبراني في الأوسط[١٣] والضياء[١٤].

---

(١) مسند أحمد ٣٥/ ١٩٧.

(٢) فضائل القرآن ص ٢٦٨.

(٣) السنن الكبرىٰ ٩/ ٢٥٤.

(٤) مختصر قيام الليل ص ١٦١.

(٥) الأحاديث المختارة ٣/ ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٦) صحيح البخاري ٣/ ٣٤٣، ٣٤٤، ٤/ ٢١٧، ٣٧٨.

(٧) مسند أحمد ١٧/ ١٠٦، ١٨٦، ٢٧٥، ٤٠٧، ٤٨٤.

(٨) سنن أبي داود ٢/ ٢٧٢.

(٩) سنن النسائي ص ١٦٣.

(١٠) صحيح ابن حبان ٣/ ٧١.

(١١) صحيح مسلم ١/ ٣٦٣.

(١٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٢٩.

(١٣) المعجم الأوسط ٢/ ٢٩٩، ٦/ ٣٩، ٧/ ٢٠٧، ٢٢٤.

(١٤) الأحاديث المختارة ٥/ ٧٣، ٧/ ٦٠ - ٦١،

ومن حديث أبي أيوب، رواه النسائي[١] والطبراني في الكبير[٢] والبيهقي في الشعب[٣].

ومن حديث أبي هريرة، رواه الترمذي[٤] وصحَّحه وابن ماجه[٥].

ومن حديث ابن مسعود، رواه الطبراني في الكبير[٦].

ومن حديث أبي مسعود الأنصاري، رواه أحمد[٧] وابن ماجه[٨].

ومن حديث معاذ، رواه الطبراني في الكبير[٩].

ومن حديث أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيط، رواه أحمد[١٠] والطبراني[١١] والبيهقي[١٢].

وقد رُوي أيضًا من حديث ابن عمر بزيادة: «وقل يا أيها الكافرون تعدل ربعَ القرآن». رواه الطبراني[١٣] والحاكم.

ورُوي من حديث عليٍّ رضي الله عنه بلفظ: «مَن قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة

---

(١) سنن النسائي ص ١٦٤.

(٢) المعجم الكبير ٤/ ١٦٦ - ١٦٨.

(٣) شعب الإيمان ٤/ ١٤٧ - ١٤٨.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٢٤. ورواه أيضا مسلم في صحيحه ١/ ٣٦٤.

(٥) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٢٨.

(٦) المعجم الكبير ١٠/ ١٧٢، ١٩٨، ٢٥٦.

(٧) مسند أحمد ٢٨/ ٣٣٠، ٣٣٢.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٢٩.

(٩) المعجم الكبير ٢٠/ ١١٣.

(١٠) مسند أحمد ٤٥/ ٢٤٤.

(١١) المعجم الكبير ٢٥/ ٧٥.

(١٢) شعب الإيمان ٤/ ١٤٩.

(١٣) المعجم الكبير ١٢/ ٤٠٥.

فكأنَّما قرأ ثلث القرآن، ومَن قرأها مرتين فكأنَّما قرأ ثلثَي القرآن، ومَن قرأها ثلاثًا فكأنَّما قرأ القرآن كله». رواه الرافعي في تاريخه[١].

وروىٰ العقيلي[٢] من حديث رجاء الغَنَوي: «مَن قرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات فكأنَّما قرأ القرآن أجمع».

وروىٰ البيهقي[٣] من حديث سعد: «مَن قرأ قل يا أيها الكافرون فكأنَّما قرأ ربع القرآن، ومَن قرأ قل هو الله أحد فكأنَّما قرأ ثلث القرآن».

ورواه ابن السني[٤] من حديث أبي هريرة بلفظ: «كانت له كعدل ثلث القرآن».

وروىٰ أبو نعيم[٥] من حديث ابن عباس: «مَن قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنَّما قرأ ثلث القرآن».

(**لأن منتهىٰ التقديس في أن يكون واحدًا في ثلاثة أمور**) أحدها: (**لا يكون حاصلاً منه مَن هو نظيره وشبهه، ودلَّ عليه قوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾**) فقوله[٦] ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ أي لأنه لم يجانَس ولم يفتقر إلىٰ ما يعينه أو يخلف عنه؛ لامتناع الحاجة والفناء عليه (و) الثاني: (**لا يكون**) هو (**حاصلاً ممَّن هو نظيره وشبهه، ودلَّ عليه قوله: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣﴾**) وذلك لأنه لا يفتقر إلىٰ شيء، ولا يسبقه عدمٌ (و) الثالث: (**لا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعًا مَن هو مثله، ودلَّ عليه قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾**) أي ولم يكن أحد يكافئه أو يماثله من صاحبة

---

(١) التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٤٥، ٣٢٧.

(٢) الضعفاء الكبير ١/ ١٤٣.

(٣) شعب الإيمان ٤/ ١٣٦.

(٤) عمل اليوم والليلة ص ٤١٥.

(٥) وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط ٥/ ٣٢.

(٦) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣٤٧.

أو غيرها (**ويجمع جميعَ ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾**) فـ «أحد» يدل علىٰ مجامع صفات الجلال، و«الله» يدل علىٰ جميع صفات الكمال؛ إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزَّه الذات عن أنحاء التركيب والتعدُّد وما يستلزم أحدَهما كالجسمية والتحيُّز والمشاركة في الحقيقة وخواصِّها كالوجود والقدرة الذاتية والحكمة الإلهية التامة المقتضية للألوهيَّة (**وجملته**) أي معرفته إفرادًا (**تفصيل قول «لا إله إلا الله»**) وقولهم «العلم بالشيء علىٰ الإجمال يناقض العلمَ علىٰ التفصيل» علىٰ معنىٰ أن الإجمال هو عدم الاطِّلاع علىٰ دقائقه، لا بمعنىٰ معرفة الأشياء إفرادًا ثم جمعها عددًا، فهذا لا مانع منه، فـ «الله»[1] دالٌّ علىٰ الذات الجامعة لصفات الإلهيَّة كلها جلالاً وجمالاً وكمالاً حتىٰ لا يشذَّ منها شيءٌ، وسائر الأسماء لا يدل آحادُها إلا علىٰ آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره، وقد فُهِم منه أنه الموجود الحقيقي الحق، وكل ما سواه فإنه هالك وباطل إلا به (**فهذه أسرار القرآن**) وجواهره (**ولا تتناهَىٰ أمثالُ هذه الأسرار في القرآن، فلا رَطْب ولا يابس إلا في كتاب مبين، ولذلك قال ابن مسعود** رضي الله عنه**: ثوِّروا القرآن والتمِسوا غرائبَه، ففيه علمُ الأوَّلين والآخِرين**) وقد روىٰ الديلمي من حديث أنس: «مَن أراد علم الأوَّلين والآخِرين فليثوِّر القرآن»[2] (**وهو كما قال، ولا يعرفه إلا مَن طال في آحاد كلماته فكرُه وصفا له فهمُه حتىٰ تشهد له كلُّ كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر، وأنه خارج عن حدِّ استطاعة البشر، وأكثر أسرار القرآن معبَّأة في طيِّ القصص والأخبار**) وهي المرادة من قول ابن مسعود: والتمِسوا غرائبه (**فكنْ حريصًا علىٰ استنباطها**) من معادنها (**لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلومَ المزخرفة الخارجة عنه.**)

فهذا ما أردنا أن نذكره من معنىٰ الأنس و) معنىٰ (**الانبساط**) والإدلال (**الذي**

---

(١) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) تقدم حديث أنس وأثر ابن مسعود في كتاب آداب تلاوة القرآن.

هو ثمرته، وبيان تفاوت عباد الله تعالىٰ فيه) وظهر ممَّا ذُكر أنَّ(١) من أفعال الله تعالىٰ الجائزة له أن يرضىٰ علىٰ قوم بفعل ويغضب به علىٰ غيرهم؛ لاختلاف أحوالهم، أو لحكمته السابقة فيهم بالتقريب والإبعاد، ولذلك يغار علىٰ كلامه أن يسمعه إلا أهل خاصَّته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥] لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوه من الآيات ولا بالنظر إلىٰ ملكوت السموات والأرض للأكنَّة التي منع اللهُ بها انتفاعهم، وعبَّر عن السر في ذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] وهذا حجاب الغيرة، وحقيقتها حفظُ الوقت مع الحق أن يشوِّشه مشوِّش شحًّا عليه. فإذًا الغيرة من ثمرات الأنس، وهذه الأحوال لها بالنسبة إلىٰ العبد ثلاثة أحوال إن وجدها في الملأ دون الخلاء فهو معلول تجب عليه المحاسبة وأن يطالب نفسه بالعلامات، وإن وجدها في الخلاء دون الملأ فهو حسن، ولكنه ناقص عن ذروة الكمال؛ إذ الكمال أن يستوي في ذلك الخلاء والملأ والحضر والسفر والفراغ والشغل؛ لأن الفراغ شرطٌ في البداية لا في النهاية. ومَن استقرأ أحوالَ الأنبياء والأولياء وجدها كما وصفنا. والله الموفِّق.

---

(١) روضة الطالبين للغزالي ص ١٣١ - ١٣٢، مع زيادات.

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلىٰ مقامات المقرَّبين) وهو الثامن من مقامات اليقين، وجعل صاحب القوت المحبة حالاً من مقام الرضا، فلذلك قدَّم الرضا علىٰ المحبة، وأما صاحب «مقاصد المنجيات» فذكر الرضا في آخر مقام التوكل وجعله من لواحقه، وهذا لفظه: الرضا هو الغاية القصوىٰ في الدنيا والأخرىٰ بعد النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ، وله بالنسبة إلىٰ السالك منازل ثلاثة، الأولىٰ: نهاية الصبر أول مقام الرضا، والسالك يرتقي من الصبر إليه. الثانية: بعد التوكل والتفويض والتسليم؛ لأن الرضا لا يصلُح إلا بعد القضاء، فإذا توكل العبد علىٰ مولاه واستسلم لقضاء ربِّه فحينئذٍ تجري عليه المقادير بما حكم الله في الأزل، فحينئذٍ يجب الرضا. الثالثة: تكون ثمرة المحبة، وهو الأغلب في الوقوع والأشرف عند الله تعالىٰ؛ لأن بذلك تحلو البلايا والرزايا، وما سوىٰ هذا حديثُ نفسٍ لو طولِبت النفس بالامتحان فيه لم يجده الطالب شيئًا. فلمَّا رأيتُه يليق بهذه المنازل الثلاثة توسَّطتُ الأمرَ وجعلتُه بعد التوكل؛ لأن الحاجة إليه في هذه الحالة ممَّا تعمُّ به البلوىٰ، وهو أيضًا كغيره من المقامات ينتظم من علم وحال وعمل، أما العلم فاعلمْ أن العلم الذي يورث حالَ الرضا هو العلم بكمال صفات الله تعالىٰ وجمالها وجلالها فيما حكم به في الأزل من شقاء وإسعاد، وتقريب وإبعاد، وشدة ورخاء، وأن ذلك علىٰ أكمل الحالات وأرفع الدرجات، وهذا العلم بعينه هو الذي يوجب التسليمَ والتفويض، إلا أن الفرق بينهما وبين الرضا أن التفويض والتسليم قبل وقوع المقضيِّ به، والرضا بعد وقوع المقضيِّ به. وبالرضا يظهر صِدقُ المقامات كلها، واعتقاد هذا العلم واجب؛ لأنه من الإيمان

بالله يُراد لذاته ولغيره، أما كونه مرادًا لذاته فلأنه معرفة بالله مقصودة في نفسها، وأما كونه يُراد لغيره فلأنه يُذهِب عن القلب الهمَّ والغم والحزن والسخط، ويجلب أضدادَها من الفرح والسرور والاستبشار، ويستفيد بذلك عدَّ الأنفاسِ مع الله والسلامة من إضاعة الأوقات.

وقال القشيري: قد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات، فأهل خراسان قالوا: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، ومعناه يؤول إلىٰ أنه ممَّا يتوصَّل إليه العبد باكتسابه. وأما العراقيون فإنهم قالوا: الرضا من جملة الأحوال، وليس ذلك كسبًا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال. ويمكن الجمع بين القولين فيقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسَبة.

(و) أما (حقيقته) فإنها **(غامضة علىٰ الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمَن علَّمه الله تعالىٰ التأويلَ وفهَّمه وفقَّهه في الدين، فقد أنكر منكِرون تصوُّرَ الرضا بما يخالف الهوىٰ، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فِعل الله تعالىٰ فينبغي أن يرضىٰ بالكفر والمعاصي. وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالىٰ، ولو انكشفت هذه الأسرار لمَن اقتصر علىٰ سماع ظواهر الشرع لَما دعا رسولُ الله ﷺ لابن عباس)** رضي الله عنهما **(حيث قال: اللهم فقِّهْه في الدين وعلِّمْه التأويل)** هكذا رواه أحمد[1] وابن حبان[2] والحاكم[3]، وقد تقدم في كتاب العلم. وقد رواه البخاري[4] من حديثه بالشطر الأول فقط. ورواه أحمد أيضًا

(١) مسند أحمد ٤/ ٢٢٥، ٢٤٤، ٥/ ٦٥، ١٥٩، ٢١٥.

(٢) صحيح ابن حبان ١٥/ ٥٣١.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٦٥٨.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٤٤، ٦٨، ٣/ ٣٣، ٤/ ٣٥٨. واقتصر مسلم في صحيحه ٢/ ١١٥٨ علىٰ قوله: «اللهم فقهه».

والطبراني[١] وأبو نعيم[٢] بلفظ: «اللهم أعطِ ابنَ عباس الحكمةَ وعلِّمْه التأويلَ». ورواه كذلك ابن سعد[٣] والحاكم. ورُوي من حديث ابن عمر: «اللهم باركْ فيه وانشرْ منه». قاله لابن عباس. رواه صاحب الحلية[٤]. وروىٰ ابن ماجه[٥] وابن سعد والطبراني من حديث ابن عباس: «اللهم علِّمْه الحكمة وتأويلَ الكتاب».

وقال صاحب القوت: واعلمْ أن الرضا من مقامات اليقين وأحوال المحبِّين ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل في كل أفعال الله تعالىٰ؛ لأنها عن قضائه، لا يكون في مُلكه إلا ما قضاه، فعلىٰ العارفين به الرضا بالقضاء، ثم يُرَدُّ ذلك إلىٰ تفصيل العلم وترتيب الأحكام، فما كان من خير وبِر أمر به أو ندب إليه رضي به العبد وأحبه شرعًا وفعلاً، ووجب عليه الشكرُ، وما كان من شرٍّ نهىٰ عنه وتهدَّد عليه فعلىٰ العبد أن يرضىٰ به عدلاً وقدَرًا ويسلِّمه لمولاه حكمةً وحكمًا، وعليه أن يصبر عنه ويقرَّ به ذنبًا، ويعترف به لنفسه ظلمًا، ويرضىٰ بعَود الأحكام عليه بالعقاب وأنه اجترحه بجوارحه اكتسابًا، ويرضىٰ بأن لله سبحانه عليه الحجة البالغة، وأن لا عذر له فيه، ويرضىٰ بأنه في مشيئة الله من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقِّه إن شاء؛ لأن الموقنين والمحبِّين لا يُسقِطون الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكَر، ولا ينكرون إنكارَ المعاصي وكراهتها بالألسنة والقلوب من قِبَل أن الإيمان فرضَها، والشرع ورد بها، ولأن الحبيب كرهها، فكانوا معه فيما كره كما كانوا معه فيما أحب. ومقام اليقين لا يُسقِط فرائضَ الإيمان، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائعَ الرسول ولا تُسقِط اتِّباعَه، فمَن زعم ذلك فقد افترىٰ علىٰ الله ورسوله وكذب علىٰ الموقنين والمحبين، فمَن رضي بالمعاصي والمناكير منه أو من غيره

(١) المعجم الكبير ١٠/ ٢٩٣ - ٢٣٨، ٣٢٠، ١١/ ١١٠، ٢١٣، ١٢/ ٧٠.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٣) الطبقات الكبرىٰ ٢/ ٣١٥، ٦/ ٣٢٢، ٣٢٣.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٣١٥.

(٥) سنن ابن ماجه ١/ ١٧١.

وأحب لأجلها ووالىٰ ونصرَ عليها أو ادَّعىٰ أن ذلك يدخل في مقام الرضا الذي يجازَىٰ عليه [بالرضا] أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالىٰ ومدحهم فهو مع الذين ذمَّهم الله ومقتهم.

ثم ذكر جملة من الآيات والأخبار والآثار، ثم قال: وقد غلطَ في باب الرضا بعضُ البَطَّالين من المتأخرين ممَّن لا علم له ولا يقين فحمل الرضا علىٰ [جميع] ما يكون منه من معصية، وهذا لجهله بالتفصيل، وقلة فقهه بعلم التأويل، ولاتِّباعه ما تشابَهَ من التنزيل طلبًا للفتنة وغربة الحال، وابتداعًا في القول والفِعال، أو لهواه في العصيان والفسوق، وأراد أن يقيم بذلك عند الجاهلين سوقَ معذرةٍ له وتطريقًا إليه، ولو عُصم من الهوىٰ لاستراح، ولو زهد في الدنيا لأراحَ، ولو كان علمُه للتأويل لله الفتاح العليم لأفلح ولعلمَ الناسُ من علمه فربح وأربحَ، وأنَّىٰ له بذلك والهوىٰ يقلِّبه والبلاء المعقود به يغمره، وإنما يعلِّم التأويل منزِّلُ التنزيل، ألم تسمع إلىٰ قول الرسول ﷺ: «اللهم فقِّهْه في الدين وعلِّمْه التأويل». وبطلان قول هذا [عند العلماء] أوضح من أن يُدَل علىٰ فساده، فكفونا عن مناظرته بطردهم له وإبعاده، والاشتغال بالبَطَّال بطالة؛ لأن أوقاته قد ضاعت فيضيع وقتُ غيره بذكرها.

ثم قال: وقد يحتجُّ أيضًا بَطَّالٌ لبخله وقلة مواساته وبذله، أو يعتلُّ لاتساعه في أمر الدنيا واستئثاره علىٰ الفقراء أن الذي يمنعه من البذل والإيثار والزهد فيما في يديه، والإخراج رضاه بحاله وقلة اعتراضه علىٰ مُجريه فيه، وأن هذا من مقام الرضا خُصَّ به عند نفسه، وهذا قول لاعبٍ ذي هوىٰ، وهو من خِدَع النفوس وأمانيها ومن غرور العدو ومكائده؛ لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضِّيقة؛ لمعرفة الراضي بفضل الزهد وأوصافه كيف تكون، ولحب مولاه للفقر ولمَقْته علىٰ التكاثر، فالرضا لا يأمر بالاستئثار والاتساع لِما كُره من النعمة والاستكثار؛ لأن الرضا يأمر بما أمر الإيمان به؛ إذ كان مقامًا فيه، فهو لا يوقِف عمَّا نُدِب إليه العبد، ولا يُدخِل فيما كُره له من فضول الدنيا، إنما يوقِف عن ذلك غلبةُ الهوىٰ،

وتُدخِل فيه محبةُ الدنيا، وهما مذمومان في العلم وعند العلماء، تأمر به النفس الأمَّارة بالسوء، ويوسوس به العدو بالهمِّ والخطو، وهذه مذمومات، فأحالها بجهله على الرضا، وهذه اعتذارات من النفس لها وتمويه على الخَلق ليَسلم منها، ولا عذر له بهذا عند مالكه، ولا سلامة له فيه من خالقه، ولا مقام له في الرضا عند العلماء من أهل الرضا.

(فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم بذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوُّره فيما يخالف الهوى، ثم بذكر ما يُظَن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي) والمناكير.

بيـــان فضيـــلة الرضـــا

(**أما من الآيات: فقوله تعالىٰ:** ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾) [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨] فرضا الرب سبحانه سبب لرضا العبد عن الله، ورضا العبد بالله وعن الله سبب لرضا الله عن عبده، والرضا الأول ذاتيٌّ لتعلُّقه بتخصيص الإرادة، والرضا الثاني فعلٌ؛ لأنه ثواب الله يفيضه علىٰ عبده الراضي زيادةً علىٰ جزائه، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث علىٰ كل خير.

(**وقد قال تعالىٰ:** ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠] **ومنتهَىٰ الإحسان رضا الله عن عبده، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالىٰ**) وروىٰ البيهقي في الشعب[1] عن أبي سعيد الخرَّاز قال في معنىٰ الآية: هل جزاء مَن انقطع عن نفسه إلا التعلُّق بربِّه، وهل جزاء مَن انقطع عن أنس المخلوقين إلا الأنس برب العالمين، وهل جزاء مَن صبر علينا إلا الوصول إلينا، ومَن وصل إلينا هل يجمل به أن يختار علينا، وهل جزاء التعب في الدنيا والنَّصَب فيها إلا الراحة في الآخرة، وهل جزاء مَن صبر علىٰ البلوىٰ إلا التقرُّب إلىٰ الكون، وهل جزاء مَن سلَّم قلبه إلينا أن نجعل تولِّيه إلىٰ غيرنا، وهل جزاء مَن بعُدَ عن الخَلق إلا التقرُّب إلىٰ الحق.

وفي حديث ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما جزاء مَن أنعمتُ عليه بالتوحيد إلا الجنة». تفرَّد به إبراهيم بن محمد الكوفي، وهو منكَر.

وسُئل ذو النون المصري عن هذا، فقال: معناه: هل جزاء مَن أحسنتُ إليه إلا أن أحفظ إحساني عليه فيكون إحسانًا إلىٰ إحسان.

---

(١) شعب الإيمان ٢/ ٢٠ - ٢٢.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾) [التوبة: ٧٢] وناهيك به شرفًا أنه يثمر رضوانَ الله (**فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن**) وهي من أعلىٰ الجِنان (**كما رفع ذِكره فوق الصلاة حيث قال**: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾) [العنكبوت: ٤٥] والذكر عند الذاكرين المشاهدة (**فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة**) وهذا أحد الوجهين[(١)] (**فرضوان رب الجنة أعلىٰ من الجنة، بل هو غاية مطلب سكان الجنة**) والوجه الثاني: ذِكرُ الله تعالىٰ للعبد أكبر من ذكر العبد لله تعالىٰ.

(و) قد رفع الله تعالىٰ الرضا منه فوق ما أعطىٰ من النظر، كما (**في الحديث: إن الله تعالىٰ يتجلَّىٰ للمؤمنين فيقول: سلوني. فيقولون: رضاك**) قال العراقي[(٢)]: رواه البزار[(٣)] والطبراني في الأوسط[(٤)] من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين، وفيه: «فيتجلَّىٰ لهم فيقول: أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي، وهذا محل كرامتي، فسلوني. فيسألونه الرضا». ورواه أبو يعلىٰ[(٥)] بلفظ: «ثم يقول: ماذا تريدون؟ فيقولون: ربنا رضوانك ...» الحديث، ورجاله رجال الصحيح.

قلت: وبخط الحافظ ابن حجر: وفي الباب عن جابر في الشعب للبيهقي، وحذيفة في مسند البزار[(٦)].

قلت: لفظ حديث جابر: «يقول الله تعالىٰ: يا أهل الجنة، بقي لكم شيء

---

(١) ذكر ابن جرير أوجهًا، واختار قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه. انظر: تفسير ابن جرير ١٨/ ٤١١- ٤١٧، والتحرير والتنوير ٢٠/ ١٧٩، ١٨٠.

(٢) المغني ٢/ ١١٥٦.

(٣) مسند البزار ١٤/ ٦٨ - ٦٩.

(٤) المعجم الأوسط ٢/ ٣١٤ - ٣١٥، ٧/ ١٥.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ٧/ ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٦) مسند البزار ٧/ ٢٨٩ - ٢٩٠.

لم تنالوه. فيقولون: وما هو يا ربنا؟ فيقول: رضواني». رواه كذلك الحكيم في النوادر[١].

وروىٰ القشيري في الرسالة بسنده إلىٰ محمد بن المنكدر عن جابر رفعه: «بينا أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور علىٰ باب الجنة، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالىٰ قد أشرف عليهم، فقال: يا أهل الجنة، سلوني. قالوا: نسألك الرضا عنا. قال: رضاي أحلَّكم داري وأنالكم كرامتي، هذا أدناها، فسلوني. قالوا: نسألك الزيادةَ. قال: فيؤتَون بنجائب من ياقوت ...» ثم ساق الحديث، وفيه: «حتىٰ تنتهي بهم إلىٰ جنة عدن. قال: فيُكشَف لهم الحجاب فينظرون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ...» الحديث بطوله، ورواه ابن ماجه[٢] وابن أبي الدنيا في صفة الجنة[٣] وابن أبي حاتم والآجُرِّي في الشريعة[٤] وابن مردويه أيضًا بلفظ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ تعالىٰ قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة. وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨] فينظر إليهم وينظرون إليه حتىٰ يحتجب عنهم، ويبقىٰ نوره وبركته عليهم في ديارهم».

(**فسؤالهم الرضا بعد النظر**) إليه (**نهاية التفضيل**) ومن ذلك ما رُوي في حديث أبي سعيد الخدري: «إن الله تعالىٰ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبَّيك ربَّنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا». رواه

---

(١) نوادر الأصول ص ١٠١٧.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ١٨٥.

(٣) صفة الجنة ص ١٠٦.

(٤) الشريعة ٢/ ١٠٢٨.

أحمد[١] والشيخان[٢] والترمذي[٣] وابن حبان[٤] **(وأما رضا العبد)** بالله وعن الله وفي الله **(فسنذكر حقيقته)** فيما بعد **(وأما رضوان الله تعالىٰ عن العبد فهو بمعنىٰ آخر يقرُب ممَّا ذكرناه في حب الله تعالىٰ للعبد، ولا يجوز أن يُكشَف عن حقيقته؛ إذ تقصُر أفهامُ الخلق عن دركه)** وغاية ما يقال: إن العصمة ظاهر الرحمة، والرحمة أول الرضا من الله، فالعصمة من الله تعالىٰ لعبده دليل الرحمة منه، ثم تُدخِله الرحمةُ في مقام المحبة، وهذه رحمة المحبوبين، ثم ترفعه المحبة إلىٰ مقام الرضا، فتكون المحبة مقامه عن شهادة محبوب، ويكون الرضا حاله في جميع تصريف البعيد والمطلوب **(ومَن يقوَىٰ عليه فيستقلُّ بإدراكه من نفسه. وعلىٰ الجملة، فلا رتبة فوق النظر إليه، فإنما سألوا الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنَّهم رأوه غاية الغايات وأقصىٰ الأماني لمَّا ظفروا بنعيم النظر، فلمَّا أُمِروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفعِ الحجاب)** أي بالرضا دام لهم النظرُ، فلمَّا كان الرضا موجِب النظر سألوا دوامَ الرضا ليدوم القربُ والنظر، فسألوا تمام النعمة من حيث بدايتها. قال صاحب القوت: ولا يصلُح أن يظهر في معنىٰ قولهم «رضاك» أكثر من هذا، ولا تُرسَم في كتاب حقيقة الأمر؛ لأنه عن كشف وصفٍ من صفاته الذاتية موجِبة علىٰ العبد هيبة الربوبية، وخوف هذا عن القلوب محجوب وحكمة من سرائر الغيوب، وهو في الدنيا ثواب لأهل الخشية عن معرفة خاصة، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٨].

(وقال تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: ٣٥] **قال بعض المفسرين فيه: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاثُ تُحَف من عند رب العالمين، إحداها: هدية من عند الله**

---

(١) مسند أحمد ١٨/ ٣٤٩، ٣٩٦.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٢٠٠، ٤٠٨. صحيح مسلم ١/ ١٠١، ٢/ ١٢٩٩.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٣١٤.

(٤) صحيح ابن حبان ١٦/ ٤٧٠.

تعالىٰ ليس عندهم في الجنان مثلها، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] **والثانية: السلام عليهم من ربِّهم، فيزيد ذلك علىٰ الهدية فضلًا، وهو قوله تعالىٰ:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] **والثالثة: يقول الله تعالىٰ: إني عنكم راضٍ. فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم، فذلك قوله تعالىٰ:** ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] **أي من النعيم الذي هم فيه)** نقله صاحب القوت **(فهذا فضل رضا الله تعالىٰ)** عن العبد **(وهو ثمرة رضا العبد)** عن الله تعالىٰ. وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أن الرضوان [الأكبر] جزاء أهل الذكر الأكبر، وهو أحد المعاني في قوله ﷺ: «مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أعطي السائلين»، أي الرضا عنه؛ لأن السائلين سألوه لهم فأعطاهم العفو، والذاكرين ذكروه له فأعطاهم الرضا عنه، ويكون أيضًا معناه: أعطيتُه النظر إليَّ؛ لأن الذكر يُخرِج إلىٰ النظر، فقابَلَ النظرَ إليه اليوم بالنظر إليه غدًا، كما واجَهَ الوصفَ بالوصف في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩] وفي حديث أبي موسىٰ: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ يتجلَّىٰ لنا ضاحكًا». والرضا هو حال الموقن، واليقين هو حقيقة الإيمان.

(وأما الأخبار، فقد رُوي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ قالوا: نصبر علىٰ البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضىٰ بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة) تقدم في كتاب العلم(١).

(وفي خبر آخر أنه قال: حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء) تقدم أيضًا في كتاب العلم.

فما شهد لهم بالإيمان إلا بعد وصف الرضا، وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان، لا يصلُح إلا به، فقال في وصيَّته: للإيمان أربعة أركان

---

(١) بل في كتاب الصبر والشكر، وفي كتاب الزهد والفقر.

لا يصلُح إلا بهن كما لا يصلُح الجسدُ إلا باليدين والرِّجلين ... ذكر منها الرضا بقدر الله تعالىٰ[١].

(وفي الخبر: طوبىٰ لمَن هُدي للإسلام وكان رزقه كفافًا ورضي به) رواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد بلفظ «وقنع به»، وقد تقدم[٢].

(وقال ﷺ: مَن رضي من الله تعالىٰ بالقليل من الرزق رضي الله تعالىٰ عنه بالقليل من العمل) قال العراقي[٣]: رويناه في أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث عليٍّ، ومن طريق المحاملي رواه الديلمي في مسند الفردوس.

قلت: هذا اللفظ ساقه البيهقي في الشعب[٤] من حديث علي، وفي لفظ له[٥]: «مَن رضي من الله باليسير من الرزق ...» الخ. وقد رواه المحاملي من طريق علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده، ولفظه: «انتظار الفرج من الله عبادة، ومَن رضي بالقليل من الرزق رضي الله بالقليل من العمل». ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في الفرج[٦] وابن عساكر[٧].

(وقال) ﷺ (أيضًا: إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه) قال صاحب القوت: رويناه من طريق أهل البيت. وقد تقدم قريبًا نحوه من حديث أبي عنبة الخولاني: «إن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد بعبد خيرًا ابتلاه، فإذا ابتلاه اقتناه ...» الحديث، رواه الطبراني وابن عساكر. ولابن أبي الدنيا في المرض

---

(١) والثلاثة الأخرىٰ هي: التوكل علىٰ الله، والتسليم لقضائه، والتفويض إليه.

(٢) تقدم في كتاب ذم البخل أن حديث فضالة بن عبيد رواه الترمذي وغيره، أما مسلم فرواه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) المغني ٢/ ١١٥٧.

(٤) شعب الإيمان ١٢/ ٣٥٦.

(٥) السابق ٦/ ٣٢٢.

(٦) الفرج بعد الشدة ص ١٠.

(٧) تاريخ دمشق ٥٧/ ١٢٩.

والكفارات[١] من حديث أبي سعيد بسند لين: «إن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبَّره».

(وقال) ﷺ (أيضًا: إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمَّتي أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلىٰ الجنان يسرحون فيها ويتنعَّمون كيف شاءوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حسابًا. فتقول لهم: هل جزتم الصراطَ؟ فيقولون: ما رأينا صراطًا. فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئًا. فتقول الملائكة: من أمَّة مَن أنتم؟ فيقولون: من أمَّة محمد ﷺ. فيقولون: نشدناكم الله، حدِّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلَّغنا اللهُ تعالىٰ هذه المنزلة بفضل رحمته. فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضىٰ باليسير ممَّا قسم لنا. فتقول الملائكة: يحقُّ لكم هذا) نقله صاحب القوت فقال: وروينا حديثًا حسنًا عن حماد بن سلمة عن ثابت البُناني عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة ...» فساقه.

وقال العراقي[٢]: رواه ابن حبان في الضعفاء[٣] وأبو عبد الرحمن السلمي[٤] من حديث أنس، مع اختلاف، وفيه حُمَيد بن علي القيسي، ساقط هالك، والحديث منكَر مخالف للقرآن والأحاديث الصحيحة في الورود وغيره.

قلت: حميد بن علي القيسي لم أجد له ذكرًا في ديوان الضعفاء للذهبي ولا في ذيله، فليُنظَر.

---

(١) المرض والكفارات ص ١٩٦.

(٢) المغني ٢/ ١١٥٧.

(٣) المجروحون من المحدثين ١/ ٣٢٢.

(٤) الأربعون في التصوف ص ١٠. ولفظ الحديث عندهما: «إذا كان يوم القيامة بعث الله عَزَّوَجَلَّ قوما عليهم ثياب خضر بأجنحة خضر، فيسقطون علىٰ حيطان الجنة، فيشرف عليهم خزنة أهل الجنة فيقولون: ما أنتم؟ أما شهدتم الحساب؟ أما شهدتم الوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ؟ قالوا: لا، نحن قوم عبدنا الله عَزَّوَجَلَّ سرا، فأحب أن يدخلنا الجنة سرا».

وقال أبو نعيم في الحلية[1]: حدثنا أبو بكر الطلحي، حدثنا عبيد بن غنَّام، حدثنا جعفر بن أبي الحسن الخوارزمي، حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن إسحاق ابن محمد بن عمران بن موسىٰ بن طلحة بن عبيد الله قال: حدثني أبي، عن الحصين بن حذيفة، عن أبيه، عن أبي صيفي، عن أبيه صهيب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون هم السابقون الشافعون المدلون علىٰ ربهم، والذي نفسي بيده إنهم لَيأتون يوم القيامة وعلىٰ عواتقهم السلاح، فيقرعون باب الجنة، فيقول لهم الخزنة: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن المهاجرون. فيقول لهم الخزنة: هل حوسبتم؟ فيجثون علىٰ رُكَبهم، وينثرون ما في جعابهم، ويرفعون أيديهم فيقولون: ألا يا رب، أبهذه نحاسَب؟ لقد خرجنا وتركنا المال والأهل والولد. فيجعل الله لهم أجنحة من ذهب مخوَّصة بالزبرجد والياقوت، فيطيرون حتىٰ يدخلوا الجنة، فذلك قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: ٣٤ - ٣٥]». قال صهيب: قال رسول الله ﷺ: «فلهم بمنازلهم في الجنة أعرف منكم بمنازلكم في الدنيا».

(**وقال ﷺ: يا معشر الفقراء، أعطُوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلا فلا**) تقدم في كتاب الفقر والزهد بلفظ: «يا معشر الفقراء، أعطُوا الله الرضا من قلوبكم ...» الحديث، وأنه رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف، فيه أحمد بن الحسن بن أبان، متَّهَم بالكذب.

(**وفي أخبار موسىٰ عليه السلام أن بني إسرائيل قالوا له: سَلْ لنا ربَّك أمرًا إذا نحن فعلناه يرضىٰ به عنا. فقال موسىٰ عليه السلام: إلهي، قد سمعتَ ما قالوا. فقال: يا موسىٰ، قل لهم يرضون عني حتىٰ أرضىٰ عنهم**) نقله صاحب القوت، قال: (**ويشهد لهذا**) الخبر (**ما رُوي عن نبيِّنا ﷺ أنه قال: مَن أحب أن يعلم ما له عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده، فإنَّ الله تعالىٰ يُنزِل العبدَ منه حيث أنزله العبدُ من نفسه**) قال: وحدثنا

(١) حلية الأولياء ١/١٥٦.

أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعي بهذا الحديث فرفعه إلىٰ النبي ﷺ.

قال العراقي[١]: رواه الحاكم[٢] من حديث جابر وصحَّحه بلفظ «منزلته» و«منزلة الله».

قلت: ورواه الدارقطني في الأفراد وابن النجار من حديث أنس بلفظ: «مَن أراد أن يعلم ما له عند الله عَزَّوَجَلَّ فلينظر ما لله عَزَّوَجَلَّ عنده». ورواه كذلك أبو نعيم[٣] من حديث أبي هريرة.

(**وفي أخبار داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ) أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود: يا داود (**ما لأوليائي والهم بالدنيا؟ إن الهم**) بالدنيا (**يُذهِب حلاوةَ مناجاتي من قلوبهم**)[٤] نقله صاحب القوت. ورواه البيهقي في الشعب عن بِشر بلفظ: يا داود، إنما خلقتُ الشهوات واللذات لضعفاء عبادي، أما الأبطال فما لهم وللشهوات واللذات؟ يا داود، فلا تعلِّقنَّ قلبك بشيء منها، فأدنىٰ ما أعاقبك به أن أسلب حلاوة حبِّي من قلبك. وقد تقدم. وفي لفظ آخر: (**يا داود، إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين ولا يغتمُّون**) إياك والغم، ولا تهتمَّ بالخبز وأنت تريدني. كذا في القوت. وقال في موضع آخر: وقد روينا في أخبار داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله عَزَّوَجَلَّ أوحىٰ إليه: تزعم أنك منقطع إليَّ، وتدَّعي عشقي، وتسيء الظنَّ بي، أَلْقِ كَنَفَكَ بين يدي أكن أختار لك، فإن محبتي

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٨.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٦٧٧، وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي بقوله: عمر بن عبد الله مولىٰ غفرة ضعيف.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٧٦، ٢٧٤ من طريق البزار ١٧/ ٣٠٧، وقال: غريب. وهو عند ابن المبارك في الزهد (٨٤٩) من حديث سمرة بن جندب.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا ص ١٦٠ عن داود بن هلال بلفظ: «ما لقلوب أحبائي وما للغم بالدنيا، إن الغم بها يمص حلاوة مناجاتي من قلوبهم مصا».

من عبادي أن يكونوا روحانيين لا يغتمُّون، مصابيح القلوب، كن وحدانيًّا تحبِّب العبادَ إليَّ، هنالك أرفع النور لك، شاهِد المخلوقين ببدنك وقلبك، فإذا كنتَ كذلك قضيتَ ما عليك، وبقي ما عليَّ ... في كلام نحوه قال في آخره: ولا تهتمَّ بالخبز وأنت تريدني، آثِرْ هواي علىٰ هواك، واغضبْ لي أشد ممَّا تغضب لنفسك. وقد تقدم بعضه قريبًا.

(**ورُوي أن موسىٰ ﷺ قال: يا رب دلَّني علىٰ أمر فيه رضاك حتىٰ أعمله. فأوحىٰ الله إليه: إن رضائي في كرهك، وأنت لا تصبر علىٰ ما تكره. قال: يا رب، دلَّني عليه. قال: فإنَّ رضائي في رضاك بقضائي**) نقله صاحب القوت. وقال القشيري: وقيل: قال موسىٰ ﷺ: إلهي، دلَّني علىٰ عمل إذا عملتُه رضيتَ به عني. فقال: إنك لا تطيق ذلك. فخرَّ موسىٰ ساجدًا متضرِّعًا، فأوحىٰ الله إليه: يا ابن عمران، إن رضائي في رضائك بقضائي[1]. ا.هـ.

وقال صاحب القوت: وروينا هذا علىٰ وجه آخر: أن بني إسرائيل سألوا موسىٰ ﷺ فقالوا: لو علمنا في أيِّ شيء رضا ربنا ﷻ لفعلناه. فأوحىٰ الله إليه: قل لهم: رضائي أن ترضوا بقضائي.

(**وفي مناجاة موسىٰ ﷺ: يا رب، أيُّ خلقك أحب إليك؟ قال: مَن إذا أخذتُ منه المحبوب سالمني. قال: فأيُّ خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: مَن يستخيرني في الأمر فإذا قضيتُ له سخطَ قضائي**) نقله صاحب القوت، قال: (**وقد رُوي ما هو أشد من ذلك**) كله (**وهو أن الله تعالىٰ قال: أنا الله لا إله إلا أنا، مَن لم يصبر علىٰ**

---

(١) رواه الشجري في أماليه ١/ ٣٥، ٥٠ من طريق أحمد بن أبي الحواري عن علي بن الحسن الكوفي قال: سمعت ابن أبي كريمة قال: قال موسىٰ ﷺ: أي رب، دلني علىٰ عمل إذا أنا عملته نلت به رضاك. فأوحىٰ الله إليه: يا ابن عمران، إنك لن تطيق ذلك، إن رضاي في كرهك ولن تطيقه. فخر موسىٰ ﷺ ساجدا باكيا وقال: اللهم خصصتني بالكلام، ولم تكلم بشرا قبلي، ولن تدلني علىٰ عمل أنال به رضاك. فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا ابن عمران، إن رضاي في رضاك بقدري.

بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرضَ بقضائي فليتَّخذ ربًّا سواي) قال العراقي[١]: رواه الطبراني في الكبير[٢] وابن حبان في الضعفاء[٣] من حديث أبي هند الداري مقتصرًا علىٰ قوله «مَن لم يرضَ بقضائي ويصبر علىٰ بلائي فليلتمس ربًّا سواي». وإسناده ضعيف.

قلت: وكذلك رواه أبو نعيم في الصحابة[٤] وابن عساكر[٥] كلهم من طريق سعيد بن زَيَّاد بن فائد بن زَيَّاد بن أبي هند الداري، عن أبيه زَيَّاد كشَدَّاد، عن أبيه فائد بالفاء، عن أبيه زياد، عن أبيه أبي هند قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، يعني عن ربِّه ... فساقه. قال الحافظ في الإصابة[٦]: فائد وولدُه ضعيفان.

وروىٰ الشيرازي في الألقاب[٧] من حديث علي: «قال لي جبريل: قال الله عَزَّوَجَلَّ: يا محمد، مَن آمن بي ولم يؤمن بالقدَر خيره وشره فليلتمس ربًّا غيري». وفيه محمد بن عكاشة الكِرْماني.

وروىٰ البيهقي[٨] وابن النجار من حديث أنس: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: مَن لم يرضَ بقضائي وقدري فليلتمس ربًّا غيري». ورواه الخطيب[٩] بلفظ: «مَن لم يرضَ بقضاء الله ويؤمن بقدَر الله فليلتمس إلهًا غير الله عَزَّوَجَلَّ».

(ومثله في الشدة قوله تعالىٰ فيما أخبر عنه نبيُّنا ﷺ أنه قال تعالىٰ: قدَّرتُ

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٨.

(٢) المعجم الكبير ٢٢/ ٣٢١.

(٣) المجروحون من المحدثين ١/ ٤١٢.

(٤) معرفة الصحابة ٦/ ٣٠٤٧.

(٥) تاريخ دمشق ٢١/ ٦٠، ٤٣/ ٢٠٩، ٥٤/ ١٠١.

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة ١٢/ ٨٢.

(٧) وكذلك ابن بطة في الإبانة الكبرىٰ ٤/ ٥٩ - ٦٠.

(٨) شعب الإيمان ١/ ٣٧٧.

(٩) تاريخ بغداد ٣/ ١٢.

المقادير، ودبَّرتُ التدبير، وأحكمتُ الصنع، فمَن رضي فله الرضا مني حتىٰ يلقاني، ومَن سخط فله السخط مني حتي يلقاني) نقله صاحب القوت. وقال العراقي[١]: لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني في الأوسط[٢] من حديث أبي أمامة: «خلق الله الخلق، وقضىٰ القضية، وأخذ ميثاق النبيين ...» الحديث، وإسناده ضعيف.

قلت: وتمام حديث أبي أمامة: «وعرشه علىٰ الماء، فأخذ أهل اليمين بيمينه، وأخذ أهل الشِّمال بيده الأخرىٰ، وكِلتا يدي الرحمن يمين، فقال: يا أصحاب اليمين. فاستجابوا لله فقالوا: لبَّيك ربنا وسعديك. قال: ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلىٰ. قال: يا أصحاب الشمال. فاستجابوا لله فقالوا: لبَّيك ربَّنا وسعديك. قال: ألست بربِّكم؟ قالوا: بلىٰ. فخلط بعضهم ببعض، فقال قائل منهم: ربِّ، لِمَ خلطتَ بيننا؟ قال: لهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين. ثم ردَّهم في صلب آدم، فأهل الجنة أهلها، وأهل النار أهلها». قيل: يا رسول الله، فما الأعمال؟ قال: «يعمل كل قوم لمنازلهم». وهكذا رواه عبد بن حميد والحكيم[٣] والعقيلي[٤] وأبو الشيخ في العظمة[٥] وابن مردويه.

وقال صاحب القوت: وفي الخبر: «أول ما كتب الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: إني أنا الله لا إله إلا أنا، مَن رضي بحكمي واستسلم لقضائي وصبر علىٰ بلائي كتبتُه صدِّيقًا، وحشرتُه مع الصدِّيقين يوم القيامة».

قلت: رواه[٦] الديلمي من حديث ابن عباس بلفظ: «أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: بسم الله الرحمن الرحيم، إنه مَن استسلم لقضائي ورضي

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٨.

(٢) المعجم الأوسط ٧/ ٣٢٥.

(٣) نوادر الأصول ص ٣٤.

(٤) الضعفاء الكبير ١/ ١٥٨.

(٥) العظمة ٢/ ٥٩٨.

(٦) الجامع الكبير للسيوطي ٣/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

بحكمي وصبر على بلائي بعثتُه يوم القيامة مع الصدِّيقين».

(وفي الخبر المشهور: يقول الله تعالىٰ: خلقتُ الخير والشر، فطوبَىٰ لمَن خلقتُه للخير وأجريتُ الخيرَ علىٰ يديه، وويل لمَن خلقتُه للشر وأجريت الشرَّ علىٰ يديه، وويل ثم ويل لمَن قال لِمَ وكيف) كذا نقله صاحب القوت. قال العراقي[1]: رواه ابن شاهين في شرح السنَّة[2] من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

قلت: وروىٰ الطبراني[3] من حديث ابن عباس: «إن الله تعالىٰ قال: أنا خلقت الخير والشر، فطوبىٰ لمَن قدَّرت علىٰ يديه الخيرَ، وويل لمَن قدَّرت علىٰ يديه الشرَّ».

(وفي الأخبار السالفة: أن نبيًّا من الأنبياء شكا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ الجوع والفقر والقمل عشر سنين، فما أجيبَ إلىٰ ما أراد، ثم أوحىٰ الله إليه: كم تشكو هكذا؟ كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيتُ عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدَّرتُ عليه فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزَّتي وجلالي لئن تلجلج في صدرك هذا مرة أخرىٰ لأمحونَّك من ديوان النبوَّة) نقله صاحب القوت.

(ورُوي) في بعض الأخبار (أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعض أولاده الصغار يصعدون علىٰ بدنه وينزلون، يجعل أحدهم رِجله علىٰ أضلاعه كهيئة الدَّرَج فيصعد إلىٰ رأسه، ثم ينزل علىٰ أضلاعه كذلك، وهو مطرق إلىٰ الأرض، لا ينطق، ولا يرفع رأسه، فقال له بعض ولده: يا أبتِ، أما ترىٰ ما يصنع هذا بك؟ لو نهيتَه عن هذا.

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٨.

(٢) وكذلك البيهقي في الاعتقاد ص ١٦٤، والرافعي في التدوين ٤/ ٨٩ - ٩٠، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ١٥١.

(٣) المعجم الكبير ١٢/ ١٧٣.

فقال: يا بني، إني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إني تحركت حركة واحدة فأُهبِطتُ من دار الكرامة إلىٰ دار الهوان، ومن دار النعيم إلىٰ دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركة أخرىٰ فيصيبني ما لا أعلم) نقله صاحب القوت، قال: وروينا في بعض الأخبار أنه قال: إن الله تعالىٰ ضمن لي إن حفظتُ لساني أن يردَّني إلىٰ الدار التي أخرجني منها(١).

(وقال أنس بن مالك رضي الله عنه**: خدمت رسول الله** ﷺ **عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلتُه: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لا فعلتَه؟ ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن: ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصمٌ من أهله يقول: دعوه، لو قُضي شيء لكان)** ولفظ القوت: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، ليس كل امرئ كما يريد صاحبه، ما قال لي لشيء فعلتُه لِمَ فعلتَه ... ثم ساقه، وفي آخره: وكان ﷺ يقول: «لو قُضي شيء لكان». وفي بعض أخباره: وإن خاصمني مخاصم قال: «دعوه، لو قُضي شيء كان». هذا لفظ ثلاثة أحاديث، وهذا وصفُ الراضي الموقن [القائم] بشهادته، وقد رُويت لفظة مجملة في شيئين متضادَّين: ما بعثني النبي ﷺ في حاجة قُضيت أو لم تُقضَ إلا قال: «لو قُضي شيء كان». فهذا إذا كان اللفظ راجعًا علىٰ الوصفين فالمعنىٰ: فيما قُضي أيضًا، أي لو قُضي أن لا يُقضَىٰ، فاستوىٰ عنده في القضاء ما قُضي؛ لأنه قد قُضي أن يُقضَىٰ وما لم يقضَ؛ لأنه لم يسبق فيه القضاءُ، وقد يصلُح في هذا الوجه أن لكل حاجة تقديرًا من الوهم، فكأنَّها وإن قُضيتْ إلا أنها علىٰ غير ما تصوَّر في وهمه قال: لو قُضي ذلك لكان. فإن كان اللفظ عائدًا علىٰ ما لم يُقضَ وحده لأن ما قُضي فقد ظهر وبان بلا مسألة، فيكون

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان ص ٢١٨ عن صدقة بن عبد ربه قال: لما كبر آدم جعل بنو بنيه يعبثون به، فيقول له آباؤهم: ألا تنهاهم؟ فيقول: يا بني، إني رأيت ما لم تروا، وسمعت ما لم تسمعوا، رأيت الجنة، وسمعت كلام ربي، وقال لي حين أخرجني منها: إن أنت حفظت لسانك أعدتك إليها. ومن طريق ابن أبي الدنيا رواه قوام السنة في الترغيب والترهيب ٣/ ٢٢٣. وروىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/ ٤٤٨ مثله عن فضالة بن عبيد.

هذا بمعنىٰ قوله في قصة ذي اليدين: «كل ذلك لم يكن»، وقد كان أحدهما وهو النسيان، وهذا أيضًا فيه لطيفة يحتملها التأويلُ أن يريد كل ذلك بمجموعيهما لم يكن. فهذا يرجع بمعنىٰ قوله فيما قُضي: لو قُضي أن لا يُقضَىٰ، كما أن ما لم يُقضَ قد قُضي، أي يُقضَىٰ، رجع القضاء عليهما سواء، فكان ﷺ يرضىٰ بما قُضي كيف قُضي علىٰ ما تصوَّره الوهم أو بخلافه، ويرضىٰ بما لم يُقضَ؛ لأن القضاء فيهما سواء، فينبغي أن يكون الرضا بهما سواء. فبالنظر في هذه الدقائق والوقوف عندها رُفِع القوم عند الله تعالىٰ إلىٰ مقام المقرَّبين، وبالتهاون بها والغفلة عنها نَغِلت القلوبُ ففسدت حتىٰ لم تصلُح للمحبة والرضا. ا.هـ.

وقول أنس المذكور: خدمت رسول الله ﷺ... الخ، تقدَّم له في كتاب أخلاق النبوة بلفظ: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه لِمَ فعلتَه؟ ولا لامني أحدٌ من أهله إلا قال: «دعوه، إنما كان هذا بكتاب [وقدَر]». وقد روىٰ الشيخان[1] من حديث أنس: ما قال لشيء صنعتُه لِمَ صنعتَه؟ ولا لشيء تركتُه لِمَ تركتَه؟ وروىٰ أبو الشيخ في كتاب الأخلاق[2] من حديث له قال فيه: ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحد من أهله قال: «دعوه، فلو قُدِّر شيء كان». وفي رواية له: كذا قُضي. وروىٰ الخرائطي في مكارم الأخلاق[3] من حديثه: «دعوه، فإنه لو قُضي شيء لكان». وعند الدارقطني في الأفراد وأبي نعيم في الحلية[4]: «لو قُضي كان، أو قُدِّر كان».

(ويُروَىٰ) في بعض الأخبار **(أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ**: يا داود، إنك تريد وأريد، وإنما يكون ما أريد، فإن سلَّمتَ لِما أريد كفيتُك ما تريد، وإن لم تسلِّم**

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٢٩٦، ٤/ ٩٨، ٢٧٦. صحيح مسلم ٢/ ١٠٩٢.

(٢) أخلاق النبي وآدابه ١/ ١٧٥، ١٩٢.

(٣) مكارم الأخلاق ص ٤٣.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ١٧٩.

لِما أريد أتعبتُك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد)[(١)] نقله صاحب القوت.

(وأما الآثار، فقد قال ابن عباس ﷺ: أول مَن يُدعَىٰ إلىٰ الجنة يوم القيامة) أي ليدخلها **(الذين يحمدون الله تعالىٰ علىٰ كل حال)**[(٢)] أي في السَّرَّاء والضَّرَّاء.

(وقال عمر بن عبد العزيز) رحمه الله عليه: لقد أصبحتُ و**(ما بقي لي سرورٌ إلا في مواقع القدَر)**[(٣)].

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله تعالىٰ).

وقال أبو عبد الله النِّباجي: من عباد الله خلقٌ يستحيون من الصبر، يتلقَّفون مواقع أقداره بالرضا تلقُّفًا[(٤)].

(وقال ميمون بن مهران) الجزري رحمه الله: **(مَن لم يرضَ بالقضاء فليس لحمقه دواء**[(٥)].

وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: **(إن لم تصبر علىٰ تقدير الله تعالىٰ لم تصبر علىٰ تقدير نفسك.**

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥١٢، ١٢٧١ عن الحسن البصري.

(٢) تقدم هذا مرفوعا من حديثه في كتاب الصبر والشكر.

(٣) تقدم هذا الأثر في كتاب ذم الجاه والرياء بلفظ: «ما قضىٰ الله تعالىٰ لي بقضاء قط فسرني أن يكون قضىٰ لي بغيره، وما أصبح لي هوىٰ إلا في مواقع قدر الله».

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣١٢، وابن أبي الدنيا في كتاب الرضا عن الله بقضائه ص ٦٨. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/ ١٧ بلفظ: «إن لله عَزَّوَجَلَّ عبادا يستحيون من الصبر، يسلكون مسلك الرضا، وله عباد لو يعلمون ما ينزل من القدر لاستقبلوه استقبالا حبا لربهم ولقدره عندهم، فكيف يكرهونه بعدما يقع».

(٥) هو عند الخركوشي في تهذيب الأسرار عن الحسن البصري ص ١٣٠، وعزاه الخوارزمي إليه في كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ٢٦١ بلفظ: «من لم يكن كلامه حكمًا فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن فكره اعتبارًا فهو لهو، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء».

وقال) أبو[١] عبد الرحمن **(عبد العزيز بن أبي رَوَّاد)** بفتح الراء وتشديد الواو، صدوق، عابد، روىٰ له الأربعة، أسند عن كبار التابعين **(ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل، ولا في لبس الصوف والشعر، ولكن الشأن في الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ)**[٢] وقد كان ذهب بصر عبد العزيز هذا منذ عشرين سنة، فلم يعلم به أهله ولا ولدُه، فتأمَّله ابنه ذات يوم فقال له: يا أبتِ، ذهبت عينك؟ قال: نعم يا بني، الرضا عن الله أذهب عينَ أبيك[٣].

(وقال عبد الله بن مسعود) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(لأنْ ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليته كان)**[٤] رواه أبو نعيم في الحلية[٥] من طريق أبي الحكم - أو الحكم - عن أبي وائل عنه قال: ما أحد من الناس يوم القيامة إلا يتمنىٰ ... فساقه، وفيه: ولأن يعض أحدُكم علىٰ جمرة حتىٰ تطفأ خيرٌ من أن يقول لأمر قضاه الله: ليت هذا لم يكن.

(ونظر رجل إلىٰ قرحة في رِجل محمد بن واسع) البصري رحمه الله تعالىٰ **(فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة. فقال: إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج**

---

(١) تهذيب الكمال للمزي ١٨/ ١٣٦ - ١٤٠. تقريب التهذيب لابن حجر ص ٦١٢. التاريخ الكبير للبخاري ٦/ ٢٢.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٥٩ - ٦٠ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ١٣٦ - ١٣٧ عن شقيق بن إبراهيم البلخي قال: كنت رجلا شاعرا، فرزقني الله عَزَّوَجَلَّ التوبة، وإني خرجت من ثلاثمائة ألف درهم، وكنت مرائيا، ولبست الصوف عشرين سنة وأنا لا أعلم، حتىٰ لقيت عبد العزيز بن أبي رواد، فقال: يا شقيق، ليس الشأن في أكل الشعير ولا لباس الصوف والشعر، الشأن في المعرفة أن تعرف الله عَزَّوَجَلَّ، تعبده ولا تشرك به شيئا، والثانية: الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ، والثالثة: تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي المخلوقين.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩١ عن شقيق البلخي.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٦٠.

(٥) حلية الأولياء ١/ ١٣٧.

في عيني) رواه أحمد في الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية[١]: حدثنا محمد بن مصعب قال: سمعت يحيىٰ بن سليم يذكر عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد قال: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة، وكأنَّه رأىٰ ما قد شقَّ عليَّ منها، فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة؟ قال: فسكتُّ، فقال: حيث لم يجعلها علىٰ حدقتي، ولا علىٰ طرف لساني، ولا علىٰ طرف ذَكَري. قال: فهانت عليَّ قرحتُه.

(ورُوي في الإسرائيليات أن عابدًا عبد اللهَ دهرًا طويلاً، فأُرِيَ في المنام: فلانة الراعية رفيقتك في الجنة. فسأل عنها إلىٰ أن وجدها، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلىٰ عملها، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويظل صائمًا وتظل مفطرة، فقال: أما لكِ عملٌ إلا ما رأيتُ؟ فقالت: ما هو واللهِ إلا ما رأيتَ، لا أعرف غيره. فلم يزل يقول: تذكَّري، حتىٰ قالت: خُصَيلة واحدة هي في أن كنت في شدة لم أتمَنَّ أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمنَّ أن أكون في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمنَّ أن أكون في الظل. فوضع العابد يده علىٰ رأسه وقال: أهذه خُصَيلة؟! هذه واللهِ خصلة عظيمة يعجز عنها العباد) كذا لفظ القوت، وقد رواه أبو نعيم في الحلية[٢] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا عبد الله بن محمود، عن عبد الله بن محمد بن يزيد بن خُنَيس، حدثني أبي، عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد قال: بلغني أن عابدًا في بنىٰ إسرائيل يتعبَّد، فأُتِيَ في منامه: إن فلانة زوجتك في الجنة. قال: فلانة ما علمناها. فجاءها فقال لها: إني أحب أن أضيفك ثلاثة أيام مع لياليهنَّ. فقالت: بالرحب والسعة. قال: فضافَها في مكان تعبُّدها تلك الثلاث، يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويصبح صائمًا وتصبح مفطرة، فلمَّا مضت قال: ما لكِ عملٌ غير هذا؟ ما أوثق عملك عندك؟ قالت: يا أخي، ما هو إلا ما رأيتَ، إلا خُصَيلة واحدة. قال: وما تلك الخُصَيلة؟ قالت: إني إن كنت في شدة لم أتمنَّ أني كنت في رخاء، وإن

(١) السابق ٢/ ٣٥٢.

(٢) السابق ٨/ ١٩٣.

كنت جائعة لم أتمنَّ أني كنت شبعانة، وإن كنت في شمس لم أتمنَّ أني كنت في فيء، وإن كنت في مرض لم أتمنَّ أني كنت في صحة. فقال: وأيُّ خُصَيلة هذه؟ هذه واللهِ خصلة يعجز عنها العباد.

(**وعن بعض السلف: إن الله تعالىٰ إذا قضىٰ في السماء قضاءً أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه**) كذا في القوت.

(**وقال أبو الدرداء**) رضي الله عنه: (**ذروة الإيمان الصبرُ للحكم، والرضا بالقدَر**) ولفظ القوت: بما قسم الله له[1]. وقد رواه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا موسىٰ بن هارون الحافظ، حدثنا أبو الربيع وداود بن رشيد قالا: حدثنا بقية، حدثنا بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، حدثني يزيد ابن مرثد الهَمْداني أبو عثمان، عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدَر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب تعالىٰ.

(**وقال عمر** رضي الله عنه: **ما أبالي علىٰ أيِّ حال أصبحتُ وأمسيت من شدة أو رخاء**) رواه ابن عيينة عن أبي السوداء عن أبي مجلز قال: قال عمر: ما أبالي علىٰ ما أصبحتُ علىٰ ما أحب أو علىٰ ما أكره؛ لأني لا أدري الخيرة لي فيما أحب أو فيما أكره[3]. وقد تقدم.

(**وقال**) جعفر بن سليمان الضبعي: قال سفيان (**الثوري**) رحمه الله تعالىٰ: (**كنت يومًا عند رابعة**) العدوية المتوفية سنة ١٣٥ (**فقلت: اللهم ارْضَ عنا. فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راضٍ؟ فقال**) الثوري: (**أستغفر الله**) فهي ذكَّرته بأن رضا الله إنما هو ثمرة رضا العبد عن الله تعالىٰ، فتذكَّر

---

(١) الذي في القوت (والرضا بالقدر) كما في الإحياء.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢١٦.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٥١، والدولابي في الكنىٰ والأسماء ص ٩٨٧، وأبو داود في الزهد ص ١٠٨.

الثوري ورجع إلىٰ نفسه واستغفر (**فقال**) أبو[1] سليمان (**جعفر بن سليمان الضُّبَعي**) البصري، صدوق، زاهد، احتجَّ به مسلم، وروىٰ له البخاري تعليقًا والأربعة، مات سنة ١٧٨ (**فمتىٰ يكون العبد راضيًا عن الله تعالىٰ؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة**) كذا في القوت. ولفظ القشيري: وسُئلت رابعة: متىٰ يكون العبد راضيًا؟ فقالت: إذا سرَّته المصيبة كما سرَّته النعمة.

(**وكان الفضيل**) بن عياض (**يقول: إذا استوىٰ عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالىٰ**) رواه أبو نعيم في الحلية.

(**وقال**) أبو[2] الحسن (**أحمد بن أبي الحَواري**) عبد الله بن ميمون بن العباس ابن الحارث التغلبي الدمشقي، ثقة، زاهد، روىٰ له أبو داود وابن ماجه، مات سنة ٢٤٦ (**قال**) لي (**أبو سليمان الداراني**) رحمه الله تعالىٰ: (**إن الله عَزَّوَجَلَّ من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم. قلت: وكيف ذاك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضىٰ عنه مولاه؟ قلت: نعم. قال: فإنَّ محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه**)[3] نقله صاحب القوت.

(**وقال سهل**) التستري رحمه الله تعالىٰ: (**حظ العبيد من اليقين علىٰ قدر حظِّهم من الرضا، وحظُّهم من الرضا علىٰ قدر عيشهم مع الله عَزَّوَجَلَّ**)[4] نقله صاحب القوت (**وقد قال النبي ﷺ: إن الله عَزَّوَجَلَّ بحكمه وجلاله جعل الرَّوح والفرح في**

---

(١) تقريب التهذيب ص ١٩٩.

(٢) السابق ص ٩٣.

(٣) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣١٢ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢١/ ١٧ نحوه عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا عبد الله النباجي يقول: أتدري أي شيء أراد عبيد الدنيا من مواليهم؟ أرادوا أن يرضوا عنهم، وتدري أي شيء أراد الله عَزَّوَجَلَّ من عبيده؟ أراد أن يرضوا عنه، وما كان رضاهم عنه إلا بقدر رضاه عنهم.

(٤) رواه أبو طاهر السلفي في الطيوريات ٣/ ١٠٧٨، وزاد في آخره: «وعلىٰ قدر قربهم من التقوىٰ أدركوا اليقين».

الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط) قال صاحب القوت: رواه عطية عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا. وقال العراقي[١]: رواه الطبراني[٢] من حديث ابن مسعود، وقد تقدم.

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٩.

(٢) المعجم الكبير ١٠/ ٢٦٦. وفيه: (بقسطه وعدله) بدل: بحكمه وجلاله. وليس فيه (الشك).

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

(اعلمْ) بصَّرك اللهُ تعالىٰ (أن مَن قال) من البَطَّالين: (ليس فيما يخالف الهوىٰ وأنواعَ البلاء إلا الصبر، فأما الرضا فلا يُتصوَّر. فإنما أُتيَ) فيما توهَّمه (من ناحية إنكار المحبة) وقد تقدم بيان مذهبه والاحتجاج عليه (فأما إذا ثبت) ممَّا ذكرناه (تصوُّرُ الحب لله تعالىٰ واستغراق الهم به فلا يخفَىٰ أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب) إذ هو غاية الحب (ويكون) تصوير (ذلك من وجهين، أحدهما) أعلىٰ من الثاني، فالأعلىٰ الذي لا يُتصوَّر وقوعه إلا بعد كمال المحبة (أن يبطُل الإحساس بالألم حتىٰ يجري عليه المؤلمُ ولا يحس، وتصيبه جراحةٌ ولا يدرك ألمَها) وهذه غايته التي وصل إليها، وهذا موجود في الأحوال المعتادة من الصفات البشرية؛ لأن حكمة الله في الصفات البشرية أي قوة غلبته حكمته علىٰ سائر القوىٰ (ومثاله الرجل المحارب، فإنه في حال غضبه) وقد تقوَىٰ القوةُ الغضبية (أو في حال خوفه) وقد تقوَّت أماراتُه (قد تصيبه جراحةٌ وهو لا يحس بها) ولا يدرك لها ألمًا (حتىٰ إذا رأىٰ الدم) بارزًا من موضع الجراحة (استدلَّ به علىٰ الجراحة، بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكةٌ في قدمه ولا يحس بألم ذلك؛ لشغلِ قلبه) بما هو فيه (بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالَّة) أي باردة الحد (يتألم به) لا محالة (فإن كان مشغول القلب بمهمٍّ من مهمَّاته فرغ المزيِّن) من حلاقته (والحجَّام) من حجامته (وهو لا يشعر به) ولهذا أمثلة كثيرة، وفيما ذكره المصنف كفايةٌ (وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقًا بأمر من الأمور مستوفىٰ به) آخذًا بكلِّيته (لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتمُّ له لولا عشقه ثم لا يدرك همه[1] وألمه لفرط استيلاء الحب

---

(١) في الجميع: غمَّه.

علىٰ قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه، وشغلُ القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل، وإذا تُصوِّر هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تُصوِّر في الألم العظيم بالحب العظيم، فإن الحب أيضًا يُتصوَّر تضاعُفه في القوة كما يُتصوَّر تضاعُف الألم، وكما يقوَىٰ حبُّ الصور الجميلة) الظاهرة (المدرَكة بحاسة البصر فكذا يقوَىٰ حبُّ الصور الجميلة الباطنة المدرَكة بنور البصيرة) وهذا ظاهر (وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يُقاس به جمال ولا جلال، فمَن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش) عن عقله (ويغشىٰ عليه فلا يحس بما يجري عليه) لأن الالتذاذ به يُذهِب الإحساسَ (فقد رُوي أن امرأة فتح) بن شُخرف (الموصلي) وكانت من المحبِّين (عثرت) برجلها (فانقلع ظفرُها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه) [1] نقله صاحب القوت.

وروىٰ البيهقي في الشعب[2] عن أبي عثمان الحنَّاط قال: سمعت السريَّ يقول: سمعت فضيلاً يقول: توجَّعت [كفُّ] ابنة له، فعادها فقال لها: يا بنيَّة، كيف كفُّك هذه؟ فقالت له: يا أبتِ، إن الله قد بسط لي من ثوابها ما لا أؤدِّي شكره عليها أبدًا. فتعجبتُ من حسن يقينها. قال الفضيل: فأنا عندها قاعد إذ أتاني ابنٌ لي له ثلاث سنين، فقبَّلتُه وضممتُه إلىٰ صدري، فقالت لي: يا أبتِ، سألتك بالله أتحبه؟ قلت: إي واللهِ يا بنيَّة، إني لأحبه. فقالت لي: سوأة لك من الله يا أبتِ، إني ظننت أنك لا تحب مع الله غير الله. فقلت لها: أي بنيَّة، أوَ لا تحبون الأولاد؟ فقالت: المحبة للخالق، والرحمة للأولاد. قال: فلطم الفضيل علىٰ رأس نفسه وقال: يا رب، هذه ابنتي هجتني في حبها وحب أخيها، وعزَّتك لا أحببت معك أحدًا حتىٰ ألقاك.

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٧/ ١٥٩ - ١٦٠ عن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي.
(٢) شعب الإيمان ٢/ ٣١.

(وكان سهل) التستري **(رحمه الله تعالىٰ به علة يعالج غيرَه منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك)** وعوتِب **(فقال: يا دوست)** أي يا محب **(ضرب الحبيب لا يوجع)** نقله صاحب القوت.

وكان الجنيد يقول: من علامة المحب في المكاره والأسقام هيجانُ المحبة وذِكرُها عند نزول البلاء؛ إذ هو لطفٌ من مولاه ونيل القربة إلىٰ محبوبه وقلة التأذِّي بكل بلاء يصيبه؛ لغلبة الحب علىٰ قلبه.

وقد كان بعض المحبِّين يقول: أصفَىٰ ما أكون ذِكرًا إذا كنت محمومًا.

وهذا الذي ذكره سهلٌ من أن ضرب الحبيب لا يوجع هو مقام الاستغراق، وقد يتفق أن ضرب الحبيب يوجع، كما حُكي أن الحلاَّج حين صُلِب وأُمِر الناس برجمه فرجموه بالحجارة وهو ساكت لا يتأوَّه، فجاءت أخته - وكانت من العارفات - فرجمته بحصاة صغيرة، فقال: آه، فقيل له في ذلك، فقال: ضربُ الحبيب يوجع. وهذا له وجهٌ، حيث إنه صدر ذلك بعد معرفة العذر.

(وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه) ويكرهه بطبعه **(ولكن يكون راضيًا به، بل راغبًا فيه، مريدًا له، أعني بعقله، وإن كان كارهًا)** له **(بطبعه)** وهذا **(كالذي يلتمس من الفَصَّاد الفصدَ، و)** من الحَجَّام **(الحجامةَ، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راضٍ به وراغب فيه، ومتقلِّد من الفَصَّاد)** والحَجَّام **(به منَّةً بفعله)** لِما يجد فيه الشفاء والراحة **(فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك كل مَن يسافر في طلب الربح يدرك مشقةَ السفر)** لا محالة **(ولكن حبه لثمرة سفره)** التي هي الربح **(طيَّبَ عنده مشقةَ السفر)** وسهَّلها عليه **(وجعله راضيًا بها)** وهذه الدرجة واجبة وهي الإيمان بالله يجب كسبُها لِما وردَ فيها من الفضائل، وما قبلها موهبة من الله تعالىٰ لا توجد بالكسب، لكن مقدماتها مكسوبة وهي التخلُّق بالأخلاق المحمودة، فالتخلُّق من جانبك لا من جانب الله، فمتىٰ تخلَّيت عن المذمومات

وتحلَّيت بالمحمودات أفاض الله عليك من نوره ومعرفته ما لا يمكن وصفُه ولا تمكن العبارةُ عنه، وكلَّما ازددتَ معرفةً ازددت رضا إلىٰ ما لا يتناهَىٰ (ومهما أصابته بليَّةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادَّخر له فوق ما فاته رضي به ورغبَ فيه وأحبه وشكر الله عليه. هذا إذا كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازَىٰ به عليه، ويجوز أن يغلب الحبُّ بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنىٰ آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبًا عنده ومطلوبًا، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق، وقد تواصَفَها المتواصفون) من المحبين والعشَّاق (في نظمهم ونثرهم) ورتَّبوا في ذلك مؤلَّفات (ولا معنىٰ له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلىٰ الجمال فما هو إلا جلد) مشتمل (ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث، بدايته) إن نظر إليها فإنها (من نطفة مَذِرة) كما قال تعالىٰ: ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: ٣٧] (ونهايته) إن تأمَّلها فإنها (جيفة قذرة) من أنتن الجيف (وهو فيما بين ذلك) أي بين البداية والنهاية (يحمل العَذِرة) في بطنه، وهذا فيه عبرة لمَن اعتبر. هذا إذا نظر إلىٰ المُدرَك (وإن نظر إلىٰ المدرِك للجمال) المذكور (فهي العين الخسيسة) الناقصة (التي) رُكِّبت فيها حاسَّة الإدراك، وهي (تغلط فيما ترىٰ كثيرًا، فترىٰ الصغير كبيرًا، والكبير صغيرًا، والبعيد قريبًا، والقبيح جميلاً) والساكن[1] متحركًا، والمتحرك ساكنًا، ومن نقصها أنها تبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها، ومن الموجودات بعضَها دون كلِّها، وتبصر غيرَها ولا تبصر نفسَها، وتبصر أشياء متناهية ولا تبصر ما لا نهاية له. علىٰ ما تقدم تفصيل ذلك (فإذا تُصوِّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهَىٰ لكماله، المدرَك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلطُ) والنقص (ولا يدور بها الموت) بخلاف العين، فإنها أول ما يسيل علىٰ الخدين في القبر (بل تبقىٰ بعد الموت حية عند الله، فرِحة برزق الله) فإنها محل المعرفة والمحبة (مستفيدة بالموت

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٤٥.

مزيد تنبُّهٍ واستكشاف. فهذا أمر واضح) لا يلتبس **(من حيث النظر بعين الاعتبار)** إذا توصل فيه **(ويشهد لذلك الوجودُ وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم)** علىٰ اختلاف درجاتهم في الحب **(فقد قال شقيق البَلْخي)** رحمه الله تعالىٰ: **(مَن يرىٰ ثواب الشدة)** وما يترتَّب عليها من حسن الجزاء **(لا يشتهي المَخرجَ منها.**

وقال الجنيد) رحمه الله تعالىٰ: **(سألت)** أستاذي **(سريًّا السقطي)** رحمه الله تعالىٰ: **(هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا. قلت: ولو ضُرِب بالسيف؟ قال: نعم، وإن ضُرِب بالسيف سبعين ضربة، ضربة علىٰ ضربة)** وهذا مقام المستغرق بالحب، فإنَّ نفسه سكنت عن الاضطراب تحت مجاري الأقدار.

(وقال بعضهم: أحببتُ كل شيء يحبه، حتىٰ لو أحب النار أحببتُ دخول النار) وهذا مقام الراضي المحب، كما قال ابن خفيف: الرضا: سكون القلب إلىٰ أحكامه، وموافقة القلب لِما رضي واختار.

وأنشد صاحب مصارع العشاق لسمنون:

ولو قيل طَأْ في النار أعلم أنه ... رضا لك أو مُدْنٍ لنا من وصالك
لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطئتها ... سرورًا لأني قد خطرت ببالك[1]

(وقال بشر بن الحارث) الحافي رحمه الله تعالىٰ: **(مررت برجل)** من العيَّارين **(وقد ضُرِب ألف سوط في شرقية بغداد)** في جناية جناها **(ولم يتكلم)** أي لم يتأوَّه من الضرب **(ثم حُمِل إلىٰ الحبس، فتبعتُه فقلت له: لِمَ ضُربتَ؟ فقال: لأني عاشق. فقلت له: ولِم سكتَّ؟ قال: لأن معشوقي كان بحذائي ينظر إليَّ)** فلم أجد

(١) هذان البيتان جاءا في مصارع العشاق للسراج ١/ ٢٥٢ علىٰ غير هذا النحو، وهذه الأبيات لعبد الله بن عبيد الله العامري المعروف بابن الدمينة، وهي في ديوانه ص ١٥ (ط - مطبعة المنار) مع اختلاف كثير. أما بيتا سمنون اللذان ذكرهما الشارح فقد أوردهما أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣١٠، ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٦.

بسببه ألم الضرب (فقلت) له: هذا في المخلوق (فلو نظرتَ إلىٰ المعشوق الأكبر) كيف كان حالك؟ (قال: فزعق زعقةً خرَّ ميتًا) نقل القشيري نحوه. وهذا كان محبًّا محجوبًا، فلمَّا انكشف له الحجاب لم يتحمَّل فكان سبب زهاق روحه.

(وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ: إذا نظر أهل الجنة إلىٰ الله تعالىٰ) حين يتجلَّىٰ عليهم غُشِيَ عليهم و(ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلىٰ الله تعالىٰ ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله) في الدنيا (إذا لاحظت جلالَه هابت، وإذا لاحظت جماله تاهت.

وقال بشر) الحافي رحمه الله تعالىٰ: (قصدتُ عَبَّادان) وهي قرية في جزيرة قرب البصرة (في بدايتي) أي أول سلوكي (فإذا) أنا (برجل أعمىٰ مجذوم مجنون قد صُرِع) علىٰ الأرض (والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه) من الأرض شفقةً عليه (فوضعتُه في حِجري وأنا أردِّد الكلام) وأدعو له (فلمَّا أفاق) من غشيته (قال: مَن هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربِّي)؟ ثم رجع إلىٰ ربِّه وقال: (لو قطَّعني إربًا إربًا) أي قطعة قطعة (ما ازددت له إلا حبًّا. قال بشر: فما رأيتُ بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتُها) ولفظ القوت: وحدَّثونا عن بشر الحافي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت بعَبَّادان رجلاً قد قطعه البلاء، وقد سالت حَدَقتاه علىٰ خديه، وهو في ذلك كثير الذكر، عظيم الشكر لله عَزَّ وَجَلَّ. قال: وإذا هو قد صُرِع عن جِنَّة. قال: فوضعت رأسه في حِجري وجعلت أسأل الله كشف ما به وأدعو له، فأفاق فسمع دعائي فقال: مَن هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربِّي ويعترض عليه في نِعَمه عليَّ؟ ونحَّىٰ رأسه. قال بشر: فاعتقدتُ أن لا أعترض علىٰ عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وقال أبو محمد السَّرَّاج في مصارع العشاق[1]: حدثنا أحمد بن علي بن ثابت، حدثنا عبد الرحمن بن فضالة، أخبرنا محمد بن عبد الله بن شاذان، سمعت

---

(١) مصارع العشاق ١/ ١٧٦.

طيِّبا المخملي بالبصرة يقول: سمعت علي بن سعيد العطَّار يقول: مررت بعابدان بمكفوف مجذوم، وإذا الزنبور يقع عليه فيقطع لحمه، فقلت: الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلاه به، وفتح من عيني ما أغلق من عينه. قال: فبينا أنا أردِّد الحمد إذ صُرِع، فبينا هو يتخبَّط فنظرت إليه فإذا هو مُقعَد، فقلت: مكفوف يُصرَع مُقعَد مجذوم؟! قال: فما استتممت كلامي حتىٰ صاح: يا مكلَّف، ما دخولك فيما بيني وبين ربي؟ دعْه يعمل بي ما شاء. ثم قال: وعزَّتك وجلالك لو قطَّعتني إربًا إربًا أو صببتَ عليَّ العذاب صبًّا ما ازددتُ لك إلا حبًّا.

(**وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث**) الكوفي، وهو شيخ لابن عدي قد اتَّهمه(١). كذا ذكره الذهبي في الديوان(٢). وأما محمد بن الأشعث الكِندي فتابعي ثقة، ويكنىٰ أبا القاسم (**إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلىٰ وجه يوسف الصدِّيق** عليه السلام) وذلك حين أصابهم القحطُ سبع سنوات متواليات (**كانوا إذا جاعوا نظروا إلىٰ وجهه فشغلهم جمالُه عن الإحساس بألم الجوع**.

بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطعُ النسوة) زوجة الحاجب والساقي والخبَّاز والسجَّان وصاحب الدواب (**أيديهن**) بالسكاكين (**لاستهتارهن بملاحظة جماله حتىٰ**) دهشن و(**ما أحسسنَ بذلك**) الجِراح.

(**وقال سعيد بن يحيىٰ**(٣)) الكوفي العابد، روىٰ عنه ابنُه أحمد (**رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم**): موضع معروف هنالك (**شابًّا وفي يده مُدْية، وهو ينادي**

---

(١) في الكامل لابن عدي ٦/ ٢٣٠٣: «محمد بن محمد بن الأشعث، أبو الحسن الكوفي، مقيم بمصر، كتبت عنه بها، حملته شدة ميله إلىٰ التشيع أن أخرج لنا نسخة قريبا من ألف حديث عن موسىٰ بن إسماعيل بن موسىٰ بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده إلىٰ أن ينتهي إلىٰ علي والنبي ﷺ كتاب كتاب يخرجه إلينا بخط طري علىٰ كاغد جديد فيها مقاطيع، وعامتها مسندة مناكير كلها أو عامتها».

(٢) ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٣٤٣.

(٣) في أ، ب، وط المنهاج ٨/ ٥٤٢: سعيد بن أحمد.

بأعلىٰ صوته والناس حوله وهو يقول:

يـوم الفـراق مـن القيامـة أطـول   والمـوت مـن ألـم التفـرُّق أجمـل

قالـوا الرحيـل فقلت لستُ براحل   لكـن مُهْجتـي التـي ترحَّـل

ثم بقرَ بالمُدْية بطنَه وخرَّ ميتًا، فسألتُ عنه وعن أمره، فقيل لي: إنه كان يهوَىٰ فتىٰ لبعض الملوك حُجِب عنه يومًا واحدًا) رواه أبو محمد السَّرَّاج في كتاب مصارع العشاق.

(ويُروَىٰ) في بعض الأخبار **(أن يونس)** النبي **(قال لجبريل عليهما السلام: دلَّني علىٰ أعبد أهل الأرض. فدلَّه علىٰ رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي، متَّعتني بهما ما شئتَ أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيتَ لي فيك الأمل يا بر يا وَصُول**[1]**)**.

ويُروَىٰ عن عبد الله بن عمر) بن الخطاب **(ﷺ أنه اشتكىٰ له ابنٌ فاشتد وجدُه عليه)** وقلَق **(حتىٰ قال بعض القوم: لقد خشينا علىٰ هذا الشيخ إن حدث**

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٢ عن وهب بن منبه. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ص ١١٧ - ١١٨ من طريق محمد بن معاوية الأزرق عن شيخ له، وزاد: «فقال يونس: يا جبريل، إني إنما سألتك أن ترينيه صواما قواما. قال جبريل: إن هذا كان قبل البلاء قانتا لله هكذا، وقد أمرت أن أسلبه بصره. ثم قال جبريل للرجل: هلم تدعو الله وندعو معك فيرد الله عليك يديك ورجليك وبصرك فتعود إلىٰ العبادة التي كنت فيها. قال: ما أحب ذاك. قال: ولِم؟ قال: أما إذا كانت محبته في هذا فمحبته أحب إليَّ من ذاك. قال يونس: يا جبريل، بالله ما رأيت أحدا أعبد من هذا قط. قال جبريل: يا يونس، هذا طريق لا يوصل إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ بشيء أفضل منه». ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣١٦ عن أبي عبد الله النباجي قال: قال يونس النبي عليه السلام: يا رب، أرني أحب خلقك إليك. فدُفع إلىٰ رجل قد أكلت محاسن وجهه فلم تبق إلا عيناه. قال يونس: يا جبريل، سألت ربي أن يريني أحب خلقه إليه، فدُفعت إلىٰ رجل قد أكلت محاسن وجهه فلم تبق إلا عيناه. قال: نعم يا يونس، وقد أمرني ربي أن أسلبه عينيه. فقال الرجل: الحمد لله، متعتني ببصري ثم قبضته إليك وأبقيت فيَّ الأمل فيما عندك فلم تسلبنيه.

بهذا الغلام حدثٌ) أي أمرٌ حادث من الموت **(فمات الغلام، فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل)** في القوم **(أشد سرورًا أبدًا منه، فقيل له في ذلك، فقال: إنما كان حزني رحمةً له، فلمَّا وقع أمرُ الله رضينا به)**[1] وهذا هو الرضا بعد القضاء الذي جاء ذِكرُه في الخبر المتقدم.

(وقال مسروق) ابن[2] الأجدع بن مالك الهَمْداني الوادعي، أبو عائشة الكوفي، ثقة، فقيه، عابد، مخضرم، مات سنة ٦٢ **(كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك)** كان **(يوقظهم للصلاة، والحمار)** كانوا **(ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خِباءهم، والكلب)** كان **(يحرسهم)** من بغتة العدو **(قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له، وكان الرجل صالحًا فقال: عسىٰ أن يكون خيرًا. ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه، فقال الرجل: عسىٰ أن يكون خيرًا. ثم أصيبَ الكلب بعد ذلك، فقال: عسىٰ أن يكون خيرًا. ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبِيَ مَن حولهم)** من العرب **(وبقوا هم. قال: وإنما أُخِذ أولئك لمَّا كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدَّره الله تعالىٰ)**[3] وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا[4] عن سعيد بن المسيب قال: قال لقمان لابنه: يا بني، لا ينزلنَّ بك أمرٌ رضيتَه أو كرهته إلا جعلتَ في الضمير منك أن ذلك خير لك. فخرج علىٰ حمار، وابنه علىٰ حمار، وتزوَّدا للقاء نبيٍّ قد بُعث، فسارا أيامًا وقد استقبلتهما مَفازةٌ، فسارا فيها ما شاء الله حتىٰ ظهرا وقد تعالىٰ النهارُ، واشتد الحرُّ، ونفد الزادُ، واستبطئا حماريهما فنزلا، فجعلا يشتدَّان علىٰ سوقهما، فبينما هما كذلك إذ نظر لقمان أمامه فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد الشجر، والدخان العمران. فبينما هما كذلك إذ وطئَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا عن الله بقضائه ص ١١٣ عن نافع مولىٰ ابن عمر.

(٢) تقريب التهذيب ص ٩٣٥.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٤٧، وابن أبي الدنيا في كتاب الرضا ص ٦١ - ٦٢.

(٤) الرضا ص ٦٣.

ابنُ لقمان علىٰ عظم، فأتىٰ علىٰ الطريق، فخرَّ مغشيًّا عليه، فوثب إليه لقمان وضمَّه إلىٰ صدره وقال: لعل هذا خير لي. واستخرج العظم بأسنانه، فذرفت عيناه، فقال: يا أبتِ، أنت تبكي وأنت تقول: هذا خيرٌ لي؟ وقد نفد الطعامُ والماء، وبقيت أنا وأنت في هذا المكان، فإن رحلتَ وتركتني ذهبتَ بهمٍّ وغمٍّ، وإن أقمتَ معي متنا جميعًا. فقال: يا بني، أما بكائي فرقَّة الوالدين، وأما ما قلتَ: فكيف يكون هذا خيرًا لي؟ فلعل ما صرفه عنك أعظم ممَّا ابتُليتَ به، ولعل ما ابتُليتَ به أيسر ممَّا صرف عنك. ثم نظر أمامه فلم يرَ ذلك الدخان والسواد، وإذا شخص أقبل علىٰ فرس أبلق، عليه ثياب بِيض، حتىٰ إذا كان قريبًا منه توارَىٰ عنه، ثم صاح به: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك؟ قال: من أنت؟ قال: أنا جبريل، أمرني ربِّي بخسف هذه المدينة، وأُخبِرت أنكما تريدانها، فدعوتُ ربي أن يحبسكما بما يشاء، فحبسكما بما ابتلىٰ به ابنك، ولولا ذلك لخُسِف بكما معهم. ثم مسح جبريل يده علىٰ قدم الغلام فاستوىٰ قائمًا، ورحل بهما إلىٰ موضعهما كما يرحل الطير.

(**فإذًا مَن عرف خفيَّ لطفِ الله تعالىٰ رضي بفعله علىٰ كل حال.**

ويُروَىٰ) في الإسرائيليات (**أن عيسىٰ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **مر برجل أعمىٰ أبرص مُقعَد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمُه من الجُذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلىٰ به كثيرًا من خلقه. فقال له عيسىٰ: يا هذا، أيُّ شيء من البلاء أراه مصروفًا عنك؟ فقال: يا روح الله، أنا خير ممَّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته. فقال له: صدقتَ، هاتِ يدك. فناوله يده**) فأبرأه الله ممَّا كان به (**فإذا هو أحسن الناس وجهًا وأفضلهم هيئة، قد أذهب الله عنه ما كان به**) ببركة رضاه عن ربِّه (**فصحب عيسىٰ**) عَلَيْهِ السَّلَامُ مدةً (**وتعبَّد معه.**

وقطع) أبو[1] عبد الله (**عروة بن الزبير**) بن العوَّام القرشي الأسدي المدني،

---

(١) تهذيب الكمال ٢٠/ ١١ - ٢٥. تاريخ دمشق ٤٠/ ٢٣٧ - ٢٨٦. تاريخ أبي زرعة الدمشقي ص٢٥٦. جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار ص ٢٨٣. الأغاني ١٧/ ١٧٤ - ١٧٥.

أحد فقهاء المدينة السبعة **(رجله من ركبته من آكِلة خرجت بها)** وكان قد خرج إلىٰ الوليد بن عبد الملك، فخرجت برجله الآكِلة فقطعها، وسقط ابنٌ له عن ظهر بيت مشرف علىٰ موضع خيل الوليد فوقع تحت أرجل الدواب فوطئته **(ثم قال)** وقد أتاه رجلٌ يعزِّيه، ولم يدرِ بابنه، وقال له: إن ابنك قطعته الدوابُّ **(الحمد لله الذي أخذ مني واحدة، وايمك لئن كنت أخذتَ لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت)** وقال: لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبًا. هكذا رواه هشام بن عروة. ومن طريق آخر: لمَّا أصيبَ برجله وبابنه محمد قال: اللهم كانوا سبعة فأخذت واحدًا وأبقيتَ ستة، وكنَّ أربعًا فأخذت واحدة وأبقيت ثلاثًا، وايمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد أعفيت. وعن هشام أيضًا قال: وقعت الآكلة في رجله، فقيل له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: إن شئتم. فجاء الطبيب فقال: أسقيك شرابًا يزول فيه عقلُك. فقال: امضِ لشأنك، ما ظننتُ أن خلقًا يشرب شرابًا يزول فيه عقلُه حتىٰ لا يعرف ربَّه. قال: فوُضع الميشار علىٰ ركبته اليسرىٰ ونحن حوله، فما سمعنا له حسًّا، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذتَ لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت **(ثم لم يَدَعْ وِرْدَه)** من القراءة **(تلك الليلة)** وكان وِرده ربع القرآن كل يوم نظرًا في المصحف، ويقوم به الليلَ. وذكر الزبير بن بكَّار أن عيسىٰ بن طلحة جاء إلىٰ عروة حين قدم من عند الوليد بن عبد الملك وقد قُطعت رجله، فقال لبعض بنيه: اكشفْ لعمِّك عن رجلي ينظر إليها. فنظر، فقال عيسىٰ: يا أبا عبد الله، ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لنا ما كنا نحتاج إليه منك: رأيك وعلمك. فقال عروة: ما عزَّاني أحد عن رجلي مثلك.

(وكان ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(يقول: الفقر والغنىٰ مطيَّتان ما أبالي أيَّتهما ركبتُ، إن كان الفقر فإنَّ فيه الصبر، وإن كان الغنىٰ فإنَّ فيه البذل)** رواه الطبراني[1] ومن

---

(١) المعجم الكبير ٩/ ٩٤.

طريقه أبو نعيم في الحلية[١]: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا المسعودي، حدثنا علي بن بذيمة، عن قيس بن حبتر، عن عبد الله قال: ألا حبَّذا المكروهان الموت والفقر، وايم الله إن هو إلا الغنىٰ والفقر، وما أبالي بأيِّهما ابتُليتُ، إن كان الغنىٰ إن فيه للعطف، وإن كان الفقر إن فيه للصبر.

(**وقال أبو سليمان الداراني**) رحمه الله تعالىٰ: (**قد نلتُ من كل مقام حالاً إلا الرضا فما لي منه إلا مثال**[٢] **الريح، وعلىٰ ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيًا**) نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: وقال بعض العارفين ... وساقه. وقال في موضع آخر: ومن الناس مَن كان يقدِّم سليمان بن أبي سليمان الداراني علىٰ أبيه، وكان عارفًا، فقال: مَن تورَّع في كل شيء فقد بلغ حدَّ الورع، ومَن زهد في كل شيء فقد بلغ حدَّ الزهد، ومَن رضي عن الله في كل شيء فقد بلغ حدَّ الرضا. فإنما قال هذا كالرد علىٰ أبيه لما قال: ثلاث مقامات لا حدَّ لها: الورع والزهد والرضا[٣]. ا.هـ. وقد تقدم في كتاب الزهد[٤] عن أبي سليمان نحو هذا أنه ليس له منه إلا مَشام الريح، وتقدم الكلام عليه هناك.

(**وقيل لعارف آخر**) فوقه: (**هل نلتَ غايةَ الرضا عنه؟ فقال: أما الغاية فلا، ولكن مقام**) من (**الرضا فقد نلتُه، لو جعلني جسرًا علىٰ جهنم يعبر الخلائق عليَّ إلىٰ الجنة ثم ملأ بي جهنم تحلَّةً لقَسَمه وبدلاً من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه**) نقله صاحب القوت. وأراد بقوله «تحلَّةً لقسمه» ما ذكره الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم:

---

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٢.

(٢) في الجميع: مشام.

(٣) كلام أبي سليمان وابنه رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٥٨، وابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين ص ٧١، وابن أبي الدنيا في الرضا ص ١١٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٣٤٦.

(٤) بل في كتاب التوكل.

٧١] وقد رُوي هذا القول بوجه آخر، قال القشيري: سمعت السلمي يقول: سمعت عبد الله الرازي يقول: سمعت ابن أبي حسان الأنماطي يقول: سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: سمعت أبا سليمان يقول: أرجو أن أكون عرفت طرفًا من الرضا، لو أنه أدخلني النار لكنت به راضيًا. انتهىٰ.

(وهذا كلام مَن علم أن الحب قد استغرق همَّه حتىٰ منعه الإحساسَ بألم النار، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذَّته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار، واستيلاء هذه الحالة غير مُحال في نفسه، وإن كان بعيدًا من أحوالنا الضعيفة، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحرومُ أحوالَ الأقوياء ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء.

وقال) أبو[1] علي أحمد بن محمد **(الروذباري)** بغدادي، أقام بمصر، ومات بها سنة ٣٢٢، صحبَ الجنيدَ والنوري وابن الجلاء والطبقةَ **(قلت لأبي عبد الله)** أحمد[2] بن يحيىٰ **(ابن الجَلاَّء)** البغدادي الأصل **(الدمشقي)** الإقامة، صحبَ أبا تراب النخشبي وذا النون وأبا عبيد البسري وأباه يحيىٰ الجلاء **(قول فلان[3]: وددت أن جسدي قُرِض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه، ما معناه؟ فقال: يا هذا، إن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف، وإن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف. قال: ثم غشي عليه)** نقله صاحب القوت.

(وقد كان عمران بن الحصين) ﷺ **(قد استسقىٰ بطنُه، فبقي ملقىٰ علىٰ ظهره ثلاثين سنة)** سطيحًا **(لا يقوم ولا يقعد، وقد نُقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته)** غائطه وبوله **(فدخل عليه مطرِّف)** ابن[4] عبد الله بن

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٧.

(٢) السابق ص ٨٤.

(٣) هو زهير بن نعيم البابي، كما رواه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٥٠.

(٤) تقريب التهذيب ص ٩٤٨.

الشِّخِّير العامري الحَرَشي البصري، أبو عبد الله، من ثقات التابعين وعُبَّادهم، روىٰ له الجماعة، مات سنة خمس وتسعين **(وأخوة العلاء)** كذا في النسخ، وفي القوت: أو أخوه أبو العلاء. والصواب: أبو العلاء، وهو[1] يزيد بن عبد الله بن الشخير العامري البصري، مات سنة إحدىٰ عشرة ومائة، ومولده في خلافة عمر، روىٰ له الجماعة **(فجعل)** أي مطرف أو أخوه **(يبكي لِما يرىٰ من حاله، فقال)** عمران: **(لِمَ تبكي؟ قال: لأني أراك علىٰ هذه الحال العظيمة. قال: لا تبكِ، فإن أحبَّه إلىٰ الله تعالىٰ أحبه إليَّ. ثم قال: أحدِّثك شيئًا لعل الله أن ينفعك به، واكتمْ عليَّ حتىٰ أموت، إن الملائكة تزورني فآنَسُ بها، وتسلِّم عليَّ فأسمع تسليمها)**[2] وتقدم في باب التوكل أن ذلك التسليم كان قد انقطع عنه لمَّا اكتوىٰ علىٰ بطنه بإلزام الأمير له، ثم بعد ذهاب أثر الكيِّ عاد إليه ذلك. **(فأعلمَ بذلك)** عمرانُ **(أن هذا البلاء ليس بعقوبة؛ إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة)** وما فيه مثل هذه الآية إنما هو كرامة ورحمة، وذلك أن بلاء العقوبات لا تكون معه الآيات، ولأنه قد كان حزنَ عليه فأراد أن يسُرَّه **(فمَن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضيًا به.**

قال: ودخلنا علىٰ سُوَيد بن مَثْعَبة) هكذا في النسخ بفتح الميم وسكون المثلثة وعين مهملة. وفي بعض النسخ: سويد بن شعبة، وهو تصحيف **(نعوده، فرأينا ثوبًا ملقًىٰ، فما ظننا أنَّ تحته شيئًا حتىٰ كُشف، فقالت له امرأته: أهلي فداؤك، ما نطعمك؟ ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة، ودبرت الحراقفُ)** أي عظام الجنبين[3] **(وأصبحت نضوًا)** أي هزيلاً مثل الثوب الخلق **(لا أطعم طعامًا ولا**

---

(١) السابق ص ١٠٧٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٥٧٩ بلفظ: «اعلم يا مطرف أنه كانت تسلم الملائكة عليَّ عند رأسي وعند البيت وعند باب الحجر، فلما اكتويت ذهب ذلك. فلما برئ كلمه، قال: اعلم يا مطرف أنه عاد إليَّ الذي كنت أفقد، اكتم عليَّ يا مطرف حتىٰ أموت».

(٣) هذا خطأ ظاهر، فقد قال الجوهري في الصحاح ٤/ ١٣٤٣: «الحرقفة: عظم الحجبة وهو رأس الورك، يقال: المريض إذا طالت ضجعته دبرت حراقفه». وقد نقل الزبيدي نفسه ذلك عنه في تاج العروس ٢٣/ ١٣٨.

أسيغ شرابًا منذ كذا، فذكر أيامًا) مضت عليه **(وما يسرُّني أني نقصت من هذا قُلامة ظفر)**[1] نقله صاحب القوت. وهذا مقام الراضي بما أبلاه ربُّه.

قال صاحب القوت: واعتلَّ حذيفة ﵁ علة الموت، فجعل يقول: اخنقني خناقك، فوعزَّتك إنك لَتعلمُ أني أحبك. فلمَّا حضره الموت جعل يقول: حبيب جاء علىٰ فاقة، لا أفلح مَن ندم[2]. قال: ورُوي أيضًا مثل هذا عن أبي هريرة. وأنشدوا:

يا حبيبًا بذكره يُتداوَىٰ ... وصفوُه لكل داء عجيب
مَن أراد الطبيبَ سُرَّ إذا اعـ ... ـتلَّ اشتياقًا إلىٰ لقاء الطبيب
مَن أراد الحبيبَ سار إليه ... وجفا الأهلَ دونه والقريب
ليس داء المحب داء يداوَىٰ ... إنما بُرْؤه لقاء الحبيب[3]

(ولمَّا قدم سعدُ بن أبي وقَّاص) ﵁ **(إلىٰ مكة - وكان قد كُفَّ بصره - جاءه الناس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا، وكان مجاب**

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٦١ عن أبي حيان التيمي عن أبيه قال: قدمت الشام، فقلت: هل من الجند أحد مريض نعوده؟ فقالوا: لا، إلا سويد بن مثعبة الحنظلي، فدخلت عليه، فلولا أني سمعت امرأته تقول: أهلي فداؤك، ما أطعمك؟ ما أسقيك؟ ما ظننت أن دون الثوب شيئًا، إني قد خفت، فكشف الثوب عن وجهه فقال: يا هذا، لعلك يسوءك الذي ترىٰ بي؟ فقلت: نعم - أو قال: قلت: إي والذي لا إله غيره - قال: فلا يسوءك ذلك، فلقد دبرت حرقفتي - أو قال: الحراقف - مني، فما لي ضجعة منذ كذا وكذا إلا علىٰ حر وجهي، والذي نفس سويد بيده ما يسرني أنه نقصت منه قلامة ظفر. ورواه بنحوه: ابن أبي الدنيا في كتاب الصبر ص ١٢١، ١٢٦، وأحمد في الزهد ص ٢٩٠، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٨/ ٢٨٠.

(٢) الشطر الثاني من هذا الأثر قد تقدم في: القول في علامات محبة العبد لله تعالىٰ. أما الشطر الأول فمروي عن معاذ بن جبل، كما أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ١٤٩ - ١٥٠، والبزار في مسنده ٧/ ١١٥، والبيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٣٩٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٨/ ٤٤٣ - ٤٤٤. وكان ذلك في طاعون عمواس. ووقع في بعض الروايات: (غمني غمك) بدل: اخنقني خناقك.

(٣) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

الدعوة) لِما رُوي أن النبي ﷺ دعا له في ذلك فقال: «اللهم أجِبْ لسعد دعوتَه» (قال عبد الله بن السائب) [ابن[1] أبي السائب] واسمه صيفي بن عابد بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو السائب، ويقال: أبو عبد الرحمن، المكي القارئ، له ولأبيه صحبة، وهو والد محمد بن عبد الله، وكان قارئ أهل مكة، وعنه أخذ أهل مكة القراءة، روىٰ له الجماعة إلا البخاري (فأتيته وأنا غلام، فتعرَّفت إليه فعرفني وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم ... فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك فردَّ الله عليك بصرك. فتبسَّم وقال: يا بني، قضاء الله عندي أحسن من بصري) نقله صاحب القوت.

(وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يُعرَف له خبر، فقيل له: لو سألتَ الله تعالىٰ أن يردَّه عليك. فقال: اعتراضي عليه فيما قضىٰ أشد عليَّ من ذهاب ولدي) نقله صاحب القوت.

(و) حُكي (عن بعض العُبَّاد أنه قال: إني أذنبت ذنبًا عظيمًا فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة. وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب، فقيل له: وما هو؟ قال: قلت مرةً لشيء كان: ليته لم يكن) نقله صاحب القوت.

(وقال بعض السلف: لو قُرِض جسمي بالمقاريض لكان أحب إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضِه)[2] نقله صاحب القوت.

(وقيل لعبد الواحد بن زيد) البصري العابد رحمه الله تعالىٰ: (ههنا رجل قد تعبَّد خمسين سنة. فقصده فقال له: يا حبيبي، أخبِرْني عنك هل قنعت به؟ قال: لا.

---

(١) تهذيب الكمال ١٤/ ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٢) رواه أبو داود في الزهد ص ١٣٧ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ص ٦٦٧ عن ابن مسعود بلفظ: «لأن أعض علىٰ جمرة وأقبض عليها حتىٰ تبرد في يدي أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يكن».

قال: فهل أنست به؟ قال: لا. قال: فهل رضيتَ عنه؟ قال: لا. قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم. قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة) نقله صاحب القوت. وقال أبو نعيم في الحلية[1]: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا عمر بن بحر، سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول: حدثنا أبو عبد الله النباجي قال: قيل لعبد الواحد بن زيد: إن بالبصرة رجلاً يصلي ويصوم منذ خمسين سنة. قال: فأتاه عبد الواحد فقال: إن الله شكور، ومَن عملَ له أثابه، فأيُّ شيء أثابك من عملك له منذ خمسين سنة؟ هل قنعت به؟ قال: لا. قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا. قال: فهل أنستَ به بعدُ؟ قال: لا. قال: فإنما ثوابك من عملك المزيد في الصوم والصلاة؟ قال: نعم. قال: لولا أني أستحي منك لأعلمتك أن عملك مدخول. انتهىٰ.

(ومعناه أنه لم يُفتَح لك باب القلب فتترقَّىٰ إلىٰ درجات القرب بأعمال القلوب، وإنما أنت تُعَدُّ في طبقة أصحاب اليمين؛ لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم) ولفظ القوت: أراد بذلك أنه لم يقرِّبك فيجعلك في مقام المقرَّبين فيكون في مزيدك لديه أعمال القلوب، إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين، فمزيدك منه مزيد العموم، وقد يكون الرجل مخلصًا في مقامه وإن كان فوقه فوقٌ.

(ودخل جماعة من الناس علىٰ) أبي بكر **(الشِّبْلي رحمه الله تعالىٰ في مارستان قد حُبِس فيه، وقد جمع بين يديه حجارةً، فقال: مَن أنتم؟ فقالوا: محبُّوك. فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة، فتهاربوا، فقال: ما بالكم ادَّعيتهم محبتي؟ إن صدقتم فاصبروا علىٰ بلائي)** رواه القشيري في الرسالة، ولفظه: حُبِس الشبلي في المارستان، فدخل عليه جماعة، فقال: مَن أنتم؟ فقالوا: محبُّوك يا أبا بكر. فأقبل يرميهم بالحجارة، ففرُّوا، فقال: إن ادَّعيتم محبتي فاصبروا علىٰ بلائي.

وأنشد الشبلي فقال:

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٦٣.

يا أيها السيد الكريم حبُّك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما مرَّ بي عليم[١]

وقد روىٰ صاحب «مصارع العشاق» نحو هذه القصة.

(وللشبلي رحمه الله تعالىٰ:

إن المحبة للرحمن تسكرني وهل رأيتَ محبًا غير سكران[٢]

وقال بعض عُبَّاد أهل الشام) وعلمائهم -وهو ابن محيريز رحمه الله تعالىٰ- كلمة غريبة المعنىٰ، دقيقة في معنىٰ المخالفة لله عز وجل، فإن كان قد فسَّرها فإنه لم يكشف معناها لفهم السامعين منه والحاضرين عنده، فيحتاج تفسيرها إلىٰ تفسير، حُكي عنه أنه قال: **(كلكم يلقىٰ اللهَ عز وجل مصدِّقًا ولعله قد كذَّبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها، ولو كان بها شللٌ)** أي عيب ونقص **(ظلَّ يواريها[٣]. يعني بذلك أن الذهب)** زينة الدنيا وهو **(مذموم عند الله تعالىٰ، والناس يتفاخرون به، والبلاء زينة أهل الآخرة، وهم يستنكفون منه)** أي فأنت إذا أعطاك زينة الدنيا التي ذمها عندك أظهرت سننها وفخرتَ بها، وإذا أعطاك زينة الآخرة التي مدحها عندك وهي المصائب والبلايا والفقر كرهتَها وأخفيتَها لئلاَّ تُعاب بذلك. فحسب عليه حب الدنيا والغنىٰ والتزيُّن به وكراهة البلاء والفقر تكذيبًا لله تعالىٰ وردًّا عليه ما وصفه، وهذا يدخل في باب الزهد وفي باب الرضا، ويدخل علىٰ مَن أخفَىٰ الفقر والبلاء حياءً من الناس لئلاَّ يُعاب بذلك، فهو من ضعف يقينه وقوة شاهد الخلق، ويدخل فيه مَن أظهر الغنىٰ من غير نية ولا تحدُّث بنعم الله تعالىٰ، فذلك أيضًا من قوة شاهِد حب الدنيا. كذا في القوت.

---

(١) البيتان في ديوان الشبلي ص ١٢٢.
(٢) البيت في ديوان الشبلي ص ١٢٩.
(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ١٤٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٣/ ١٩.

(وقيل: إنه وقع الحريق في السوق) ببغداد (فقيل للسري) السقطي رحمه الله تعالىٰ، وكان له دكان في ذلك السوق يتجر فيه، فخرج في قِطْع من الليل، فاستقبله قوم فقالوا: يا أبا الحسن (احترق السوق) واحترقت دكاكين الناس (وما احترق دكانك) وسَلِمَ (فقال: الحمد لله. ثم) تفكَّر و(قال: كيف قلتُ الحمد لله علىٰ سلامتي) أي سلامة مالي (دون المسلمين) لأنها كلمة رضا ظهرت منه في مكان الاسترجاع للمصيبة (فتاب من التجارة) وتصدَّق بجميع ما في دكانه من السفط والآلة (وترك الحانوت بقية عمره توبةً) إلىٰ الله وكفَّارة (واستغفارًا من قوله: الحمد لله) فشكر الله له فِعله فزهَّده في الدنيا، ورفعه إلىٰ مقام المحبة، فأوصله بذلك الرضا إلىٰ الرضا. قال صاحب القوت: وبلغني أنه كان يقول: قلت كلمة فأنا أستغفر الله تعالىٰ منها منذ ثلاثين سنة. يعني قوله: الحمد لله. وفي الخبر: «مَن لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس من المسلمين».

(فإذا تأمَّلتَ هذه الحكايات عرفتَ قطعًا أن الرضا بما يخالف الهوىٰ ليس مستحيلاً، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين، ومهما كان ذلك ممكنًا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنًا في حق حب الله تعالىٰ وحظوظ الآخرة قطعًا، وإمكانه من وجهين، أحدهما: الرضا بالألم لِما يُتوقَّع من الثواب الموجود، كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارًا للشفاء) والراحة (والثاني: الرضا به لا لحظٍّ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له، فقد يغلب الحبُّ بحيث ينغمر مرادُ المحب في مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه، كما قيل:

* فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألمُ[1] *

---

(١) عجز بيت، صدره:

إن كان سركم ما قال حاسدنا

وهو للمتنبي في ديوانه ص ٣٣٣.

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم) الحاصل في الحال (وقد يستولي الحبُّ بحيث يدهش عن إدراك الألم، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالَّة علىٰ وجوده، فلا ينبغي أن ينكره مَن فقده من نفسه؛ لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه، ومَن لم يذُق طعم الحب لم يعرف عجائبه) كما قيل:

ولـو يـذوق عاذلـي صَبابتـي ... صَبـا معـي لكنـه مـا ذاقهـا[1]

(فللمحبين عجائب أعظم ممَّا وصفناه، وقد رُوي عن عمرو بن الحارث الرافقي) منسوب إلىٰ الرافقة: مدينة جانب الرقة، بناها المنصور، وأتمَّها المهدي، ونزلها الرشيد[2]، وهي الآن تُعرَف بالرقة (قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي، وكان معنا فتىٰ يتعشَّق جارية مغنية، وكانت معنا في المجلس، فضربت بالقضيب) أي العود (وغنَّت) البيتين:

(علامـة ذلِّ الهـوىٰ علـىٰ العاشـقين البـكا

ولا سـيَّما عاشـق إذا لـم يجـد مُشـتكي

فقال لها الفتىٰ: أحسنتِ واللهِ يا سيدتي، أفتأذنين لي أن أموت؟ فقالت: مِتْ راشدًا. قال: فوضع رأسه علىٰ الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه، فحركناه فإذا هو ميت)[3] وأخرج أبو محمد السَّرَّاج في مصارع العشاق[4] من طريق أبي الطيب محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الصوفي قال: رأيت ببغداد صوفيًّا حضر عند جارية بالكرخ تقول بالقضيب:

---

(١) تقدم هذا البيت مرارا.

(٢) ذكره الحميري في كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٢٦٣ (ط - مكتبة لبنان).
وانظر: معجم البلدان ٣/ ١٥.

(٣) هذه القصة ذكرها أبو الطيب الموشىٰ في كتاب الموشىٰ ص ٧٨ - ٧٩ بسياق أطول.

(٤) مصارع العشاق ٢/ ٢٢٠.

يا بديع الدل والغنج ... لك سلطان على المُهَج

إن بيتًا أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السُّرُج

وجهك المعشوق حُجتنا ... يوم يأتي الناس بالحجج

فتواجد وصاح ودقَّ صدرَه إلى أن أغمي عليه فسقط، فلمَّا انقضى المجلسُ حرَّكوه فوجدوه ميتا، وذلك في سنة ٣٥٠.

وحدث[١] العتبي، عن أبيه، عن رجل، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ﷺ قال: وليت صدقات بني عُذْرة. قال: فدُفِعتُ إلى فتى تحت ثوب، فكشفتُ عنه فإذا رجل لم يبقَ منه إلا رأسه، فقلت: ما بك؟ فقال:

كأنَّ قَطاةً عُلِّقتْ بجناحها ... على كبدي من شدة الخَفَقان

جعلتُ لعَرَّاف اليمامة حكمه ... وعرَّاف نجد إن هما شفياني

ثم تنفس حتى ملأ منه الثوب الذي كان فيه، ثم خمد فإذا هو قد مات، فأُصلِحَ من شأنه وصليتُ عليه، فقيل لي: أتدري مَن هذا؟ هذا عروة بن حزام[٢].

(وقال الجنيد) قُدِّس سره: **(رأيت رجلاً متعلقًا بكُمِّ صبي، وهو)** أي الرجل **(يتضرَّع إليه)** ويتذلَّل له **(ويُظهِر له المحبةَ، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تُظهِر لي؟ فقال)** الرجل: **(قد علم الله أني صادق فيما أُورِدُه)** من المحبة **(حتى لو قلتَ لي متْ)** يا فلان **(لمتُّ. فقال: إن كنتَ صادقًا)** فيما تقول **(فمتْ. قال: فتنحَّى الرجل وغمض عينيه، فوُجِد ميتًا.**

وقال سمنون) بن حمزة البغدادي **(المحب)** رحمه الله تعالى: **(كان في جيرتنا رجل، وله جارية يحبها غاية الحب، فاعتلَّت الجارية)** أي مرضت **(فجلس**

---

(١) السابق ١/ ٣٠.

(٢) والبيتان في ديوانه ص ١٢٨ (ط - وزارة الثقافة السورية).

الرجل ليُصلِح لها حيسًا) وهو[1] تمر يُنزَع نواه ويُدَق مع أَقِط ويُعجنان بالسمن، ثم يُدلَك باليد حتىٰ يبقىٰ كالثريد، وربما جُعل معه السويق **(فبينا هو يحرك القِدر إذ قالت الجارية: آه. قال: فدهش الرجل، وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك ما في القِدر بيده حتىٰ تساقطت أصابعه)** ولم يحسَّ بها **(فقالت الجارية: ما هذا؟ قال: هذا موضع قولك آه)**[2].

(وحُكي عن) أبي[3] جعفر **(محمد بن عبد الله)** بن المبارك المُخَرَّمي **(البغدادي)** ثقة، حافظ، مات سنة بضع وخمسين [ومائتين] روىٰ له البخاري وأبو داود والنسائي **(قال: رأيت بالبصرة شابًّا علىٰ سطح مرتفع وقد أشرف علىٰ الناس وهو يقول:**

مَـن مـات عشـقًا فليمـتْ هكـذا لا خيـر في عشـق بـلا مـوت

ثم رمىٰ بنفسه إلىٰ الأرض، فحملوه ميتًا)[4] ولفظ القشيري في الرسالة: وقيل: إن شابًّا أشرفَ علىٰ الناس في يوم عيد وقال: مَن مات عشقًا ... الخ، وألقىٰ نفسَه من سطح عالٍ فوقع ميتًا.

(فهذا وأمثاله قد يصدَّق به في حب المخلوق، والتصديق به في حب الخالق أَولىٰ؛ لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربَّانية أوفىٰ من كل جمال، بل كل جمال في العالَم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضًا هذه اللذَّات التي لا مَظنَّة لها سوىٰ القلب) والله الموفَّق.

---

(١) المصباح المنير ص ١٥٩.

(٢) المقدمة في التصوف للسلمي ص٢٤.

(٣) تقريب التهذيب ص ٨٦٥.

(٤) المقدمة في التصوف للسلمي ص٢٥.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

(و) أنه (لا يُخرِج صاحبَه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضًا، وقد غلط في ذلك بعض البَطَّالين المغترِّين) من المتأخرين ممَّن لا علم له ولا يقين (وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره فيجب الرضا به، وهذا) منه (جهلٌ بالتأويل) والتفصيل، واتِّباع لِما تشابَهَ من التنزيل (وغفلة عن أسرار الشرع) وبطلان قول هذا أوضح من أن يُدَلَّ علىٰ فساده، كما تقدم قريبًا (فأما الدعاء فقد تُعُبِّدنا به، وكثرة دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام - علىٰ ما نقلناه في كتاب الدعوات - تدل عليه، ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلىٰ المقامات من الرضا، ولقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾) [الأنبياء: ٩٠] وقال صاحب القوت: ولا يُنقِص الراضي من مقام الرضا مسألةُ مولاه مزيدَ الآخرة وصلاح دنياه تعبُّدًا لله بذلك وافتقارًا إليه في كل شيء؛ لأن في ذلك رضاه ومقتضَىٰ تمدُّحه بمسألة الخلائق له، فإن صرف مسائله إلىٰ طلب النصيب من المولىٰ وابتغاء القرب منه حبًّا له وأثرة علىٰ ما سواه كان فاضلاً في ذلك؛ لأنه قد ردَّ قلبه إليه وجمع همَّه بذلك، وهذا مقام المقرَّبين، وهو علىٰ قدر مشاهدة الراضي عن معرفته ومقتضَىٰ حاله؛ لأنه يسأل عن علمه بعلمه في وقت من أحواله كما يسأل عن جملة أعماله بعلومه مدة عمره، فهذا أصل فاعرفْه، فعليه عمل العاملون، وهو طريق العارفين من السلف، فلم يضرَّهم عندهم خلافُ مَن خالف وإن كان دعاؤه تمجيدًا لسيده وثناءً عليه وشغلاً بذكره ونسيانًا لغيره وولهًا بحبه؛ لأنه يستوجب ذلك بوصفه، ولأنه واجب عليه، فقد استغرقه وجوبُ ما عليه عمَّا له، فهذا أفضل، وهو مقام المحبين، وهو من القيام

بشهادته، وقد دخل فيما ذكرناه من مقتضىٰ حاله بالعمل بعلمه في وقته (**وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبَّد الله تعالىٰ به عبادَه وذمَّهم علىٰ الرضا به فقال: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾**) [يونس: ٧] فذمَّهم علىٰ رضاهم بالدنيا وبالمعاصي وبالتخلُّف عن السوابق، وقال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٣] فعابهم بذلك (**وقال تعالىٰ: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾**) [التوبة: ٩٣] يعني مع النساء في القعود عن القيام بالجهاد، وهو جمع التأنيث، فمَن رضي بالمعاصي والمناكير منه أو من غيره وأحب لأجلها ووالَىٰ ونصر عليها أو ادَّعىٰ أن ذلك يدخل في مقام الرضا الذي يجازَىٰ عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالىٰ ومدحهم، فهو مع هؤلاء الذين ذمَّ اللهُ ومقتَ.

(**وفي الخبر المشهور: مَن شهد منكَرًا فرضي به فكأنَّما قد فعله**) كذا في القوت، وقد تقدم في كتاب الأمر بالمعروف. وروىٰ أبو يعلىٰ[١] من حديث الحسين بن علي ﵄: «مَن شهد منكرًا فكرهه كان كمَن غاب عنه، ومَن غاب عن أمر فرضي به كان كمَن شهده».

(**وفي الحديث: الدالُّ علىٰ الخير[٢] كفاعله**) رواه الإمام أبو حنيفة عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعًا، ومن طريقه رواه العسكري في الأمثال. ورواه البزار من حديث أنس. ورواه ابن منيع من حديث ابن عباس بزيادة في أوله وآخره، وقد تقدم في كتاب العلم. ويوجد في بعض نسخ الكتاب: «الدالُّ علىٰ الشر كفاعله». وهكذا هو في القوت أيضًا. وقال العراقي[٣]: رواه

---

(١) مسند أبي يعلىٰ ١٢/ ١٥٥.

(٢) في الجميع: الشر. وهو الصواب لا غير، لموافقته لأصله الذي هو قوت القلوب، ولعل ما هنا ذهول من الناسخ.

(٣) المغني ٢/ ١١٥٩.

الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدًّا[١].

(وعن ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(إن العبد لَيغيبُ عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضىٰ به)** نقله صاحب القوت.

(وفي الخبر: لو أن عبدًا قُتل بالمشرق ورضي بقتله آخَرُ بالمغرب كان شريكًا في قتله) كذا في القوت. قال العراقي[٢]: لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ، ولابن عدي من حديث أبي هريرة: «مَن حضر معصية فكرهها فكأنَّما غاب عنها، ومَن غاب عنها وأحبها فكأنَّما حضرها». وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف. انتهىٰ.

قلت: ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والبيهقي وضعَّفه.

(وقد أمر الله تعالىٰ بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقِّي الشرور فقال تعالىٰ): ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١] وقال: (﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾) [المطففين: ٦٢] وقال: ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٦١] فندب إلىٰ المسارعة والسباق، وذمَّ التخلُّف عنها بما حبس وعاقَ، فعلىٰ هذا طريق المؤمنين، وفيه مقامات الموقنين. ويُروَىٰ من طريق مرسَل عن النبي ﷺ: «مَن نظر إلىٰ مَن فوقه في الدين وإلىٰ مَن دونه في الدنيا كتبه الله صابرًا شاكرًا، ومَن نظر إلىٰ مَن دونه في الدين ومَن فوقه في الدنيا لم يكتبه الله لا صابرًا ولا شاكرًا». قال صاحب القوت: ففيه أربعة معانٍ حسان إذا تدبَّرها العبد وتفكَّر فيها لم يعدم أن يرىٰ أهلها؛ لأنه لا يخلو أن يرىٰ بعينه أو بقلبه عن معرفة بسيرة المتقدِّمين، فيرىٰ مَن فوقه في باب الدنيا فيشكر الله علىٰ حاله، ويَقنع منه برزقه، فيكون صابرًا شاكرًا بمعرفة ما قنع به ورضي، وباختياره له ما صُرِف

---

(١) أخرجه الإسماعيلي في معجم شيوخه ١/ ٤٦٥ من حديث أنس، وفيه زياد بن ميمون، وهو متروك.
وانظر: مختصر الكامل في الضعفاء للمقريزي ص٣٤٣.

(٢) السابق ٢/ ١١٥٩.

عنه من الفضول وزُوِي عنه من الحساب الطويل. ولا يخلو أن يرىٰ مَن فوقه في أمر الدين من العاملين والعالِمين والزاهدين، فيسارع إلىٰ ذلك ويسابق وينافس فيه؛ إذ قد نُدِب إلىٰ ذلك، فيكون حظًّا له وحضًا علىٰ افتعال الخيرات وأعمال الصالحات، وأقل ما يفيده ذلك الإزراءُ علىٰ نفسه والمقت لها في تقصيره. ثم ينظر في الأمرين الآخرين من وجه آخر، فلا يخلو أن يرىٰ مَن هو دونه في أمر الدنيا من ذوي الفاقات والحاجات، فيحمد الله تعالىٰ علىٰ تفضيله عليه وحُسن صونه له، ويشكر نعمته لفضل إحسانه وكفايته له. ويجد أيضًا في المعنىٰ الآخَر مَن هو دونه في أمر الدين من الفجرة والظالمين وأهل البدع والزائغين، فيفرح بفضل الله ورحمته، ويشكر الله علىٰ حُسن إسلامه وجميل معافاته ممَّا ابتلىٰ به غيرَه، فيكون أيضًا صابرًا شاكرًا. فيكون للعبد في هذه الطبقات من الناس أربع معاملات بما وهب اللهُ له من التبصرة والاعتبار.

(و) يشهد لِما ذكرناه ما (**قال النبي ﷺ: لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله حكمةً فهو يبثُّها في الناس ويعلِّمها، ورجل آتاه الله مالاً فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق**) رواه البخاري من طريق يحيىٰ بن سعيد القَطَّان، ومسلم من طريق ابن نُمَير ومحمد بن بشر، ثلاثتهم عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن ابن مسعود رفعه، ورواه النسائي عن سُوَيد بن نصر، عن ابن المبارك، عن إسماعيل بن أبي خالد، ولفظهم جميعًا: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويعلِّمها». وقد تقدم في كتاب العلم (**وفي لفظ آخر**): «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناءَ الليل وآناء النهار» (**ورجل آتاه الله القرآنَ فهو يقوم به آناء الليل و**) آناء (**النهار**) رواه كذلك الشيخان والترمذي وابن ماجه من طريق سفيان ابن عيينة عن الزهري عن سالم عن أبيه مرفوعًا، لكن بتقديم الشطر الثاني علىٰ الأول. زاد صاحب القوت: (**فيقول الرجل: لو آتاني الله تعالىٰ مثل ما آتىٰ هذا لفعلتُ مثل ما**

يفعل) فندب ﷺ إلىٰ الحسد في أعمال البِر، وفضَّل الحاسدَ علىٰ ذلك؛ لأن الله تعالىٰ ندب إلىٰ التنافس في أعمال الخير، فمَن حسد في هذه الثلاث ونحوها للغبطة بها والطلب لها لم يخرجه ذلك من الرضا، وكان له مزيد، بعد أن لا يحب زوالها عن أهلها ولا نقصهم منها، ولا أن لا يُذكَروا بها، ولا يحبها هو أيضًا ليُذكَر كما ذُكِروا ويُمدَح كما مُدِحوا. فهذه المعاني آفات هذه الفضائل، ولكل شيء آفةٌ مَن وُقيَها حصلت له الفضيلة، ومَن وقع فيها فحيدُها عنه خيرٌ له؛ لأنه أسلمُ، ولا فضل إلا بعد حوز السلامة.

(وأما بغضُ الكفار والفجّار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يُحصَىٰ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] **وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾)** [المائدة: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٩] **(وقال تعالىٰ)** في مثله: (﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا﴾) ثم قال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ﴾ [النساء: ١١٥] فبغض المبتدع والفاجر [المجاهر] والظالم المعتدي وتركُ موالاتهم ونصرتهم واجب علىٰ المؤمنين.

(وفي الخبر: إن الله تعالىٰ أخذ الميثاق علىٰ كل مؤمن أن يبغض كل منافق، وعلىٰ كل منافق أن يبغض كلَّ مؤمن) ولفظ القوت: وقد روينا في خبر: «إن الله أخذ علىٰ كل مؤمن من الميثاق ...» والباقي سواء.

وقال العراقي(١): لم أجد له أصلاً.

(وقال ﷺ: المرء مع مَن أحَبَّ) وله ما اكتسب. رواه الترمذي من طريق

---

(١) المغني ٢/ ١١٥٩.

أشعث عن الحسن عن أنس، وقد تقدم. والشطر الأول متفق عليه من حديث شعبة عن قتادة عن أنس، ومن حديث الأعمش عن شقيق عن أبي موسىٰ وابن مسعود، وقد تقدَّم.

(وقال) ﷺ: (مَن أحب قومًا ووالاهم حُشِر معهم يوم القيامة) قال العراقي[١]: رواه الطبراني[٢] من حديث أبي قرصافة وابن عدي[٣] من حديث جابر: «مَن أحب قومًا ووالاهم حُشِر في زُمرتهم». وفي لفظ له بزيادة «يوم القيامة»، وفي طريقه إسماعيل بن يحيىٰ التيمي، ضعيف. انتهىٰ.

قلت: وفي بعض نسخ الكامل لابن عدي «علىٰ أعمالهم»، بدل: ووالاهم. وقال الذهبي في الديوان: إسماعيل بن يحيىٰ بن عبيد الله أبو يحيىٰ التيمي كذاب عدم، وأبوه شيخ ابن المبارك متروك هالك[٤].

(وقال ﷺ: أوثق عُرَىٰ الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله) رواه الطيالسي[٥] وأحمد[٦] وابن أبي شيبة[٧] والبيهقي[٨] من حديث البراء بلفظ: «إن أوثق عُرَىٰ الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله». وقد تقدم في كتاب آداب الصحبة. وروىٰ الطبراني في الكبير[٩] من حديث ابن عباس: «أوثقُ عُرَىٰ الإيمان الموالاة في الله

---

(١) السابق ٢/ ١١٦٠.

(٢) المعجم الكبير ٣/ ٣.

(٣) الكامل في الضعفاء ١/ ٢٩٩.

(٤) عبارة الذهبي في ديوان الضعفاء والمتروكين ص ٣٨: «إسماعيل بن يحيىٰ بن عبيد الله أبو يحيىٰ التيمي، متروك كأبيه».

(٥) مسند الطيالسي ٢/ ١١٠.

(٦) مسند أحمد ٣٠/ ٤٨٨.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ١٠٩، ١٢/ ٣١.

(٨) شعب الإيمان ١/ ١٠٤ - ١٠٥، ١٢/ ٧٥.

(٩) المعجم الكبير ١١/ ٢١٥.

والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله».

(وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله في كتاب آداب الصحبة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا نعيده) وقال صاحب القوت بعد أن ذكر حديث «أوثق عُرَىٰ الإيمان» ما لفظه: فجعل ذلك من أوثق العُرَىٰ؛ لأنه منوط بالإيمان، لا يستطيع الشيطان حلَّه، ولا سلطان له عليه، كما لا سبيل له علىٰ حل عقد الإيمان؛ لأن الله يحول بينه وبينه، وقد تولَّىٰ تأييد الإيمان بروح منه بعد كَتْبه في القلوب برحمته، وفي الحب في الله الموالاة والنصرة بالنفس والمال والفعل والقول، وفي البغض في الله تركُ ذلك كله والمنابذة والمبايَنة، ولأجل ذلك صارت الموالاة لأولياء الله والمُعاداة لأعدائه من أوثق عُرَىٰ الإيمان؛ لأنك قد تعصي وتخالف مولاك لتسليط العدو وغلبة هواك، إلا أنك تبغض العاصين، ولا تواليهم علىٰ المعاصي، ولا تحبهم من أجلها، من قِبَل أن العدو لم يسلَّط علىٰ ذلك منك كما سُلِّط علىٰ فعله من نفسك، كما أنه لم يسلَّط علىٰ حل عقد إيمانك كما سُلِّط علىٰ حل المراقبة والمخافة منك، ولم يسلَّط أيضًا عليك في استحلال المحارم واستحسانها ولا التزيُّن بها ولا في ترك التوبة منها ولا بالرضا بها كما سُلِّط عليك باقترافها، فإن سُلِّط علىٰ مثل هذا منك العدوُّ حتىٰ تحب الفسَّاق وتواليهم وتنصرهم علىٰ فسقهم أو تستحل ما يرتكبون من الحرام أو ترضىٰ به أو تدين به فقد انسلخ منك الإيمانُ كما انسلخ الليل من النهار، فلستَ منه في كثير ولا قليل؛ لأن هذه العقود مرتبطة بعُرَىٰ الإيمان، وهي وهو في قرن واحد مقرونان، فهذا من كبائر الكبائر التي تنحلُّ عُقَد الإيمان معها وتنتقض عُراه بها من قِبَل أن الموالاة والمحبة لأعداء الله تعمل في أصل الدين، وتمحو ثَبْتَ اليقينِ، فلا تُبقِي منه نورًا؛ لأنه ليس مَن عصىٰ إمامه فيما أمره مثل مَن قلب دولتَه وخرج عليه بالسيف، وليس مَن وافق هوىٰ نفسه فيما نهىٰ اللهُ مثل مَن فرَّق ما وفَّق الله فيما كتب وأرسل فنبذ كتبه وردَّ يده في أفواه الرسل مسكتًا. فإن تكن مقامات هؤلاء الظالمين والفاسقين

توجب عليهم الرضا بأحوالهم أو الشكر عليها فرضوا وشكروا لزمهم أيضًا أن يصبروا ويثبُتوا علىٰ ما شكروا عليه ورضوا به، فيصير ذلك مقامًا لهم في الشكر والرضا عند القائل بهواهم، ووجب عليه أيضًا لهم أن يحبهم عليها ويواليهم، فإذا وجب عليه ذلك لزمه أن يعينهم عليها ويأمرهم بها، وفي هذا تكذيب الكتب كلها وردُّ الرسل كلهم. نعوذ بالله من رضا لا ينفع، ومن حب لا ينفع، كما نعوذ به من عمل لا ينفع، ومن علم لا ينفع.

ثم ذكر الأخبار المتقدمة، وزاد فقال: وروينا عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ﷺ، دخل لفظ أحدهما في الآخر: لو أن عبدًا صف بين قدميه عند الركن والمقام يعبد الله عَزَّوَجَلَّ عمره يصوم نهاره ويقوم ليله ثم لقي الله عَزَّوَجَلَّ وليس في قلبه محبة وموالاة لأولياء الله ولا بغض ولا معاداة لأعدائه لَما نفعه ذلك شيئًا. وقد جاء نحوه وبمعناه عن عمر وغيره: إنَّ أحدهم لَيشيبُ في الإسلام ولم يوالِ في الله تعالىٰ ولم يُعادِ فيه عدوًّا، وذلك نقص كبير. وفي معنىٰ قوله: أوثق عُرَىٰ الإيمان ... الخ، وجه خفيٌّ هو أن يحبك المؤمنون ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عروة إيمانك؛ لأن قوله «الحب في الله» يصلُح أن تحب أنت، ويصلُح أن يحبك المؤمنون. وكذلك «البغض في الله» يصلُح أن يبغضك المنافقون كما تبغضهم أنت، فكأنَّك تتحبَّب إلىٰ المؤمنين حتىٰ يحبوك، وتتبغَّض إلىٰ المنافقين حتىٰ يبغضوك بالتباعد عنهم وبترك الموالاة لهم وبنصحك إياهم، فيدل ذلك علىٰ قوة إيمانك؛ لأنك لم تأخذك في الله لومةُ لائم منهم، كما وصف الله بذلك مَن يحبهم ويحبونه، ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق وأقرب إلىٰ الصدق والإخلاص والورع، فإذا فعلتَ ذلك بهم أبغضوك ومقتوك، فتظفر بما تريد وتدرك ما تحب داخلاً عليك بوصفهم، فهذا علىٰ معنىٰ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

(فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالىٰ) وأنه

مطلوب (فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله فهو مُحال، وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالىٰ فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالىٰ، وكيف السبيل إلىٰ الجمع وهو متناقض علىٰ هذا الوجه؟ وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟ فاعلمْ أن هذا ممَّا يلتبس علىٰ الضعفاء القاصرين عن الوقوف علىٰ أسرار العلوم) العاجزين عن فهمها (وقد التبس علىٰ قوم حتىٰ رأوا السكوت عن المنكرات مقامًا من مقامات الرضا وسمَّوه حُسن خُلُق) وليس منه (وهو جهلٌ محض، بل نقول: الرضا والكراهة يتضادَّان إذا تواردا علىٰ شيء واحد من جهة واحدة علىٰ وجه واحد، وليس من المتضادِّ في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضىٰ به من وجه؛ إذ قد يموت عدوُّك الذي هو أيضًا عدو بعض أعدائك أو ساعٍ في إهلاكه، فتكره موتَه من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه ماتَ عدوك. وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلىٰ الله تعالىٰ من حيث إنه فعلُه واختياره وإرادته، فيرضىٰ به من هذا الوجه تسليمًا للمُلك إلىٰ مالك المُلك، ورضا بما يفعله فيه. ووجه إلىٰ العبد من حيث إنه كسبُه ووصفُه وعلامة كونه ممقوتًا عند الله وبغيضًا عنده، حيث سلَّط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال: فلنفرض محبوبًا من الخَلق قال بين يدي محبِّيه: إني أريد أن أميِّز بين مَن يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معيارًا صادقًا وميزانًا ناطقًا وهو أني أقصد إلىٰ فلان فأؤذيه وأضربه ضربًا يضطرُّه ذلك إلىٰ الشتم لي، حتىٰ إذا شتمني أبغضتُه واتخذتُه عدوًّا لي. فكل مَن أحبُّه فأعلم أيضًا أنه عدو لي، وكل مَن أبغضُه فأعلم أنه صديقي ومحبِّي. ثم فعل ذلك وحصل مرادُه من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغضُ الذي هو سبب العداوة، فحقٌّ علىٰ كل مَن هو صادق في محبَّته وعالِم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربِه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا محب له وراضٍ به، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلُك وإرادتك، وأما شتمُه إياك فإنه عدوان من جهته؛ إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مرادك منه، فإنك قصدت بضربه استنطاقَه

بالشتم الموجِب للمقت، فهو من حيث إنه حصل علىٰ وفق مرادك وتدبيرك الذي دبَّرتَه فأنا راضٍ به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانًا في تدبيرك وتعويقًا في مرادك، وأنا كارهٌ لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وصفٌ لهذا الشخص وكسبٌ له وعدوان وتهجُّم منه عليك علىٰ خلاف ما يقتضيه جمالُك؛ إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضربَ ولا يقابل بالشتم، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصفٌ له، لا من حيث هو مرادك ومقتضَىٰ تدبيرك، وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راضٍ به ومحب له؛ لأنه مرادك، وأنا علىٰ موافقتك أيضًا مبغض له؛ لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبًا، ولعدوه عدوًّا، وأما بغضه لك فإني أرضاه من حيث إنك أردتَ أن يبغضك؛ إذ أبعدتَه عن نفسك، وسلَّطتَ عليه دواعي البغض، ولكني أبغضه من حيث إنه وصفُ ذلك المبغض وكسبُه وفعلُه، وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك، وبغضه ومقتُه لك أيضًا مكروه عندي من حيث إنه وصفُه، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضيٌّ. وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضيٌّ، ومن حيث إنه مرادك مكروه. فأما إذا كان مكروهًا لا من حيث إنه مراده وفعلُه بل من حيث إنه وصفُ غيره وكسبُه فهذا لا تناقُض فيه، ويشهد لذلك كل ما يُكرَه من وجه ويُرضَىٰ به من وجه، ونظائر ذلك لا تُحصَىٰ.

فإذًا تسليط الله تعالىٰ دواعي الشهوة والمعصية عليه حتىٰ يجرُّه ذلك إلىٰ حب المعصية ويجرُّه الحب إلىٰ فعل المعصية يضاهي ضربَ المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً ليجرَّه الضربُ إلىٰ الغضب و) يجرَّه (الغضبُ إلىٰ الشتم، ومقتُ الله تعالىٰ لمَن عصاه - وإن كانت معصيته بتدبيره - يشبه بغضَ المشتوم لمَن شتمه، وإن كان شتمُه إنما حصل بتدبيره واختياره لأسبابه، وفعلُ الله تعالىٰ ذلك بكل عبد من عبيده - أعني تسليط دواعي المعصية عليه - يدل علىٰ أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقتِه، فواجب علىٰ كل عبد محب لله تعالىٰ أن يبغض

مَن أبغضه الله، ويمقت مَن مقته الله، ويعادي مَن أبعده الله تعالىٰ عن حضرته وإن اضطرَّه بقهره وقدرته إلىٰ معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة، وإن كان بعيدًا بإبعاده قهرًا ومطرودًا بطرده اضطرارًا، والمبعَد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتًا بغيضًا إلىٰ جميع المحبِّين موافقةً للمحبوب بإظهار الغضب علىٰ مَن أظهر المحبوبُ الغضبَ عليه بإبعاده، وبهذا يتقرَّر جميعُ ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد علىٰ الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم، مع الرضا بقضاء الله تعالىٰ من حيث إنه قضاء الله عَزَّوَجَلَّ) وبه يظهر معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقد أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ فقال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] وكذلك أمر المؤمنين في قوله تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] **(وهذا كله يُستمَدُّ من سر القدَر الذي لا رخصة في إفشائه)** إلا لأهله **(وهو أن الشر والخير كِلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكنَّ الشر مراد مكروهٌ، والخير مراد مرضيٌّ به، فمَن قال: ليس الشر من الله، فهو جاهل، وكذا مَن قال: إنهما جميعًا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة، فهو أيضًا مقصِّر، وكشفُ الغطاء عنه غير مأذون فيه، فالأولىٰ السكوت والتأدُّب بآداب الشرع، فقد قال ﷺ: القدَر سرُّ الله، فلا تفشوه)** رواه أبو نعيم في الحلية[١] من حديث ابن عمر نحوه. ورواه الطبراني[٢] عن ابن عباس من قول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بلفظ «فلا تكلَّفوه»، وقد تقدم **(وذلك يتعلق بعلم المكاشفة، وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تُعُبِّد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله ومقتِ المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالىٰ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلىٰ كشف السر فيه)** وقال الكمال محمد بن إسحاق في مقاصد المنجيات: أفعال العباد علىٰ ثلاثة أقسام: طاعات ومباحات ومعاصٍ، فالطاعات يُرضَىٰ بها

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٨٢ بلفظ: «لا تكلموا في القدر فإنه سر الله، فلا تفشوا لله سره».

(٢) المعجم الكبير ١٠/ ٣١٧ - ٣١٨.

مطلقًا، والمعاصي لا يُرضَىٰ بها مطلقًا، والمباحات منها ما يعين علىٰ الطاعات وفراغ القلب للذكر فيلحق بالطاعات، ومنها ما يشغل القلبَ عن ذكر الله ويحثُّ علىٰ المخالفة فيلحق بالمعاصي في عدم الرضا. والسر في ذلك أن الله أراد ما لا يرضىٰ، ولا يأمر إلا بما يرضىٰ، والعباد متعبَّدون بما يصدر من الأمر والنهي لا بما يصدر عن مشيئته وتدبيره، فالرب تعالىٰ لا يأمر العِباد إلا بما فيه مصلحة لهم عاجلة أو آجلة، وقد تعبَّدنا ربُّنا بكراهة المعاصي لمصلحتين، إحداهما مقصودة في نفسها، والثانية وسيلة لغيرها. أما المصلحة المقصودة لنفسها فإنَّ الله تعالىٰ تسمَّىٰ بالخافض الرافع، ولهما آثار في الوجود من الخفض والرفع، فندب اللهُ عباده إلىٰ أن يكون المخفوض عنده المخفوض عندهم، والمرفوع عنده المرفوع عندهم، ولا يوجد كمال هذه العبادة إلا عند المحبِّين؛ لأن المحبة إذا قربت تعدَّت إلىٰ كل ما يتعلَّق بالمحبوب حتىٰ يحب حبيبَه ويبغض بغيضَه، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦] أي قاتِل نفسك، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [آل عمران: ١٧٦] وأما المصلحة المقصودة لغيرها فإن الله جبلَ طباعَ العباد علىٰ النفرة عمَّا يكرهونه، فكراهة المعاصي علىٰ هذا وسيلةٌ إلىٰ تركها ونبذها لا من حيث إنها من فعل الله. فإن قلتَ: الرضا والسخط أيضًا مرادان، وقد قلتَ إن الله أراد ما لا يرضىٰ، وما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: ٧] فأقول: الرضا والسخط مردَّدان بين الإرادة والفعل، ومعنىٰ الآية محمول علىٰ الصفة الفعلية لا علىٰ الصفة الذاتية، فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ أي إذا كفروا عاملهم معاملة الساخط عليهم، وهذا معنىٰ قولك: يريد ما لا يرضىٰ. أي خصَّهم بفعلٍ يعاقبهم عليه؛ لأن حقيقة لفظَي الرضا والسخط مُحالان في حق الله تعالىٰ. انتهىٰ

(وبهذا تعرف أيضًا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة علىٰ الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ تعبَّد العبادَ

بالدعاء ليستخرج الدعاءُ منهم صفاءَ الذِّكر وخشوع القلب ورقَّة التضرُّع، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحًا للكشف وسببًا لتواتُر مزايا اللطف، كما أنَّ حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضًا للرضا بقضاء الله تعالىٰ في العطش، وشربُ الماء طلبًا لإزالة العطش مباشرةً سبب رتَّبه مسبِّبُ الأسباب، فكذلك الدعاء سببٌ رتَّبه الله تعالىٰ وأمر به، وقد ذكرنا أن التمسُّك بالأسباب جريًا علىٰ سنَّة الله تعالىٰ لا يناقض التوكلَ، وقد استقصيناه في كتاب التوكل، فهو أيضًا لا يناقض الرضا؛ لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به) وهذا عذرُ مَن جعل الرضا من لواحق التوكل وحالاً من أحواله ولم يعدَّه خاصًّا، كما تقدم الكلام عليه (نعم، إظهار البلاء في معرض الشكوىٰ وإنكاره بالقلب علىٰ الله تعالىٰ مناقض للرضا) ولذلك قال أبو عليٍّ الدَّقَّاق: ليس الرضا أن لا تحسَّ بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء (وإظهار البلاء علىٰ سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالىٰ لا يناقض) ولفظ القوت: والتحدُّث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا يُنقِص حالَ الراضي إذا رآها نعمة من الله عليه وشكر الله عليها وكان القلب مسلِّمًا غير متسخِّط ولا متبرِّم بمُرِّ القضاء (وقد قال بعض السلف: من حُسن الرضا بقضاء الله تعالىٰ أن لا يقول: هذا يوم حارٌّ. أي في معرض الشكاية، وذلك في) أيام (الصيف، فأما في الشتاء فهو شكرٌ، والشكوىٰ تناقض الرضا بكل حال، وذمُّ الأطعمة وعيبُها يناقض الرضا بقضاء الله تعالىٰ؛ لأن مَذَمَّة الصنعة مَذَمَّة للصانع، والكل من صنع الله. وقول القائل: الفقر بلاء ومحنة، والعيال همٌّ وتعب، والاحتراف كدٌّ ومشقَّة. كل ذلك قادح في الرضا، بل ينبغي أن يسلِّم التدبيرَ لمدبِّره، والمملكةَ لمالكها، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحتُ غنيًّا أو فقيرًا، فإني لا أدري أيهما خير لي) ولفظ القوت: ومن الرضا عند أهل الرضا أن لا يقول العبد: هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، ولا العيال همٌّ وتعب، ولا الاحتراف كدٌّ ومشقة. ولا يعقد بقلبه من ذلك ما لا يفوه به، بل يرضىٰ بالقلب [ويشكر باللسان]

ويسلِّم ويسكن بالعقل، ويستسلم بوجود حلاوة التدبير واستحسان مُحكَم التقدير. وروينا عن عمر رضي الله عنه قال: ما أبالي علىٰ أيِّ حال أصبحتُ [وأمسيت] من شدة أو رخاء.

وقال الكمال الصوفي في المقاصد: ومَن عاب صورةً من الصور أو طعامًا من الأطعمة أو تبرَّم بحرٍّ أو ببرد أو أنكر بقلبه أو لسانه ما يصبُّ الله علىٰ عباده من المحن والبلايا والرزايا وجملة أنواع ما اختبر الله به العبادَ من الأمر والنهي وما يقع في الآخرة من المثوبات والعقوبات بطَلَ رضاه ووجبت عليه التوبةُ. والله الموفِّق.

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مَظانُّ المعاصي ومَذَمَّتها لا يقدح في الرضا

(اعلمْ) أسعدك الله تعالىٰ (أن الضعيف) القاصر النظر (قد يظن أنَّ نهي رسولِ الله ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون) كما تقدم ذلك في الأخبار الواردة فيه (يدل علىٰ النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي) وفشت (لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله) وهو مذموم منهيٌّ عنه (وذلك مُحال، بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون) فيه (أنه لو فُتِح هذا الباب لارتحل عنه الأصِحَّاء وبقي فيه المرضىٰ مهمَلين لا متعهِّد لهم) في تمريضهم (فيهلكون هزالاً وضرًّا) ولا يوجد مَن يجهِّزهم بعد موتهم (ولذلك شبَّهه رسولُ الله ﷺ في بعض الأخبار بالفرار من الزحف) تشديدًا في أمره وزجرًا له في ذلك، واستدلَّ به مَن ذهب إلىٰ أن النهي فيه نهيُ تحريم كما هو مذهب الشافعي، وقد تقدم ذلك في كتاب التوكل، وذكرنا هناك أن تلك العلة التي أبداها المصنف قد سبقه فيها الإمام أبو جعفر الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (ولو كان ذلك للفرار من القضاء) كما يُفهَم بظاهره (لَما أُذِن لمَن قارب البلدةَ في الانصراف) والرجوع (وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل) فارجعْ إليه (وإذا عُرف المعنىٰ ظهر أن الفرار من البلاد التي بها مَظانُّ المعاصي ليس فرارًا من القضاء، بل من القضاءِ الفرارُ ممَّا لا بد من الفرار منه) ويدل لذلك قولُ عمر ﷺ لمَّا أمر الناس بالانصراف عن الشام وقد قال له بعضهم: أتفرُّ من قضاء الله؟ فقال: نعم، نفرُّ من قضاء الله إلىٰ قضاء الله (وكذلك مَذَمَّة المواضع التي تدعو إلىٰ المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة) وقال الكمال الصوفي: ولا رخصة

في الإقامة في بلد كثر فيه الفسادُ خوفًا من الفرار من قضاء الله تعالىٰ، فإنه أيضًا إذا فرَّ فر بقضاء الله تعالىٰ (**فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتىٰ اتفق جماعة**) منهم (**علىٰ ذم**) دار السلام (**بغداد**) وهي المدينة المشهورة بالعراق، بناها أبو جعفر المنصور، وفيها لغات، أشهرها بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة ودالين مهملتين، ثم بَغْدان بالنون بدل الدال، ويُروَىٰ بذال في آخره، ويُروَىٰ بدال أولىٰ مهملة والثانية معجمة، وهذا هو المعروف عند المحدِّثين والكُتَّاب، ويقال بعكس ذلك، ويقال: مغدان، بالميم بدل الباء، والنون آخرا. وقد استوفيت ذلك في شرحي علىٰ القاموس[1]. والاسم أعجمي، والعرب تختلف في ذلك، وزعم بعضهم أن تفسيره: بستان العدل، وقيل: عطية الصنم، وهو علىٰ اللغة المشهورة الأولىٰ التي ذكرناها، ولذا كره ابن المبارك هذه التسمية، وسمَّاها المنصور: دار السلام؛ لأن دجلة كان يقال لها: وادي السلام، وكان بناها في سنة خمس وأربعين ومائة في الوقت الذي اختاره له نَوْبَخْت المنجِّم، وكان قد جمع لبنائها مائة ألف رجل من جميع الأقاليم من أهل المعرفة بالبناء وإحكامه، ويقال: لا تُعرَف في أقطار الأرض مدينة مدوَّرة سواها. وقد استوفىٰ أخبار بنائها وما يتعلق بها الخطيبُ في أول تاريخه لها (**وإظهارهم ذلك**) أي الذم (**وطلب الفرار منها**) قال صاحب القوت: وكذلك يحب ابنُ آدم ممَّن عامَلَه الاعترافَ والتواضع، وهو أيضًا أحد المعاني في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] قيل: هو الاعتراف عقيب العمل السيئ؛ لأنه قد تقدَّم ذِكرُه، فكان الصالح بعده اعترافه. فأما مَن قُلِبت عليه هذه المعاني فجهلَ عواقبَ الأمور وغلبت عليه الغفلةُ واستحوذت عليه الجهالةُ فجعل ينظر إلىٰ مَن فوقه في الدنيا فيغبطه علىٰ حاله أو يتمنىٰ مكانه أو يُدخِله نظرُه إليه في استصغار نعمة الله عليه ويزدري يسيرَ ما قسم الله له، ثم ينظر إلىٰ مَن هو دونه في الدين من عموم

---

(١) تاج العروس ٧/ ٤٤١ - ٤٤٢.

المسلمين فيرضىٰ بنقصان مقامه ويجعل ذلك معذرةً له وحجة وتأسِّيًا به فيثبِّطه عن المسارعة إلىٰ القربات، أو لعله أن يداخله العُجبُ والكبر حتىٰ يتفضَّل عليه بحاله، أو ينظر إلىٰ نفسه بأعماله لتقصير غيره عن مثل فعاله، فهذا إذًا يُكتَب جزوعًا عن الصبر، كفورًا للنعمة بإضاعة الشكر؛ لأنه ليس بصابر ولا شاكر، وهذا وصفٌ من أوصاف المنافقين، وهو مقام الهالكين، ورُوي عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أوصاني رسول الله ﷺ بحب المساكين والدنو منهم، وأن أنظر إلىٰ مَن هو دوني، ولا أنظر إلىٰ مَن هو فوقي، فذلك أجدر أن لا أزدري نعمة الله عليَّ. وقد وُصِف هذا البلد الذي نحن فيه بمثل هذه المعاني، والله المستعان **(فقال ابن المبارك)** فيما حدَّثونا عنه: **(قد طفتُ الشرق والغرب، فما رأيت بلدًا أشرَّ من بغداد. قيل: وكيف)** هو يا أبا عبد الرحمن **(قال: هو بلد تُزدرَىٰ)** أي تُحتقَر **(فيه نعمة الله، وتُستصغَر فيه معصية الله)** أي تُعَدُّ صغيرة. قال: **(و)** وحدَّثونا عنه أنه **(لمَّا قدم خراسانَ قيل له)**: يا أبا عبد الرحمن **(كيف رأيتَ)** الناس في **(بغداد؟ فقال: ما رأيت بها إلا شرطيًّا غضبان، أو تاجرًا لهفان، أو قارئًا حيران)** نقله صاحب القوت **(ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغِيبة؛ لأنه لم يتعرَّض لشخص بعينه حتىٰ يستضرَّ ذلك الشخصُ به، وإنما قصد بذلك تحذيرَ الناس)** عن سكناها **(وكان)** ابن المبارك **(يخرج إلىٰ مكة، وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعدادَ القافلة ستة عشر يومًا، فكان يتصدَّق بستة عشر دينارًا لكل يوم دينار كفَّارة لمقامه)** ولفظ القوت: ويقال إنه كان يتصدَّق في كل يوم بدينار لأجل مقامه ببغداد إلىٰ أن يخرج إلىٰ مكة، فبلغني أنه كان يقيم مع الحاج ستة عشر يومًا، فكان يتصدَّق بستة عشر دينارًا كفَّارةً لمقامه.

ثم قال: وقد وصفها الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها هي الدنيا، فروينا عنه أنه قال: الدنيا كلها بادية، وبغداد حاضرتها[1]. وحدَّثونا عن يونس بن عبد الأعلىٰ قال: قال لي

(١) في تاريخ بغداد ١/ ٣٤٧: «بلغني عن أحمد بن أبي طاهر قال: قيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ قال: الأرض كلها بادية، وبغداد حاضرتها».

الشافعي: يا يونس، رأيتَ بغداد؟ قلت: لا. قال: ما رأيتَ الدنيا، ولا رأيت الناس[١].

وقال الخطيب في تاريخه[٢]: أخبرنا أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الضرير، أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السُّلَمي بنيسابور، سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت عبد الله بن موسىٰ الطلحي يقول: سمعت أحمد ابن العباس يقول: خرجت من بغداد، فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة، فقال لي: من أين خرجتَ؟ فقلت: من بغداد، هربتُ منها لما رأيت فيها من الفساد خفتُ أن يُخسَف بأهلها. فقال: ارجعْ ولا تخَفْ، فإنَّ فيها قبور أربعة من الأولياء هم حصن لهم من جميع البلايا. قلت: مَن هم؟ قال: الإمام أحمد بن حنبل، ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، ومنصور بن عمار.

(**وقد ذمَّ العراق جماعةٌ كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار**) رحمهما الله تعالىٰ (**وقال ابن عمر** ﷺ) كذا في سائر النسخ، وهو غلط، ولفظ القوت: فروينا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال (**لمولىٰ له: أين تسكن؟ فقال: العراق. فقال: فما تصنع به؟ بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قيَّض الله له قرينًا من البلاء**)[٣] كذا في القوت.

(**وذكر كعب الأحبار يومًا العراقَ فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العُضال**)[٤] قال صاحب القوت: وكان قال ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فنهاه عن

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١/ ٣٤٧، ومن طريقه ابن الجوزي في المنتظم ٨/ ٨٤. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ١٤٠ بلفظ: «قال لي الشافعي: دخلت العراق؟ قلت: لا. قال: ما رأيت الدنيا».

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٤٤٣.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧/ ١٢٣ عن أبي عنبة الأموي قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: أنا من مواليكم، وإن علينا بالعراق امرأ سوء. فقال لي: وما يسكنك بالعراق؟ لقد بلغني أن أحدا لا يسكن العراق إلا قُيض له فريق من البلاء.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ٣٠٥ عن أبي مجلز قال: أراد عمر أن لا يدع مصرا من =

الخروج إلىٰ العراق.

قلت: رواه كذلك أبو نعيم في الحلية في ترجمة كعب.

(**وقد قيل: قُسِّم الخير عشرة أجزاء، فتسعة أعشاره بالشام وعُشره بالعراق، وقُسِّم الشر عشرة أجزاء علىٰ العكس من ذلك**) أي تسعة أعشاره بالعراق وعُشره بالشام[1]. نقله صاحب القوت.

قلت: وهذا قد رُوي مرفوعًا من حديث عبد الله بن عمرو: «الخير عشرة أعشار، تسعة بالشام وواحد في سائر البلدان، والشر عشرة أعشار، واحد بالشام وتسعة في سائر البلدان». رواه الخطيب في المتفق والمفترق[2]، وفيه أبو خليد

= الأمصار إلا أتاه، فقال له كعب: لا تأتِ العراق، فإن فيه تسعة أعشار الشر. ورواه عبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٢٥١ عن طاووس اليماني قال: أراد عمر أن يسكن العراق، فقال له كعب: لا تفعل، فإن فيها الدجال، وبها مردة الجن، وبها تسعة أعشار السحر، وبها كل داء عضال. يعني الأهواء. ورواه بنحوه مالك في الموطأ ٢/ ٩٧٥ بلاغا، ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٣. ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ١٢١ بلفظ: «أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من العراق، فإنها أرض المكر وأرض السحر، وبها تسعة أعشار الشر، وبها كل داء عضال، وبها كل شيطان مارد». وفي رواية أخرىٰ له ١/ ١٥٩: «إن بها تسعة أعشار الشر وكل داء عضال وعصاة الجن وهاروت وماروت، وبها باض إبليس وفرخ».

(١) روىٰ الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٦٧٥ عن عبد الله بن مسعود قال: تعلمن أنكم بحيث تختلف الإنس من بين بابل والحيرة، تعلمن أن تسعة أعشار من الخير وعشرا من الشر بالشام، تعلمن أن تسعة أعشار من الشر وعشرا من الخير بسواها، والذي نفس ابن مسعود بيده ليوشكن أن يكون أحب شيء علىٰ ظهر الأرض إلىٰ أحدكم أن تكون له أحمرة تنقل أهله إلىٰ الشام. وروىٰ أحمد في فضائل الصحابة ص ٨٩٧ - ٨٩٨ عن عبد الله بن ضرار الأسدي أنه خرج هو وابن مسعود إلىٰ المطهرة عند المسجد الأكبر، فتطهرا منها، ففرغ عبد الله بن ضرار قبل ابن مسعود، فأتاه ابن مسعود وهو ينتظره، فقال: يا عبد الله بن ضرار، أين هواك اليوم؟ فأهوىٰ بيده قبل الشام، فقال له: أما إنك إن تفعل فإن بها تسعة أعشار من الخير وعشرا من الشر، وإن بهذه تسعة أعشار من الشر وعشرا من الخير.

(٢) المتفق والمفترق ص ٢١٦.

الدمشقي عن الوضين بن عطاء، قال أحمد: ما كان به بأس. وليَّنه غيرُه.

وروىٰ ابن عساكر(١) من حديث عائشة بسند فيه مجاهيل: «إن الله خلق أربعة أشياء وأردفها أربعةَ أشياء: خلق الجدب وأردفه الزهد وأسكنه الحجازَ، وخلق العفَّة وأردفها الغفلة وأسكنها اليمن، وخلق الزيف وأردفه الطاعون وأسكنه الشام، وخلق الفجور وأردفه الدرهم وأسكنه العراق».

(**وقال بعض أصحاب الحديث: كنا يومًا عند الفضيل بن عياض**) رحمه الله تعالىٰ (**فجاءه صوفي متدرِّع بعباءة، فأجلسه إلىٰ جانبه وأقبل عليه**) بوجهه يحادثه (**ثم قال: أين تسكن**) اليوم؟ (**فقال: بغداد. فأعرض عنه**) الفضيل (**وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان، فإذا سألناه: أين تسكن؟ قال: في عش الظَّلَمة**)(٢) نقله صاحب القوت.

(و) قد (**كان بشر بن الحارث**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول: مثال المتعبِّد ببغداد مثال المتعبِّد في الحُش**)(٣) نقله صاحب القوت.

(**وكان**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول: لا تقتدوا بي في المقام بها**) أي ببغداد (**مَن أراد أن يخرج فليخرج**) نقله صاحب القوت.

(**وكان أحمد بن حنبل**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول: لولا تعلُّق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثَر في نفسي. قيل: وأين تختار السكنىٰ؟ قال: بالثغور**)

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ٣٥٢.

(٢) هذه القصة ذكرها ابن الفقيه في كتاب البلدان ص ٣٦٠ بسياق آخر فقال: «جاء الوليد البغدادي القاص إلىٰ الفضيل بن عياض ووضع يده في يده وأقبل يسأله، والفضيل قد أعجب به، إلىٰ أن قال له: أين المسكن؟ قال: بغداد. فانتزع يده من يده ثم قال: يجيء أحدكم يسأل كأنه من عمال الله أو من الدعاة إليه، فإذا قيل له: أين المسكن؟ قال: في عش الظلمة».

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ١٥ والخطيب في تاريخ بغداد ١/ ٢٩٦ عن سفيان الثوري بلفظ: «مثل المتعبد ببغداد كمثل المتعبد في الكنيف».

نقله صاحب القوت، قال: وأما معروف الكرخي رحمه الله تعالىٰ فكان يفصح بها فيقول: أما أنا فإني أُمِرتُ أن أموت ببغداد. فهؤلاء من خيار أهل البلد، وهم من أبدال الصدِّيقين.

(وقال بعضهم وقد سُئل عن أهل بغداد: زاهدهم زاهد، وشرِّيرهم شرِّير.

فهذا) وأمثاله (يدل علىٰ أن مَن بُلِيَ ببلدة) أي بسكناها (تكثُر فيها المعاصي) والمنكَرات (ويقلُّ فيها الخير فلا عذر له في المقام بها، بل ينبغي أن يهاجر) منها (قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيًا بحاله مطمئن النفس إليه، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها، قائلاً علىٰ الدوام: ربنا أخرِجْنا من هذه القرية الظالم أهلها. وذلك لأن الظلم إذا عمَّ نزل البلاء ودمَّر) علىٰ (الجميع وشمل المطيعين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾) [الأنفال: ٢٥] ولفظ القوت: ومَن سكن بلدًا كثير المنكر ظاهر المعاصي، وكان فيه منزعجًا غير مطمئن إليه، يرغب إلىٰ الله في إخراجه منه بحسن اختياره له، أو كان مضطرًّا في المقام فيه لعلَّة أو قلة ذات اليد، لا يستطيع حيلةً في الخروج ولا يهتدي طريقًا لغلبة الفساد في أكثر الامصار(١)، فإنه معذور عند الله بحسن نيَّته، وهو أقرب إلىٰ العفو والسلامة ممَّن اغتبط بمقامه واطمأن ورضي بحاله، أو كان مقامه علىٰ هوىٰ أو لاجتلاب أسباب الفتنة والدنيا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ في التفسير: إذا كنتَ في بلد يُعمَل فيه بالمعاصي فتحوَّلْ منه إلىٰ غيره. وقيل: إذا كان العبد في بلدٍ مَن يعمل فيه بالمنكر أضعف أو أقل من أهل المعروف ثم لم ينكر ذلك فقد وجب الخروجُ منه. ثم قال تعالىٰ في قوم من المستضعفين عذرهم: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ

---

(١) في القوت: «لا يستطيع حيلة في الخروج ولا يعرف طريقا، وهو علىٰ يقين من سلامة دينه فيه فإنه معذور ...» الخ.

ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ الآية [النساء: ٧٥] ألا ترىٰ كيف أخبر بترك رضاهم بالمقام وبانزعاجهم وطلبهم الخروج، فبذلك عذرَهم، ولا يصلُح الرضا إلا بالعصمة من جميع الهوىٰ.

وقال الكمال الصوفي: ولا رخصة في الإقامة في بلد كثُر فيه الفسادُ خوفًا من الفرار من قضاء الله تعالىٰ، فإنه أيضًا إذا فرَّ فر بقضاء الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ فإن عاقه عجزٌ أو عيلةٌ وجبت عليه كراهةُ ذلك بباطنه تعبُّدًا لله عَزَّوَجَلَّ.

(فإذًا ليس في شيء من أسباب نقصِ الدين ألبتَّة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلىٰ فعل الله تعالىٰ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال. وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث) أي أيُّهم أفضل: **(رجل يحب الموت شوقًا إلىٰ لقاء الله تعالىٰ، ورجل يحب البقاء)** للمعاملة و**(لخدمة المولىٰ، ورجل قال: لا أختار شيئًا بل أرضىٰ بما اختاره الله تعالىٰ لي)** إن شاء أحياني أبدًا، وإن شاء أماتني غدًا **(ورُفِعت هذه المسألة إلىٰ بعض العارفين)** وتحاكموا إليه **(فقال: صاحب الرضا أفضلُهم؛ لأنه أقلهم فضولاً)** قال صاحب القوت: وهذا كما قال في الاعتبار بترك الاعتراض والاختيار؛ لأنه دخل في الدار بغير اختيار، فكذلك ينبغي أن يكون خروجه منها علىٰ معنىٰ دخوله بلا اختيار، ولأن مقام الرضا أعلىٰ من مقام الشوق، ثم الذي يليه في الفضل الذي يحب الموت شوقًا إلىٰ اللقاء، وهذا مقام في المحبة، وهو حقيقة الزهد في الحياة، والذي يحب البقاء للخدمة وكثرة المعاملة فهو فاضل بعد هذين، مقامه قوة الرجاء وحسن الظن في العصمة، وله أيضًا مطالعات من الأنس وملاحظات في القرب، به طاب مقامُه، وعنده سكنت نفسُه وقصرت عليه أيامه، ففي الخبر: «أفضل المؤمنين إيمانًا مَن طال عمرُه وحسُن عملُه»؛ هذا لأن الأعمال مقتضَىٰ الإيمان؛ إذ حقيقة الإيمان إنما هو قول وعمل، وليس بعد هؤلاء مقام يُفرَح به، ولا يُغبَط عليه صاحبه، ولا يوصَف بمدح، إنما هو حب البقاء لمتعة النفس وموافقة الهوىٰ، وقد تشرف النفس علىٰ الضعفاء

من أهل هذا الطريق وتختفي فيها علته وهو أن يحب البقاء لأجل النفس وللمتعة بروح الدنيا وما طُبعت عليه من حب الحياة، ويكره الموت لمنافرة الطبع، فيتوهَّم أنه ممَّن يحب البقاء لأجل الله تعالىٰ ولأجل طاعته وخدمته، وهذا من الشهوة الخفية التي لا يخرجها إلا حقيقة الزهد في الدنيا، ولا يفضل في هذا الطريق الثالث إلا عارف زاهد دائم المشاهدة باليقين، فأما المعتلُّ بوصفه وهواه فليس يقع به اعتبارٌ في طريق ولا مقام.

(و) قد كان (**اجتمع ذات يوم وهيب بن الورد**) المكِّي، تقدم التعريف به مِرارًا (**وسفيان**) بن سعيد (**الثوري ويوسف بن أسباط**) الشيباني رحمهم الله تعالىٰ (**فقال الثوري**): قد (**كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، واليوم وددت أني مت. فقال له يوسف**) بن أسباط: (**لِمَ؟ قال: لِما أتخوَّف من الفتنة. فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء. فقال سفيان: لِمَ**) تكره الموت؟ (**قال: لعلِّي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا. فقيل لوهيب: أيش تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحب ذلك إليَّ أحبه إلىٰ الله تعالىٰ**) قال: (**فقبَّل الثوريُّ بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة**) قال صاحب القوت: يعني مقام الروحانيين وهم المقرَّبون أهل الرَّوح والريحان، فهم ذوو المحبة لله عز وجل والرضوان، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩] يعني: لهم روح من نسيم القرب وريحان من طِيب الأنس والحب. وأيضًا، إنه تعالىٰ لمَّا ذكر أن لأصحاب اليمين من كل شدة وهول [سلامةً، وكان المقرَّبون هم الأعلينَ، كان أيضًا فيما دلَّ الفهم عليه أن للمقرَّبين من كل هول] رَوحًا به لشهادتهم القريب، وفي كل كرب ريحانًا منه لقرب الحبيب، فبذلك علوا، وبذلك فضلوا، وكان بعض هذه الطائفة يقول: سر العارف في الأشياء واقف مثل الماء في البئر لا يختار المقام، وإن أُخرِج خرج. أي ومثل لسان الميزان في وقوفه واعتداله بين حكمين أيُّهما أُمِدَّ به مال به. وقال آخر: قلبي مثل الماء يسخن ثم يبرد. أي لا يقف علىٰ وصف. ا.هـ.

وقد وجدت في الحلية[1] لأبي نعيم في ترجمة وهيب بن الورد ما يخالف ما ذكره صاحب القوت وتبعه المصنفُ، قال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد ابن الحسن، حدثنا سعد بن محمد البيروتي، حدثنا ابن أبي داود قال: سمعت عبد الرزاق يقول: اجتمع سفيان الثوري ووهيب بن الورد، فقال سفيان لوهيب: يا أبا أميَّة، أتحب أن تموت؟ فقال: أحب أن أعيش لعلِّي أن أتوب. فقال وهيب: فأنت؟ قال: ورب هذه البِنية - ثلاثًا - وددت أني متُّ الساعةَ.

(١) حلية الأولياء ٨/ ١٥٤.

بيان جملة من حكايات المحبِّين وأقوالهم ومكاشفاتهم

(قيل لبعض العارفين: إنك محب. فقال: لست محبًّا، إنما أنا محبوب، والمحب متعوب) أشار بذلك إلىٰ أن المحب لا يقرُّ له قرارٌ دون لقاء محبوبه، فهو أبدًا في تعب، بخلاف المحبوب فإنه مطلوب، فهو أبدًا في سكون وراحة وقرار.

(وقيل له أيضًا: الناس يقولون) فيك (إنك واحد من السبعة) يعني الأوتاد (فقال: أنا كل السبعة)[1] أي فمَن رآني كأنَّما رأىٰ السبعة.

(وكان يقول: إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلاً. قيل: وكيف) ذلك (وأنت شخص واحد؟ قال: لأني رأيت أربعين بدلاً، وأخذت من كل بدل خُلُقًا من أخلاقه) فاجتمعت فيَّ أخلاق أربعين رجلاً.

(وقيل له: بلغنا أنك ترىٰ الخضر عليه السلام. فتبسَّم وقال: ليس العجب ممَّن يرىٰ الخضرَ، ولكنَّ العجب ممَّن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه) وهذا كما نقله القشيري عن بعضهم[2] أنه أراد منه الخضر أن يصحبه فأبىٰ، فسُئل عن ذلك فقال: خفتُ أن يُفسِد عليَّ توكلي.

(وحُكي عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدَّثتُ نفسي يومًا قط أنه لم يبقَ وليٌّ لله تعالىٰ إلا) قد (عرفتُه إلا ورأيتُ في ذلك اليوم وليًّا لم أعرفه) قبل ذلك.

(وقيل لأبي يزيد) طيفور بن عيسىٰ (البسطامي) رحمه الله تعالىٰ (مرةً: حدِّثْنا عن مشاهدتك من الله تعالىٰ. فصاح ثم قال: ويحكم! لا يصلُح لكم أن

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٧ ومن طريقه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٣٦ بلفظ: «قيل لأبي يزيد البسطامي: إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض. فقال: أنا كل السبعة».

(٢) هو إبراهيم الخواص، كما تقدم في كتاب التوكل.

تعلموا ذلك) لأن المشاهدة أسرار بين الله تعالىٰ وعبده، ولا ينبغي كشفُها للغير غيرةً عليها (**قيل: فحدِّثْنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالىٰ. فقال: وهذا أيضًا لا يجوز أن أطلعكم عليه**) فإن العقول ربما لا تحتمل ذلك فيقع الإنكار فيكون سببًا للمقت، أو لأن السامع ربما يحمل نفسه علىٰ مثل ذلك من غير تدريج فيقع في حرج (**قيل: فحدِّثْنا عن رياضة نفسك**) وتهذيبها (**في بدايتك**) أي أول سلوكها (**فقال: نعم، دعوتُ نفسي إلىٰ الله تعالىٰ فجمحت عليَّ، فعزمتُ عليها أن لا أشرب الماء سنة، ولا أذوق النوم سنة، فوفَّت لي بذلك**) وإنما فعل ذلك لأنه رأىٰ فيها بقايا شهوة، فنظر إلىٰ أجلِّ لذَّاتها فإذا هي شربُ الماء والنوم، فتركهما ليستأصل الشهوة بالكلِّية، وأعظم أسباب النوم شربُ الماء، فترك شرب الماء لينقطع عنه النومُ. ومن ذلك: أهدىٰ رجل إلىٰ الإمام أبي زكريا النووي رحمه الله تعالىٰ – وكان من الزاهدين – خيارًا في أول ظهوره، فقبله منه، ووضعه عنده، ثم أتاه الرجل ثاني يوم، فوجد الخيار عنده كما كان وضعَه، فلامه علىٰ عدم أكله، فقال: يا هذا، خفتُ أني إن أكلتُه غلبت الرطوبةُ علىٰ الدماغ فكان سببًا للنوم.

(**وحُكي عن**) أبي زكريا (**يحيىٰ بن معاذ**) الرازي رحمه الله تعالىٰ (**أنه رأىٰ أبا يزيد**) البسطامي رحمه الله تعالىٰ (**في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلىٰ طلوع الفجر مستوفزًا علىٰ صدور قدميه، رافعًا إخمصَّيه مع عقبيه عن الأرض، ضاربًا بذقنه علىٰ صدره، شاخصًا بعينيه لا يطرف. قال: ثم سجد عند السَّحَر فأطال**) في سجوده (**ثم قعد فقال: اللهم إنَّ قومًا طلبوك فأعطيتَهم المشي علىٰ الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك**) واطمأنُّوا به (**وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قومًا طلبوك فأعطيتَهم طيَّ الأرض**) وقرَّبتَ لهم البعيد (**فرضوا بذلك**) واطمأنوا به (**وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قومًا طلبوك فأعطيتَهم كنوز الأرض**) وزخارف الدنيا (**فرضوا بذلك**) واطمأنوا به (**وإني أعوذ بك من ذلك**) قال: ولم يزل يذكر مثل ذلك (**حتىٰ عدَّ نيِّفًا وعشرين مقامًا من كرامات الأولياء**) ممَّا يكرم الله تعالىٰ

به إياهم. قال: (ثم التفت فرآني فقال: يحيىٰ؟ فقلت: نعم يا سيدي. فقال: مذ متىٰ أنت ههنا؟ فقلت: منذ حين. فسكتَ، فقلت: يا سيدي، حدِّثني بشيء) أي من أحوالك (فقال: أحدِّثك بما يصلُح لك) اعلمْ أنه تعالىٰ (أدخلني في الفَلَك الأسفل، فدوَّرني في الملكوت السفلي، وأراني الأرضين وما تحتها إلىٰ الثَّرَىٰ، ثم أدخلني في الفلك العلوي، فطوَّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلىٰ العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سَلْني أيَّ شيء رأيتُ) ممَّا يعجبك (حتىٰ أهبه لك. فقلت: يا سيدي، ما رأيتُ شيئًا استحسنتُه فأسألك إيَّاه) ونفيُ الاستحسان هنا بالنسبة إلىٰ استغراقه في جمال مولاه (فقال: أنت عبدي حقًّا، تعبدني لأجلي صدقًا، لأفعلن بك ولأفعلن .. فذكر أشياء. قال يحيىٰ: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبتُ منه، فقلت: يا سيدي، لِمَ لا سألتَه المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك) جل وعز: (سَلْني ما شئت؟ قال: فصاح بي صيحة وقال: اسكت، ويلك! غرتُ عليه مني حتىٰ لا أحب أن يعرفه سواه) ومقام الغيرة من نتائج المحبة، فإن المحب يتخلَّق بأخلاق محبوبه فلا يبدي من أسرار محبوبه شيئًا إلا لأهله وإلا يكون فتنة عليهم، ويشحُّ علىٰ نفَس من أنفاسه أن يصرفه لغير محبوبه.

(وحُكي أن أبا تراب) عسكر بن الحصين (النخشبي) رحمه الله تعالىٰ (كان معجبًا ببعض المريدين، فكان يدنيه) أي يقرِّبه (ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته) التي كان يجدها في مراقباته (فقال له أبو تراب يومًا: لو رأيتَ أبا يزيد) البسطامي (فقال) المريد: (إني عنه مشغول) أي فلا أشغل وقتي بغير الله تعالىٰ (فلمَّا أكثر عليه أبو تراب من قوله «لو رأيت أبا يزيد» هاج وجدُ المريد فقال: ويحك! ما أصنع بأبي يزيد؟ قد رأيتُ الله تعالىٰ فأغناني عن أبي يزيد) وعن سواه ولم تبقَ فيَّ رغبةٌ لغيره (قال أبو تراب: فهاجَ طبعي ولم أملك نفسي فقلت: ويلكَ تغترُّ بالله عَزَّ وَجَلَّ) في تقريبه لك؟ (لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ سبعين مرة. قال: فبُهِت الفتىٰ من قوله وأنكره) عليه (فقال: وكيف

ذلك؟ قال له: ويلك! أما ترىٰ الله تعالىٰ عندك فيظهر لك علىٰ مقدارك، وترىٰ أبا يزيد عند الله قد ظهر له علىٰ مقداره. فعرف) المريد (ما قلتُ) فوطَّن نفسَه علىٰ رؤية أبي يزيد (فقال: احملني إليه ... فذكر قصة قال في آخرها: فوقفنا علىٰ تلٍّ) أي محل مرتفع مشرف علىٰ ممرِّه (ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة، وكان) أبو يزيد (يأوي إلىٰ غيضة فيها سباع) ووحوش (قال: فمرَّ بنا وقد قلب فروة علىٰ ظهره، فقلت للفتىٰ: هذا أبو يزيد، فانظرْ إليه. فنظر إليه الفتىٰ فصعق) في الحال وغُشي عليه (فحرَّكناه فإذا هو ميت، فتعاونَّا علىٰ دفنه، فقلت لأبي يزيد: يا سيدي، نظرُه إليك قتله. قال: لا، ولكن كان صاحبكم صادقًا) في حبِّه (واستكنَّ في قلبه سرٌّ لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سرُّ قلبه) فاستغرقه (فضاق عن حمله؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك) فلذلك شرطوا للمريد في ترقِّيه أن يكون بالتدريج، فلا يصل إلىٰ مقام هو أرفع ممَّا كان فيه إلا وقد أنسَ في مبادئه حتىٰ يكون مطيقًا لحمله، وإلا فإن ورد عليه مرةً واحدة لم يتحمَّل، بل ربما أهلكه، وقد ينكشف للمريد في صحبة العارفين والنظر إلىٰ وجوههم في لحظة واحدة ما لا ينكشف لهم بالاجتهاد في مدة متطاولة، ولذلك جعل مشايخ الطريقة العليَّة النقشبندية - قدَّس الله أسرارهم - الرابطةَ بالشيخ الكامل من جملة أركان الطريق.

(ولمَّا دخل الزنج) وهم السودان الأحابيش من اللفائف (البصرة فقتلوا الأنفُس ونهبوا الأموال) وأحرقوا الدُّور وارتحل منها مَن قدر وأطاق (اجتمع إلىٰ) أبي محمد (سهل) بن عبد الله التستري رحمه الله تعالىٰ، وكان إذ ذاك بالبصرة في دار خاله محمد بن سوار (إخوانه) وأصحابه (فقالوا: لو سألتَ الله تعالىٰ دفعهم) عن المسلمين (فسكت، ثم قال: إن لله عبادًا في هذه البلدة لو دعوا علىٰ الظالمين لم يصبح علىٰ وجه الأرض ظالمٌ إلا مات في ليلة واحدة، ولكن لا يفعلون) أي لا يدعون عليهم (قيل: لِمَ؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب. ثم ذكر من إجابة الله تعالىٰ أشياء لا يُستطاع ذِكرها، حتىٰ قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمْها)

وكذلك لمَّا دخل التتار إلىٰ خوارزم فقتلوا وسلبوا ونهبوا، وكان إذ ذاك أبو الجناب الخيوقي المعروف بالنجم الكبريِّ قُدِّس سره، وكان مستجاب الدعاء، فقال له أصحابه: ألا تدعو الله أن يدفعهم عنا؟ فأبىٰ وسلَّم الأمر إلىٰ الله تعالىٰ، فكان ممَّن استشهد مع أصحابه إذ ذاك(١).

(وهذه أمور ممكنة في أنفسها، فمَن لم يُحِطْ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها، فإن القدرة) الإلهيَّة **(واسعة)** لا حدَّ لها **(والفضل عظيم، وعجائب المُلك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالىٰ لا نهاية لها، وفضله علىٰ عباده الذين اصطفىٰ لا غاية له، ولذلك كان أبو يزيد)** البسطامي رحمه الله تعالىٰ **(يقول: إن أعطاك مناجاة موسىٰ وروحانية عيسىٰ وخلَّة إبراهيم)** عليهم السلام **(فاطلبْ ما وراء ذلك، فإنَّ عنده فوق ذلك أضعافًا مضاعفة)** ممَّا لا رأته عينٌ، ولا سمعته أذنٌ، ولا خطرَ علىٰ قلب بشر **(فإن سكنتَ إلىٰ ذلك)** الذي

(١) ذكر اليافعي في مرآة الجنان ٤/ ٣٤ أنه لما وصل التتار إلىٰ خوارزم سنة سبع عشرة وستمائة وحصروها جمع الكبري أصحابه وهم أكثر من ستين، وقد هرب السلطان محمد وهم يظنون أنه بها، ودخلوا البلد، وكان في أصحاب الكبري الشيخ سعد الدين الحموي والشيخ علي لالا وابن أخيه علي بن محمد مع جماعة من العارفين، فطلبهم الشيخ، وقال لهم: قوموا وارتحلوا وارجعوا إلىٰ بلادكم، فإنه خرجت نار من المشرق وتحرق إلىٰ قريب المغرب، وهي فتنة عظيمة ما وقع في هذه الأمة مثلها. فقال بعضهم: لو دعوت الله أن يرفع هذه الفتنة عن بلاد المسلمين. فقال: هذا قضاء من الله تعالىٰ محكم لا يرده ولا ينفع فيه الدعاء. فقالوا: يا مولانا، معنا دواب تركب معنا وتخرج الساعة. فقال: إني أقتل ههنا، ولم يأذن الله لي أن أخرج منها، فاستعدوا لخروجكم إلىٰ خراسان. فخرجوا، ولما دخل الكفار إلىٰ البلد نادىٰ الشيخ في أصحابه الذين لم يأمرهم بالخروج: الصلاة جامعة، ثم قال: قوموا علىٰ اسم الله نقاتل في سبيل الله. ودخل البيت، ولبس خرقة شيخه، وشد وسطه، وكانت فرجية، وجعل الحجارة في جانبيها، وأخذ العنزة، وخرج، ولما واجههم أخذ يرميهم بالحجارة حتىٰ فرغ جميع ما معه، ورموه بالنبل فجرحوه، وأخذ يدور ويرقص، فجاءه سهم في صدره، فنزعه ورمىٰ به نحو السماء، وفار الدم من صدره، فأخذ ينشد شعرا بالعجمية، من جملة معناه: إن أردت فاقتلني بالوصال أو بالفراق، فأنا فارغ عنهما، محبتك تكفيني، وما أنا حل إن قلت أغثني. ثم توفي ودفن في رباطه.

أُعطيتَه (حجبك به) أي فكأنَّ ذلك حجابك.

(وهذا بلاءُ مثلِهم ومَن هو في مثل حالهم؛ لأنهم الأمثل فالأمثل) لِما في الخبر: «أشد الناس بلاءً الأنبياء والصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»، وقد تقدم.

(وقد قال بعض العارفين: كوشفتُ بأربعين حوراء، رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثني معهن، فنظرت إليهن نظرة، فعوقبت أربعين يومًا) علىٰ عددهن (ثم كوشفتُ بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحُسن والجمال) والزي (وقيل لي: انظر إليهن. قال: فسجدت، وغمضت عيني في سجودي لئلاَّ أنظر إليهن، وقلت: أعوذ بك ممَّا سواك، لا حاجة لي بهذا، فلم أزل أتضرَّع) وأدعو (حتىٰ صرفهن الله عني) وهذا من جملة الابتلاء لخواصِّ محبِّيه.

(فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها) أي لحرمانه عنها (فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، بل هذه أحوال) لا (تظهر) إلا (بعد مجاوزة عقبات) كؤودة (ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص، وإخراج حظوظ النفس، وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرًا وباطنًا، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتىٰ يبقىٰ متحصِّنًا بحصن الخمول، فهذه أوائل سلوكهم) ومبادئ إرادتهم (وأقل مقاماتهم، وهي أعزُّ موجود في الأتقياء من الناس) فضلاً عن العامة (وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلىٰ الخلق يفيض عليه نور اليقين) فيطمئن قلبه، ويستصحبه الأنس، ويقف علىٰ مهد الاعتدال في الحضرة (وتنكشف له مبادئ الحق، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق) علىٰ يد شيخ كامل (يجري مجرىٰ إنكار مَن أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شُكِّلت) شكلاً خاصًّا (ونُقِّيت) عن أوساخها (وصُقلت) بإدامة العمل عليها (وصُوِّرت بصورة

المرآة، فنظر المنكِر إلىٰ ما في يده من زبرة) أي قطعة (حديد مظلم قد استولىٰ عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئيِّ فيها عند ظهور جوهرها) بعد الصقل (وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال، فهذا حكمُ كل مَن أنكر كرامات الأولياء) قدَّس الله أسرارهم (إذ لا مستنَد له إلا قصوره عن ذلك وقصور مَن رآه، وبئس المستنَد ذلك في إنكار قدرة الله تعالىٰ، بل إنما يشم روائح المكاشفة مَن سلك شيئًا ولو من مبادئ الطريق) وأوائله (كما قيل لبشر) الحافي رحمه الله تعالىٰ: (بأيِّ شيء بلغتَ هذه المنزلة؟ فقال: كنت أكاتم اللهَ تعالىٰ حالي. معناه): كنت (أسأله أن يكتم عليَّ) حالي (ويُخفِي أمري) علىٰ الخلق حتىٰ لا يطَّلعون عليه.

(ورُوي أنه رأىٰ الخضر ﷺ فقال له: ادْعُ اللهَ لي. فقال: يسَّرَ الله عليك طاعتَه. قلت: زدني. قال: وسترَها عليك)[1] واختُلف فيه (فقيل: معناه: سترها عن الخلق) فلا يطَّلعون عليها (وقيل: معناه: سترها عنك حتىٰ لا تلتفت أنت إليها) فيكون التفاتك حجبًا لك.

(و) حُكي (عن بعضهم أنه قال: أقلقني الشوقُ إلىٰ) ملاقاة (الخضر ﷺ، فسألت الله تعالىٰ مرةً أن يريني إياه ليعلِّمني شيئًا كان أهم الأشياء عليَّ. قال: فرأيته، فما غلب علىٰ همِّي ولا همَّتي إلا أن قلتُ له: يا أبا العباس) وهي كنية الخضر (علِّمْني شيئًا إذا قلتُه حُجِبتُ عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها قدْرٌ) أي منزلة (ولا يعرفُني أحد بصلاح ولا ديانة. فقال: قل: اللهم أسبِلْ عليَّ كثيف سترك، وحط عليَّ سرادقات حجبك، واجعلني في مكنون غيبك، واحجبني عن قلوب خلقك. قال: ثم غاب) عني (فلم أرَه، ولم أشتقْ إليه بعد ذلك، فما زلت أقول هذه الكلمات

---

(١) روىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٧ عن بشر بن الحارث قال: قال موسىٰ للخضر: أوصني. قال: ستر الله عليك طاعته. وروىٰ الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥/ ١٨٣ عن يوسف بن أسباط قال: بلغني أن موسىٰ قال للخضر: ادع لي. فقال له الخضر: يسر الله عليك طاعته.

في كل يوم. فحُكي أنه صار بحيث كان يُستذَلُّ ويُمتهَن) أي يُحتقَر (حتىٰ كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطريق بحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يلعبون به) ويؤذونه (فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلِّه وخموله.

فهكذا حال أولياء الله، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يُطلَبوا، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقَّعات والطيالسة) والهيئات الغريبة (وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة، وغيرةُ الله علىٰ أوليائه تأبىٰ إلا إخفاءهم) عن أعينهم (كما قال تعالىٰ) في الحديث القدسي: (أوليائي تحت خِبائي، لا يعرفهم غيري) وفي نسخة: تحت قبائي. أي تحت ستري؛ إذ سترتُهم عن أعين الخلق.

(وقال ﷺ: رُب أشعث أغبر ذي طِمْرين) أي ثوبين رَثَّين (لا يؤبه له لو أقسم علىٰ الله لأبرَّه) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، والخطيب من حديث أنس، وقد تقدم[١].

(وبالجملة، فأبعدُ القلوب عن مَشامِّ هذه المعاني القلوبُ المتكبِّرة، المعجَبة بأنفسها، المستبشرة بعلمها وعملها) الراضية بأحوالها (وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة، المستشعرة ذل نفسها استشعارًا إذا ذلَّ واهتضم لم يحسَّ بالذل، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفَّع عليه مولاه، فإذا لم يحسَّ بالذل ولم يشعر أيضًا بعدم التفاته إلىٰ الذل بل كان عند نفسه أخس منزلةً من أن يرىٰ جميع أنواع الذل ذلاً في حقه بل يرىٰ نفسه دون ذلك حتىٰ صار التواضع بالطبع صفةَ ذاته فمثل هذا القلب يُرجَىٰ له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحُرِمنا مثل هذه الروح فلا ينبغي أن يُطرَح الإيمان بإمكان ذلك لأهله، فمَن لا يقدر أن يكون من أولياء الله تعالىٰ فليكن محبًّا لأولياء الله تعالىٰ، مؤمنًا بهم) مصدِّقًا لهم

(١) في كتاب ذم الجاه والرياء.

في أقوالهم، مسلِّمًا لأحوالهم (فعسىٰ أن يُحشَر مع مَن أحب) فمَن أحب قومًا حُشر معهم، كما في الخبر، وتقدم قريبًا (ويشهد لهذا ما رُوي أن عيسىٰ عليه السلام قال لبني إسرائيل: أين ينبت الزرع؟ قالوا: في التراب. فقال: بحق أقول لكم لا تنبُت الحكمةُ إلا في قلبٍ مثل التراب.

ولقد انتهىٰ المريدون لولاية الله عز وجل في طلب شروطها بإذلال النفس إلىٰ منتهَىٰ الضعة والخسَّة حتىٰ رُوي أن ابن الكَرَنْبِي) بفتح الكاف والراء وسكون النون وكسر الموحدة، أبو خليفة الصوفي (وهو أستاذ الجنيد) خرج إلىٰ عَبَّادان، ترجمه الخطيب في التاريخ[١]، وكَرَنْبا: بلد بخراسان[٢]. وقد وقع هنا في نسخ الكتاب تصحيفٌ، فليُحذَر (دعاه رجل إلىٰ طعامه ثلاث مرات، ثم كان يردُّه، ثم يستدعيه، فيرجع إليه بعد ذلك، حتىٰ أدخله في المرة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رُضْتُ نفسي علىٰ الذل عشرين سنة حتىٰ صارت بمنزلة الكلب يُطرَد فينطرد، ثم يُدعَىٰ فيُرمَىٰ له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبتُ.

و) حُكي (عنه أيضًا[٣] أنه قال: نزلتُ في محلَّة، فعُرفتُ فيها بالصلاح) والديانة (فتشتَّت عليَّ قلبي، فدخلت الحمَّام وعتيتُ[٤] علىٰ ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقَّعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني فنزعوا مرقَّعتي، وأخذوا الثياب، وصفعوني وأوجعوني ضربًا، فصرتُ بعد ذلك أُعرَف بلصِّ الحمَّام، فسكنتْ نفسي) وقد اعترض ابن القيم وغيره علىٰ المصنف في تقريره هذا الكلام والتسليم له وأن هذا لا يجوز شرعًا. وقد أجاب عنه العارفون

---

(١) تاريخ بغداد ١٦/ ٥٩٤ - ٥٩٦.

(٢) في معجم البلدان ٤/ ٤٥٧: «كَرْنَبَا، بفتح أوله وسكون ثانيه ثم فتح النون وباء موحدة وألف: موضع في نواحي الأهواز، كانت به وقعة بين الخوارج وأهل البصرة بعد وقعة دولاب. قال الكلبي: كرنبا ابن كوثىٰ الذي حفر نهر كوثىٰ بنواحي الكوفة من بني أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام».

(٣) في القوت: وحدثني شيخ آخر عن أستاذه. فلا يروي صاحب القوت هذا عن ابن الكَرَنْبي.

(٤) في ب، وط المنهاج ٨/ ٥٧٨: عيَّنت. أي أصبت بعيني ثيابًا فاخرة. وانظر: تاج العروس ٣٥/ ٤٤٠.

منهم سيدي عبد الوهاب الشعراني قُدِّس سره في كتابه «الأجوبة المرضية عن السادة الصوفية»، وأشرنا إلىٰ بعضه في خطبة كتاب العلم.

(فهكذا كانوا يروِّضون أنفسَهم حتىٰ يخلِّصهم الله من النظر إلىٰ الخلق ثم من النظر إلىٰ النفس، فإن الملتفت إلىٰ نفسه محجوب عن الله تعالىٰ، وشغلُه بنفسه حجابٌ له، فليس بين القلب وبين الله تعالىٰ حجاب بُعدٍ وتخلُّل حائلٍ، وإنما بُعدُ القلوب شغلُها بغيره أو بنفسها، وأعظم الحَجْب شغلُ النفس[1]، ولذلك حُكي أن شاهدًا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد) البسطامي رحمه الله تعالىٰ (فقال له يومًا): يا أبا يزيد (أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئًا) يعني علم المعرفة (وأنا أصدِّق به وأحبه. فقال أبو يزيد) رحمه الله تعالىٰ: (ولو صمتَ ثلاثمائة سنة وقمتَ ليلَها ما وجدتَ من هذا ذرَّة. قال: ولِمَ؟ قال: لأنك محجوب بنفسك. قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم. قال: قلْ لي حتىٰ أعمله. قال: لا تقبله. قال: فاذكرْه لي حتىٰ أعمل. قال: اذهب الساعةَ إلىٰ الرجل المزيِّن فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس) الذي عليك (واتَّزِرْ بعَباءة، وعلِّقْ في عنقك مخلاة مملوءة جوزًا، واجمع الصبيان حولك وقل: كل مَن صفعني صفعة أعطيتُه جوزة. وادخل السوق وطُفْ الأسواق كلَّها عند الشهود) وهم الرفقاء له في صنعته (وعند مَن يعرفك) ويعظِّمك (وأنت علىٰ ذلك) الحال (فقال) الرجل: (سبحان الله! تقول لي مثل هذا؟! فقال أبو يزيد) رحمه الله تعالىٰ: (قولك «سبحان الله» شركٌ. قال: وكيف؟ قال: لأنك عظَّمتَ نفسك فسبَّحتَها، وما سبَّحت ربَّك. فقال: هذا لا أفعله) أي لا أقدر علىٰ فعلِه (ولكن دلَّني علىٰ غيره. فقال: ابتدئْ بهذا) الذي قلتُه لك (قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه. فقال: قد قلتُ لك أنك لا تقبل[2]).

---

(١) انظر: لطائف الإشارات للقشيري ٣/ ٤٢.

(٢) رواه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٤٢ عن الحسن بن علي الدامغاني.

فهذا الذي ذكره أبو يزيد) رحمه الله تعالىٰ **(هو دواء مَن اعتلَّ بنظره إلىٰ نفسه ومرضَ بنظر الناس إليه، ولا ينجي من هذا المرض دواءٌ سوىٰ هذا وأمثاله، فمَن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق مَن داوىٰ نفسَه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً، فأقل درجات الصحةِ الإيمانُ بإمكانها، فويلٌ لمَن حُرم هذا القدر القليل أيضًا، وهذه أمور جليَّة في الشرع واضحة، وهي مع ذلك مستبعَدة عند مَن يعدُّ نفسه من علماء الشرع، فقد قال النبي ﷺ: لا يستكمل العبد الإيمان حتىٰ تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته، وحتىٰ يكون أن لا يُعرَف أحب إليه من أن يُعرَف)** قال العراقي[١]: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة، وهو إنما سمع من التابعين، فهو معضل، وقد تقدم[٢].

(وقال ﷺ: ثلاث مَن كنَّ فيه استكمل إيمانَه: لا يخاف في الله لومةَ لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة علىٰ أمر الدنيا) قال العراقي[٣]: رواه الديلمي في مسند الفردوس[٤] من حديث أبي هريرة، وفيه سالم المرادي، ضعَّفه ابنُ معين والنسائي[٥]، ووثَّقه ابن حبان[٦]، واسم أبيه: عبد الواحد.

قلت: وكذلك رواه ابن عساكر في التاريخ[٧]. وسالم[٨] هذا يكنىٰ أبا العلاء، كوفي، شيعي، روىٰ له الترمذي، وهو مقبول الرواية.

---

(١) المغني ٢/ ١١٦١، وزاد: «ولم أجد له أصلا».

(٢) في كتاب الزهد والفقر.

(٣) المغني ٢/ ١١٦١.

(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٨٤.

(٥) الضعفاء والمتروكون للنسائي ص ١١٥.

(٦) الثقات ٦/ ٤١٠.

(٧) تاريخ دمشق ٣٨/ ١٣.

(٨) تقريب التهذيب ص ٣٦١.

(وقال ﷺ: لا يكمُل إيمانُ العبد حتىٰ تكون فيه ثلاث خصال: إذا غضب لم يخرجه غضبُه عن الحق، وإذا رضي لم يُدخِله رضاه في الباطل، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له) قال العراقي[١]: رواه الطبراني في الصغير[٢] من حديث أنس بلفظ: «ثلاث من أخلاق الإيمان»، وإسناده ضعيف.

قلت: لفظه: «مَن إذا غضب لم يُدخِله غضبُه في باطل، ومَن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق، ومَن إذا قدر لم يتعاطَ ما ليس له». وفيه بشر بن الحسين، كذاب[٣].

(وفي حديث آخر) قال ﷺ: **(ثلاث مَن أوتيهنَّ فقد أوتي مثل ما أوتيَ آل داود: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنىٰ والفقر، وخشية الله في السر والعلانية)** قال العراقي[٤]: غريب بهذا اللفظ، والمعروف «ثلاث منجيات ...» فذكرهن بنحوه، وقد تقدم.

قلت: ليس بغريب، بل رواه هكذا الحكيم في النوادر[٥] من حديث أبي هريرة.

(فهذه شروط ذكرها ﷺ لأولي الإيمان، فالعجب ممَّن يدَّعي عِلم الدين ولا يصادف في نفسه ذرَّة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عليَّة عظيمة وراء الإيمان.

وفي الأخبار) الإسرائيلية **(أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعض أنبيائه: إنما أتخذ**

---

(١) المغني ٢/ ١١٦٢.

(٢) المعجم الصغير ١/ ١١٤، والحديث موضوع، حتىٰ قال المناوي في شرح الجامع ٣/ ٢٩٢: كان ينبغي للمصنف حذفه من الكتاب. وهو عند البيهقي في الشعب من قول سري السقطي ١٠/ ٥٥١.

(٣) قاله الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٢٣.

(٤) المغني ٢/ ١١٦٢.

(٥) نوادر الأصول ص ٣٩٥.

لخلَّتي مَن لا يفتر عن ذكري، ولا يكون له همٌّ غيري، ولا يؤثر عليَّ شيئًا [غيري][١] من خلقي، وإن حُرِّق بالنار لم يجد لحرق النار وجعًا، وإن قُطِّع بالمناشير لم يجد لمسِّ الحديد ألمًا) نقله صاحب القوت.

(فمَن لم يبلغ إلىٰ أن يغلبه الحبُّ إلىٰ هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات، وكل ذلك وراء الحب، والحب وراء كمال الإيمان، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له، ولذلك قال ﷺ للصدِّيق رضي الله عنه: إن الله تعالىٰ قد أعطاك مثل إيمان كل مَن آمن بي من أمَّتي، وأعطاني مثل إيمان كل مَن آمن به من ولد آدم) قال العراقي[٢]: رواه الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن عليٍّ، مع تقديم وتأخير، والحارث ضعيف.

(وفي حديث آخر: إن لله تعالىٰ ثلاثمائة خُلُق، مَن لقيَه بخُلُق منها مع التوحيد دخل الجنة. فقال أبو بكر: يا رسول الله، هل فيَّ خُلُقٌ منها؟ فقال: كلها فيك يا أبا بكر، وأحبُّها إلىٰ الله السخاء) قال العراقي[٣]: رواه الطبراني في الأوسط[٤] من حديث أنس مرفوعًا عن الله تعالىٰ: «خلقتُ بضعة عشر وثلاثمائة خُلُق، مَن جاء بخُلُق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة». ومن[٥] حديث ابن عباس: «الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة». وفيه[٦] وفي الكبير من رواية المغيرة ابن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جدِّه نحوه بلفظ «الإيمان». وللبزار[٧] من حديث عثمان بن عفان: «إن لله مائة وسبع عشرة شريعة ...» الحديث. وليس فيها

(١) هذه الزيادة ليست في الجميع.

(٢) المغني ٢/ ١١٦٢.

(٣) السابق ٢/ ١١٦٢ - ١١٦٣.

(٤) المعجم الأوسط ٢/ ٢٠.

(٥) السابق ٨/ ٣٠٥.

(٦) السابق ٧/ ٢١٥.

(٧) مسند البزار ٢/ ٩١.

كلها تعرُّضٌ لسؤال أبي بكر، وكلها ضعيفة.

قلت: وتمام حديث عثمان عند البزار: «مَن وافاه بخُلُق منها دخل الجنة». ورواه الطيالسي[١] والحكيم[٢] وأبو يعلىٰ بلفظ: «إن لله مائة خُلُق وسبعة عشر خلقًا، فمَن أتىٰ اللهَ بخُلُق واحد منها دخل الجنة».

وأما حديث أنس الذي رواه الطبراني في الأوسط فلفظه عنده: «إن لله عَزَّوَجَلَّ لوحًا من زبرجدة خضراء، جعله تحت العرش، كتب فيه: إني أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين، خلقتُ بضعة عشر وثلاثمائة خُلُق، مَن جاء بخُلُق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة». وقد رواه كذلك أبو الشيخ في العظمة[٣].

وروىٰ الحكيم[٤] من حديث أبي سعيد الخدري: «إن لله تعالىٰ ثلاثمائة وخمسة عشر شريعة، يقول الرحمن: وعزَّتي لا يأتيني عبدٌ من عبادي لا يشرك بي شيئًا بواحدة منهن إلا أدخلته الجنة».

ولفظ حديث ابن عباس: «الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة، ليس منها شريعةٌ يلقىٰ اللهَ بها صاحبُها إلا وهو يدخل بها الجنة». هكذا رواه الطبراني في الكبير[٥] وفي الأوسط.

وأما لفظ حديث المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده فلفظه: «الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة، مَن وافَىٰ بشريعة منهن دخل الجنة». رواه الطبراني هكذا فيهما والبيهقي[٦] وابن النجار.

---

(١) مسند الطيالسي ١/ ٨٢.

(٢) نوادر الأصول ص ١١٠٤.

(٣) العظمة ٢/ ٤٩٧.

(٤) نوادر الأصول ص ٢٣٥.

(٥) المعجم الكبير ١٢/ ٢٣٧.

(٦) شعب الإيمان ١١/ ٦٥.

قال الحافظ في الإصابة(١): قال ابن حبان في ترجمة المغيرة بن عبد الرحمن ابن عبيد من كتاب الثقات(٢): روىٰ عن أبيه عن جده، وكانت له صحبة فيما يزعمون، وعداده في أهل الشام. وقال ابن عبد البر(٣): روىٰ عن النبي ﷺ في الإيمان، حديثه عند حمَّاد بن سلمة. انتهىٰ. وأخرج ابن السكن وابن شاهين والطبراني وأبو نعيم(٤) كلهم من طريق المنهال بن بحر عن حماد بن سلمة [عن أبي سنان] عن المغيرة بن عبد الرحمن حدثني أبي عن جدي - وكانت له صحبة - أن النبي ﷺ قال: «الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة ...» الحديث. وسمَّىٰ ابن السكن جدَّه في روايته عبيدًا فقال: وكانت لعبيد صحبة، وكان في بيت المقدس. انتهىٰ.

وأما حديث «السخاء خُلُقُ الله الأعظم» فقد رواه أبو الشيخ وابن النجار من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

(وقال ﷺ: رأيت ميزانًا دُلِّيَ من السماء، فوُضعتُ في كفَّة، ووُضعتْ أمَّتي في كفة، فرجحتُ بهم، ووُضع أبو بكر في كفة، وجيء بأمَّتي فوُضعتْ في كفة، فرجح بهم) قال العراقي(٥): رواه أحمد(٦) من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. انتهىٰ.

قلت: ورواه الطبراني(٧) نحوه، ولفظه: «رأيت البارحة كأنِّي أُدخلت الجنة، فخرجت من أحد أبوابها الثمانية، فإذا أنا بأمَّتي قيام، فعُرِضوا عليَّ رجلاً رجلاً، وإذا الميزان منصوب، فوُضعتْ أمَّتي في كفة الميزان ووُضعتُ في الكفة الأخرىٰ

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) الثقات ٧/ ٤٦٤.

(٣) الاستيعاب ١/ ٦١٢.

(٤) معرفة الصحابة ٤/ ١٩٠٤.

(٥) المغني ٢/ ١١٦٣.

(٦) مسند أحمد ٣٦/ ٥٦٦.

(٧) المعجم الكبير ٨/ ٢٥٥.

فرجحت بهم، ثم وُضع جميع أمتي في كفة الميزان ووُضع أبو بكر الصدِّيق في الكفة الأخرىٰ فرجح بهم، ثم وُضع جميع أمتي في كفة الميزان ووُضع عمر بن الخطاب في الكفة الأخرىٰ فرجح بهم، ثم رُفع الميزان».

ورویٰ أحمد(١) عن رجل من الصحابة رفعه: «رأيت الليلة في المنام كأنَّ ثلاثة من أصحابي وُزنوا، فوُزن أبو بكر فوزن، ثم وُزن عمر فوزن، ثم وُزن عثمان فنقص صاحبُنا وهو صالح».

وروىٰ ابن عساكر(٢) من حديث ابن عمر وأبي أمامة: «وُزنتُ بأمتي فوُضعت في كفة وأمتي في كفة فرجحتُ بأمتي، ثم وُضع أبو بكر مكاني فرجح بأمتي، ثم وُضع عمر مكانه فرجح، ثم وُضع عثمان مكانه فرجح بهم، ثم رُفع الميزان».

وروىٰ ابن عدي(٣) من حديث ابن عباس - وقال: غير محفوظ - «وُزنت بالخلق كلهم فرجحت بهم، ثم وُزن أبو بكر فرجح بهم، ثم وُزن عمر فرجح بهم، ثم وُزن عثمان فرجح بهم، ثم ارتفع الميزان».

وروىٰ الشيرازي في الألقاب وابن منده - وقال: غريب - وابن عساكر(٤) من حديث عرفجة الأشجعي: «وُزن أصحابنا الليلة، فوُزن أبو بكر فوزن، ثم وُزن عمر فوزن، ثم وُزن عثمان فخفَّ وهو رجل صالح».

قلت: عَرْفَجة(٥) بن شُرَيح الأشجعي صحابي نزل الكوفة، وروىٰ أيضًا عن أبي بكر الصدِّيق، وعنه زياد بن علاقة وأبو حازم الأشجعي وأبو يعفور العبدي وغيرهم.

---

(١) مسند أحمد ٢٧/ ١٤٩، ٣٨/ ٢٤٧.

(٢) تاريخ دمشق ٣٩/ ١٧٠، ٤٤/ ١٣٥.

(٣) الكامل في الضعفاء ٦/ ٢٣٢٧.

(٤) تاريخ دمشق ٣٩/ ١١٦، ١٦٩، ٤٤/ ١٣٥.

(٥) الإصابة ٦/ ٤١١ - ٤١٢. تهذيب الكمال ١٩/ ٥٥٥ - ٥٥٦.

وروىٰ الطبراني في الكبير[١] من حديث أسامة بن شريك: «وُزن أصحابي الليلة، فوُزن أبو بكر، ثم وُزن عمر، ثم وُزن عثمان». ورواه[٢] ابن قانع[٣] وابن منده من طريق رحمة بن مصعب عن شريك عن الأشعث بن سليم عن الأسود بن هلال قال: كان فينا أعرابي يؤذِّن بالحيرة يقال له: جبر، فقال: إن عثمان لن يموت حتىٰ يلي هذه الأمَّةَ، فقيل له: من أين تعلم؟ فقال: إني صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر، فلما سلَّم استقبلنا بوجهه فقال: «إن ناسًا من أصحابنا وُزنوا الليلة، فوُزن أبو بكر فوزن، ثم وُزن عمر فوزن، ثم وُزن عثمان فوزن». قال ابن منده: هذا حديث غريب بهذا الإسناد. قال أبو موسىٰ: ذكره ابن منده في آخر ترجمة جبر بن عتيك، والصواب أنه غيره. قال الحافظ: وكذلك أفرده أبو عمر[٤] وقال فيه: جبر الأعرابي المحاربي.

(ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالىٰ بحيث لم يتَّسع قلبه للخلَّة مع غيره، فقال: لو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله. يعني نفسه) قال العراقي[٥]: متفق عليه.

قلت: رواه مسلم من حديث ابن مسعود بلفظ: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت ابنَ أبي قُحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله عَزَّوَجَلَّ». ورواه الطبراني وابن عساكر من حديث أبي واقد كذلك. وفي لفظ لمسلم: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله [صاحبكم] خليلاً». ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن الزبير: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً دون ربِّي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخي في الدين وصاحبي

(١) المعجم الكبير ١/ ١٨٦.
(٢) الإصابة ٢/ ٥٨.
(٣) معجم الصحابة ١/ ١٤٣.
(٤) الاستيعاب ١/ ١٤٢.
(٥) المغني ٢/ ١١٦٣.

في الغار». ورواه البخاري كذلك من حديث ابن عباس. والشيرازي في الألقاب من حديث سعد. ورواه ابن عساكر من حديث جابر: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن قولوا كما قال الله صاحبي»[1].

وروىٰ عبد الرزاق[2] من حديث البراء: «لو كنت متخذًا خليلاً حتىٰ ألقىٰ الله سوىٰ الله لاتخذت أبا بكر خليلاً».

وروىٰ أبو نعيم في فضائل الصحابة[3] من حديث ابن مسعود: «لو اتخذت خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً».

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة) رسمًا وتعريفًا **(يُنتفَع بها:**

قال سفيان) الثوري رحمه الله تعالىٰ: **(المحبة اتِّباع الرسول ﷺ)** فيما أمر به ونهي [عنه] وهو دليل محبة الله تعالىٰ، فإنَّ مَن أحب اللهَ فقد أحب رسوله، ومَن أحب رسوله اتَّبع سنَّته وطريقته.

(وقال غيره): المحبة **(دوام الذِّكر)** روىٰ البيهقي في الشعب[4] عن أبي عليٍّ الحافظ قال: سُئل سمنون عن المحبة، فقال: صفاء الود مع دوام الذكر.

وعن مالك بن دينار قال: علامة حب الله دوام ذِكره؛ لأن مَن أحب شيئًا أكثر ذكره.

وقال الحليمي[5]: وقال بعضهم: المحبة: اللزوم، فإنَّ مَن أحب شيئًا ألزم قلبه

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث كلها في كتاب آداب الصحبة.

(٢) مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٢٦٣ من حديث ابن الزبير، وليس البراء.

(٣) فضائل الخلفاء الأربعة وغيرهم ص ٤٥.

(٤) شعب الإيمان ٢/ ٤٩.

(٥) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٩٨.

ذِكره، فمحبة الله لزومُ ذِكره. قال: وهذا الذي فسَّر هذا القائلُ به المحبةَ من أنه اللزوم موافق لقول أهل اللسان؛ لأنهم يقولون: أحب الجمل إذا برك فلزم مكانَه.

وعن السري بن المغلس قال: قرأت في بعض كلام الحكماء: أبعدُ الناسِ من الملل والفترة مَن لم يفارق قلبُه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وحسبك من صدق العبد دوامُ ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ عنده.

(**وقال غيره**): المحبة (**إيثار المحبوب**) ونقل القشيري عن الكتاني قال: المحبة: الإيثار للمحبوب[1]. ونقل عن غيره قال: هي إيثار المحبوب علىٰ جميع المصحوب.

ونقل صاحب القوت عن بعض العلماء قال: الإيثار يشهد للحب، فعلامة حبِّه إيثارُه علىٰ نفسك.

(**وقال بعضهم**): المحبة (**كراهية البقاء في الدنيا**) أي محبة الموت الذي هو سبب موصل إلىٰ لقاء الله تعالىٰ، وهو علامة محبة الله تعالىٰ، فإنَّ مَن أحبه أحب لا محالة لقاءه، ولا يتم له ذلك مع البقاء في الدنيا.

(**وهذا كله إشارة إلىٰ ثمرات المحبة**) أي ما تنتجه (**فأما نفس المحبة فلم يتعرَّضوا لها.**

وقال بعضهم: المحبة معنىٰ من المحبوب، قاهر للقلوب، تعجز القلوب عن إدراكه، وتمتنع الألسن عن عبارته.

وقال الجنيد) قُدِّس سره: (**حرَّم الله تعالىٰ المحبة علىٰ صاحب العلاقة**)[2] أي بسوىٰ الله تعالىٰ من أهل ومال.

---

(١) ذكره الكلاباذي في التعرف ص ١٢٨.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٧٤.

(وقال) أيضًا: **(كل محبة تكون بعوض، فإذا زال العوضُ زالت المحبة)** نقله القشيري في الرسالة. يشير بذلك إلىٰ أعلىٰ مقام في المحبة وهو محبته لذات الجمال والكمال لا لأمر وراءه من الإحسان والإفضال، وإنما كان هذا أفضل لتعلُّقها بالذات والصفات من كل وجه؛ لأنها أزلية أبدية لا تتغيَّر ولا تنقضي، بل هي في الازدياد، كما تقدم.

(وقال ذو النون) المصري رحمه الله تعالىٰ: **(قلْ لمَن أظهر حب الله: احذر أن تذلَّ لغير الله)**[1] يشير به إلىٰ أعلىٰ مراتب المحبة وهو أن يغمر الحب قلبَه فلا يحس بغيره ولا يلتفت إلىٰ سواه.

(وقيل للشِّبْلي رحمه الله تعالىٰ: صِفْ لنا العارف والمحبَّ. فقال: العارف إن تكلم هلك، والمحب إن سكت هلك) نقله القشيري في الرسالة. يشير به إلىٰ أن المحب لمَّا انكشف له من قرب الله وجماله وكماله فتقوَىٰ لذَّتُه ويزيد نعيمُه أثمر ذلك طولاً في اللسان وانبساطًا؛ لقصور نظره عن طِيب حاله، فلو سكت هلك، بخلاف العارف فإنه أبدًا يتطلَّع إلىٰ ما غاب عنه وما سيأتي، فيكون غالب حاله السكون والقبض، فلو تكلم كاد أن يهلك، ومن هنا قولهم: مَن عرف اللهَ كلَّ لسانُه.

(وقال الشبلي رحمه الله تعالىٰ) حين كان بالمارستان ودخل عليه جماعة، فسألهم: مَن أنتم؟ قالوا: نحن أحبَّاؤك. فرماهم بالحجارة فهربوا، فقال: كذبتم، لو كنتم أحبَّائي ما هربتم. ثم أنشد:

(يا أيها السيد الكريم حبُّك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما مرَّ بي عليم)

هكذا أنشده القشيري في الرسالة، وقد تقدمت الإشارة إليه.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٧٣، وزاد: «ومن علامة المحب لله أن لا يكون له حاجة إلىٰ غير الله».

(ولغيره) في هذا المقام، قيل: هو الشبلي؛ لِما سيأتي:

(عجبتُ لمَن يقول ذكرتُ ربِّي   وهل أنسىٰ فأذكر ما نسيتُ)

أي لأن الذكر إنما يكون بعد النسيان والغفلة، أما دائم الذكر فلا يقول: ذكرتُ، فإنَّ الحاصل لا يُطلَب تحصيله، ومن هنا قال الشيخ سعد الدين الكاشغري: سألني الشيخ عبد الكبير الحضرمي وقال: ما الذكر؟ قلت: لا إله إلا الله. فقال: ما هذا ذكرٌ، هذا عبادة. فقلت له: أفِدْ أنت. فقال: الذكر أن تعلم أنك لا تقدر علىٰ وجدانه(١).

(أموت إذا ذكرتُ ثم أحيا   ولولا حسن ظنِّي ما حييتُ

فأحيا بالمُنَىٰ وأموت شوقًا   فكم أحيا عليك وكم أموت

شربت الحب كأسًا بعد كأس   فما نفد الشرابُ وما رويتُ

فليت خياله نصبٌ لعيني   فإن قصرتُ في نظري عميتُ)

وقرأت في آخر المسلسلات للحافظ أبي مسعود الأصبهاني: أنشدني أحمد ابن علي الحافظ قال: أنشدني عبد الله بن يحيىٰ الزَّمِن، أنشدني محمد بن علي الصوفي، عن أبي بكر الشبلي:

أموت إذا ذكرتُك ثم أحيا   ولولا ما أؤمِّل ما حييتُ

وفي موتي حياتي ما كفاني   فكم أحيا عليك ولا أموت

شربت الحب كأسًا بعد كأس   فما نفد الشرابُ وما رويتُ

انتهىٰ.

وقال القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت منصور بن

---

(١) تقدم ذلك في كتاب الأذكار والدعوات.

عبد الله يقول: سمعت [النهرجوري يقول: سمعت علي] ابن عبيد يقول: كتب يحيىٰ بن معاذ إلىٰ أبي يزيد: سكرتُ من كثرة ما شربتُ من كأس محبته. فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحورَ السموات والأرض وما رويَ بعدُ، ولسانه خارج يقول: هل من مزيد؟ وأنشدوا:

عجبتُ لمَن يقول ذكرت ربِّي[1] وهل أنسىٰ فأذكر ما نسيتُ
شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفد الشرابُ وما رويتُ

وقال القشيري[2] في باب الذكر: كان الشبلي ينشد في مجلسه:

ذكرتُك لا أني نسيتك لمحةً وأيسرُ ما في الذكر ذكرُ لساني
وكدتُ بلا وجدٍ أموت من الهوىٰ وهام عليَّ القلبُ بالخفقان
فلمَّا أراني الوجدُ أنك حاضري شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبتُ موجودًا بغير تكلُّم ولاحظت معلومًا بغير عيان[3]

(وقالت) أم الخير (رابعة) بنت إسماعيل (العدوية) البصرية قُدِّس سرها، المتوفية سنة ١٣٥ (**يومًا: مَن يدلُّنا علىٰ حبيبنا؟ فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا، ولكن الدنيا قطعتنا عنه**) اعلمْ أن رابعة قُدِّس سرها كانت رأسًا في المعرفة والمحبة، كما هو مشهور من حالها، ولا يخفَىٰ عليها مقامُ المعيَّة، وإنما قالت ما قالت وهي في مقام الاستغراق الذي هو من نتائج المحبة، وغلب عليها الشوقُ إلىٰ المشاهدة، والمحب في مقام القرب قد يتطلَّب مَن يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال، فنبَّهتها الخادمة علىٰ أن الوصول إلىٰ مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالَم فتمتنع عنه القواطعُ، فما أدقَّ نظرها رحمها الله تعالىٰ.

---

(١) في الرسالة: إلفي.
(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٨٤.
(٣) الأبيات في ديوان الشبلي ص ١٢٧.

(وقال) أبو عبد الله **(ابن الجَلاَّء)** الدمشقي **(رحمه الله تعالىٰ: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ** عليه السلام**)**: يا عيسىٰ **(إني إذا اطَّلعت علىٰ سرِّ عبدٍ)** وهو داخل القلب **(فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأتُه من حبِّي، وتولَّيتُه بحفظي)** يشير به إلىٰ أن المحبة تقتضي عدمَ المشاركة، وأن لا يكون في القلب محل لسواه. ولفظ القشيري في الرسالة: وقيل: أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ عليه السلام: إني إذا اطَّلعت علىٰ قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأتُه من حبِّي.

(وقيل: تكلم سمنون) بن حمزة المحبُّ رحمه الله تعالىٰ **(يومًا في المحبة، فإذا بطائر نزل بين يديه، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرضَ حتىٰ سال منه الدمُ فمات)** قال القشيري: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أحمد بن علي يقول: سمعت إبراهيم بن فاتك يقول: سمعت سمنون وهو جالس في المسجد يتكلم في المحبة إذ جاء طير صغير فقرب منه ثم قرب، ثم لم يزل يدنو حتىٰ جلس علىٰ يده، ثم ضرب بمنقاره إلىٰ الأرض حتىٰ سال منه الدم، ثم مات.

وفيه دلالة علىٰ أن الحيوان يسمع ويفهم، وإنما يمتنع عليه الكلام إلا علىٰ مَن أفهمه الله كلامَه.

(وقال إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ مشيرًا إلىٰ عِظَم مقام المحبة: **(إلهي، إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبَّتك، وآنستني بذكرك، وفرَّغتني للتفكُّر في عظمتك)** رواه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا أحمد بن محمد بن مقسم، حدثنا محمد بن سعيد صاحب الجنيد قال: سمعت المنصوري يقول: سمعت [إبراهيم بن] بشَّار يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة إذا أنت آنستني بذكرك، ورزقتني حبك، وسهَّلت علىٰ طاعتك، فأعطِ الجنة لمَن شئتَ.

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٣٥ - ٣٦.

حدثنا أبو أحمد الحسين بن علي التميمي النيسابوري، حدثنا محمد بن المسيب الأرغياني، حدثنا عبد الله بن خبيق، حدثنا محمد بن بحر قال: قال إبراهيم بن أدهم: اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة فما دونها إذا أنت وهبت لي حبَّك، وآنستني بمذاكرتك، وفرَّغتني للتفكُّر في عظمتك.

(وقال السري) السقطي **(رحمه الله تعالىٰ: مَن أحب اللهَ عاش)** عيشة أبديَّة **(ومَن مال إلىٰ الدنيا طاش)** عقلُه وتحيَّر في أمره **(والعاقل عن عيوبه فتَّاش، والأحمق)** الذي نقص جوهرُ عقله **(يغدو ويروح في لاش)** أي في لا شيء. تقدم ذلك في كتاب ذم الدنيا[1].

(وقيل لرابعة) العدوية قُدِّس سرها: **(كيف حبكِ للرسول ﷺ؟ فقالت: إني واللهِ أحبه حبًّا شديدًا، ولكنَّ حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين)**.

وحُكي عن أبي سعيد الخَرَّاز قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، اعذرني، فإنَّ محبة الله شغلتني عن محبَّتك. فقال: يا مبارك، مَن أحب اللهَ فقد أحبني. نقله القشيري.

(وسُئل عيسىٰ عليه السلام عن أفضل الأعمال، فقال: الرضا عن الله) في أفعاله **(والحب له)** لجلاله وكماله.

(وقال أبو يزيد) البسطامي رحمه الله تعالىٰ: **(المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة)** أي لا يميل بقلبه إليهما **(إنما يحب من مولاه مولاه)** أي ذاته، ويقصر نظرَه عليه.

(وقال الشبلي) رحمه الله تعالىٰ: **(الحب دهشٌ في لذَّة، وحيرة في تعظيم)** أشار بالجملة الأولىٰ إلىٰ أوائل الحب، فإن المحب في أوائل أمره إذا لاحظ جمالَ

---

(١) بل في كتاب آداب الكسب والمعاش.

المحبوب يدهش ويغيب عن عقله، فإذا لحقته العنايةُ أصحاه من دهشه، فيلتذُّ بما قام به من الحال. وأشار بالجملة الثانية إلىٰ كمال مقام الحب، وذلك عند تصاغُره بالعبودية المحضة إجلالاً لعظمته ومهابةً لكبريائه، لا تفارقه في هذا المقام الحيرةُ. ولفظ القشيري في الرسالة: سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق يقول: المحبة لذة، ومواضع الحقيقة دهشٌ. انتهىٰ. والمعنىٰ أن المحبة في أول أمرها لذة يلتذُّ بها المحبُّ، فإذا غلب علىٰ قلبه شغله بالله وغمره دهشٌ.

(وقيل: المحبة أن تمحو أثرَك عنك حتىٰ لا يبقىٰ فيك شيء راجع منك إليك) ويقرُب منه قولُ أبي عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلَّك لمَن أحببتَ، فلا يبقىٰ لك منك شيءٌ. وقولُ الشبلي: سُمِّيت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوىٰ المحبوب. نقلهما القشيري.

(وقيل): إن **(المحبة قربُ القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح)** ولفظ القوت: قال الجنيد: المحبة نفسها قربُ القلب من الله بالاستنارة والفرح[1]. انتهىٰ. والمراد بالقرب قرب مكانة لا قرب مكان، وأشار بالاستبشار والفرح إلىٰ الأنس الذي تنتجه المحبة، فإن المستأنس بالقرب يستبشر ويفرح؛ لأنه غير متطلِّع إلىٰ فائت، وقد يكون إشارة إلىٰ مقام الصفاء الذي هو أحد منازلات العبد في سلوكه وهو أن يكون القلب خاليًا عن سائر الكدورات، فحينئذٍ يجد الربُّ تعالىٰ القلب محلاً قابلاً للقرب فيملؤه من أنواره ومعرفته وتُحَفه، فعند ذلك يميل القلب إلىٰ القرب من المحبوب بكمال المعرفة، وينقضُّ عليه انقضاضَ الطائر الجاف الكبد من عدم الماء إذا رآه في السماء وهو بغاية الفرح والاستبشار، فعلىٰ هذا يُعلَم يقينًا أن محبة العبد لله تعالىٰ هي الميل إليه بالفرح والابتهاج، كما قال الجنيد: المحبة

---

(١) وروىٰ أبو سعد الماليني في كتاب الأربعين في شيوخ الصوفية ص ١٦٦ (ط - دار البشائر الإسلامية) عن أحمد بن عبد الله بن ميمون قال: سئل ذو النون المصري عن المحبة، فقال: قرب القلب من المحبوب علىٰ الطمأنينة والسكون.

هي المَيل بلا نيل. وأيُّ نيلٍ أشرف من الميل إليه والقرب منه.

(وقال) إبراهيم بن أحمد **(الخوَّاص)** رحمه الله تعالىٰ: **(المحبة محو الإرادات وإحراق)** وفي نسخة: واحتراق **(جميع الصفات والحاجات)** ويقرُب منه قولُ مَن قال: هي محو المحب لصفاته، وإثبات المحبوب بذاته. وقول الحلاَّج: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك[1]. وقول أبي يعقوب السوسي: حقيقة المحبة أن ينسىٰ العبد حظَّه من الله، وينسىٰ حوائجه إليه. كما في الرسالة.

(وسُئل) أبو محمد **(سهل)** التستري رحمه الله تعالىٰ **(عن المحبة، فقال)**: هي **(عطفُ الله تعالىٰ بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه)** والمشاهدة تكون بالقلب، كما أن الرؤية تكون بالبصر، فإذا عطفه كذلك لا يميل لغيره أبدًا، وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾.

(وقيل: معاملة المحب علىٰ أربع منازل: علىٰ المحبة والهيبة والحياء والتعظيم، وأفضلها التعظيم والمحبة؛ لأن هاتين المنزلتين تبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويُرفَع عنهم غيرهما) وذلك لأن أول التوحيد عند المحبِّين أن يعبدوا الله تعالىٰ لوجهه حبًّا له، لا خوفًا من ناره، ولا رغبة في جنَّته، فيكون الحبيب مرادهم، والوصول إليه مُناهم، ثم يرجع لهم علىٰ التعظيم والإجلال، فلا يرون نفوسهم تصلُح للقائه فتخنس القلوب وترجع بالهيبة والرهبة، فيعبدون الله عَزَّوَجَلَّ، ويبقىٰ الشوق والأنس.

وسُئل سهل[2]: الحب أفضل أو الحياء؟ فقال: الحب الذي يورَث من الخوف الحياءُ أفضل منه، والحب الذي يورَث منه الحياء أفضل من الحياء وهو الشوق.

---

(١) زاد السلمي في حقائق التفسير ص ٩٧: والاتصاف بأوصافه.

(٢) في القوت: وسئل بعض علمائنا البصريين.

(وقال هرم بن حيَّان) العبدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، له صحبة، ويُعَدُّ من كبار التابعين: (المؤمن إذا عرف ربَّه عَزَّوَجَلَّ أحبَّه) فإن المحبة ثمرة المعرفة (وإذا أحبه أقبل عليه) بالعطف والرحمة (وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلىٰ الدنيا بعين الشهوة) أي لم يَمِلْ قلبُه إليها (ولم ينظر إلىٰ الآخرة بعين الفترة) أي الكسل عن القيام بالخدمة (وهي تحسُّره في الدنيا وتروُّحه في الآخرة) وقد تقدم هذا القول.

(وقال عبد الله بن محمد) البصري: (سمعت امرأة من المتعبِّدات تقول وهي باكية، والدموع علىٰ خدِّها جارية: واللهِ لقد سئمتُ من الحياة حتىٰ لو وجدتُ الموت يُباع لاشتريته شوقًا إلىٰ الله تعالىٰ وحبًّا للقائه. قال: فقلت لها: فعلىٰ ثقة أنتِ من عملك؟ قالت: لا، ولكن لحبي إياه وحسن ظنِّي به، أفتراه يعذِّبني وأنا أحبه)؟

روىٰ البيهقي في الشعب[1] عن أبي عثمان الحيري قال: الشوق ثمرة الحب، ومَن أحب اللهَ اشتاق للقائه.

وقال أيضًا: بقدْر ما يصل إلىٰ قلب العبد من السرور بالله يشتاق إليه، وعلىٰ قدر شوقه يخاف من بُعده وطردِه.

وقولها «أفتراه يعذبني وأنا أحبه» يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [المائدة: ١٨].

(وأوحىٰ الله إلىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلىٰ ترك معاصيهم لماتوا شوقًا إليَّ، وتقطَّعت أوصالهم من محبتي. يا داود، هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ. يا داود، أحوج ما يكون العبد إليَّ إذا استغنىٰ عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجلُّ ما يكون عندي إذا رجع إليَّ) نقله القشيري في الرسالة مختصرًا.

---

(١) شعب الإيمان ٢/ ٣٥.

(وقال أبو خالد) محمد[1] بن عبد الله بن أحمد الزاهد الأصبهاني (الصَّفَّار) سكن نيسابور، وقيل إنه لم يرفع رأسه إلىٰ السماء نيفًا وأربعين سنة، وصنَّف كتبًا في الزهد، وروىٰ عن أبي إسماعيل الترمذي، وعنه الحاكم أبو عبد الله وأبو علي النيسابوري الحافظ، مات سنة ٣٣٩ (لقي نبيٌّ من الأنبياء عابدًا) من العبَّاد (فقال له: إنكم معاشر العُبَّاد تعملون علىٰ أمر لسنا معاشر الأنبياء نعمل عليه، أنتم تعملون علىٰ الخوف والرجاء، ونحن نعمل علىٰ المحبة والشوق) ولا يخفَىٰ أن العمل علىٰ المحبة والشوق أفضل من العمل علىٰ الرجاء والخوف؛ لرفعة مقام المحبة علىٰ غيره من المقامات.

(وقال الشبلي رحمه الله تعالىٰ: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا داود، ذكري للذاكرين) لأنه تعالىٰ قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] (وجنَّتي للمطيعين) فإن الجنة لمَن أطاع (وزيادتي للمشتاقين) إليَّ، أي زيادة النعيم (وأنا خاصة للمحبِّين) الذين يعبدوني خاصةً لا لخوف من نار ولا طمعًا في جنة.

(وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا آدم، مَن أحب حبيبًا صدَّق قولَه، ومَن أنس بحبيبه رضي فِعله، ومَن اشتاق إليه جدَّ في سيره.

وكان) إبراهيم بن أحمد (الخوَّاص[2] رحمه الله تعالىٰ يضرب علىٰ صدره ويقول: واشوقاه إلىٰ مَن يراني ولا أراه.

وقال الجنيد رحمه الله تعالىٰ: بكىٰ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ حتىٰ عمي، وقام حتىٰ انحنىٰ) ظهرُه (وصلىٰ حتىٰ أقعد، وقال: وعزَّتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقًا مني إليك).

---

(١) لباب الأنساب لابن الأثير ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤، وفيه أن كنيته: أبو عبد الله.

(٢) الصحيح أنه أبو عبيدة الخواص واسمه عباد بن عباد، فقد روىٰ ابن الجوزي في المنتظم ٨/ ٢٥٩ عن عبد الأعلىٰ بن سليمان قال: رأيت أبا عبيدة الخواص علىٰ سرته خرقة، وعلىٰ رقبته خرقة، وهو يمشي ويقول: وا شوقاه إلىٰ من يراني ولا أراه.

وروىٰ البيهقي في الشعب[1] عن عبد الله بن أبي عيسىٰ قال: كان رجل من أهل البصرة يقال له ضيغم تعبَّد قائمًا حتىٰ أقعد، ثم تعبَّد قاعدًا حتىٰ استلقىٰ، ثم تعبَّد وهو مستلقٍ حتىٰ أفحم، فلما أُجهِد قال: أجلِسوني. فرفع بصره إلىٰ السماء فقال: سبحانك، عجبًا للخليقة كيف تحب أحدًا سواك[2]؟!

(وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال: سألت رسول الله** ﷺ **عن سنَّته، فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذِكر الله أنيسي، والثقة)** بالله تعالىٰ **(كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر دوائي، والرضا)** بالله تعالىٰ **(غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوَّتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خُلُقي، وقرَّة عيني في الصلاة)** قال العراقي[3]: ذكره القاضي عياض[4] من حديث عليٍّ، ولم أجد له إسنادًا.

قلت: وسُئل عنه الحافظ ابن حجر في فتاويه فقال: لا أصل له[5].

(وقال ذو النون) المصري رحمه الله تعالىٰ: **(سبحان مَن جعل الأرواح جنودًا مجنَّدة، فأرواح العارفين جلالية قُدسية، فلذلك اشتاقوا إلىٰ الله تعالىٰ، وأرواح المؤمنين روحانية، فلذلك حنُّوا إلىٰ الجنة، وأرواح الغافلين هوائية، فلذلك مالوا إلىٰ الدنيا)** والأرواح[6] البشرية لها مراتب خمسة وهي: الروح الحسَّاس، والروح

---

(١) شعب الإيمان ٢/ ٢١.

(٢) في الشعب: كيف أنست بأحد سواك. وهذه القصة ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣١٥، وزاد: «وسبحانك عجبا للخليقة كيف أرادت بك بدلا؟! وسبحانك عجبا للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر غيرك»؟!

(٣) المغني ٢/ ١١٦٣.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ١/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٥) وقال السيوطي: موضوع، وآثار الوضع لائحة عليه، وهو يشبه كلام الصوفية. انظر: نسيم الرياض للشهاب الخفاجي ٢/ ١٤٤ (ط دار النوادر)، ومناهل الصفا للسيوطي ص٨٥.

(٦) مشكاة الأنوار ص ٨١ - ٨٢.

الخيالي، والروح العقلي، والروح الفكري، والروح القُدسي. والمرتبة الأخيرة هي المختصَّة بالعارفين، وفيها تتجلَّىٰ لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض، بل من المعارف الربَّانية التي يقصُر دونها الروح العقلي والفكري، وكل هذه الأرواح نورانية لا ظُلمة فيها.

(وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل اللُّكام) بالضم وتخفيف الكاف: من جبال الشام، مأوىٰ عباد الله الصالحين **(رجلاً أسمر اللون، ضعيف البدن، وهو يقفز من حجر إلىٰ حجر وهو يقول:**

الشــــــوق والهـــــوىٰ صيَّـــراني كمـــا تـــرىٰ

ويقال: الشوق نار الله تعالىٰ، أشعلها في قلوب أحبَّائه حتىٰ يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات)[1] فلا يكون لها ممرٌّ بها أبدًا.

(فهذا القدر كافٍ في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا، فلنقتصر عليه. والله الموفِّق للصواب).

ولنذكر ما يتعلَّق بهذه المقامات ممَّا في الشعب للبيهقي وقوت القلوب وغيرهما:

قال البيهقي في الشعب[2]: قد روينا عن بلال بن أبي الدرداء عن أبيه مرفوعًا قال: «حبُّك الشيء يُعمِي ويُصِمُّ».

قال الحليمي: قد يُفهَم من هذا أن مَن أحب اللهَ تعالىٰ لم يعتقد المصائبَ التي يقضيها عليه إساءةً منه إليه ولم يستثقل وظائفَ عبادته وتكاليفه المكتوبة عليه،

---

(١) كل هذه الآثار ذكرها الخركوشي في تهذيب الأسرار، وعنه ينقل الغزالي رحمهما الله تعالىٰ، انظر باب المحبة ص٥٥ وما بعدها، وباب الشوق ص٦٧ وما بعدها.

(٢) شعب الإيمان ٢/ ١٤ - ٤٦.

كما أن مَن أحب أحدًا من جنسه لم يكدْ يبصر منه إلا ما يستحسنه ويزيده إعجابًا به، ولا يصدِّق من خبر المخبرين عنه إلا ما يتَّخذه سببًا للولوع به والغلوِّ في محبته.

وعن [عبد الحميد بن] عبد الله بن إبراهيم القرشي عن أبيه قال: لمَّا نزل بالعباس بن عبد المطلب الموتُ قال لابنه: يا عبد الله، إني موصيك بحب الله عَزَّوَجَلَّ وحب طاعته وخوف الله وخوف معصيته، فإنك إذا كنت كذلك لم تكره الموت متىٰ أتاك، وإني مستوصيك الله يا بني. ثم استقبل القبلة فقال: لا إله إلا الله، ثم شخص ببصره ومات(١).

وعن مالك بن دينار قال: أوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ بني إسرائيل: إني لا أقبل قولكم، ولكن أقبل همكم وهواكم، مَن كان همُّه وهواه في محبتي كان صمته عندي تقديسًا وتسبيحًا ووقارًا.

وعن محمد بن سعيد الخوارزمي قال: سمعت ذا النون وسُئل عن المحبة قال: أن تحب ما أحب اللهُ، وتبغض ما أبغض اللهُ، وتفعل الخير لله، وترفض كل ما يشغلك عن الله، وأن لا تخاف في الله لومةَ لائم، مع العطف للمؤمنين، والغلظة علىٰ الكافرين، واتِّباع سنَّة رسول الله ﷺ في الدين(٢).

وعن أبي يزيد حين سُئل عن علامة مَن يحب الله عَزَّوَجَلَّ وعلامة مَن يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: مَن يحب الله فهو مشغول بعبادته ساجدًا أو راكعًا، فإن عجز عن ذلك

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين ص ٢١٥، وزاد في أوله: «يا بني، إني والله ما مت موتا ولكني فنيت فناء، وإني موصيك بحب الله ...» الخ. ورواه أحمد في فضائل الصحابة ص ٩٤٥ عن عبد العزيز بن أبي يحيىٰ الزهري قال: لما حضرت العباس بن عبد المطلب الوفاة بعث إلىٰ ابنه عبد الله، فقال له: يا بني، إني والله ما مت موتا، ولكني فنيت فناء. يا بني، أحبب الله وطاعته حتىٰ لا يكون شيء أحب إليك منه ومن طاعته، وخفِ الله ومعصيته حتىٰ لا يكون شيء أخوف إليك منه ومن معصيته، فإنك إذا أحببت الله وطاعته نفعك كل أحد، وإذا خفت الله ومعصيته لم تضر أحدا، أستودعك الله.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٩٤، والسلمي في طبقات الصوفية ص ٢٩.

استروح إلىٰ ذكر اللسان والثناء، فإن عجز استروح إلىٰ ذكر القلب والتفكُّر، فأما مَن يحبه الله عَزَّوَجَلَّ أعطاه سخاء كسخاء البحر، وشفقة كشفقة الشمس، وتواضعًا كتواضع الأرض.

وعن يحيىٰ بن معاذ الرازي قال: المحبة لا تصحُّ إلا من جهة المحبوب، وليس مَن أحبه كمَن يحبه.

وعن إبراهيم بن علي المَرْثَدي قال: من المُحال أن تعرفه ولا تحبه، ومن المحال أن تحبه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثم لا يوجدك طعمُ ذِكره، ومن المحال أن يوجدك طعمُ ذكره ولا يشغلك به عمَّن سواه(١).

وعن سعيد بن عثمان قال: سمعت ذا النون يقول: من علامة المحب تركُ كل ما يشغله عن الله حتىٰ يكون الشغل كله بالله وحده.

وقال يحيىٰ بن معاذ: حقيقة المحبة أن لا ترىٰ شيئًا سوىٰ محبوبك، ولا ترىٰ سواه لك ناصرًا ولا معينًا، ولا تستغني بغيره عنه.

وعن وهب بن أبي حافظ الليثي قال: قال لي راهب من الرهبان: إذا استقرَّت المحبة في القلب ذهل عن الأهل والولد.

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت راهبًا في دير خالد(٢) يقول للحسن ابن شوذب: لا يكون المحب لله محبًّا حتىٰ يحبه بكل الكل. فصاح الحسن بن شوذب(٣).

---

(١) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٢٢٧ عن إبراهيم بن علي المرثدي قال: سمعت أبا حمزة البغدادي يقول: من المحال أن تحبه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثم لا يوجدك طعم ذكره ثم يشغلك بغيره.

(٢) في معجم البلدان ٢/ ٥٠٧: «دير خالد، وهو دير صليبا بدمشق مقابل باب الفراديس، نسب إلىٰ خالد بن الوليد لنزوله فيه عند حصاره دمشق، وقال ابن الكلبي: هو علىٰ ميل من الباب الشرقي».

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣/ ١١٤.

وعن محمد بن أحمد بن المهدي قال: سمعت علي بن الموفَّق ما لا أحصيه وهو يقول: اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفًا من نارك فعذِّبْني بها، وإن كنت تعلم أني أعبدك حبًّا مني لجنَّتك وشوقًا إليها فاحرمنيها، وإن كنت تعلم أني إنما أعبدك حبًّا مني لك وشوقًا إلىٰ وجهك الكريم فأبحنيه مرةً واصنعْ بي ما شئتَ(١).

وقال ضيغم لكلاب: إن حبه شغل قلوبَ مريديه عن التلذُّذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه لذة، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الثواب أكثر عندهم من النظر إلىٰ وجهه(٢).

وعن عبد الرحمن بن عبد ربِّه عن ذي النون قال: مَن قتلته عبادتُه فديته جنَّته، ومَن قتله الشوق(٣) فديته النظر إليه.

وعن عبد الله بن سهل قال: سمعت يحيىٰ بن معاذ يقول: كم بين من يريد الوليمة للوليمة وبين مَن يريد حضور الوليمة ليلقَىٰ الحبيبَ في الوليمة.

ودخل سفيان الثوري علىٰ رابعة، فقالت له: يا سفيان، ما تعدُّون السخاءَ فيكم؟ قال: أما عند أبناء الدنيا فالذي يجود بماله، وأما عند أبناء الآخرة فهو الذي يجود بنفسه. فقالت: يا سفيان، أخطأتم فيها. فقال: فما السخاء عندكِ رحمكِ الله؟ فقالت: أن تعبدوه حبًّا له، لا لطلب جزاء ولا مكافأة. ثم أنشأت تقول:

لـولاك مـا طابـت الجنـانُ ولا ... طـاب نعيـمٌ بجنـة الخلـد
قـوم أرادوك للجنـان فنـا ... لوهـا وقلبـي سـواك لـم يُـرِدِ

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٦٠٠، والماليني في الأربعين ص ١٥١، وابن الجوزي في المنتظم ١٢/ ٢٠٢.

(٢) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٩، والختلي في المحبة لله ص ٧٩. وزادا في آخره: فسقط كلاب عند ذلك مغشيا عليه.

(٣) في الشعب: ومن قتله حبه.

وعن إبراهيم بن الجنيد: حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن الكوفي - وكان من العُبَّاد - قال: لقيني بهلول المجنون يومًا، فقال لي: أسألك؟ قال: قلت: سَلْ. قال: أيُّ شيء السخاءُ؟ قلت: البذل والعطاء. قال: هذا السخاء في الدنيا، فما السخاء في الدين؟ قلت: المسارعة إلىٰ طاعة السيد. قال: فتريد منه الجزاء؟ قلت: نعم، بالواحدة عشرة. قال: هذا في الدين قبيحٌ[١]، ولكن المسارعة إلىٰ طاعة سيدك أن لا يطَّلع علىٰ قلبك وأنت تريد منه شيئًا سواه[٢].

وعن جامع بن أحمد قال: سمعت يحيىٰ بن معاذ يقول: العارفون رجلان: رجل مسرور بأنه عبدُه، ورجل مسرور بأنه ربه، فالأول يفرح بالله من نفسه لنفسه، والآخَر يفرح بالله من الله لله، وقال: هذا سرور الخبر، فكيف سرور النظر؟

وعن علي بن محمد بن حاتم قال: سمعت الجنيد يقول: بتُّ ليلةً عند السري، فلمَّا كان في بعض الليل قال لي: يا جنيد، أنت نائم؟ قلت: لا. قال: الساعةَ أوقفني الله بين يديه وقال: يا سري، أتدري لِمَ خلقتُ الخلق؟ قلت: لا. قال: خلقت الخلق فادَّعوا كلُّهم محبتي فيَّ وادَّعوا محبتي، فخلقت الدنيا، فاشتغل بها من عشرة آلاف تسعةُ آلاف وبقي ألف، فخلقت الجنة، فاشتغل من الألف تسعمائة بالجنة وبقيت مائة، فسلَّطت عليهم شيئًا من البلايا، فاشتغل عني بالبلاء من المائة تسعون وبقيت عشرة، فقلت لهم: ما أنتم؟ لا الدنيا أردتم، ولا في الجنة رغبتم، ولا من البلاء هربتم. فقالوا: فإنك لَتعلمُ ما نريد. فقال: إني أُنزِلُ بكم من البلاء ما لا تطيقه الجبالُ الرواسي، فتثبُتون لذلك؟ قالوا: ألستَ الفاعل بنا؟ قد رضينا. قلت: فأنتم عبيدي حقًّا[٣].

---

(١) في كتاب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري ص ١٤٥ (ط - دار النفائس ببيروت): «ليس هذا سخاء، هذه متاجرة ومرابحة».

(٢) في الشعب وعقلاء المجانين: شيئا بشيء.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ١٨٦.

وسُئل يحيىٰ بن معاذ عن أشهىٰ المجالس وألذِّها، قال: الجلوس [مع الفكرة] في ميدان التوحيد، تشم من رائحته المعرفة، ويسقىٰ من كأس المحبة، سبحان الله، ما ألذُّه من مجلس وأعذبه من شراب! قيل: فأيُّ الطعام أشهىٰ؟ قال: لقمة من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في فم الصبر بتوحيد الله رفعها من مائدة الرضا عن الله عند النظر لكرامة الله تعالىٰ. قيل: فما عيد المؤمن؟ قال: السرور بالإيمان، والنزهة بالقرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[١] [يونس: ٥٨].

وقال السري: السرور بالله هو السرور، والسرور بغير الله هو الغرور.

وعن أوس الأعور قال: رأيت ريحانة المجنونة ليلةً تدعو وتقول في دعائها: أعوذ بك من بدن لا ينتصب بين يديك، وعميتْ عينان لا تبكيان شوقًا إليك، وجفَّت كفَّان لا يبتهلان بالتضرُّع إليك. ثم أنشأت تقول:

يا حبيب القلوب أنت حبيبي   لم تزل أنت مُنيتي وسروري[٢]

وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون يقول: كنت في الطواف، فرأيت ولهان المجنون وهو يقول: حبك قتلني، وشوقك أتلفني، والاتصال بك أسقمني، فبعدتْ قلوبٌ تحب غيرك، وثكلت خواطر أنستْ بسواك[٣].

---

(١) هذا الأثر ينقسم إلىٰ ثلاثة أجزاء: ١ - من قوله (سئل عن أشهىٰ المجالس) إلىٰ قوله (من شراب) سيأتي بنحوه عن الجنيد في كتاب المراقبة والمحاسبة. ٢ - السؤال عن أشهي الطعام، رواه ابن حبيب في عقلاء المجانين ص ٢٣٥ عن سمنون المحب. ٢ - السؤال عن عيد المؤمن، رواه الرافعي في التدوين ٣/ ٤١٩ عن يحيىٰ بن معاذ.

(٢) رواه ابن حبيب في عقلاء المجانين ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) رواه ابن حبيب في عقلاء المجانين ص ٢٢٨ بلفظ: «شوقك قتلني، وحبك أقلقني، والاتصال بك أسقمني، فقد قلب يحب غيرك، وثكلت خواطر تسر بسواك. ثم يطوف ويقول: ثم العرس، ثم العرس».

وقال ذو النون: الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالناس سم قاطع(١).

وقال صالح المري: رأيت ريحانة المجنونة وقد كتبت من وراء جيبها:

أنت أنسي ومُنيتي وسروري ... قد أبىٰ القلبُ أن يحب سواكا

يا عزيزي ومنيتي واشتياقي ... طال شوقي متىٰ يكون لقاكا

ليس سؤلي من الجنان نعيمًا ... غير أني أريدها لأراكا(٢)

وإذا علىٰ صدر جيبها مكتوب:

حسب المحب من المحب بعلمه ... أن الحبيب ببابه مطروحُ

والقلب منه وإن تنفَّس في الدُّجَىٰ ... بسهام لوعات الهوىٰ مجروحُ(٣)

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٧٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤١٤، والسلمي في طبقات الصوفية ص ٣٣. وعندهم (غم واقع) بدل: سم قاطع. وهي عند البيهقي في رواية أخرىٰ. وزاد أبو نعيم: «قيل لذي النون: ما الأنس بالله؟ قال: العلم والقرآن».

(٢) هذه الأبيات ذكرها أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٤٥ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٦/ ٤٥٨ وابن حبيب في عقلاء المجانين ص ٢٥٨ - مع اختلاف - عن محمد بن المبارك الصوري في قصة جرت له مع عابد يقال له عباس المجنون التقىٰ به في جبل لبنان. وسياق الأبيات عندهم هكذا:

يا حبيب القلوب من لي سواكا ... ارحم اليوم مذنبا قد أتاكا

أنت سؤلي وبغيتي وسروري ... قد أبىٰ القلب أن يحب سواكا

يا مناي وسيدي واعتمادي ... طال شوقي متىٰ يكون لقاكا

ليس سؤلي من الجنان نعيما ... غير أني أريدها لأراكا

(٣) زاد ابن حبيب في عقلاء المجانين ص ٢٨١: وإذا علىٰ كمها الأيمن مكتوب:

بوجهك لا تعذبني فإني ... أؤمل أن أفوز بخير دار

منجدة مزخرفة العلالي ... بها المأوىٰ ونعم هي القرار

وأنت مجاور الأبرار فيها ... ولولا أنت ما طاب المزار

وعلىٰ كمها الأيسر مكتوب:

برىٰ أعظمي شوقي فأوهن قوتي ... وحالفت أحزاني فهاج رقادي

وعن علي بن سهل قال: الأنس بالله أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بهم هو الأنس بالله تعالىٰ.

وقال الفضيل: كفىٰ بالله محبًّا، وبالقرآن مؤنسًا، وبالموت واعظًا، وكفىٰ بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلاً(١).

وعن إبراهيم الخوَّاص قال: لا تطمع في لِين القلب مع فضول الكلام، ولا تطمع في حب الله مع حب المال والشرف، ولا تطمع في الأنس بالله مع الأنس بالمخلوق.

وقال منصور بن عبد الله الأصبهاني: سُئل الشبلي: ما علامة صحة المعرفة؟ قال: نسيان كل شيء سوىٰ معروفه. فقيل: ما علامة صحة المحبة؟ فقال: العمىٰ عن كل شيء سوىٰ محبوبه.

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت علي بن قتادة يقول: سمعت علي بن عبد الرحمن وسُئل عن الفرق بين الحب والعشق، فقال: الحب لذة تُعمِي عن رؤية غير المحبوب، فإذا تناهَىٰ سُمِّي عشقًا.

وقال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون يقول: الشوق أعلىٰ الدرجات وأعلىٰ المقامات، إذا بلغها الإنسان استبطأ الموتَ شوقًا إلىٰ ربِّه وحبًّا للقائه والنظر إليه(٢).

وقال أبو عثمان في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥] هذه تعزية للمشتاقين، معناه: إني أعلم أن اشتياقكم إليَّ غالبٌ، وإني أجَّلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصولكم إلىٰ مَن تشتاقون [إليه].

---

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب العزلة.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤٣١.

وعن عبد الله بن مسلم قال: قال مالك بن دينار: خرجت يومًا إلىٰ المقابر، فإذا شابان جالسان يكتبان شيئًا، فقلت لهما: [رحمكما الله، مَن أنتما؟ فقالا: ملَكان نكتب المحبِّين لله عَزَّوَجَلَّ. فقلت لهما]: نشدتكما الله أنا ممَّن كتبتما؟ فقالا: لا. فسقط مالك مغشيًّا عليه، ثم أفاق فقال: نشدتكما الله لَما كتبتماني في أسفل سطر: مالك بن دينار طفيليٌّ يحب المحبين لله. فلمَّا كان الليل أُتيتُ في منامي فقيل: قد كُتبتَ فيهم، المرء مع مَن أحب[1].

وقال أبو علي الجوزجاني: ثلاثة أشياء من عقد التوحيد: الخوف والرجاء والمحبة، فزيادة الخوف في ترك الذنوب لرؤية الوعيد، وزيادة الرجاء في اكتساب الخير لرؤية الوعد، وزيادة المحبة في كثرة الذكر لرؤية المنَّة، فالخائف لا يستريح من الهرب، والراجي لا يستريح من الطلب، والمحب لا يستريح من ذكر المحبوب، فالخوف نار منورة، والرجاء نور منور، والمحبة نور الأنوار[2].

وقال أبو الحسين الورَّاق: المحبة شعبة من الإيمان بالله، وهي أصل لجميع مراتب الأولياء [والأصفياء].

وقال: تتشعَّب [شُعَب] المحبة من دوام ذِكر إحسان الله، فمَن ذكر علىٰ الدوام إحسانَ الله إليه تنسَّم ريح المحبة عن قريب.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا الحسين الفارسي يقول: سمعت ابن عطاء يقول في معنىٰ الحديث «جُبِلت القلوب علىٰ حب مَن أحسن إليها وبغضِ مَن أساء إليها»، فقال: كيف لا تحبه وما انفككتَ من تواتُر نعمته قط، ولا تنفكُّ أبدًا، ولكنَّ ضعف اليقين وكدورة المعرفة ونقص الإيمان حجبك عن محبته والميل إليه.

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ٤٠١.

(٢) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ١٩٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٠.

وقال أبو سعيد الخَرَّاز في هذا الحديث: واعجبًا ممَّن لم يرَ محسنًا غير الله كيف لا يميل بكلِّيته إليه[1].

وقال أبو عمرو الزجاجي: سألت الجنيد عن المحبة، قال: تريد الإشارة؟ قلت: لا. قال: تريد الدعوىٰ؟ قلت: لا. قال: فأيش تريد؟ قلت: عين المحبة. قال: أن تحب ما يحب اللهُ في عباده، وتكره ما يكره الله في عباده[2].

وعن بشر بن السري قال: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبُك[3].

وقال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: بمَ نال أهل المحبةِ المحبةَ من الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال: بالعفاف وأخذ الكفاف[4].

وقال أبو عبد الله النباجي: سأل رجل الفضيل: متىٰ يبلغ الرجلُ غايةَ حب الله؟ قال: إذا كان عطاؤه إياك ومنعُه سواءً[5].

وقال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبرَ إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة[6].

وقال بعض القرَّاء: رأيت عتبة الغلام ذات ليلة، فما زال يقول [ليلته تلك]

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٥/ ٤٥٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥/ ١٣٨.

(٢) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ١٣٥.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٠٠، ١٠/ ٧، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٩، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٩١، والختلي في المحبة لله ص ٣٠. ورواه أبو نعيم في موضع آخر ٨/ ٢٤ والبيهقي في الزهد الكبير ص ١٣٨ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٣٣٩ عن إبراهيم بن أدهم.

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٤٩.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١١٣، ٩/ ٣١٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٠٢.

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٦٣، وابن حبان في روضة العقلاء ص ١٦١، والختلي في المحبة لله ص ٣٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٧/ ٢٣١.

حتىٰ أصبح: إن تعذِّبني فإني محب لك، وإن ترحمني فإني محب لك[١].

وقال يحيىٰ بن معاذ: حقيقة المحبة التي لا تزيد بالبِر ولا تنقص بالجفوة[٢].

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي وسُئل عن المحبة فقال: ميلك إلىٰ الشيء بكلِّيتك محبة له، ثم إيثارك له علىٰ نفسك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمُك بتقصيرك في حبه.

وفيما قرأت علىٰ أبي عبد الرحمن السلمي قال: وقال قوم: المحبة موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

قال: وسُئل رُوَيم عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال. وأنشد:

ولو قال لي متْ متُّ سمعًا وطاعةً ... وقلت لداعي الموت أهلاً ومرحبا[٣]

سمعت عبد الله بن يوسف الأصبهاني يقول: سُئل أبو الحسن البوشنجي عن الحب، فقال: بذلُ المجهود مع معرفتك بالمحبوب، والمحبوب مع بذل مجهودك يفعل ما يشاء[٤].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٣٤ - ٢٣٥ عن سليم النحيف قال: رمقت عتبة ذات ليلة ... فذكره. ورواه أيضا: الختلي في المحبة ص ٨٩، وابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء ص ١٦٧. ورواه الخطيب البغدادي في الزهد والرقائق ص ١٠٥ والسراج في مصارع العشاق ٢/ ٤٤ - ٤٥ عن عنبسة الخواص قال: كان عتبة الغلام يزورني، فبات عندي ليلة، فقُرب عشاؤه، فلم يأكله، فسمعته يقول: سيدي، إن تعذبني فإني لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب. فلما كان في آخر الليل شهق شهقة، وجعل يحشرج كحشرجة الموت، فلما أفاق قلت له: يا أبا عبد الله، ما كان حالك منذ الليلة؟ فصرخ ثم قال: يا عنبسة، ذكر العرض علىٰ الله قطع أوصال المحبين. ثم غشي عليه، ثم أفاق، فسمعته يقول: يا سيدي، أنراك نعذِّب عندك؟ ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٣٥ والختلي في المحبة لله ص ٩٠ عن عنبسة بنحوه.

(٢) رواه الخطيب في الزهد والرقائق ص ٦٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣١/ ٧٤.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٠١، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٤٢٩.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٧٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ٢١٧.

وقال أبو عبد الله المغربي: تفكَّر إبراهيم عليه السلام ليلةً من الليالي في شأن آدم عليه السلام، فقال: يا رب، خلقتَه بيدك، ونفختَ فيه من روحك، وأسجدتَ له ملائكتَك، ثم بذنب واحد ملأتَ أفواهَ الناس حتىٰ يقولوا: وعصىٰ آدم ربَّه. فأوحىٰ الله إليه أن: يا إبراهيم، أما علمت أن مخالفة الحبيب علىٰ الحبيب شديدة(١)؟

وقال وهب: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود عليه السلام: يا داود، ارفعْ رأسك فقد غفرت لك، غير أنه ليس لك عندي ذلك الود الذي كان.

وقال سعيد بن عثمان بن عياش: سمعت ذا النون وقد قيل له: متىٰ يأنس العبد بربِّه؟ فقال: إذا خاف أنسَ بربِّه، أما علمتم أنه مَن واصل الذنوبَ نُحِّي عن باب المحبوب(٢)؟

وقال أيضًا: ما رجع مَن رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا إليه ما رجعوا، فازهدْ في الدنيا ترَ العجب.

وقال أيضًا: وجدت صخرة ببيت المقدس عليها أسطر مكتوبة، فجئتُ إلىٰ مَن ترجمها، فإذا هو: كل عاصٍ مستوحش، وكل مطيع مستأنس، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالب، وكل قانع غنيٌّ، وكل محب ذليل. ففكَّرت في هذه [الأحرف] فإذا هي أصول لكل ما استعبد اللهُ الخلقَ به(٣).

وقال أحمد بن عيسىٰ الكلابي: سمعت يحيىٰ بن معاذ الرازي ينشد:

إن المليك قد اصطفىٰ خدَّاما ... متودِّدين مواصلين كِراما
ورُزِقوا المحبة والخشوع لربِّهم ... فترىٰ دموعهم تسح سجاما

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/ ٤٤١.
(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٨٦.
(٣) رواه الخطابي في العزلة ص ٨١ - ٨٢ حتىٰ قوله (ذليل).
ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٧٦ من كلام ذي النون مختصرا دون ذكر الصخرة.

يحيـون ليلَهـم بطـول صلاتهـم ... لا يسـأمون إذا الخلـيُّ نامـا
قـوم إذا رقـد العيـون رأيتَهـم ... صفـوًا لشـدة خوفهـم إقدامـا
وتخالهـم موتىٰ لطـول سـجودهم ... يخشـون مـن نـار الإلـه ضرامـا
شـغفوا بحـب الله طـول حياتهـم ... فتجنَّبـوا لـــوداده الآثامـــا

وقال الجنيد: قال رجل للسري: كيف أنت؟ فأنشأ يقول:

مَن لـم يَبِـتْ والحـب حشـو فؤاده ... لـم يـدرِ كيـف تفتَّـت الأكبـادُ

وقال محمد بن العباس الضَّبِّي: سمعت أبا بكر بن أبي عثمان يقول [سمعت أبي يقول] وقام في مجلسه رجل من أهل بغداد فقال: يا أبا عثمان، متىٰ يكون الرجل صادقًا في حب مولاه؟ قال: إذا خلا عن خلافه كان صادقًا في حبه. قال: فوضع الرجل التراب علىٰ رأسه وصاح فقال: كيف أدَّعي حبَّه ولم أَخْلُ طرفة عين من خلافه؟ قال: فبكىٰ أبو عثمان وأهل المجلس. قال: فجعل أبو عثمان يبكي وهو يقول: صادق في حبه، مقصِّر في حقِّه(١). ا.هـ. سياق الشعب، وقد تركت منه كثيرًا ممَّا أوردتُه في أثناء كلام المصنف.

وفي كتاب مصارع العشاق(٢) لأبي محمد السَّرَّاج في مصارع محبِّي الله عَزَّوَجَلَّ: أنبأنا أبو القاسم الأزجي سنة ٤٤٠، أنبأنا أبو الحسن علي بن جعفر السيرواني بمكة قال: حُكي عن الجنيد أنه قال: أعرف مَن قتلته المحبةُ ولم يعرف المحبةَ [ثم قال: كيف]؟ فقلنا: يقول الشيخ. فقال: قتله ما خُبِّئ فيه.

أخبرنا أبو القاسم الأزجي، أخبرنا أبو الحسن علي بن الحسن بن جهضم بمكة سنة ٣٩٦، سمعت أحمد بن محمد يقول: كان سهل يقول: الناس ثلاثة

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ١٤٤.

(٢) مصارع العشاق ١/ ١٩٨، ٢٢٣، ٢٧٠ - ٢٧٧، ٣٠٦، ٢/ ٤٥ - ٥١.

صنوف: صنف منهم مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع علىٰ بابه ينتظر الكرامة. وصنف منهم مضروب بسوط التوبة، مقتول بسيف الندامة، مضطجع علىٰ بابه ينتظر العفو. وصنف منهم مضروب بسوط الغفلة، مقتول بسيف الشهوة، مضطجع علىٰ بابه ينتظر العقوبة(١).

حدثنا أبو القاسم الأزجي، حدثنا علي بن عبد الله بن الحسن الهمداني بمكة، حدثنا محمد بن عبد الله الشكلي، حدثني محمد بن جعفر القنطري قال: قال ذو النون: بينا أنا أسير علىٰ ساحل البحر إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلة ذابلة، فدنوت منها لأسمع ما تقول، فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان، وعصفت الرياح، واضطربت الأمواج، وظهرت الحيتان، فصرخت ثم سقطت إلىٰ الأرض، فلما أفاقت نحبت، ثم قالت: سيدي، بك تقرَّب المتقرِّبون في الخلوات، ولعظمتك سبَّحت الحيتان في البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار والفَلك الدوَّار والبحر الزخَّار والقمر النوَّار والنجم الزهَّار، وكل شيء عندك بمقدار؛ لأنك الله العليُّ القهَّار

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم ... يا خير مَن حلَّت به النُّزَّالُ
مَن ذاق حبك لا يزال متيَّمًا ... فرِح الفؤادِ متيَّمًا بَلْبالُ
مَن ذاق حبك لا يُرَىٰ متبسِّمًا ... في طول حزنٍ في الحشا إشعال

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم في قوله تعالىٰ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: السابق مضروب بسوط المحبة، مقتول بسيف الشوق، مضطجع علىٰ باب الكرامة. والمقتصد مضروب بسوط الندامة، مقتول بسيف الحسرة، مضطجع علىٰ باب العفو. والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة، مقتول بسيف الأمل، مضطجع علىٰ باب العقوبة. وذكر السلمي في حقائق التفسير ١/ ١٦٢ - ١٦٣ نحوه عن الجنيد بن محمد وأبي يزيد البسطامي.

فقلت لها: زيدينا من هذا[١]. فقالت: إليك عني. ثم رفعت طرفها إلىٰ السماء وقالت:

أحبك حبَّينِ حب الوداد وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الوداد فحبٌّ شُغِلتُ به عن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحُجب حتىٰ أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم شهقتْ شهقةً فإذا هي قد فارقت الدنيا، فبقيتُ أتعجَّب ممَّا رأيت منها، فإذا بنسوة قد أقبلن عليهن مدارع الشعر، فاحتملنها فغيَّبنها عن عيني فغسَّلنها ثم أقبلن بها في أكفانها، فقلن لي: تقدمْ فصلِّ عليها. فتقدمت وصليت عليها وهنَّ خلفي، ثم احتملنها ومضينَ[٢].

وأنشد محمد بن عبد الله ليحيىٰ بن معاذ:

أموت بدائي لا أصيب مداويا ولا فرجًا ممَّا أرىٰ من بلائيا

---

(١) في مصارع العشاق: «فقلت لها: من تريدين؟»

(٢) هذه القصة رواها أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٥٤ - ٣٥٥ بسياق آخر فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أبو بكر الدينوري، حدثنا محمد بن أحمد الشمشاطي قال: سمعت ذا النون يقول: بينا أنا سائر علىٰ شاطئ نيل مصر إذا أنا بجارية عليها دباء شعث الكلال، وإذا القلب منها متعلق بحب الجبار، وهي منقطعة في نيل مصر وهو يضطرب بأمواجه، فبينا هي كذلك إذ نظرت إلىٰ حوت ينساب بين الوجبتين، فرمت بطرفها إلىٰ السماء وبكت وأنشأت تقول: لك تفرد المتفردون في الخلوات، ولعظيم رجاء ما عندك سبحت الحيتان في البحور الزاخرات، ولجلال هيبتك تصافقت الأمواج في البحور المستفحلات، ولمؤانستك استأنست بك الوحوش في الفلوات، وبجودك وكرمك قصد إليك يا صاحب البر والمسامحات. ثم ولت عني وهي تقول:

يا مؤنس الأبرار في خلواتهم يا خير من حطت به النزال
من نال حبك لا ينال تفجعا القلب يعلم أن ما يفنىٰ محال

ثم غابت عني فلم أرها، فانصرفت وأنا حزين القلب، ضعيف الرأي.

إذا كان داء العبد حب مليكه ... فمَن دونَه يُرجَىٰ طبيبًا مداويا

مع الله يُمضِي دهرَه متلذِّذًا ... مطيعًا تراه كان أو كان عاصيا

يقولون يحيىٰ جُنَّ من بعد صحة ... وما بي جنون بي خليليَّ ما بيا(١)

أخبرنا القاضي أبو الحسين التَّوَّزي، أخبرنا ابن أخي ميمي، حدثنا الحسين ابن صفوان، حدثنا ابن أبي الدنيا، حدثنا محمد بن الحسين، حدثني أبو معمر صاحب عبد الوارث قال: نظرت رابعة إلىٰ رياح القيسي وهو يقبِّل صبيًّا من أهله ويضمُّه إليه، فقالت: أتحبه يا رياح؟ قال: نعم. قالت: ما كنت أحسب أن في قلبك موضعًا فارغًا لمحبة غيره. قال: فصاح رياح وسقط مغشيًّا عليه(٢).

ومن طريق أبي القاسم ابن مَرْدان: سمعت أحمد بن عيسىٰ الخرَّاز يقول: دعتني امرأة إلىٰ غسل ولدها، ذكرت أنه أوصىٰ بذلك، فلما كشفتُ عنه الثوب قبض علىٰ يدي، فقلت: يا سبحان الله، حياة بعد موت؟! فقال: إن المحبين لله تعالىٰ أحياء وإن قُبِروا.

ومن طريق الحسن بن علي بن يحيىٰ بن سلام قال: قيل ليحيىٰ بن معاذ: نروي عن رجل من أهل الخير قد كان أدرك الأوزاعيَّ وسفيان أنه سُئل: متىٰ تقع الفراسة علىٰ الغائب؟ قال: إذا كان محبًّا لِما أحب اللهُ، مبغضًا لِما أبغض اللهُ وقعت فراستُه علىٰ الغائب. فقال يحيىٰ:

كل محبوب سوىٰ الله سرفْ ... وهموم وغموم وأسفْ

---

(١) الأبيات في الأمالي الخميسية للشجري ١/ ٢٧٧. وأورد أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٦١ البيت الأول والثاني فقط.

(٢) بعده في مصارع العشاق: «ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه وهو يقول: رحمة منه تعالىٰ ألقاها في قلوب العباد للأطفال». وقد رواه أيضا: أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٩٥، والختلي في المحبة لله، ص ١٠١.

كل محبوب فعنه خلفٌ ... ما خلا الرحمن ما منه خلف
إن للحب دلالاتٍ إذا ... ظهرت من صاحب الحب عُرِفْ
صاحب الحب حزين قلبه ... دائم الغصَّة محزون دَنِف
[همُّه في الله لا في غيره ... ذاهب العقل وبالله كلِفْ]
أشعث الرأس خميصٌ بطنُه ... أصفر الوجه والطرْف ذَرَفْ
دائم التذكير من حب الذي ... حبه غاية غايات الشرف
فإذا أمعن في الحب له ... وعلاه الشوقُ من داءٍ كثف
باشرَ المحرابَ يشكو بثَّه ... وأمام الله مولاه وقف
قائمًا قدَّامه منتصبًا ... لَهِجًا يتلو بآيات الصُّحُف
راكعًا طورًا وطورًا ساجدًا ... باكيًا والدمع في الأرض يَكِف
أورد القلبَ علىٰ الحب الذي ... فيه حب الله حقًّا فعرف
ثم جالت كفُّه في شجر ... يُنبِت الحبَّ فسمَّىٰ واقتطف
إنَّ ذا الحب لمَن يعنىٰ له ... لا لدار ذات لهو وطُرَف
لا ولا الفردوس لا يألفها ... لا ولا الحوراء من فوق غُرَف[1]

أخبرنا أبو الحسين التَّوَّزي، حدثنا أبو عبد الرحمن السلمي، حدثني علي بن أحمد بن جعفر قال: أنشدنا ابن فراس لسمنون المحب:

وكان فؤادي خاليًا قبل حبِّكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلست أراه عن فِنائك يبرح

(١) رواه الخطيب في الزهد والرقائق ص ٦٩، والرافعي في التدوين ٣/ ٦٥ - ٦٦.
وهذه الأبيات نسبها الختلي في المحبة لله ص ١٠١ لبعض البصريين.

رُميتُ ببينٍ منك إن كنتُ كاذبًا وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرح

[وإن كان شيءٌ في البلاد بأسرها إذا غبت عن عيني بعيني يملُح]

فإن شئتَ واصِلْني وإن شئت لم تصل فلستُ أرىٰ قلبي لغيرك يصلُح(١)

أخبرنا أبو بكر الخطيب، حدثنا الحسن بن أبي بكر قال: ذكر أبو عمر الزاهد أن سمنون المحب أنشده:

يا مَن فؤادي عليه موقوف وكل همِّي إليه مصروفُ

يا حسرتي حسرةً أموت بها إن لم يكن لي إليك معروفُ(٢)

أخبرنا أبو بكر الخطيب، أخبرنا أبو نعيم، أنشدني عثمان بن محمد العثماني، أنشدني أبو علي الحسن بن أحمد الصوفي لسمنون:

ولو قيل طأْ في النار أعلمُ أنه رضا لك أو مُدْنٍ لنا من وصالكا

لقدَّمت رجلي نحوها فوطئتها سرورًا لأني قد خطرتُ ببالكا(٣)

---

(١) تقدمت هذه الأبيات في كتاب الصبر والشكر.

(٢) البيتان في: تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٥، وعقلاء المجانين ص ٢٣٩. وروىٰ أبو الفرج في الأغاني ١٥/ ٢٦ - ٢٧ أن أبا السائب المخزومي حضر مجلسا فيه بصبص جارية يحيىٰ بن نفيس، فغنت:

قلبي حبيس عليك موقوف والعين عبرىٰ والدمع مذروف

والنفس في حسرة بغصتها قد شف أرجاءها التساويف

إن كنت بالحسن قد وصفت لنا فإنني بالهوىٰ لموصوف

يا حسرتا حسرة أموت بها إن لم يكن لي لديك معروف

فطرب أبو السائب ونعر وقال: لا عرف الله قدره إن لم أعرف لك معروفك. ثم أخذ قناعها عن رأسها وجعله علىٰ رأسه، وجعل يلطم ويبكي ويقول لها: بأبي والله أنت، إني لأرجو أن تكوني عند الله أفضل من الشهداء لما تولينا من السرور، وجعل يصيح: واغوثاه! يا لله لما يلقىٰ العاشقون. ورواه الخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٦٤ مختصرا.

(٣) تقدم هذان البيتان في بيان حقيقة الرضا.

أخبرنا أبو بكر الأردستاني، أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: قال منصور ابن عبد الله: دخل قوم علىٰ الشبلي في مرضه الذي مات فيه فقالوا: كيف تجدك يا أبا بكر؟ فأنشأ يقول:

إن سلطان حبِّه ... قال لا أقبل الرشا

فسلوه فديتُه ... لِمْ بقتلي تحرَّشا[1]

أخبرنا عبد العزيز بن علي، أخبرنا علي بن عبد الله الهمذاني بمكة، حدثني محمد بن إبراهيم الأصبهاني بطرسوس، سمعت أبا طالب يقول: كنت مع سمنون وهو يتكلم في شيء من المحبة، وقناديل معلَّقة، فرأيت القناديل تصفِّق بعضها بعضًا حتىٰ تكسَّرت.

وقال جعفر الخُلدي: حدثنا أحمد بن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا عبد الله بن الفرج العابد قال: قلت لأبي إسماعيل الموصلي - وكان نصرانيًّا قد أسلم علىٰ يدي فتح الموصلي وحسُن حالُه -: أخبِرْني ببعض أمر فتح. فبكىٰ، ثم قال: أخبرك عنه، كان واللهِ كهيئة الروحانيين، معلَّق القلب بما هناك، ليست له في الدنيا راحة. قلت: علىٰ ذلك؟ قال: شهدت العيد ذات يوم بالموصل، ورجع بعدما تفرَّق الناس، ورجعت معه، فنظر إلىٰ الدخان يفور من نواحي المدينة، فبكىٰ، ثم قال: لقد قرَّب الناس قربانهم، فليت شِعري ما فعلتَ في قرباني عندك أيها المحبوب؟ ثم سقط مغشيًّا عليه، فجئت بماء فمسحت به وجهه، فأفاق، ثم مضىٰ حتىٰ دخل بعض أزقَّة المدينة، فرفع رأسه إلىٰ السماء ثم قال: قد علمتَ طول غمِّي وحزني وترددادي في أزقَّة الدنيا، فحتىٰ متىٰ تحبسني أيها المحبوب؟ ثم سقط مغشيًّا عليه، فجئت بماء فمسحت به وجهه فأفاق، فما عاش بعد ذلك إلا أيامًا حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ. ا.هـ.

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٥٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/ ٧٧، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٣٥. والبيتان في ديوان الشبلي ص ١٠٧.

وقال القشيري في رسالته في باب المحبة: فأما أقاويل الشيوخ فيه، فقال بعضهم: المحبة هي المَيل الدائم بالقلب الهائم.

وقيل: إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

وقيل: مواطأة القلب لمرادات الرب.

وقيل: خوف تركِ الحرمة مع إقامة الخدمة.

وقال أبو يزيد: المحبة: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال سهل: الحب: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة.

وسُئل الجنيد عن المحبة، فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب. أشار بهذا إلى استيلاء ذِكر المحبوب حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذِكر صفات المحبوب، والتغافُل بالكلِّية عن صفات نفسه والإحساس بها.

وقال أبو عليٍّ الروذباري: المحبة: الموافقة.

وقال أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلَّك لمَن أحببتَ، فلا يبقى لك منك شيءٌ.

وقال الشبلي: سُمِّيت المحبة محبة لأنها تمحو عن القلب ما سوى المحبوب.

وقال ابن عطاء: المحبة: إقامة العتاب على الدوام.

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الشبلي يقول: المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلُك.

وسمعته يقول: سمعت أبا الحسين الفارسي يقول: سمعت ابن عطاء يقول

وقد سُئل عن المحبة فقال: أغصان تُغرَس في القلب فتثمر علىٰ قدْر العقول(١).

وسمعته يقول: سمعت النصراباذي يقول: محبة توجب حقن الدماء، ومحبة توجب سفك الدماء(٢).

وسمعته يقول: سمعت محمد بن علي العَلَوي يقول: سمعت جعفرًا يقول: سمعت سمنون يقول: ذهب المحبُّون لله بشرف الدنيا والآخرة؛ لأن النبي ﷺ قال: «المرء مع مَن أحب»، فهم مع الله تعالىٰ.

وقال يحيىٰ بن معاذ: حقيقة المحبة ما لا ينقُص بالجفاء، ولا يزيد بالبِر.

وقال: ليس بصادق مَن ادَّعىٰ محبته ولم يحفظ حدوده(٣).

وقال الجنيد: إذا صحَّت المحبةُ سقطت شروط الأدب(٤).

وفي معناه سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق ينشد:

إذا صفت المودةُ بين قوم ... ودام ودادُهم سمجَ الثناءُ(٥)

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا سعيد الأَرَّجاني يقول: سمعت بندار بن الحسين يقول: رُؤي مجنون بني عامر في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وجعلني حُجة علىٰ المحبِّين.

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: قيل للنصراباذي: ليس لك من

---

(١) في محاضرات الأدباء للراغب ٢/ ٥: «قال إبراهيم الموصلي: قلت لأسباط الشيباني: صف لي الأخوة وأوجز. فقال: أغصان تغرس في القلوب فتثمر علىٰ قدر العقول».

(٢) في حقائق التفسير للسلمي ١/ ٩٧: «ومحبة توجب سفكه بأسياف الحب وهو الأجل».

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٦٧.

(٤) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٨٨ مثله عن أبي جعفر ابن الفرجي.

(٥) في ربيع الأبرار للزمخشري ١/ ٣٧٠: «قال أسماء بن خارجة الفزاري: إذا قدمت المودة سمج الثناء. فنظمه من قال: إذا صفت ... البيت».

المحبة شيء. فقال: صدقوا، ولكن لي حسراتهم، فهو ذا أحترق فيه.

وسمعته يقول: قال النصراباذي: المحبة هي مجانبة السلوّ على كل حال. ثم أنشد:

ومَن كان في طول الهوىٰ ذاق سلوةً　　فإني من ليلىٰ لها غير ذائق
وأكثر شيءٍ نلتُه من وصالها　　أمانيُّ لم تصدُق كلمحة بارق

وقال محمد بن الفضل: المحبة: سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب.

ويقال: المحبة: تشويش في القلب يقع من المحبوب.

ويقال: المحبة: فتنة تقع في الفؤاد من المراد.

وأنشد ابن عطاء:

غرستُ لأهل الحب غصنًا من الهوىٰ　　ولم يكُ يدري ما الهوىٰ أحد قبلي
فأورقَ أغصانًا وأينع صَبْوَه(١)　　وأعقب لي مرًّا من التمر المَحْلي(٢)
فكل جميع العاشقين هواهم　　إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

وقيل: الحب أوله خَتْل، وآخره قتلٌ.

سمعت أبا علي الدقاق يقول في معنىٰ قوله ﷺ «حبُّك للشيء يُعمِي ويُصِمُّ» فقال: يُعمِي عن الغير غيرةً، وعن المحبوب هيبةً. ثم أنشد:

إذا ما بدا لي تعاظمتُه　　فأصدر في حال مَن لم يُرِد

---

(١) في المطبوعة: ضوء. وهو تحريف، والمثبت من هامش إحكام الدلالة لشيخ الإسلام زكريا ٢/ ٨٩٦، وفي الرسالة للقشيري ص٦٤٩ (ط الأزهر): صَبْوة.

(٢) التمر المحلي، أي اليابس، وفي الرسالة: الثمر المُحْلي. أي أبدلني بالمر حلوًا.

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أحمد بن علي يقول: سمعت إبراهيم بن فاتك يقول: سمعت الجنيد يقول: سمعت الحارث المحاسبي يقول: المحبة: ميلك إلىٰ الشيء بكلِّيتك، ثم إيثارك له علىٰ نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمُك بتقصيرك في حبِّه.

وسمعته يقول: سمعت أحمد بن علي يقول: سمعت عباس بن عصام يقول: سمعت الجنيد يقول: سمعت السريَّ يقول: لا تصح المحبةُ بين اثنين حتىٰ يقول الواحد للآخَر: يا أنا.

وقيل: المحبة نار في القلب تحرق ما سوىٰ مراد المحبوب.

وقيل: المحبة: بذلُك المجهود والحبيبُ يفعل ما يشاء[١].

وقال النوري: المحبة هتكُ الأستار وكشفُ الأسرار.

وقال أبو يعقوب السوسي: لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلىٰ رؤية المحبوب بفناء علم المحبة.

ووجدت بخط الأستاذ أبي علي أن في بعض الكتب المنزلة أن الله يقول: عبدي، أنا وحقك لك محب، فبحقِّي عليك كنْ لي محبًّا.

وقال ابن المبارك: مَن أُعطيَ شيئًا من المحبة ولم يُعطَ مثله من الخشية فهو مخدوع.

وقيل: المحبة: ما يمحق أثرك.

وقيل: المحبة سُكْرٌ لا يصحو صاحبُه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكْر الذي يحصل عند الشهود لا يوصف. وأنشدوا:

---

(١) تقدم ذلك عن أبي الحسن البوشنجي بلفظ: «المحبة: بذلك المجهود مع معرفتك بالمحبوب، والمحبوب مع بذلك مجهودك يفعل ما يشاء».

فأسكر القومَ دورُ كأس وكان سُكْري من المدير[١]

وكان الأستاذ أبو عليٍّ ينشد كثيرًا:

لي سكرتان وللندمان واحدة شيء خُصِصتُ به من بينهم وحدي[٢]

وقال ابن عطاء: المحبة: إقامة العتاب علىٰ الدوام.

وكان للأستاذ أبي علي جارية تسمَّىٰ فيروز، وكان يحبها؛ إذ كانت تخدمه كثيرًا، فسمعتُه يقول: كانت فيروز تؤذيني يومًا وتستطيل عليَّ بلسانها، فقال لها أبو الحسن القارئ: لِم تؤذينَ هذا الشيخ؟ فقالت: لأني أحبه.

وقال يحيىٰ بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حب.

وحُكي أن بعضهم[٣] عشق جارية، فرحلت الجارية، فخرج الرجل في وداعها، فدمعت إحدىٰ عينيه دون الأخرىٰ، فغمض التي لم تدمع أربعًا وثمانين سنة لم يفتحها عقوبةً لها؛ لأنها لم تبكِ علىٰ فراق حبيبته. وفي معناه أنشدوا:

بكتْ عيني غَداة البين دمعًا وأخرىٰ بالبكا بخلتْ علينا

فعاقبتُ التي بخلت بدمع بأن أغمضتُها يوم التقينا[٤]

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت.

(٢) البيت لأبي نواس، وهو في ديوانه ٣/ ١٠٧، وفيه: نشوتان، بدل: سكرتان.

(٣) في الرسالة: أن بعض أهل الهند.

(٤) هذان البيتان نسبهما أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ص ٢٧٠ (ط - دار الكتب العلمية) لمحمد بن القاسم البصري المعروف بماني الموسوس، وهما في ديوانه ص ٩٧ (ط - وزارة الثقافة السورية). ونسبهما ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٤/ ١٣ لابن المعتز، ولم أجدهما في ديوانه. وروىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٣٩ عن جعفر بن محمد بن نصير قال: ذكر عمر بن ملكان عن أبيه قال: كان بيني وبين علي السامري مؤاخاة، فلما قبض كنت أتمنىٰ مدة أن أراه فأعلم حاله عند الله، فرأيته في بعض الليالي في زينة حسنة وهيئة جميلة وقد غمض إحدىٰ عينيه، فقلت =

وقال بعضهم: كنا عند ذي النون المصري، فتذاكرنا المحبة، فقال: كُفُّوا عن هذه المسألة، لا تسمعها النفوس فتدَّعيها. ثم أنشأ يقول:

الخوف أَولىٰ بالمسيء إذا تألَّـه والحَزَنْ
والحب يجمُل بالتقي وبالنقيِّ من الدَّرَنْ[1]

وقال يحيىٰ بن معاذ: مَن نشر المحبة عند غير أهلها فهو في دعواه دعيٌّ.

وقيل: ادَّعىٰ رجلٌ الاستهلاكَ في محبة شاب، فقال له الشاب: كيف هذا وهذا أخي أحسن مني وجهًا وأتم جمالاً. فرفع الرجل رأسه يلتفت، وكانا علىٰ سطح، فألقاه من السطح وقال: هذا جزاء مَن يدَّعي هوانا وينظر إلىٰ سوانا.

وقال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا له: هاتِ ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربِّه، قائم

= له: يا أخي، عهدي بك ولم يكن بعينك بأس، فارقتنا وعيناك صحيحتان، فما بال التي أغمضتها؟ قال: اعلم أني كنت في بعض الليالي أقرأ كتاب الله، فمرت بي آية وعيد، فأشفقت عيني الناظرة فبكت، وقنطت هذه فأمسكت، فلما أفقت عاتبتها فقلت لها: ما بالك لم تشفقي شفقة أختك هذه؟ وقلت لها في عتابي لها: وحبي لمحبوبي لئن أباحتني منه مناي لأمنعنك ما لك منه، فغمضتها عند ذلك وفاء بما قلت. فقلت له: يا أخي، فهل قلت في ذلك شيئا؟ فأنشأ يقول:

بكت عيني غداة البين حزنا وأخرىٰ بالبكا بخلت علينا
فجازيت التي جادت بدمع بأن أقررتها بالحب عينا
وعاقبت التي بخلت بدمع بأن غمضتها يوم التقينا

(١) هذان البيتان ذكرهما أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٧٨ - ٧٩ ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ١٠٦ مع بيت ثالث عن الحارث المحاسبي قال: أنشدني عبد العزيز بن عبد الله:

الخوف أولىٰ بالمسيء إذا تألـه والحزن
والحب يحسن بالمطيـع وبالنقي من الدرن
والشوق للنجباء والـ أبدال عن ذوي الفطن

بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبَه أنوارُ هويته، وصفا شربُه من كأس ودِّه، وانكشف له الجبَّار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرَّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكىٰ الشيوخ وقالوا: ما علىٰ هذا مزيدٌ، جبرك اللهُ يا تاج العارفين.

وقيل: أوحىٰ الله إلىٰ داود ﷺ: يا داود، إني حرَّمت علىٰ القلوب أن يدخلها حبِّي وحبُّ غيري.

أخبرنا حمزة بن يوسف السهمي، أخبرنا محمد بن أحمد بن القاسم، حدثنا هميم بن همَّام، حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثني عبد الرحمن بن عفان، حدثني محمد بن أيوب، حدثني أبو العباس خادم الفضيل قال: احتبس بولُ الفضيل، فرفع يده وقال: اللهم بحبي لك إلا أطلقتَه عني. قال: فما برحنا حتىٰ شفي(١).

وقيل: قالت رابعة في مناجاتها: إلهي، أتحرق بالنار قلبًا يحبك؟ فهتف بها هاتفٌ: ما كنا نفعل هكذا، فلا تظنِّي بنا ظن السوء.

وقيل: «الحب» حرفان: حاء وباء، فالإشارة فيه أن مَن أحب فليخرج عن روحه وبدنه، وكالإجماع من إطلاقات القوم أن المحبة هي الموافقة، وأشد الموافقات الموافقةُ بالقلب، والمحبة توجب انتفاءَ المباينة، فإن المحب أبدًا مع محبوبه.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت عبد الله الرازي يقول: سمعت أبا عثمان الحيري يقول: سمعت أبا حفص يقول: أكثر فساد الأحوال من

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٥٠. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٠٩ عن عبد الله بن محمد الهباري قال: اعتل الفضيل فاحتبس عليه البول، فقال: بحبي إياك لما أطلقته. فبال. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٦١٢ عن محمد بن زنبور المكي قال: احتبس علىٰ الفضيل بوله، فقال: سيدي أطلقه عنىٰ. فما بال، فقال في الثانية: وعزتك لو قطعتني إربا إربا ما ازددت لك إلا حبا. فما بال، فقال في الثالثة: بحبي لك إلا ما أطلقته عني. فما برحنا حتىٰ بال.

ثلاثة أشياء: فسق العارفين، وخيانة المحبِّين، وكذب المريدين. قال أبو عثمان: فسق العارفين: إطلاق الطرف واللسان والسمع إلىٰ أسباب الدنيا ومنافعها، وخيانة المحبِّين: اختيار هواهم علىٰ رضا الله تعالىٰ فيما يستقبلهم، وكذب المريدين: أن يكون ذِكر الخلق ورؤيتهم يغلب عليهم علىٰ ذكر الله تعالىٰ ورؤيته.

هذا ما أورده في باب المحبة.

وقال في باب الشوق: سمعت الأستاذ أبا علي يفرِّق بين الشوق والاشتياق ويقول: الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء. وفي معناه أنشدوا:

ما يرجع الطرفُ عنه عند رؤيته ... حتىٰ يعود إليه الطرفُ مشتاقا[1]

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت النصراباذي يقول: للخلق كلِّهم مقامُ الشوق، وليس لهم مقام الاشتياق، ومَن دخل في حال الاشتياق هامَ فيه حتىٰ لا يُرَىٰ له أثر ولا قرار.

وقيل: جاء أحمد الأسود إلي ابن منازل فقال: رأيت في المنام كأنَّك تموت إلىٰ سنة، فهل استعددت للخروج؟ فقال ابن منازل: لقد أجَّلتنا إلىٰ أمد بعيد، أعيش أنا إلىٰ سنة؟ لقد كان لي أنسٌ بهذا البيت الذي سمعتُه من هذا الثقفي. يعني أبا علي رحمه الله تعالىٰ:

---

(١) قال الثعالبي في يتيمة الدهر ١/ ١٢١ في ترجمة منصور بن كيغلغ [المتوفي سنة ٣٥٠]: «ومن ملح منصور قوله:

قالوا عليك سبيل الصبر قلت لهم ... هيهات إن سبيل الصبر قد ضاقا
ما يرجع الطرف عنه حين يبصره ... حتىٰ يعود إليه القلب مشتاقا»

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد ٨/ ١٣٠: «وكان علىٰ عصابة مزاج، وهي من مواجن أهل بغداد وفتاكها: قالوا عليك دروع الصبر ... البيتين».

يا مَن شكا شوقَه من طول فُرقته   اصبرْ لعلك تلقَىٰ مَن تحب غدا[١]

وقال يحيىٰ بن معاذ: علامة الشوق فطامُ الجوارح عن الشهوات.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق يقول: خرج داود عليه السلام يومًا إلىٰ بعض الصحاري منفردًا، فأوحىٰ الله إليه: ما لي أراك وحدانيًّا؟ فقال: استأثر الشوقُ إلىٰ لقائك علىٰ قلبي فحال بيني وبين صحبة الخلق. فأوحىٰ الله إليه: ارجعْ إليهم، فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتُّك في اللوح المحفوظ جهبذًا[٢].

وقيل: كانت عجوز قدمَ بعضُ أقاربها من السفر، فأظهر قومُها السرورَ، والعجوز تبكي، فقيل لها: ما يبكيكِ؟ قالت: ذكَّرني قدومُ هذا الفتىٰ يوم القدوم علىٰ الله عز وجل[٣].

وسُئل ابن عطاء عن الشوق، فقال: احتراق الأحشاء، وتلهُّب القلوب، وتقطُّع الأكباد[٤].

وسُئل أيضًا: الشوق أعلىٰ أم المحبة؟ فقال: المحبة؛ لأن الشوق منها يتولَّد.

---

(١) البيت للعباس بن الأحنف، وهو في ديوانه ص ٨٣ برواية:

يا من شكا شوقه من طول غيبته   اصبر لعلك أن تلقىٰ الحبيب غدا

(٢) رواه أسلم بن سهل في تاريخ واسط ص ١٩٣ ومن طريقه ابن العديم في بغية الطلب ٧/ ٣٤٢٥ بسياق آخر عن الحسن البصري قال: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود: ما لي أراك واحدانيا؟ قال: إلهي، فارقت الناس فيك. قال: يا داود، خالط الناس واصبر علىٰ أذاهم لعلك ترد حيران عن حيرته أو سكران عن سكرته فأكتبك عندي جهبذا، ومن كتبته عندي جهبذا ضمنت السحاب رزقه، ولا يخاف إذا خاف الناس.

(٣) قال ابن الجوزي في المنتظم ٩/ ٥٦ في أحداث سنة ١٨٠: «وفيها توفيت عفيرة العابدة، كانت طويلة الحزن، كثيرة البكاء، قدم أخ لها، فبشرت بقدومه، فبكت، فقيل لها: أهذا وقت بكاء؟ فقالت: ما أجد للسرور في قلبي مسكنا مع ذكر الآخرة، ولقد أذكرني قدومه يوم القدوم علىٰ الله، فمن بين مسرور ومثبور».

(٤) زاد السهروردي في عوارف المعارف ص ٣٥٥: «من البعد بعد القرب».

وقال بعضهم: الشوق لهيب ينشأ بين أثناء الحشا، يسنح على الفُرقة، فإذا وقع اللقاء طفئ، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب لم يطرقها الشوقُ.

وقال فارس: قلوب المشتاقين منوَّرة بنور الله، فإذا تحرك اشتياقُهم أضاء النور ما بين السماء والأرض، فيعرضهم الله تعالىٰ على الملائكة فيقول: هؤلاء المشتاقون إليَّ، أُشهِدكم أني إليهم أشوَقُ.

وسمعت الأستاذ أبا عليٍّ يقول في قوله ﷺ «أسألك الشوق إلىٰ لقائك» قال: كان الشوق مائة جزء، تسعة وتسعون له، وجزء متفرِّق في الناس، فأراد أن يكون ذلك الجزء أيضًا له، فغار أن تكون شظية من الشوق لغيره.

وقيل: شوق أهل القرب أتمُّ من شوق المحجوبين، ولهذا قيل:

وأبرح ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيامُ من الخيام[1]

وقيل: إن المشتاقين يتحسَّون حلاوة الموت عند وروده لِما قد كُشف لهم من روح الوصول أحلىٰ من الشهد[2].

سمعت ابن الحسين يقول: سمعت عبد الله بن علي يقول: سمعت جعفر يقول: سمعت الجنيد يقول: سمعت السري يقول: الشوق أجلُّ مقام للعارف إذا تحقَّق فيه، وإذا تحقَّق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عمَّن يشتاق إليه.

---

(١) البيت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي المعروف بابن النديم. الأغاني للأصفهاني ٥/ ٢٣٢. معجم الأدباء لياقوت ٢/ ٦٠٥. الوافي بالوفيات للصفدي ٨/ ٢٥٥. ورواية الشطر الثاني في هذه المصادر وغيرها:

إذا دنت الديار من الديار

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٧ عن أبي علي الروذباري بلفظ: إن المشتاقين إلىٰ الله يجدون حلاوة الوقت عند وروده لما كشف لهم من روح الوصول إلىٰ قربه أحلىٰ من الشهد.

وقيل: أوحىٰ الله إلىٰ داود عليه السلام: قل لشبَّان بني إسرائيل: لِمَ تشغلون أنفسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟

سمعت الأستاذ أبا علي يقول: بكىٰ شعيب عليه السلام حتىٰ عمي، فردَّ الله بصره عليه، ثم بكىٰ حتىٰ عمي، فردَّ الله عليه بصره، ثم بكىٰ حتىٰ عمي، فأوحىٰ الله إليه: إن كان هذا البكاء لأجل الجنة فقد أبحتُها لك، وإن كان لأجل النار فقد أعذتك منها. فقال: لا، بل شوقًا إليك. فأوحىٰ الله إليه: لأجل ذلك أخدمتك نبيِّي وكليمي عشر سنين.

وقيل: مَن اشتاق إلىٰ الله اشتاق إليه كل شيء.

وفي الخبر: «اشتاقت الجنة إلىٰ ثلاثة: علي وعمار وسلمان».

وسمعت الأستاذ أبا علي يقول: قال لنا بعض المشايخ: أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إليَّ، وأنا عن جميعها حرٌّ.

سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول: سمعت محمد بن فرحان يقول: سمعت الجنيد يقول وقد سُئل: من أيِّ شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوبَ؟ فقال: إنما يكون ذلك سرورًا به ووجدًا من شدة الشوق إليه، ولقد بلغني أن أخوين تعانقا، فقال أحدهما: واشوقاه، وقال الآخَر: واوَجْداه.

فهذا ما يتعلق بالشوق.

وقال في باب الرضا ما نصه: قد تكلم الناس في الرضا، وكلٌّ عبَّر عن حاله وشربه، فهم في العبارة عنه مختلفون، كما أنهم في الشرب والنصيب من ذلك متفاوتون، فأما شرط العلم والذي هو لا بد منه فالراضي بالله هو الذي لا يعترض علىٰ تقديره.

سمعت الأستاذ أبا علي يقول: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن

لا تعترض علىٰ الحكم والقضاء.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا[١].

سمعت الأستاذ أبا عليٍّ يقول: قال تلميذ لأستاذه: هل يعرف العبد أن الله راضٍ عنه؟ فقال: لا، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب؟ فقال التلميذ: بل يعلم ذلك. فقال: كيف. قال: إذا وجدت قلبي راضيًا عن الله علمتُ أنه راضٍ عني. فقال الأستاذ: أحسنتَ يا غلام.

وقال النصراباذي: مَن أراد أن يبلغ محلَّ الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقال محمد بن خفيف: الرضا علىٰ قسمين: رضا به ورضا عنه، فالرضا به [أن يرضاه] مدبِّرًا، والرضا عنه فيما يقضي.

وسمعت الأستاذ أبا علي يقول: طريق السالكين أطول، وهو طريق الرياضة، وطريق الخواصِّ أقرب لكنه أشق، وهو أن يكون عملك بالرضا ورضاك بالقضاء.

وقال رُوَيم: الرضا أنْ لو جعل الله جنهم عن يمينه ما سأل أن يحوِّلها إلىٰ يساره.

وقال الواسطي: استعمِل الرضا جهدك، ولا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوبًا بلذَّته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع. أي لأن السكون عندهم إلىٰ الأحوال حجاب عن محوِّل الأحوال، فإذا استلذَّ رضاه وجد بقلبه راحة الرضا فحُجِب بحاله عن شهود حقِّه.

ولقد قال الواسطي أيضًا: إياكم واستحلاء الطاعات، فإنها سموم قاتلة.

وقيل: قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. قال الجنيد:

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٥٦ وابن أبي الدنيا في كتاب الرضا عن الله بقضائه ص ٥١، وزادا: «ومستراح العابدين».

قولك ذا ضِيقُ صدرٍ، وضِيقُ الصدر لترك الرضا بالقضاء.

وقال أبو سليمان: الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذ به من النار[١].

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضا: تركُ الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء[٢].

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت محمد بن جعفر البغدادي يقول: سمعت إسماعيل بن محمد الصَّفَّار يقول: سمعت محمد بن يزيد المبرد يقول: قيل للحسين بن علي بن أبي طالب: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليَّ من الغنىٰ، والسقم أحب إليَّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: مَن اتَّكل علىٰ حُسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختاره الله له[٣].

وقال أبو عمر الدمشقي: الرضا: ارتفاع الجزع في أيِّ حكم كان.

وقال ابن عطاء: الرضا: نظرُ القلب إلىٰ قديم اختيار الله للعبد، وهو تركُ التسخُّط[٤].

وقال رويم: الرضا: استقبال الأحكام بالفرح.

وقال المحاسبي: الرضا: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال النوري: الرضا: سرور القلب بمُرِّ القضاء[٥].

(١) قال شيخ الإسلام زكريا في إحكام الدلالة ٢/ ٥٩٥: بل تكل أمرك إلىٰ ربك لعلمه بحالك، ولطفه بك في سائر أحوالك...، ووصفه للراضي بترك ما ذكر؛ لا من حيث إنه عبادة، بل من حيث إنه رضا بحسن ما أجراه عليه مولاه، فلا ينافي أن يسأل الله ذلك عبادة لأمر مولاه به.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٤٢.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٣/ ٢٥٣.

(٤) ذكره قوام السنة في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٠٠ بلفظ: «الرضا: نظر القلب إلىٰ قديم اختيار الله للعبد أنه يختار له الأفضل فيرضىٰ به».

(٥) ذكره الكلاباذي في التعرف ص ١٢٠ وقوام السنة في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٠٠ عن ذي =

وقال الجريري: مَن رضي بدون قدره رفعه الله فوق غايته(١).

وقال أبو تراب النخشبي: ليس ينال الرضا مَن للدنيا في قلبه مقدارٌ(٢).

وقال أبو عثمان الحيري: منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهتُه، وما نقلني إلىٰ غيره فسخطته(٣). ا.هـ. ما قاله القشيري في الرسالة.

وممَّا نقلتُه من كتاب قوت القلوب قال: الرضا هو حال الموقن، واليقين هو حقيقة الإيمان، وإلىٰ هذا ندب النبيُّ ﷺ ابنَ عباس في وصيَّته له فقال: «اعملْ لله باليقين في الرضا، فإن لم يكن فإنَّ في الصبر [علىٰ ما تكره] خيرًا كثيرًا». فرفعه إلىٰ أعلىٰ المقامات، ثم ردَّه إلىٰ أوسطها. كذلك قال لابن عمر: «اعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ندبه إلىٰ المشاهدة وهو الإحسان، ثم ردَّه إلىٰ الصبر والمجاهدة وهو الإيمان، وهو مكان العلم بأن الله تعالىٰ يراه، وليس بعد هذا مكان يوصَف. وكان سهل يقول: أعرف في الموتىٰ مقبرة عظيمة ينظرون إلىٰ منازلهم من الجنان في قبورهم، ويُغدَىٰ عليهم ويُراح برزقهم من الجنة [بكرةً وعشيًّا] وهم في هموم وكروب في البرزخ، لو قُسمت علىٰ أهل البصرة لماتوا جميعًا. قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين، إلا أنه لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضا نصيب. وقال لقمان في وصيَّته: ومَن يفوِّض أمره ويرضىٰ بقدَر الله فقد أقام الإيمانَ، وفرَّغَ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاقَ الصالحة التي تُصلِح للعبد أمره. فمن الرضا: سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطِيب النفس وسكونها في

= النون. والسلمي في حقائق التفسير ١/ ٢٨٤ عن الجنيد.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٦٩ عن عبد الله بن خبيق الأنطاكي قال: مكتوب في الحكمة: من رضي ... الخ.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٠/ ٣٤٦. وفيه: مثقال، بدل: مقدار.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٤، والخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ١٤٦، وابن الجوزي في المنتظم ١٣/ ١٢١.

كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مُفزِع من أمور الدنيا، وقناعة العبد بكل شيء من اغتباطه بمقامه من ربِّه، وفرحه بقيام الله مولاه عليه، واستسلام العقل للمولىٰ في كل شيء، ورضاه منه بأدنىٰ شيء، وتسليمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حُسن التدبير وكمال التقدير فيها، وتسليم العبد لمولاه ما في يده رضا بحكمه عليه، وأن لا يشكو [الملكَ] السيد الكريم إلىٰ العبد اللئيم، ولا يتبرَّم بفعل الحبيب، ولا يفقد في كل شيء حسن صنعِ القريب. وذُكر عند رابعة رحمها الله تعالىٰ عابد له عند الله تعالىٰ منزلة، وكان قوته ما يتقمَّم من مزبلة لبعض ملوكهم، فقال رجل عندها: فما يضرُّ هذا إذا كانت له [عند الله] منزلة أن يسأله فيجعل قوته في غير هذا؟ فقالت له: اسكت يا بَطَّال، أما علمتَ أن أولياء الله هم أرضَىٰ عنه أن يتخيَّروا عليه أن ينقلهم من معيشة حتىٰ يكون هو الذي يختار لهم. وقد قاله أيضًا أويس القرني رحمه الله تعالىٰ فيما رويناه عنه. وقال الأعمش: قال لي أبو وائل: يا سليمان، نِعم الرب ربنا، لو أطعناه ما عصانا[1]. وقال الله تعالىٰ في معناه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورىٰ: ٢٦] أي يطيعهم ويستجيب لهم، والاستجابة: الطاعة. وحُكي لنا أن بعض العارفين صحبه رجل في الطريق، فعبث بشيء، فنحَّاه من مكان إلىٰ مكان آخر، فقال له العارف: ماذا صنعتَ؟ أحدثتَ في المُلك [حدثًا] عن غير ضرورة ولا سنَّة، لا تصحبني أبدًا. وأعمال طلاب الرضا من الله تعالىٰ مضاعَفة علىٰ أعمال المجاهدين في سبيل الله؛ لأن أعمال المجاهدين تضاعَفُ إلىٰ سبعمائة ضِعف، وتضعيف طالبي الرضا لا يُحصَىٰ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] وقال تعالىٰ: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] قيل: الحسنة إلىٰ ألفي ألف حسنة. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ١٠٥، والبيهقي في الزهد الكبير ص ٢٨١، والسلفي في الطيوريات ١/ ٢٦٦، والخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٧٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ١٧٨.

ورواه دون قوله (نعم الرب ربنا): أحمد في الزهد ص ٢٨٩، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٥١.

مِاْئَةُ حَبَّةٍۗ﴾ [البقرة: ٢٦١] ثم قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فكم في هذه الجنة من سنبلة وحبة، فهؤلاء الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ هم أهل الرضا عنه، وهم الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا لأجله فضاعفَ لهم أضعافًا كثيرة، وهم الذين يغفر لهم لا محالة، دخلوا في قوله تعالىٰ: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فمَن عقلَ عن الله تعالىٰ حكمته كان مع الله فيما حكم، مسلِّمًا له ما شهد؛ لأنه تعالىٰ باختياره أنشأ الأشياء، وبمشيئته بدأها، وعنه يتصرَّف المقدورُ، وإليه عواقب الأمور، ولا يكون مع نفسه فيما تهوىٰ، ولا مع معتاده وعُرفِه فيما يعقل. وقال بعض المريدين: قلت لبعض أهل المعرفة: إني كثير الغفلة [عن الله] قليل المسارعة إلىٰ مرضاته، فأوصِني بشيء أعمله أُدرِكُ به ما يفوتني من هذا. فقال: يا أخي، إن استطعت أن تتحبَّب إلىٰ أولياء الله وتتقرَّب من قلوبهم فافعلْ لعلَّهم به يحبُّونك، فإن الله ينظر إلىٰ قلوب أوليائه في كل يوم سبعين نظرة، فلعله ينظر إليك في قلوبهم لمحبَّتهم لك فيجيرك جيرة الدنيا والآخرة إذا لم تكن ممَّن ينظر إليه كفاحًا(١). وكذلك يقال: إن الله تعالىٰ ينظر إلىٰ قلوب الصدِّيقين والشهداء مواجهةً، فهؤلاء الذين عرفوه به؛ لقربه منهم ولدوام نظرهم إليه، فهو وجهتهم، ثم ينظر إلىٰ قلوب قوم في قلوب قوم آخرين، فهؤلاء [المجتهدون] الذين عرفوه بهم، وأحبوه من محبَّتهم، فهم وجهتهم إليه وأدلَّتهم عليه، فيعطيهم نصيبًا من نصيبهم، كما أعطاهم شهادة [من شهادتهم] ووجدًا من علمهم. وروينا عن بعض الجبابرة من العُتاة في فرط كرم الله وغاية حلمه أن جبارًا من الملوك

(١) رواه السلمي في كتاب الفتوة ص ١٨ عن أبي موسىٰ الديبلي قال: سمعت أبا يزيد البسطامي وقد سأله رجل فقال: دلني علىٰ عمل أتقرب به إلىٰ الله. فقال: تحب أولياء الله وتتحبب إليهم ليحبوك، فإن الله ينظر في قلوب أوليائه في كل يوم وليلة سبعين مرة، فلعله أن ينظر إلىٰ اسمك في قلب ولي من أوليائه فيحبك ويغفر لك.

قحطت رعيَّته سنين، فشكوا ذلك إليه، فخرج بهم إلىٰ الصحراء، فرفع رأسه إلىٰ السماء وقال: يا ساكن السماء، لتسقينا الغيث أو لنؤذينَّك. فقال له وزراؤه: كيف تؤذيه وهو في السماء وأنت في الأرض؟ فقال: أقتل أولياءه من أهل الأرض فيكون ذلك أذًىٰ له. فأرسل الله تعالىٰ عليهم السماء بكرمه وجوده(١). ومن حسن الأدب والمعاملة: إذا عملتَ صالحًا فقل: [يا سيدي] أنت استعملتني، وبحولك وقوَّتك وحُسن توفيقك أطعتك؛ لأن جوارحي جنودك. وإذا عملتَ سيِّئًا فقل: ظلمتُ نفسي، وبهواي وشهوتي اجترحتُ بجوارحي، وهي صفاتي. ثم تعتقد في ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ما قضىٰ، فتكون بالمعنيين قد وافقتَ مرضاةَ مولاك، وتكون في الحالين عاملاً بما يرضيه بالقول والعقود، وينتفي عنك العُجبُ في أعمال بِرِّك، ويصح منك المقتُ لنفسك واعترافك بظلمك. وقد تغلب هذه المشاهدةُ علىٰ الجاهل، فإذا عمل حسنًا شهد نفسَه ونظر إلىٰ حوله وقوته [فهلك بالكبر، وبطل عملُه بالعُجب] فإذا عملَ سيئًا لم يعترف بالذنب، ولم يقرَّ علىٰ نفسه بالظلم، فلم تصحَّ له توبةٌ، ولم يُرْضَ له عمل، نعوذ بالله من مشاهدة الضُّلاَّل.

هذا ما أورده في باب الرضا.

وقال في أحكام المحبة ووصفِ أهلها: اعلمْ أن المحبة من الله لعبده ليست كمحبة الخلق [إذ محبة الخلق] تكون حادثة لأحد سبع معانٍ: لطبع، أو لحسن، أو لنفع، أو لوصف، أو لهوًىٰ، أو لرحم ماسَّة، أو للتقرُّب بذلك إلىٰ الله تعالىٰ. فهذه حدود الشيء الذي يشبهه الشيء، والله يتعالىٰ عن جميع ذلك، لا يوصَف بشيء منه؛ إذ ليس كمثله شيء في كل شيء، ولأن هذه أسباب محدثة في الخلق لمعانٍ حادثة ومتولدة من المحبِّين لأسباب عليهم داخلة، وقد تتغير لتغيُّر الأوقات، وتنقلب لانقلاب الأوصاف، ومحبة الله تعالىٰ سابقة للأسباب عن كلمته

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٨٢ واللالكائي في كرامات الأولياء ص ٩٥ عن سعيد بن جبير قال: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل ثلاث سنين، فقال الملك ... الخ.

الحسنىٰ، قديمة قبل الحادثات عن عنايته العليا، لا تتغير أبدًا ولا تنقلب لأجل ما بدا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] يعني الكلمة الحسنىٰ، وقيل: المنزلة الحسنىٰ. فلا يجوز أن يسبقها سابقٌ منهم، بل سبقت كل سابقة تكون، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١] وقال: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقال في الآخرة: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥] ولا يصلُح أن يكون قبل قدمه الصدق منهم قدمٌ، كما لا يصلُح أن يكون قبل علمه به منهم علمٌ؛ لأن علمه سبق العلوم، ومحبته لأوليائه سبقت محبتَهم إياه ومعاملتَهم له، ثم هي مع ذلك خاصِّية حكمٍ من أحكامه ومزيد من فضل أقسامه خالصة لمخلَصين ومؤثَرة لمؤثَرين بقدم صدق سابق لخالصين يؤول إلىٰ مقعد صدق عند صادق لسالكين، ليس لذلك سبب معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجري مَجرىٰ سر القدَر ولطفِ القادر، وإفشاء سر القدر كفر، فلا يعلمه إلا نبي أو صدِّيق، ولا يطلع عليه مَن يظهره، وما ظهر في الأخبار من الأسباب فإنما هو طريق الأحباب ومقامات أهل القرب من أولي الألباب، وإنما هي تبصرة وذكرىٰ للمنيبين، وتزوُّد وبلاغ للعابدين. وإنما تستبين المحبةُ وتظهر للعبد بحسن توفيقه وكلاءة عصمته ولطائف تعليمه من غرائب علمه وخفايا لطفه في سرعة ردِّهم إليه في كل شيء، ووقوفهم عنده، ونظرهم إليه دون كل شيء [وقربه منهم أقرب من كل شيء] وكثرة استعمالهم بحسن مرضاته، وكشف اطِّلاعهم علىٰ معاني صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنون أسراره، وفتوحه لأفكارهم عن بواطن إنعامه، واستخراجه منهم خالص شكره وحقيقة ذِكره. فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطِّلاعه لهم من عين اليقين. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأول - وهو الله سبحانه - لعبده، وأحكام تظهر من المحبوب - وهو العبد - في حسن معاملته أو حقيقة علم يهبه له، كما قال إخوة يوسف حين عرفوا فضل محبة الله ليوسف عليهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ

عَلَيْنَا﴾ ثم قالوا: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ۝٩١﴾ [يوسف: ٩١] فذكروا سالف خطاياهم، وأنه آثره بما لم يؤثرهم به. وقال الله تعالىٰ في موهبته له: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف: ٢٢] فذكر ما سلف من إحسانه لما آثره به. وذكر بعض مَن ينتمي إلىٰ المحبة مقامَه في المحبة عند بعض المحبين، فقال له: أرأيتَ هذا الذي تذكر محبته اهتممتَ بسواه؟ قال: نعم. قال: فهل رأيتَه في ليلة مرتين وثلاثًا؟ قال: لا. قال: لولا أني أستحي لأخبرتك أن محبتك معلولة، تهتمُّ بسوىٰ حبيبك ولا تراه في نومك. ثم قال: لكني أعرف مَن لا يدَّعي محبته وعلىٰ ذلك ما اهتمَّ بسواه منذ عرفه، وربما رآه في ليلة سبع مرات. وإنما لم يهتمَّ المحب بسواه من قِبَل أنه لا ينساه، فكيف يذكره مَن لا ينساه؟ بل هو مذكور بذاكر، لا ذاكر بتذكير أو تذكُّر، وههنا افتضح المدَّعون وانكشف المستورون أن مَن اهتمَّ بغيره فقد نسيه، والحبيب لا يُنسَىٰ؛ لأنه لازم للهمِّ، مستشعر بالقلب، ملاحظ في العين، هو الناظر والمنظور، وهو السامع والمسموع، وهو الشاهد والمشهود، وهو الواجد والموجود، كما قال بعض المحبين:

ليس في القلب والعيان جميعًا ... موضع فارغ لغير الحبيب

هو سقمي وصحتي وشفائي ... وبه العيش ما حييتُ يطيب[1]

فمَن كان هذا وصفه من العين والقلب والروح [والعقل] فمُحال أن يُنسَىٰ، ومَن استحال أن يُنسَىٰ فكيف يحوَّل ذكره عن القلب أم كيف يحوَّل بغيره الهم كيف؟! وقد روينا في الخبر: «المنافق لا يذكر حتىٰ يذكَّر، وإذا تُرك نسي. ولا تكونوا كاليهود إذا قُرئت عليهم التوراة مادوا لها، فإذا رُفعت لم يكن وراء ذلك شيء». ا.هـ. ما في القوت.

فصل: قد تقدم للمصنف رحمه الله تعالىٰ في أثناء الفصل الرابع من هذا

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذين البيتين.

الكتاب أن المحبة ثمرة المعرفة، فلزم أن نتكلم علىٰ مقام المعرفة، ونذكر أقاويل الشيوخ فيه. وقد ذكر صاحب القاموس منها جملة في كتاب البصائر والقشيري في الرسالة، فلنذكر سياق البصائر أولاً، فإنه مشتمل علىٰ أكثر ما أورده القشيري مع زيادة توضيح وبيان، فأقول: قال صاحب البصائر[1]: الفرق بين العلم والمعرفة عند المحقِّقين أن المعرفة هي العلم الذي يقوم العالِم بموجبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة علىٰ مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا مَن كان عالمًا بالله وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حالٌ مع الله يشهد له بالمعرفة، فالعارف عندهم مَن عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق اللهَ في معاملاته، ثم أخلص له في قصوده ونيَّاته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهَّر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته، ثم صبر علىٰ أحكامه في نعمه وبليَّاته، ثم دعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة بدينه وإيمانه، ثم جرَّد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسول الله ﷺ ولم يَشُبْها بآراء الرجال وأذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزن بها ما جاء به الرسول ﷺ، فهذا الذي يستحق اسم «العارف» علىٰ الحقيقة، وإذا سُمِّي به غيره فعلىٰ الدعوىٰ والاستعارة. وقد تكلموا في المعرفة بآثارها وشواهدها، فقال بعضهم: من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه، فمَن ازدادت معرفته ازدادت هيبته. وقال أيضًا: المعرفة توجب السكينة. وقيل: علامتها أن يحس بقرب قلبه من الله عَزَّوَجَلَّ فيجده قريبًا منه. وقال الشبلي: ليس لعارف علاقة، ولا لمحبٍّ شكوىٰ، ولا لعبد دعوىٰ، ولا لخائف قرار، ولا لأحد من الله فرار. وهذا كلام جيد، فإن المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلَّها وتعلِّقه بمعروفه، فلا تبقىٰ فيه علاقة بغيره، ولا تمر به العلائق إلا وهي مجتازة. وقال أحمد بن عاصم: مَن كان بالله أعرف كان من الله أخوف[2]. ويدل علىٰ هذا قولُه

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ٥١ - ٥٦، نقلا عن مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٣١٦ - ٣٢٢.
(٢) رواه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة ص ٧٢٨.

تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدُّكم لله خشية». وقال آخر: مَن عرف الله ضاقت عليه الأرض بسعتها. وقال غيره: مَن عرف الله اتسع عليه كل ضيق. ولا تَنافي بين هذين الكلامين، فإنه يضيق عليه كلُّ مكان لاتساعه فيه علىٰ شأنه ومطلوبه، ويتَّسع له ما ضاق علىٰ غيره؛ لأنه ليس فيه، ولا هو مُساكِن له بقلبه، فقلبه غير محبوس فيه. والأول في بداية المعرفة، والثاني في غايتها التي يصل إليها العبد. وقال آخر: مَن عرف اللهَ تعالىٰ صفا له العيشُ، وطابت له الحياةُ، وهابه كلُّ شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنسَ بالله. وقال غيره: مَن عرف الله قرَّت عينه بالله [وقرت عينه بالموت][1] وقرَّت به كلُّ عين، ومَن لم يعرف الله تقطَّع قلبُه علىٰ الدنيا حسرات، ومَن عرف الله لم تبقَ له رغبة فيما سواه. وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة إذا نظر فيها رأىٰ فيها الغيب الذي دُعي إلىٰ الإيمان به، فعلىٰ قدر جلاء تلك المرآة يتراءىٰ له فيها الله سبحانه والدار الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل، كما قيل:

إذا سكن الغديرُ علىٰ صفاء ... فيشبه[2] أن يحركه النسيمُ
بدت فيه السماءُ بلا مِراء ... كذاك الشمس تبدو والنجومُ
كذاك قلوب أرباب التجلِّي ... يُرَىٰ في صَفْوها الله العظيمُ[3]

ومن علامات المعرفة: أن يبدو لك الشاهد، وتفنىٰ الشواهدُ، وتنجلي العلائق، وتنقطع العوائق، وتجلس بين يدي الرب، وتقوم وتضطجع علىٰ التأهُّب للقائه، كما يجلس الذي قد شدَّ أحمالَه وأزمع السفرَ علىٰ تأهُّب له، ويقوم علىٰ ذلك ويضطجع عليه. ومن علامات العارف: أنه لا يطالب، ولا يخاصم، ولا يعاقب، ولا يرىٰ له علىٰ أحد حقًّا، وأنه لا يأسف علىٰ فائت، ولا

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من المدارج.

(٢) في المدارج: وجُنِّبَ.

(٣) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

يفرح بآتٍ؛ لأنه ينظر في الأشياء بعين الفناء والزوال، وأنها في الحقيقة كالظلال والخيال. وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتىٰ يكون كالأرض يطؤها البَرُّ والفاجر، وكالسحاب يُظِلُّ كلَّ شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب. وقال يحيىٰ بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولم يقضِ وطره من شيئين: بكائه علىٰ نفسه، وثنائه علىٰ ربِّه. وهذا من أحسن ما قيل؛ لأنه يدل علىٰ معرفته بنفسه وعلىٰ معرفته بربِّه وجماله وجلاله، فهو شديد الإزراء علىٰ نفسه، لهجٌ بالثناء علىٰ ربِّه. وقال أبو يزيد: إنما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له. يريد تضييع حظوظهم، والوقوف مع حقوق الله تعالىٰ. وقال الآخَر: لا يكون العارف عارفًا حتىٰ لو أُعطيَ مُلْك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين. وهذا يحتاج إلىٰ شرح، فإنَّ ما هو دون ذلك يشغل القلبَ، لكن إذا كان اشتغاله بغير الله لله فذلك اشتغال بالله. وقال ابن عطاء: المعرفة علىٰ ثلاثة أركان: الهيبة والحياء والأنس. وقيل: العارف ابن وقته. وهذا من أحسن الكلام وأخصره، فهو مشغول بوظيفة وقته عمَّا مضىٰ وصار في العدم وعمَّا لم يدخل بعدُ في الوجود، فهمُّه عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية. ومن علاماته: أنه [مستأنس بربِّه] مستوحش ممَّن يقطعه عنه، ولهذا قيل: العارف مَن أنسَ بالله فأوحشَه من الخلق، وافتقر إلىٰ الله فأغناه عنهم، وذلَّ لله فأعزَّه فيهم، وتواضع لله فرفعه بينهم، واستغنىٰ بالله فأحوجهم إليه. وقيل: العارف فوق ما يقول، والعالِم دون ما يقول[1]. يعني أن العالِم علمُه أوسع من حاله وصفته، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره. وقال أبو سليمان الداراني: إن الله يفتح للعارف وهو علىٰ فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلي. وقال ذو النون: لكل شيء عقوبةٌ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذِكر الله[2]. وقال بعضهم[3]:

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٩ عن أبي يزيد البسطامي.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٥٥.

(٣) هو رويم بن أحمد البغدادي، كما رواه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٩٧، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٤٢٩، والقشيري في الرسالة ص ٥١٥. وعزاه القشيري في الرسالة ص ٣٦٢ والسهروردي في عوارف المعارف ص ٥٤ لأبي سعيد الخراز.

رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين. وهذا كلام ظاهره منكَر محتاج إلىٰ شرح، فإن العارف لا يرائي المخلوقَ طلبًا للمنزلة في قلبه، وإنما يكون ذلك منه نصيحة وإرشادًا وتعليمًا، فهو يدعو إلىٰ الله بعمله كما يدعو إلىٰ الله بقوله، وإخلاص المريد مقصور علىٰ نفسه. وقال ذو النون: الزهَّاد ملوك الآخرة، وهم فقراء العارفين. وسُئل الجنيد عن العارف، فقال: لون الماء لون إنائه. وهذه كلمة رمزَ بها إلىٰ حقيقة العبودية وهو أنه يتلوَّن في أقسام العبودية، فبينا تراه مصلِّيًا إذ رأيتَه ذاكرًا أو قارئًا أو متعلِّمًا أو معلِّمًا أو مجاهدًا أو حاجًّا أو مساعدًا للضعيف أو معينًا للملهوف، فيضرب في كل غنيمة بسهم، فهو مع المنتسبين منتسبٌ، ومع المتعلِّمين متعلِّم، ومع الغزاة غازٍ، ومع المصلِّين مصلٍّ، ومع المتصدِّقين متصدِّق .. وهكذا ينتقل في منازل العبودية من عبودية إلىٰ عبودية، وهو مستقيم علىٰ معبود واحد لا ينتقل عنه إلىٰ غيره. وقال يحيىٰ ابن معاذ: العارف كائن بائن. وقد فُسِّر كلامه علىٰ وجوه، منها: أنه كائن مع الخلق بظاهره [بائن عنهم بسرِّه وقلبه. ومنها: أنه كائن بربه][1] بائن عن نفسه. ومنها: أنه كائن مع أبناء الآخرة، بائن عن أبناء الدنيا. ومنها: أنه كائن مع الله بموافقته، بائن عن الناس بمخالفته. ومنها: أنه داخل في الأشياء، خارج عنها. يعني أن المريد لا يقدر علىٰ الدخول فيها، والعارف داخل فيها خارج منها وقال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقض عليه ظاهرًا من الحكم، ولا تحمله كثرةُ نِعَم الله علىٰ هتك أستار محارم الله[2]. وهذا أحسن ما قيل في المعرفة. وقال: ليس بعارف مَن وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا؟ يريد أنه ليس من المعرفة وصفُ المعرفة لغير أهلها، سواء كانوا عبَّادًا أو من أبناء الدنيا. وسُئل

(١) زيادة من المدارج.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ١٩٤ عن السري السقطي أنه سئل عن التصوف، فقال: هو اسم لثلاثة معان: هو الذي لا يطفئ ... فذكره. وأورده القشيري في ترجمة السري عنه، وفي باب المعرفة عن ذي النون.

ذو النون عن العارف، فقال: كان ههنا وذهب. فسُئل الجنيد عن معناه، فقال: لا يحصره حالٌ عن حال، ولا يحجبه منزل عن التنقُّل في المنازل، فهو مع أهل كل منزل علىٰ الذي هم فيه، يجد مثل الذي يجدون. وقال بعض السلف: نوم العارف يقظة، وأنفاسه تسبيح، ونومه أفضل من صلاة الغافل. وإنما كان نومه يقظة لأن قلبه حي، فعيناه تنامان، وروحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربِّها، وإنما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأن بدنه في الصلاة واقف، وقلبه يَسبح في حُشوش الدنيا والأماني. وقيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلىٰ ست: من الشك إلىٰ اليقين، ومن الرياء إلىٰ الإخلاص، ومن الغفلة إلىٰ الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلىٰ الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلىٰ التواضع، ومن سوء الطوية إلىٰ النصيحة(١).

انتهىٰ كلام صاحب البصائر.

وزاد القشيري في الرسالة(٢): وقال الشبلي وقد سُئل عن المعرفة: أولها الله، وآخرها ما لا نهاية له.

وقال أبو حفص الحدَّاد: منذ عرفتُ الله تعالىٰ ما دخل قلبي حق ولا باطل. وهذا في ظاهره إشكال، وأجلُّ ما يحتمله أن عند القوم المعرفة توجب غيبةَ العبد عن نفسه؛ لاستيلاء ذِكر الحق عليه، فلا يشهد غيرَ الله، ولا يرجع إلىٰ غيره، فكما أن العاقل يرجع إلىٰ قلبه وتفكُّره وتذكُّره فيما يسنح له من أمر ويستقبله من حال فالعارف رجوعه إلىٰ ربِّه، فإذا لم يكن مشتغلاً إلا بربِّه لم يكن راجعًا إلىٰ قلبه، وكيف يدخل المعنىٰ قلبَ مَن لا قلب له، وفرقٌ بين مَن عاش بقلبه وبين مَن عاش بربِّه.

---

(١) تقدم نحوه مرفوعا في الباب السادس من كتاب العلم بلفظ: «لا تجلسوا عند كل عالم إلا عالما يدعوكم من خمس إلىٰ خمس ...» الخ.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٥١٠ - ٥١٦.

وسُئل أبو يزيد عن المعرفة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] هذا معنىٰ ما أشار إليه أبو حفص.

وقال أبو يزيد: للخلق أحوال، ولا حال للعارف؛ لأنه مُحيت رسومه، وفنيت هويَّته بهويَّة غيره، وغُيِّبت آثاره بآثار غيره.

وقال الواسطي: لا تصح المعرفة وفي العبد استغناءٌ بالله وافتقار إليه. أراد بهذا أن الافتقار والاستغناء بالله من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه؛ لأنهما من صفاته، والعارف مُحي في معروفه، فكيف يصح له ذلك، وهو لاستهلاكه في وجوده أو لاستغراقه في شهوده وإن لم يبلغ الوجودَ مختطَف عن إحساسه بكل وصفٍ هو له.

ولهذا قال الواسطي أيضًا: مَن عرف الله انقطع به، بل خرس وانقمع.

وقال ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك». هذه صفات الذين بعُدَ مرماهم، فأما مَن نزلوا عن هذا الحدِّ فقد تكلموا في المعرفة وأكثروا.

وقيل: مَن عرف الله ذهبت عنه رغبةُ الأشياء، وكان بلا فصل ولا وصل.

وقيل: المعرفة توجب الحياءَ والتعظيم، كما أن التوحيد يوجب الرضا والتسليم.

وقال ذو النون: معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالىٰ يحتملك ويحلم عنك تخلُّقًا بأخلاق الله عَزَّوَجَلَّ(١).

وسُئل ابن يزدانيار: متىٰ يشهد العارفُ الحقَّ؟ فقال: إذا بدا الشاهدُ، وفنيت الشواهدُ، وذهبت الحواس، واضمحلَّ الإخلاص.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٥١، ٣٧٦.

وقال الحلاَّج: علامة العارف أن يكون فارغًا من الدنيا والآخرة.

وقال سهل: غاية المعرفة شيئان: الدهش والحيرة.

وقال ذو النون: أعرف الناسِ بالله أشدُّهم تحيُّرًا فيه[١].

وقال رجل للجنيد: من أهل المعرفة أقوام يقولون إنَّ ترك الحركات من باب البر والتقوىٰ. فقال: هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا[٢]، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البِر ذرَّةً[٣].

وقيل لأبي يزيد: بماذا نلتَ هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عارٍ.

وقال أيضًا: العارف طيَّار، والزاهد سيَّار.

وقيل: العارف تبكي عينه ويضحك قلبه.

وقيل: العالِم يُقتدَىٰ به، والعارف يُهتدَىٰ به.

وقال الشبلي: العارف لا يكون لغيره لاحظًا، ولا لكلام غيره لافظًا، ولا يرىٰ لنفسه غير الله حافظًا.

وقال أبو الطيب السامري: المعرفة: طلوع الحق علىٰ الأسرار بمواصلة الأنوار.

وقال أبو بكر الورَّاق: سكوت العارف أنفع، وكلامه أشهىٰ وأطيب.

---

(١) هذا الكلام نسبه السلمي في طبقات الصوفية ص ٢٨٨ لأبي يعقوب النهرجوري.

(٢) بعده في الرسالة: «فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالىٰ، وإلىٰ الله رجعوا فيها».

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٧٨ والسلمي في طبقات الصوفية ص ١٣١، وزادا في آخره: «إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد في معرفتي وأقوىٰ في حالي».

وسُئل أبو يزيد عن العارف، فقال: لا يرىٰ في نومه غير الله، ولا في يقظته غير الله(١).

وسُئل أبو تراب النخشبي عن [صفة] العارف، فقال: الذي لا يكدِّره شيءٌ، ويصفو به كل شيءٌ(٢).

وقال أبو عثمان المغربي: العارف تضيء له أنوار العلم فيبصر به عجائبَ الغيب.

وقال بعضهم: المعرفة أمواج تغط وترفع وتحط(٣).

وقال أبو سعيد الخرَّاز: المعرفة تأتي من عين الجود وبذل المجهود(٤).

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله(٥). انتهىٰ.

وبه تم كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا.

---

(١) زاد في الرسالة: «ولا يوافق غير الله، ولا يطالع غير الله».

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٠/ ٣٤٥.

(٣) في كتاب التعرف للكلاباذي ص ١٥٦: «سأل أبو السوداء بعض الكبار فقال: هل للعارف وقت؟ قال: لا. فقال: لم؟ قال: لأن الوقت فرجة تنفس عن الكربة، والمعرفة أمواج تغط وترفع وتحط، فالعارف وقته أسود مظلم. ثم قال:

شرط المعارف محو الكل منك إذا ... بدا المريد بلحظ غير مطلع».

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٤٧ بلفظ: «المعرفة تأتي القلب من وجهين: من عين الجود، ومن بذل المجهود».

(٥) هذا الكلام رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٨١ عن أبي العباس القاسم بن القاسم السياري بلفظ: «المعرفة حياة القلب بالله وحياة القلب مع الله».

قال مؤلفه: نجزت من تسويده في الثالثة من ليلة الأربعاء ثاني محرم الحرام افتتاح سنة ١٢٠١، أرانا الله خيرها، وكفانا ضيرَها. قال ذلك وكتبه أبو الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني، غُفرت ذنوبه وسُترت عيوبه بمنِّه وكرمه ... آمين، حامدًا لله ومصلِّيًا ومسلِّمًا.

فهرس كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

٣٦ - كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا